طبعة ثانية جديدة

فوّاز حدّاد

المترجم الخائن

رواية



الفائزة بالقائمة القصيرة للجائـزة العالمية للرواية العربية "البوكر" 2009

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS



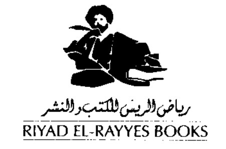
المترجم الخائن



فواز حداد

المترجم الخائن

روايــة



رياض الريس للكتب والنشر
RIYAD EL-RAYYES BOOKS

The Treacherous Translator

by Fawwaz Haddad

(Novel)

First Published in February 2008

BEIRUT - LEBANON
elrayyes@sodetel.net.lb - www.elrayyesbooks.com

ISBN 9953 - 21- 330 - 5

الطبعة الأولى: شباط (فبراير) ٢٠٠٨

لشراء النسخة الإلكترونية:
www.arabicebook.com

تصميم الغلاف: لارا بلعة
(محترف بيروت غرافيكس)

المحتويات



1

في الترجمة:
هذا النمط المستهلك من الرمادي المغبر

انطلق مستعجلاً في الزقاق، دون أن يلقي السلام على جيرانه من أصحاب المحال والدكاكين المجاورة للبناء الذي يقطنه في الدخلة المتفرعة عن شارع العابد، مع أن الوقت، أشد ما يكون ملاءمة ليقول صباح الخير. فهو لا يُمَسّي أو يُصبِّح أو يُسلِّم على أحد ممن يمر بهم. وبالمقابل لا يلقي الجيران بالاً إلى خروجه المتعجل أو دخوله الساهم، كأنما هناك اتفاق بينهما على ألا يبادرهم بالكلام ولا هم يستغربون. أما عندما يستوقفه أحدهم ويسأله شيئاً، فيصغي إليه بصبر ملحوظ، ويمنحه بكل ممنونية وقته الثمين. عندئذ يظهر على حقيقته، شاباً وديعاً في منتهى الدماثة والطيبة.

هكذا يومياً، ينطلق ملهوجاً؛ فهو من النوع الذي يمضي في سبيله لا يلوي على شيء سواء كان في وارد أمر عملي، أو نظري له علاقة

بالأفكار المجردة، مما أوقعه في مآزق كان بغنى عنها. يظن من يراه مسرعاً أنه ذاهب إلى موعد هام، أو لقضاء أمر ضروري لا يحتمل تأجيلاً. فلو صادفناه مثلاً في شارع الصالحية، وغالباً ما يمر من هناك وقت الضحى، مندفعاً في سيره. نُخمن أنه يبتغي أقصر الطرق المؤدية إلى مقصده، لاسيما وهو ينعطف على عجل يميناً ويساراً، متفادياً المارة والسيارات، متجهاً صوب سينما الزهراء، ثم ناحية فندق الشام، يقطع الطريق إلى ناصية دخلة الفردوس. يمضي على رصيف شارع بورسعيد، يخفف من سرعته، يقف عند بائع الصحف والمجلات، يقرأ العناوين العريضة بسرعة، يخشى أن يفوته عنوان، أو يفلت منه خبر، ويعيد قراءتها بتروٍّ وتؤدة، ثم بارتياح كأنه عثر على بغيته. ما الذي سيفعله بعد هذه العجلة؟! لا شيء سوى أنه سيشتري جريدة ويمضي إلى مقهى الهافانا القريب، يجلس وحده، يفتح حقيبته، يخرج الأوراق والأقلام، يحدج المارة بنظرات كسولة، يدخن سيجارتين مع فنجان قهوة سادة، يراقب الصاعدين والنازلين على الجسر تارة، وتارة أخرى يتأمل زبائن محل بيع المرطبات والعصير، والمراجعين لشركة الكهرباء، وقد يستلفت نظره ما يثيره رجال الشرطة من عرقلة وصفير، والسيارات من غبار وزعيق. يفكر في أمور قد لا تعنيه، إنما لمجرد التفكير، إلى أن يتناول الجريدة، ويبدأ بتصفحها.

هذا المشوار هو خط سير حامد سليم منذ أصبح له مثل أكثر المثقفين عادات يومية. مشواره لم يستمر طويلاً، فقد امتنع عن ارتياد المقاهي، لأسباب قادمة في مكانها.

* * *

لا يلفت حامد الانتباه، وإن بدت هيئته محيرة تفتقر إلى التحديد؛

فمن حيث الشكل، لا هو بالسمين أو النحيل، ومن حيث الطول، لا بالطويل ولا القصير. عموماً لا يبدو جذاباً ولا منفراً، ربما لأنه غير وسيم ولا قبيح. شاب عادي تماماً، مربوع القوام، هندامه مقبول، يلبس بنطالاً من المخمل وسترة من الجينز. شعره كثيف، ملامح وجهه بريئة، لا تنم عن شيء مريب، ونظراته عذبة، يشوبها بعض الخمول. إنه ودون مراء، شاب لطيف المعشر وطيب القلب، لا يتأخر عن مساعدة أحد، ولو كان لا يعرفه معرفة وثيقة. يبدو لين العريكة، لكنه عنيد جداً، إذا اعتقد أنه على حق. المشكلة، اعتقاده أكثر الأحايين أنه على حق، وهذا أمر لا يؤمن جانبه، خاصة أنه يعمل في مجال الترجمة، وهو عمل يحتاج إلى الاجتهاد مع المرونة، والتقديم والتأخير، والتراجع عن الخطأ، وربما عن الصواب، يتبدى في العودة إلى القواميس اللغوية، والنبش فيها، والتحايل على نقل الكلمات الأجنبية العامية البذيئة، أو إسقاطها من السياق، والبحث في المعاني والبدائل لكلمات وتعابير لا معاني متاحة لها ولا بدائل ممكنة، عدا تمحيص المترادفات الكثيرة، لانتقاء ما يفي منها بالغرض. عمل يتطلب إعمال العقل، وبمعنى أوضح، التردد.

ولو أتيح لأحد الاطلاع عن قرب على أسلوب عمله في الترجمة، لأدرك مدى ما يواجهه من عقبات صغيرة لكن مرهقة. هذا ليس بعسير، ففي هذا الوقت المتأخر من الليل، يكون منغمساً في عمله، يترجم رواية عاطفية. وبما أن زوجته حردانة مع طفليه في بيت أمها، سيسمح وجوده وحيداً تماماً، بالتعرف على بعض ما يجول في رأسه من خواطر وأفكار تتنازعه. الظرف مواتٍ، لكن صبراً، للمترجمين أحوالهم وأمزجتهم؛ إنه عالق في ترجمة جملة لا تعني أكثر من كلماتها الثلاث:

كانت السماء مدلهمة...

أوحى إليه وصف السماء بالمدلهمة، بالسواد والكثافة معاً، لكنه لم يكن ملائماً، الوصف زائد على الحد. بداية، أحس (عادة يشارك حامد أبطال الرواية أحاسيسهم) بأن السماء الفسيحة جداً، قريبة جداً، تكاد أن تهبط فوق الرؤوس وتطبق على الأنفاس، بمعنى ما خانقة.

هل هناك سماء خانقة؟! ثمة سماء غائمة، داكنة، عاصفة، ملتهبة، وسماوات أخرى لا عدَّ لها ولا حصر. أما الخانقة، فلم يأت حسب علمه على ذكرها أحد، عدا أنها تتناقض مع الاتساع، إلا إذا كان السواد الغالب عليها قاتماً جداً ويغلق جهات السماء الأربع. لو تقيد بالأصل، لكانت السماء ملبدة بالسحب المائلة للسواد قليلاً. الإيهام كان في افتتاح الفصل الرابع بها، والتبست من فرط وضوحها بتفسير بدهي؛ إنذار بخطر مقبل.

أتم قراءة الفصل، وخاب توقعه، لم تعنِ الافتتاحية أكثر من سماء تعكرها بضع غيوم، تشير إلى طقس رمادي، هذا النمط المستهلك من الرمادي المغبر الذي تمتلئ به قصص الضباب والأشباح والأيام الممطرة.

حتى أبسط الكلمات تشاكسه، بين هذا المعنى وذاك الإيحاء، قد يضيع قبل أن يظفر بالتعبير المناسب لما أحس به. من أين يأتيه هذا الخلط بين الأحاسيس... من توخي الصواب، أو العناد؟! القصص الخفيفة تفرز مواقف بليدة وأفكاراً متبلدة، لا تستحق تنبهاً ولا تحيراً، في حين القصص الصلبة لا تقبل السيولة ولا الميوعة. هذه القصة كانت برأيه من النوع الأول، والمعنى المنشود أدنى ما يكون إلى أن

يقع على الأرجح في منطقة قريبة منه، متوارياً في مكان ما في ذهنه. لبث غير مبال، فيما كان يتقدم نحو تلك المنطقة، أو أنها تقترب منه. بلحظة تلاقيا، وجد الكلمة، هتف:

كانت السماء مكفهرة...

الكلمة أفضل، توحي بالعبوس والظلمة غير الحالكة؛ ظلمة ولو كانت كثيفة نوعاً ما، لا تحجب المرئيات تماماً.

أرضاه حسن اختياره؛ الكلمة وافية بالغرض. أعاد قراءة الجملة عدة مرات، ومع كل مرة كانت حماسته لها تخفت. مع أنها بدت مناسبة؛ شتائية يخالطها الدخان، وأيضاً ضباب على الطراز اللندني المشهور، لكنها ثقيلة على النطق وغليظة على السمع. بينما مدلهمة، أخف لفظاً وأوقع على الأذن، وإن كانت لا تعطي المعنى بالضبط. تردد... فلتكن مكفهرة، ولو أنها مخيبة قليلاً، إذ لاحت عادية، لا توحي بما سبقها من أخذ ورد، أو بشيء ضئيل مما خالجه، لكنها معبرة!!

ترى هل يدرك القراء مدى ما يتكبده المترجم من عناء، لقاء الحصول على جملة تافهة كهذه: كانت السماء مكفهرة... ؟! هذه العملية الذهنية، تقدم مثالاً بسيطاً على جهد غير ضئيل، ولا يسترعي الانتباه.

الأنكى، أن عملية الترجمة لم تتوقف، إذ لم يستقر حامد على ما توصل إليه، وتراجع ثانية عما اعتزمه، وامتثل لحساسيته الترجمية ومزاجية ذائقته الأدبية، وثبَّت الجملة كما كانت قبل المجاهدة: كانت السماء مدلهمة!! ولتذهب الدقة إلى الجحيم.

لم يكن المخاض الذهني السابق، المتواضع والمتقلب، سوى غيض من فيض، ولا يوفر صورة شاملة ودقيقة عما يقوم به المترجم حامد سليم من جهود لغوية أوسع ومشاق نفسية، خاصة تلك التي تتطلبها ترجمة الجمل الطويلة المعقدة والمعاني العميقة الشائكة، والتداعيات الباطنية المريرة، لا سيما التناذر اللاشعوري المنتزع من الأغوار السحيقة للعوالم الملتاثة بغرائب الوساوس الجنسية المريضة!! لا لن يدرك القراء مقدار العناء المبذول في التعامل مع الكلمات والمعاني، ولو اطلعوا عليه، لتعجبوا من هؤلاء المتعلمين المتجهمين المغرورين الذين يلبسون النظارات السميكة، وينبرون لقضايا العالم الكبرى، فيما تؤرقهم إشكاليات صغيرة متعبة، عن كلمات غير ذات تأثير كبير، وتأخذ وقتاً وفكراً.

قد تبدو هذه العملية غير ذات قيمة، ما الضرر في أن يكون المعنى أقرب أو أبعد قليلاً، لكاتب أجنبي لا نعرفه ولا يعرفنا؟ القراء معذورون، شتان بين القصص الخيالية وحتى الواقعية، والمشاكل الحقيقية التي تعج بها حياتهم. لكن ما حجة نقاد وصحافيين لا يتجاهلون كدَّ القلم، بل كدَّ الفكر والروح، والأدهى، الإبداع!!

فلنتريث، تلك قصة عانى منها حامد سليم، ودفع ثمنها غالياً.

2

المترجم:
أليس الفن في جوهره عملية ترجمة؟

قبل بضع سنوات، في الشهر الأخير من عام مضطرب، كان العالم مشغولاً بالتهديدات الأميركية للعراق، والمفتشون الدوليون يبحثون عن أسلحة الدمار الشامل في المخابئ والمصانع والمدارس والقصور الرئاسية العراقية. كان هناك أيضاً مطر وسيول وثلوج عمت الكثير من البلاد. ومع أن أحوال العالم لا علاقة وثيقة لها بقصتنا، لا بأس من إيرادها، حتى لا يظن أحد أن أحداث روايتنا تجري بمعزل عن جرائم السياسة الدولية وضحاياها، وتقلبات الطقس العالمية وكوارثه.

في زاويته الأسبوعية، تحت عنوان «نصائح أدبية» انتقد الصحافي المعروف شريف حسني المترجم الناشئ غير المعروف حامد سليم، واتهمه بمسخ أعمال روائية قام بنقلها من الإنكليزية إلى العربية،

وكانت لا تزيد على روايتين وعدة مقالات أدبية. الاتهام شابه اللؤم، وإن بدا رصيناً، واصفاً إياها بأنها نقل رديء وغث يمليه الهوى والشطارات الاستعراضية البديعية إلى حد الشطط المريب. أما النصائح، فكانت نصيحة وحيدة موجهة إلى جهات رقابية في وزارة الإعلام واتحاد الكتاب العرب، مقترحاً إخضاع المترجم إلى دورة تعلمه ألف باء الترجمة. واختتم مقالته بسخرية، مطالباً الجهات المذكورة بكف يده عن العمل، ومذكراً بأن الرقابة تطول عدم الكفاءة الأدبية أيضاً، ولا تقتصر على الثالوث المحرم الشهير، الدين والجنس والسياسة.

أصدر الصحافي حكمه القاسي بلا رحمة، وكانت نقطة الضعف التي شابت اتهاماته؛ جهله باللغة الإنكليزية، وبالتالي عدم قدرته على البت في صلاحية النقل إلى العربية. ومع هذا، عاود الصحافي الكرة بعد أسبوع، كأنما توفرت لديه معلومات جديدة، أو أن غليله لم يشف بعد، وخصص له موضوع زاويته التالية تحت عنوان «المترجم الخائن»، لم يمنحه شرف هذه التهمة المشهورة المتعارف عليها، بل ألحق بها انتقادات تُفقد الخيانة الأدبية إشكاليتها المحببة غير المستهجنة، ووصف صاحبها بالانتهازي الصفيق، مجدداً اتهاماته السابقة، ومضيفاً إليها، التلاعب بمغزى الروايات، وتقويل شخصياتها أفكاراً غير واردة في النص الأصلي. ولم يوفره من عقاب لوَّح به منهياً مقالته بعبارة تحريضية لاذعة: لو أن لدينا شرطة أدب، لكانت عقوبته تكسير أصابعه.

□ □ □

بالفعل، كان أسلوب المترجم حامد سليم مختلفاً عن غيره، لا يراعي فيه النقل الحرفي. وحسب قوله، لم يكن موسوساً بالأمانة،

كان يعتني بروح النص. من جهته، لم يدافع عن أسلوبه بحجة متداولة ومتفق عليها، تخفف من وطأة الحرفية الصارمة إلى ما تعارف عليه المراجعون المتساهلون بأنه: الأقرب إلى الدقة.

بموجب التقاليد الصحافية، طلب حامد حق الرد على صفحات الجريدة نفسها. استجابوا له لكن مقالته لم تظهر، سأل عنها بعد أيام، قالوا ضاعت. لم يسأل ثانية، يعرف أن رده سيضيع عشرات المرات ولن يجد طريقه إلى النشر، فلجأ إلى الصحيفة الثانية. قبلوا بشرط عدم ذكر أسماء، لأن الصحافي معروف ومن جريدة رسمية شقيقة، وإن كانت منافسة، ولا مبرر لإشعال معركة، ما دام الإزعاج يكفي.

ظهرت مقالته، متقيدة بالشروط، تُلمِّح إلى صحافي مجهول، سماه: أحدهم؛ أشار إليه في عدة مواضع على النحو التالي: تنطح أحدهم... فكتب... وادعى... وزعم... وتطاول...الخ؛ مطلقاً العنان لقلمه في الاستهزاء به، مستهيناً بمكانته المرموقة، كاشفاً عن أُمية خصمه باللغة الإنكليزية؛ وكان قد حصل على معلومات تؤكد جهل الصحافي جهلاً مطبقاً باللغات الأجنبية. فلقَّبه بالمتطفل الدعي الذي فهم ترجماته على قدر عقله وهزال ثقافته، دون بذل أي جهد لاستيعاب ابتكاراته إلا ضمن نطاق مفاهيم ضيقة وضحلة للغاية، كأن أقصى ما يمكن أن يسهم به المترجم لا يتعدى الترجمة (كلمة) بـ (كلمة). بينما الترجمة الحقة، تستوعب العمل الأصلي، وتضفي عليه لمسات تجميلية، تمليها «خصائص لغتنا الجميلة».

الملاحظة السابقة ذُكرت هكذا بإيجاز في المقالة، وهي تُعبر عن بعض آراء حامد في الترجمة التي يلمح بها مواربة بين الزملاء في المقهى، وغالباً ما يتخفى عليها ويجد عسراً في الإفصاح عنها، لأنها

لا محالة ستبعث على التساؤل من فرط غرابتها، لأن ما يعنيه باللمسات التجميلية، وباقتضاب: شاعرية للمواقف العاطفية، تشويقية للحظات الفاصلة، شحنة من الحزن يخص بها شخصيات حساسة وقلقة، حمولة معقولة من البهجة يُؤثر بها شخصيات منطلقة ومرحة؛ حسب قوله: تحتاج عيارات كهذه، ليتلمس القارئ أفراحها وأتراحها!!

أتاحت له المقالة في معرض دفاعه عن أسلوبه هذا، فرصة التهجم على الترجمة كما تطلبها الصحافي المغرور. وأصدر حكمه عليها: سمجة جافة وغير رشيقة، لا تمس نص المؤلف بخير أو شر خشية الزلل، والوقوف إزاءه مكتوف اليدين مطأطئاً برأسه احتراماً له وكأنه نص منزل من السماء؛ تلك حدود عمل المترجم، لا ينبغي تجاوزها!! ما الذي سنحصل عليه؟! نص بارد بلا حرارة ولا طعم. أما ذلك القدر المعقول من التدخل الذي يساعد على تقريب العمل المترجم لجمهور القراء، وهو قدر مسموح به يسبغ حلة قشيبة على الترجمة، فمرفوض، رغم أنه الفيصل، لا على إحاطة الناقل بأسرار اللغتين الإنكليزية والعربية، بل الغوص في أعماق العمل نفسه. لكن ما نفع الكلام وقدرة الصحافي على التنظير بهذا المستوى الضحل والسوية المتدنية! إن تجاوز ما هو غير متفق عليه فعلاً، مع اختلافه من مترجم لآخر، إبداع لا ينكر، وليس جريمة لا تغتفر. تلك حقوق الترجمة لا ينبغي التنازل عنها، حتى في حال عدم استساغة عامة القراء لها، ما الضرر في أن تكون حصراً على الخاصة والمثقفين المولعين بالأدب؟ علماً أن القضية بالنسبة للصحافي، لا تعدو قطعاً سوى التمييز بين مترجم مرضي عنه، وآخر غير مرضي عنه.

انتهت المناوشة سريعاً، وكانت دليلاً على أنها مثل غيرها من

المناوشات الأدبية العقيمة، لغط بلا مردود، مضت دون أن تخلف أثراً في الشلل الأدبية، لأن المقصود بـ(أحدهم) لم يرد على المقالة، والقراء لم يجدوا صلة بين الجاهل (أحدهم) والفطن شريف حسني. لكنها أخلفت جرحاً لم يندمل لدى صحافي مرموق مُسَّت مكانته، وأحس بالإهانة دون أن يتجرأ على الرد، لئلا يعطي على حد زعمه، لمترجم تافه لا أهمية له، أهمية لا يستحقها. وبات يتحين الفرصة للانقضاض عليه.

□ □ □

على الرغم من إقفال المعركة، أثارت الانتقادات استغراب حامد سليم، وحركت لديه أسئلة شخصية: لماذا ترغمني ملكتي في الترجمة على التدخل في أسلوب الرواية؟ ما الدافع؟ هل يعقل أن أحداً لم يخطر له التساؤل عما أتجشمه من مشقة في إجراء تحسينات وتعديلات أبذل فيها قريحتي وثقافتي؟ أسئلة حاصرته، بلا إجابات شافية، أو إجابات لا تعدو أكثر من ربع أو نصف إجابة، وقد تكون خارج السؤال والموضوع. وكانت إجاباته التي اتخذت شكل تساؤلات محيرة تشهد على ذلك:

أليس الفن برمته، من الشعر إلى السينما، انعكاساً لحياتنا وأحلامنا ورغباتنا، بالكلمة والصورة، واللون والخط والنغمة؟ ألم يكن الإبداع على مر العصور نقلاً لصور الحياة المعاشة والملموسة إلى صور أخرى مقروءة ومسموعة ومرئية، نقلاً يختص فيه كل فن بأدواته؟ بمعنى أشمل، أليس الفن في جوهره عملية ترجمة، يكفي أن ندرك مفرداتها المكافئة والمعادلة، لنتعرف على آلياتها الكاشفة عن الذات والحياة والكون؟!

إن عمله مترجماً ينقل من لغة إلى لغة، ما هو إلا انتقال متواصل من وسط لغوي أجنبي إلى وسط محلي مختلف؛ وبهذا سواء عن قصد أو غير قصد، يضيف إلى مهمته عبئاً آخر، يحمل من خلاله أفكاراً وأساليب عيش من بيئة إلى بيئة مغايرة، ومن مجتمع إلى مجتمع، تقطع فيها مسافات شاسعة، لا تشكل القارات والمحيطات سوى جانبها السطحي، الأقل شأناً. أما جانبها الخفي، الأخطر شأناً، فالمزيد من التباعد الحاصل بين الشعوب. فبدلاً من أن تكون اللغة وسيلة اتصال، تصبح وسيلة التباس. في النص الأصلي، يكتب الكاتب بلغته إلى قارئ من عالمه، ومن الطبيعي ألا يدخل في حسبانه قارئاً مجهولاً معرفته به محدودة جداً، ولا يُستبعد على الإطلاق، أن ينجم عن عملية التواصل هذه، عكسها، لما يشوبها من تفاوت وتباين، بما تثيره لديه من حيرة وتكهنات واحتمالات!!

بينما القارئ نفسه المجهول بالنسبة إلى المؤلف، معروف بالنسبة إلى المترجم، وعلى هذا من أول واجبات المترجم السعي إلى ردم الهوة بينهما، بعقد تفاهمات بين محيطين ولغتين، بممارسة تأثيراته على العمل الأصلي بترجمة لا يعيبها أن تكون معرضة للقولبة من جديد على نحو مختلف لكن ملائم، فلا تنجو من الخطأ البسيط المتعمد، وما قد يبدو سهواً، بينما هو تحيز في الفهم، لا يخلو من قسر، بغية تقريبه للقارئ، وبلا شك ستحصد نتائج حميدة على المدى البعيد.

استدعى هذا الدفاع المستميت، في ذهنه شبهات (في حقيقتها أكثر من شبهات)، كانت دون ريب محاولة لإمرار أفكاره من خلال عمل منجز، وإيجاد متنفس لخواطر وجدانية ورغبات إبداعية، وربما تحرير نزعة دفينة في أعماقه تذهب به إلى التماهي مع الآخرين، والتواري خلفهم، أو هي إرهاصات بشيء ما، تأتيه على شكل

انبثاقات منبهة ومحفزة، واعية أو غير واعية، لكن من سيأخذ بالاعتبار دوافع محض ذاتية؟

على هذا النحو، دافع حامد عن أسلوبه وطرح أسئلته وأجاب عنها. عموماً، مهما كانت، لم ترضه فعلاً، ولم تصبه بأرق ولا بقلق. كانت الفكرة الشائعة، طرح الأسئلة هو المهم، لا الإجابة عنها. ثم إنها وبمجملها، مغامرة لا تتعدى الورق، ينساق إليها بدافع تأثره البالغ بما يترجمه؛ عندما يتجاوز التحريض طاقته على الاحتمال، ثمة على حد قوله، ما يتكون داخله ويجعله يتفاعل مع الأحداث والأفكار والشخصيات، فينحرف عن المعنى المقصود، إلى معنى إضافي قد لا يعزز المعنى الأصلي، ويتعارض معه.

هذه الحالة لم تتوقف عند هذا الحد بل تفاقمت، وبلغت به الجرأة بعد حين، وهنا تبدأ القصة التي أشرنا إليها، عندما ترجم رواية صادرة حديثاً، لروائي أفريقي يكتب بالإنكليزية. لم ترق لحامد الخاتمة السلبية التي يقرر فيها الجامعي الأسود بعدما أنهى دراسته في جامعة بريطانية البقاء في العاصمة الإنكليزية والعيش في ربوع الحضارة الغربية مع حبيبته البيضاء، ولم يثقل ضميره أن كفاءاته تستدعي عودته إلى بلاده الذي تركها ترزح في بؤسها!! فما كان من حامد من فرط إعجابه بالرواية، وامتعاضه من النهاية، إلا أن غيَّر الخاتمة، كي لا يفرط برواية رائعة، فأصبحت إيجابية: يعود البطل الجامعي الأسود إلى بلاده السوداء تاركاً في لندن حبيبته البيضاء.

ولولا التوفيق الذي حالف الروائي الأفريقي مؤلف الرواية بالفوز بجائزة بوكر البريطانية، لما انتبه أحد إلى الخاتمة المعدلة.

ما أدى إلى وقوع الواقعة.



3

الصحافي:
إذا كان للأدب نصيب، فللأحقاد أنصبة

كان ذلك عندما قام محرر الصفحات الثقافية في مجلة منوعات أسبوعية، يَعِنُّ له في بعض الأحيان متابعة الإصدارات الروائية الجديدة في العالم، بنقل خبر عن الرواية الفائزة مع ملخص واف بأحداثها، واستعرض بإفاضة ما سبقها من مداولات، ثم قرار لجنة التحكيم، لا سيما تقريظها للخاتمة الجريئة الموفقة.

عقَّبَ المحرر بتساؤل ساخر: منذ متى كانت دور النشر تُسَوِّقُ لكل لغة خاتمة روائية ترضي مشاعر الناطقين بها؟ وأشار إلى التباين الجلي بين الخاتمتين الإنكليزية والعربية. وعلق بخبث: هل يسعى النظام العالمي الجديد إلى إرساء تقاليد أدبية جديدة في الترجمة تعمل على التمييز الأدبي بين عالمين على غرار التمييز العنصري، بحجة أزمة القراءة والنشر؛ بُدئ بتطبيقها في المنطقة العربية بالاتفاق مع دور

النشر الغربية، آخذة في الحساب درجات القصور الثقافي لبلدان ما يدعى بعالم الجنوب النامي، تستفز من خلالها طاقات شعوبها وتحرضها على التقدم، باختيار ما يلائمها من أحداث وحبكات، وما يرضيها من نهايات جديرة بأبطال مقدامين؟

لم يلتفت الصحافي شريف حسني إلى التعليق الخبيث للكاتب، ما الذي يهمه من النظام العالمي الجديد وقصور البلدان الناطقة بالعربية، أو التقاليد الأدبية العتيدة والتحريض على التقدم وأزمة القراءة والنشر؟ كان الخبر الموثق الذي جاءه دون عناء، فرصة طالما تحينها، اقتطع منها، التباين الصارخ بين المغزى الانهزامي للأصل الإنكليزي والمغزى الكفاحي للنسخة العربية، وكانت كافية لفضح المترجم الخائن وضبطه بالجرم المشهود مرتكباً جريمة تفوق تشويه الروايات إلى تبديلها بأخرى، بل أكثر مما يأمل به، لإدارة حملة شعواء وعادلة ضد مخربي الأعمال الأدبية ومزوريها.

لو أن حامد سليم تنبأ بما يمكن أن يجره على نفسه من متاعب لما استخف منذ أشهر خلت، بالصحافي المرموق، ولكان كما يقول العوام بفصاحة: بلع الموسى على الحدين. ولم يحاول رد الاعتبار لترجماته بمقال لم يفهم القراء المقصود منه. أدرك هذا بعد فوات الأوان، أو بعدما سبق السيف العذل، كما يقول المثل العربي المشهور.

من سوء طالعه، كان الوسط الأدبي يمرّ بفترة هدوء نسبي مملة، قلَّ فيها نصيب النمائم والمكائد، فإذا بفضيحة مطنطنة تهب في وقتها، وصحافي متمرس ينفخ فيها، حسب مقاييس صارمة، كانت في منتهى الغيرة الأكاديمية، هدفها الأول والأخير بهدلة المترجم شر بهدلة. هذه المرة، لم يرض بتكسير أصابعه الخمس، بل طالب

بتكسير رأسه وإيداعه إحدى المصحات الأدبية، لتعالجه من لوثات التحريف. تبعه صحافي متطرف من أعوانه، طالب بسن قانون صارم للترجمة يعاقب من يعبث به بأشد العقوبات. وكان، لمشاركة محسن علي حسن الكاتب المشهور، والذي سيرد ذكره في فصول قادمة، ثقل نوعي وصدقية أكيدة، أضعفت موقف حامد سليم وشدت من عزم ناقديه.

استنهضت الحملة أيضاً، همة صحافيين صغار يتدربون ليصحبوا شعراء المستقبل وروائييه، وجدوها فرصة سانحة لتمرين يؤهلهم لولوج ميدان النقد، فتفاصحوا على حساب قضية لامعة، واضحة لا تقبل الخطأ، وأبرزوا وقاحتهم وبذاءتهم في الدفاع عن قيم لا يجوز المساس بها، ولم يدعوا هذه المجزرة الصغيرة تمر، قبل تضخيمها إلى مسلخ، يسهمون فيه بذبح حلال، بتسجيل موقف ثقافي نبيل ومجلجل، فشهروا به تشهيراً مقذعاً، دفاعاً عن حرمة الأدب، وطالبوا بمحاسبة كل من تسول له نفسه الإقدام على هكذا تخريب.

□ □ □

جميع الذين شاركوا في الحملة، ومعهم المترجم الذي وقعت عواقبها على رأسه، اعتقدوا أن شريف حسني أثارها بدافع رفيع ومنزه، حفاظاً على الأدب العالمي من التزوير، ولم يعرفوا، أنه إذا كان للأدب نصيب، فللأحقاد أنصبة، والصحافي لم يستخدم الأدب سوى وسيلة للتشهير بالمترجم الغافل.

السبب سيبدو تافهاً، لكنه ليس تافهاً بالنسبة لصحافي بقامة شريف حسني. وإذا أردنا التعرف على شخصيته فسوف نلمس مدى علو

كعبه وارتفاع شأنه، فهو كما يُستخلص من أكوام الشذرات الإنسانية المبثوثة في مقالاته وأحاديثه: رجل أمين على مبادئه وأفكاره، يعرف ما له وما عليه، ينتقد بمناسبة وبغير مناسبة؛ الكذب والنفاق والرياء، وكل ما يندرج فوقها وتحتها من سفالات بشرية. ولدواعي الاستقامة فحسب، يجد عنتاً في التفاهم مع البشر، ولا عجب، أصحاب النفوس الخيرة حساسون، ينفرون من الزيف والبشاعة؛ هو مثلهم، ويزيدهم، لا يقبل عوجاً، ولا يسكت أو يتهاون إزاء خلل مهما كان نافلاً، ينافح ضد الخطأ ويسعى لإصلاحه، ولا غرو؛ طبيعته المقاتلة تؤهله لاقتحام المناطق الشائكة، ولهذا اختار مهنة البحث عن المتاعب.

ما يستلفت الانتباه، هجاؤه السليط الذي يشنه على الأدباء، وليس ثمة سر، فهو يتمتع بمواهب أدبية لا تقل عنهم؛ وكما يقول، يقفون على أرضية واحدة، لا يتميزون عنه بشيء، ولا يخدعه سحر هالات اصطنعوها، أو يغرر به ما ضربوه حولهم من أسوار وهمية. كان من طينتهم، شاعراً وقصاصاً وناقداً. أي ما يجوز على غيره من ألاعيب أدبية لا يجوز عليه، فقد كتب الشعر في سن مبكرة، أعجب به أستاذه في الإعدادية وشجعه على النشر، أرسل قصائده من قريته إلى الجرائد اليومية الثلاث في العاصمة، واستقبل استقبالاً حاراً في بريد القراء. خلال دراسته الجامعية، لم يستلبه بريق الشعر مع أنه نجح فيه، لاحظ أن عدد الشعراء يفوق عدد القراء، فقاطع الإلهام وأقلع عن كتابة الشعر، وانصرف إلى كتابة القصة القصيرة. كانت القصة بنفَسِها القصير تجاري سرعة العصر المحمومة، وتُعنى بهموم الشعب، فأصبح المستقبل وهموم الكادحين على رأس همومه الشخصية. برع في القصة القصيرة، وألقى بعضاً منها في المراكز الثقافية للقطر، وفاز بعدة جوائز تشجيعية على مستوى المحافظات،

إلى أن اشتغل في جريدة يومية ونشط فيها، مكرساً وقته للصحافة نهائياً، غير أنه سيهتبل الفرصة، ويجمع قصائده وقصصه المبعثرة في الجرائد والمجلات ويصدر كلاًّ منها في كتاب، ويصبح عضواً في اتحاد الكتاب، بعد ذلك طلق القصة أيضاً إلى الأبد.

جرى هذا الانتقال، أو التبادل الأخير بين القصة والصحافة حينما أفلست القصص، كانت لا تطعم خبزاً ولا تجدي؛ طبقاً لنظرية تحض على النهج العملي: الفعل هو المطلوب، لا تزجية الفراغ بقصص الأبطال الخياليين، مع أن قصصه كانت هادفة تكشف خفايا العلاقات في المجتمع البرجوازي المديني المتعفن، بمقارنته بالعلاقات الريفية البسيطة الحميمة والدافئة: الضيعة، البيوت الطينية، ليالي الحصاد، الطبيعة الخلابة، الحيوانات الأليفة؛ وبالمقابل تهجو المدينة الفاسدة، المفسدة لبراءة وعذرية القادمين من السهول الخضراء والمرتفعات الشماء، بأسلوب واقعي خشن، فلا توفر بطولة جنسية لم يقم بها الشبان الطيبون مع الزوجات الشهوانيات للتجار الأغنياء الباردين جنسياً المشغولين عن زوجاتهم البيضاوات اللحيمات بمشاريعهم ودكاكينهم والبيع والشراء وحساب غلة آخر اليوم. هجا هذه العلاقات وفضح ما يختفي وراءها من تفكك وانحدار، من خلال لمسات قصصية حاذقة؛ فمثلاً بعد أن تقضي المرأة وطرها من الشاب القروي الفحل، لا تتركه بل تتردد عليه وتسترضيه بتنظيف غرفته، وتطبخ له المأكولات الشهية وتغسل ملابسه القذرة، ثم تحاول رشوته بالمال، فتشتري له الهدايا، وتدفع أجرة مسكنه. لكنه يهجرها، كبرياؤه وعزة نفسه تمنعانه من البقاء أسيراً لشهواته الجسدية وتطلعاته المدينية. تتوسله البقاء معها، فلا يزيده خنوعها إلا اشمئزازاً منها، وفي الختام يدفعها عنه بأنفة وكبرياء، ولا ينصاع لها على الرغم من مفاتنها وثراء زوجها. كانت هذه الخاتمة أو ما

يماثلها، تستدعي خاتمة أخرى؛ يرضى الشاب بالعيش على الكفاف، كسرة خبز وبصلة، ريثما يعمل في مصنع، أو يعود إلى قريته ليستصلح أرضه موفور الكرامة وشامخ الرأس.

من هذه الثيمة المركزية الأخلاقية، متحت قصصه موضوعاتها، وعلى هذا النمط العصامي سارعت تشق طريقها في خانة الأدب الواقعي المناضل. لم يكتف بهذه التعرية الصادمة، بل أضاف إليها موضوعات جديدة تهيب بالأجيال الطالعة من الأرياف الفقيرة الإسهام ببناء المستقبل العظيم، وكان غيره قد سبقه إلى كتابتها مراراً وتكراراً. وكانت فائدتها الوحيدة، رفع معنويات القادمين على عجل ليجدوا مكاناً لهم في إدارات الدولة ومؤسساتها وجيشها كي لا يحسوا بالصغار إزاء مدينة أوصدت أبوابها في وجوههم لسبب وحيد سيعرفونه لاحقاً، ما هو؟ كان هناك من ارتحل إليها إبان الصعود الثوري وعاث فساداً فيها، فأطبقت مغاليق روحها في وجوههم. وهذا ما حصل للصحافي الذي لم يكن مرموقاً بعد، استمدها من تجربته، كانت طموحاته التي راودته وحملها معه إلى المدينة قد انقلبت إلى ضغائن، إذ لم يظفر من الفتيات الجميلات اللواتي أسلن لعاب خيالاته وفتقن أشجانه أثناء تسكعه في شارعي الصالحية والحمراء إلا بنظرات اللامبالاة، وأحياناً الازدراء.

اختط طريقه في الصحافة آخذاً على عاتقه برامج النقد الاجتماعي المباشر دون توريات وظلال وحذلقات قصصية مثيرة، واقتحم مجال المقالات السياسية الوطنية، فلم تخل مناسبة قومية أو حدث هام من مساهمة له، من عيد الجلاء إلى عيد الأضحى، ومن ثورة الثامن من آذار إلى انتخابات مجلس الشعب، فامتدح القيادة التاريخية الحكيمة والاستراتيجية الذكية بعيدة المدى، والرؤية الثاقبة للصراع العربي

الإسرائيلي. وبين الآونة والأخرى، ينقد فيلماً سينمائياً أو عرضاً مسرحياً أو معرضاً تشكيلياً، وربما رواية أو مسرحية، أي كل ما يصادفه في طريقه، ولا يبخل على الشعراء بتوجيهاته، والأطفال بأمثولاته، وربات البيوت بإرشاداته، بأسلوب تعليمي متعالم جاد وحكيم، فلم يعد أحد يدري إن كان كاتباً سياسياً، أم معلماً أخلاقياً، أو ناقداً أدبياً ودرامياً وتشكيلياً.

بسبب تعدد مواهبه، أو كثرة نشاطاته، انتزع إعجاب الجميع، واحترمه مديرو البرامج التلفزيونية ومعدّو الندوات، والقائمون على الصفحات الأدبية والاجتماعية والشبابية والرياضية والفنية والترفيهية، وكان جلهم حديثي مناصب. وبالمقابل كان غيرياً، لم يحتكر حصيلة اطلاعاته الواسعة الغنية بالمعلومات والإحصائيات، بل تبرع بها للجمهور، وبرهن على فاعليتها باستخدامها في حقول شتى ومتباينة، مما كان يرد على الساحة الإعلامية من قضايا وقضايا خلافية، فكان لديه رأي جاهز في الحرب وشروط السلام العادل والتطبيع إلى تنظيم العمل في المؤسسات الاستهلاكية وأكشاك بيع الخبز وصيانة باصات النقل الداخلي ومكافحة التهريب ومباريات كرة القدم، رأيٌ جامع مانع لا يقبل بأنصاف الحلول، قاطع في طروحاته، لا يساوم عليه ولا يهادن فيه.

إذاً، ما الذي يثيره في هذه القضية الصغيرة، ترجمة رواية، ومن قبلها، الترجمات المشكوك فيها لحامد سليم؟! رجل مثله لا يقرب هذه القضايا النافلة بعد أن وصل إلى ما وصل إليه من مكانة. لكن الظروف اضطرته، وهذه الظروف لها علاقة بشخصيته وشهرته التي تتحكم بتصرفاته وتضبط تحركاته، وتدفعه للحفاظ على مركزه المعنوي. كان رجل الساعة، وأحياناً رجل الدقيقة، ودائماً في مظهر

لائق، لافت للأنظار. وبالمقارنة به لم يكن مظهر حامد سليم لائقاً ولا يستلفت الأنظار. إذاً، لماذا أولى الصحافي هذا القدر الكبير من الاهتمام لمترجم لا يستحق الاهتمام؟!

بداية، يجد شريف حسني في شخصه تميزاً يستحق التقدير، فيعتني بحركاته وإيماءاته ويرسمها بعناية فائقة، دون إهمال حتى الحركات العادية، ويحيلها إلى وضعيات ذات سمة خاصة به، مثل ماركة مسجلة تحمل بصمته، وأحياناً تكون فريدة؛ أشبه بنسخة طبق الأصل لعباقرة أفذاذ، تتبدى في طريقة جلوسه بإنجعاص على الكرسي، أسلوب مصافحته الرخوة، وقوفه عند النافذة وتأمله غيمة في الأفق، رغم عدم وجود غيمة في الأفق أو حتى في السماء، إشعاله السيجارة ونفثه الدخان، اتخاذه وضعية التفكير والشرود، أو تحديقه بعمق في وجه محدثه، مما يوحي بأنه يسبر غوره، فينسى نفسه على هذه الحالة، أو يغمض عينيه ويهز رأسه بعصبية، يستند بساعديه إلى الطاولة، متهدل الكتفين، منكوش الشعر، ينوء بهموم محلية مستعصية، أو عالمية أكثر استعصاء، إن لم تكن كونية على مستوى المجرات. هذه وغيرها تدخل في روع زواره إحساساً بالرهبة والارتباك. أما قراؤه فمن خلال كتاباته وحدها، كانوا واثقين من أبويته أو أخويته السمحة وكرمه الفكري وتوجيهاته الإنسانية التي مثلت بالنسبة إليهم دفاعاً عن حقوقهم كمواطنين، وأحياناً كمستهلكين للخضروات والفواكه المروية بمياه المجاري القذرة والمرشوشة بالمبيدات السامة، واللحوم المستوردة الفاسدة، والتمثيليات الرديئة، والحُفر والمطبات والتحرشات الهاتفية، وأخيراً المواقع الإباحية والتكاليف الباهظة للهاتف المحمول أو الجوال، المعروف بالموبايل والسيللور. وبلغ الإعجاب بقرائه المواطبين، أنهم اقتطعوا مقالاته مع صورته من الجريدة، واحتفظوا بها في جيوبهم الأقرب إلى القلب.

ولا نغالي إذا قلنا بأنه يتقصد في كل لفتة وإيماءة وكلمة أن تشهد له بالاختلاف والتميز. إنه إنسان غير عادي. وبلا مراء، لو دخل مصور تلفزيوني، على حين غرة، فسوف يجده مستعداً للتصوير على الفور، والتحدث على الهواء مباشرة في أي موضوع، لا على التعيين.

□ □ □

تعرّف المترجم الغرير إلى الصحافي المتمرس منذ سنوات عندما زاره في مكتبه، حاملاً معه مقاله الأول، دراسة عن الروائي الأميركي «وليم فولكنر»، وهي حادثة على ضآلتها، علقت تفاصيلها المهينة الصغيرة بقوة في ذهن الصحافي. المترجم لم ينسها لكنه لا يتذكرها بحذافيرها، كان في ذلك الوقت خجولاً وجهه يحمر فتفوته الكثير من التفاصيل، لكنه لم ينس الشابة التي دخلت المكتب بعده بقليل، وهي صحافية تحت التمرين، غير خجولة ولا متزنة، تحمل تحقيقاً عن المعالم الأثرية في حمص.

كان الوضع مثالياً، أن يقصده شابان مبتدئان، سيلتمسان منه بعد دقائق نشر مقاليهما. فعلياً، لن يصلا إلى غرضهما، ولن يظفرا منه سوى بتوجيهات؛ سيرجوانه، فيعدهما، ينسى ولا يفي بوعده؛ أمامهما مشوار طويل. طبعاً قبل التوجيهات، لا بد أن يستعرض جماليات تقصعاته وصفناته بأوضاعها المتنوعة. وكان الموقف مواتياً، المترجم الشاب مذعور تماماً، والصحافية الشابة عصبية قليلاً. وكانت الفرصة واعدة أيضاً، سيضم هذه الشابة إلى قائمة المعجبات به، ويتحفها بنوادره الطريفة وغزله الرشيق، يدعوها إلى فنجان قهوة خارج المكتب، ثم إلى كافيتريا، تتأخر فيوصلها إلى بيتها بسيارته عبر دروب ضيقة، ملتوية ومعتمة، مدرب عليها، كان يعرف

المسالك الخلفية لكل منطقة من المزة ودمر وقدسيا إلى صحنايا وجرمانا والزاهرة، يتعمد أن يخطئ الطريق، ثم أثناء تخبطه في الظلام، يجيل بصره في الليل السرمدي، ويلقي على مسامعها كلاماً أشبه بالشعر عن الموسيقى والجسد الطليق والحب المتحرر من التقاليد والآباء والأمهات. بغتة يختطف قبلة من خدها، ويتابع حديثه، يرقب بطرف عينه ردة فعلها، إذا كانت جرأتها على مستوى طموحاتها، فسوف تقوم بمبادرة ما، لا يهم إن كانت متواضعة، قبلة، أو كبيرة، تلقي بجسدها بين أحضانه. أما إذا كانت ردة فعلها صغيرة؛ نظرة وله خجلى، فعلى عاتقه يقع عبء تطويرها إلى عناق ساحر وطويل. على أثر المشوار، يفتح الصحافي المعلم للصحافية التلميذة آفاقاً في الصحافة. بعدئذ، هي وشطارتها، تشق طريقها إلى عالم العلاقات العامة أو الإعلام العريض، أو تتساقط على الدرب وتتزوج صحافياً مبتدئاً، وربما محرراً أو مصححاً، تربي أولادها على وقع مشاكل القراء والمستمعين، وتكتشف حقوق المرأة بين المطبخ وغرفة النوم، وتتسلى بشغل فراغ أمسياتها بانتقاد التغطية الإعلامية المطولة للتظاهرات السلمية لمناصري البيئة، والمتحيزة السريعة ضد الاشتباكات المسلحة الأشد ضراوة؛ وتصبح لها عاداتها اليومية تمارسها بحسد وضغينة: شتم مذيعات يُجرين مقابلات سياسية دون أن يفقهن شيئاً في السياسة.

ولئلا نذهب بعيداً في مغمراته الغرامية، لنعد إلى استعراضه أمام المترجم والصحافية. ما كان بحكم السوابق والمران دانياً، تعطل، ولم يكن قد تخطى المقدمة بعد. كان من أبجديات استعراضه أن ينتقد باستهانة حدثاً ما راهناً، لا يغفل شيئاً من الاقتصاد الحرّ إلى الموت الرحيم. غالباً ينقَضّ على جلسات مجلس الشعب ويمزقها إرباً، لكن لم تحضره حادثة مهمة أو سخيفة واحدة تستحق

السخرية، رغم أن التشكيل الوزاري الأخير لم يعجبه. من مساوئ المصادفات، أن مقال المترجم كان منطرحاً أمامه على الطاولة، ومن محاسنها أنه يدور حول الأدب العالمي، موضوعه المفضل الذي يهوى الخوض فيه، مما يبعده عن المحلية الضيقة الراكدة إلى آفاق عالمية رحبة، مع أنه كان دائماً ينافح بثقة عن الأصالة المحلية بمقولته المعروفة؛ نحن لسنا أقل شأناً من الغرب بل أفضل. وجد في «وليم فولكنر» ضالته المنشودة، فانتقده دون مقدمات وباستخفاف: لا يستحق جائزة نوبل للأدب، كتاباته عن الحب رومانسية، والحروب سطحية، والبحار والغابات والمرتفعات سياحية، تصلح مقالات وتقارير أكثر منها قصصاً وروايات، لم يفلح في الصحافة، لو كان صحافياً جيداً لأصبح كاتباً ممتازاً.

الواضح أنه أخطأ بين وليم فولكنر وأرنست همنغواي، حاول المترجم الخجول تصحيح معلوماته، فباء بالخذلان، نهره الصحافي وأسكته، وشدد على أقواله السابقة وأضاف بعض المعلومات مبرهناً على صحتها، وأمسى فولكنر حسب معلوماته مشاركاً في الحرب الأهلية الإسبانية بصفة مراسل حربي، ومتسكعاً شهيراً في باريس العشرينيات، ومدمناً على مشاهدة مباريات مصارعة الثيران، وهاوياً لصيد الحيوانات المتوحشة في مجاهل أفريقيا، وامتلك بيتاً في كوبا، ثم انتحر بإطلاق رصاصة في حلقه. البارحة، بالمصادفة، أنهى قراءة روايته «وداع للسلاح» ولم يتغير رأيه فيه.

اعتقد الصحافي بإيراده المعلومة الأخيرة أنه وضع حداً للمترجم السهيان. وانبرى نحوه يريد تعنيفه، فرآه معقود اللسان من الدهشة، فرشق الصحافية الشابة بابتسامة متواطئة، لم تبادله بواحدة مثلها، وعلى غير المتوقع كانت الصغيرة وقحة، تدخلت بصفاقة وانضمت

إلى صف المترجم، وأكدت أن الرواية من تأليف همنغواي لا فولكنر الذي لا علاقة له بالحرب الأهلية الإسبانية وباريس العشرينيات والثيران والحيوانات غير الأليفة، كما أنه لم ينتحر.

ضربه اسم همنغواي على صدغه، تذكره على الفور وصحا على خطئه، كان مجرد سهو. حدق إلى الصحافية علّها تتراجع، أو تخفف من حدتها، كانت متحفزة للمزيد من النقاش، لم تسمح له صلافتها بالاعتراف بهفوته، فقال بشراسة، وما الفارق، كلامي ينطبق على فولكنر، أنا لم يعجبني أسلوبه أيضاً. وقبل أن يسبقه أحدهما إلى الكلام، أردف سيلاً من المعلومات تداعت مفككة، تُبرز معرفته بفولكنر، حول تيار اللاوعي والصخب والعنف والجنوب الأميركي. تابع حديثه لا على التعيين، جملة من هنا وجملة من هناك؛ حركته لم تكن بارعة، كانت مفضوحة. ثم أشار بجفاء نحو الباب: وقتي لا يسمح؛ واعتذر بخشونة: لدي مقابلة على الهواء. لكنه سيأخذ مقالتيهما مع وعد بنشرهما قريباً.

لم يهمل المقالتين، أودعهما فوراً سلة المهملات، وكاد ألا يترك لقاؤه بهما سوى بقايا تافهة في الذاكرة تمحى مثل غيرها، لولا أنه صادفهما بعد أسابيع في الطابق الثالث من الجريدة وهما يتحدثان، مرَّ من أمامهما متظاهراً بأنه لا يعرفهما، لاحظ، وربما خيل إليه، أنهما أخفيا ابتسامتيهما، ثم توشوشا وشيعاه بضحكة مكتومة.

4

الدفاع:
الترجمة أداة بناء لا هدم

بعد فترة لم تكن طويلة من الحادثة الآنفة الذكر، تردد اسم حامد سليم في الجرائد، صحافياً ناجحاً في الشأن الثقافي، وأيضاً مترجم مقالات تُعَرِّف بسلسلة من الروايات العالمية. ثم تتالت رواياته المترجمة بوتيرة لافتة. استفسر شريف حسني من مسؤول قسم السياسة الدولية في الجريدة عن مستوى ترجماته، فكان رأيه أنه مشكوك فيها، لا يعقل أن تحفل الروايات الأصلية بكل هذه البلاغة والجزالة، فأشار الصحافي كما أوردنا سابقاً في زاويته الأسبوعية إلى الترجمات المشبوهة، فما كان من المترجم إلا أن رد عليه رداً مفحماً، ومن ثم مرَّ زمن، إلى أن قُبض عليه بالجرم مشهوداً ومضاعفاً، وكانت عاصفة الرواية الأفريقية.

عزم حامد على الرد مستغلاًّ الجانب الوطني للنهاية الإيجابية، مؤكداً

من خلالها على مهمة إضافية للترجمة: ليست مجرد نقل للأفكار، أو أساليب جديدة في التعبير، وطروحات مغايرة في التفكير، وإنما التحاور معها، ودحضها وتبيان خطلها، إن لم تلائم مجتمعاتنا. وبالمصادفة الحسنة كانت فكرته على سوية الخط السياسي المعلن في الدولة، من حيث تشجيع النقد بشرط أن يكون بنّاءً، والترجمة في أحد وجوهها نقد، ومن المحبذ أن تكون أداة بناء، لا أداة هدم.

لم يتعدّ ما فعله حامد في ترجمته للرواية سوى الترجمة الفعلية لمقصده بوضع النقل على محك الفعل، فَضَّمن رأيه روائياً في خسارة البلد لأبنائه النابغين من خلال أنموذج تغرير الغرب بالأكاديميين الأفارقة، مع إشارة حاذقة تدل بجلاء على العوز الفكري الذي أصاب البلاد من جراء هجرة العقول العلمية العربية المبدعة. كتب مقالته مدافعاً عن تدخله في الرواية، وأورد إحصائيات موثقة بالأرقام عن مقدار الضرر الواقع على البلدان النامية، وختمها بتساؤل مفحم: هل نعطي مبعوثينا إلى الغرب، بالإضافة إلى مطالباتهم برواتب ضخمة ورفاهية زائدة، مبررات عاطفية، إن لم نقل جنسية، للبقاء هناك، ونحن بأمس الحاجة إليهم؟!

حامد كان واثقاً من أن كثيراً من الكُتَّاب والقراء سيغضون النظر عن الوفاء للكتاب الأصلي، ويساندونه لدواع وطنية، تحظى بجاذبية أكبر، وتستحق الدفاع عنها، يقفون معه ويردون عنه حملة الصحافي، وربما انتقل بعض من خصومه إلى الجهة التي يقف فيها.

الجريدة الرسمية المنافسة، وعدته بالنشر وتباطأت، خلالها جرى تسريب المقال إلى الصحافي المرموق الذي هاله الدفاع المحكم للمترجم عن ظاهرة سرقها منه، بعد أن حمل هو بالذات ومنذ سنوات لواءها، تحت عنوان «استنزاف الثروة العقلية للعالم الثالث»

وأثارها مراراً في كتاباته ولقاءاته. هل يستطيع التنكر لها؟! لو كان الأمر بينهما لتراجع دونما حرج، المشكلة أنهم في الحزب سيأخذون بدعوى المترجم، ولو كانت منتحلة وغوغائية، ويغفلون الأدب ولو كان راقياً، لن يهتموا بالأدب قدر ما سوف يهتمون بالجعجعة، لاسيما إذا لمسوا فيها نفحة غيورة تدعو لصون ثرواتنا العقلية، وإن كان الحزب أول من أهدرها. وفي هذه الحالة، لن يتأخروا عن توجيه تنبيه إليه شديد اللهجة، إذا اكتفوا بالتنبيه، كيف أنت الحزبي تبارك سرقة الغرب لأولادنا النابهين؟! ماذا سيكون جوابه؟!!

□ □ □

في طريقه الصباحي، توقف حامد كالمعتاد عند بائع الجرائد، لم يكن قد أنهى قراءة العناوين العريضة، عندما أحس بيد على كتفه، التفت.. كان صاحب اليد صحافياً من القسم الاقتصادي في الجريدة من المقربين إلى شريف حسني. قبل أن يصافحه أثنى عليه:

«مقالة موفقة».

فانعقد حاجبا حامد واستفهم، أردف الصحافي الاقتصادي:

«قرأت مقالتك، أعجبتني كثيراً».

«كيف قرأتها، ولم تنشر بعد؟!».

«لا تسألني، لقد اطلعت عليها، أهنئك، ستقضي عليه قضاء مبرماً».

لم يكن يمزح، ربما أصابت مقالته شريف حسني في مقتل!! دعاه حامد إلى فنجان قهوة في الهافانا، لكن الصحافي الاقتصادي تأبط ذراعه وشده إلى الدخلة الضيقة المجاورة، لئلا يسمعهم أحد من المارة.

«بالمناسبة، قرأها أيضاً شريف حسني، وجن جنونه، ضربة معلم، لقد أوقعت به».

بما أن الصحافي كان من جماعته، فلا ريب أنه مطلع على ما يجري في الطرف الآخر، لكن ما الذي جاء به إليه؟ لا بد أن خلافاً وقع بينهما. والدليل أنه أخذ يبدي شماتته:

«بات صاحبنا لا يميز رأسه من قدميه، يلوب، ينط ولا يحط، يكاد يأكل نفسه، ستتخلص منه قريباً وتريح رأسك وأعصابك. الحزب سيوقفه عن الكتابة، ويخسر مكانته. إذا كان محظوظاً، سيجمدونه ويضعونه على الرف».

«أنا في الحقيقة لا أريد به ضرراً».

«لا ترحمه، لقد أراد القضاء عليك؟! لكن».

وعبس الصحافي، واقترب برأسه إلى أذنه هامساً، ويبدو أن هذا هو السبب الذي أراد من أجله أن يكلمه على حدة:

«احترس، قد يؤذيك».

«ما الذي بوسعه فعله معي؟!».

«بصراحة، رأيته البارحة ليلاً، كان في حيص بيص، يعصر ذهنه، يفكر في توجيه ضربة إليك تذهب بك من الوجود».

«تمنى موتي!».

«الأمر أسوأ، سأقول لك على أن يبقى الأمر بيننا، كان يفكر إلى أي فرع من المخابرات يرسلك إليه؟ أنت تعرفه، يستطيع..».

«ما الذي سيقوله لهم؟ أنني أخطأت في الترجمة، وبدلت النهاية، أنا لا أنكر».

«لا تهوّن الأمر، هل نسيت عندما أرسل بالكاتب سمير سامي إلى السجن؟».

«هل هو الذي أرسله؟!».

«ومن غيره؟ كتب تقريراً إلى المخابرات اتهمه فيه بأنه يكتب قصصاً تمتلئ برموز معادية للدولة والحزب. قل لي، من تجرأ على السؤال عنه، اتحاد الكتاب، أصدقاؤه، أهله؟!».

«لن يرضى الحزب بهذا».

«ما أدراك إذا كان الحزب يرضى أو لا يرضى».

«لا تقل لي بأن الحزبيين لا يقرأون».

«الحزب مغرم بالشعر، وفي أوقات محددة؛ المناسبات الوطنية والقومية. أما الأدب فلا يحبه، وإذا قرأه فلكي يمنعه».

«شريف حسني لا يقدم على عمل دنيء كهذا».

«لقد قرر وانتهى. عندما تركته البارحة، كان محتاراً قليلاً».

«إذاً، لم يحسم أمره بعد».

«بل حسمه، وعزم على إرسالك إلى الفرع للتحقيق معك. حيرته كانت منصبّة حول إلى أي حد يُثَقِل لك التهمة».

«وعلى ماذا استقر؟!!»

«رغبته كانت مائلة نحو تثقيلها إلى الحد الأقصى».

لم يفته التناقض في حديث الصحافي الاقتصادي، رغم اقتصاده في الكلام وتهويله في النتائج. لا شك أن شريف حسني حَمَّله إنذاراً، ها هو يوصله إليه. أراد حامد بالمقابل أن يرسل عن طريقه رسالة دفاع واضح.

«سأقول للمحققين في الفرع، هذه هي الرواية، اقرأوها، لا تحتمل رموزاً ولا عداء للدولة».

«لا أظنك تجهلهم، يهتمون بفحوى التقارير لا بمغزى الروايات، سيهول شريف حسني في تقريره من مرامي الرواية والخاتمة».

«الخاتمة بالذات ستنقذني، وتعزز وجهة نظري».

«لا تنس تأويلات الترجمة، ستكون مقتلك، لن يكون عسيراً عليه جعلك عدواً للبشرية جمعاء».

«ليسوا بهذا الغباء».

«بل وأكثر. يا صديقي يا صديقي، أنصحك بأن تبادر فوراً وتسحب مقالتك من الجريدة دليلاً على حسن نيتك، وأن تقنع بالقضاء على مستقبلك فقط، إياك أن تدافع عن نفسك، اصمت ريثما تمر العاصفة».

«بل سوف أدافع عن نفسي».

ما شد من أزره، معرفته بالتوجيهات الجديدة الصادرة عن القصر الجمهوري المقيدة لصلاحيات الأجهزة، وعلى رأسها أجهزة الأمن،

كانت التعليمات واضحة، تمنعهم من التدخل في الكبيرة والصغيرة دونما أسباب قانونية موجبة، على هذا من سيلتفت إلى تقرير كيدي؟!



5

الفرع ٣١٢:
لا تستهن بالكلام، تحت غطائه، تدور في العالم كله، أقدار الدول والبشر

بعد يومين لا أكثر، صباحاً وهو يحلق ذقنه، رن جرس الهاتف، رفع السماعة، سمع صوتاً يسأله بأدب: الأستاذ حامد سليم؟ أجاب: نعم. قال الصوت: أنت مطلوب للفرع ٣١٢. فارتعب، مجرد ذكر الفرع مرفقاً بأي رقم، يعني المخابرات، خرج صوته مبحوحاً: لماذا؟! رد الصوت بلطف: تعال غداً، الساعة ١١ قبل الظهر، وسوف تعرف. سأل: ما الذي تريدونه مني؟ قال الصوت اللطيف: رئيس الفرع يدعوك إلى فنجان قهوة.

سقط قلبه على الأرض، استدعاؤه إلى فرع للمخابرات حقيقة مخيفة، ولو كان لتناول فنجان قهوة. لم تحمله قدماه، استند إلى

الحائط؛ الدعوة غير بريئة، استدرجوا غيره بفنجان قهوة، أوقفوه بضع سنوات في السجن ولم يشربه. اللعين شريف حسني نفذ وعيده، ورَفَعَ حالة ترجمة تافهة إلى مرتبة خطر عاجل على أمن الدولة، وربما تجسس عظيمة الشأن، لا تقلّ عن تسريب معلومات إلى جهات معادية. إذا صدقوا الصحافي، فكيف يطمئن إلى التوجيهات الجديدة للقصر الجمهوري؟!

بالغ حامد في تحريض خواطره السوداء وهي حال كل من يُستدعى إلى الأمن، صحيح أن الكثيرين ممن ذهبوا لم يعودوا، لكن والحق يقال، عاد بعضهم ولو بعد سنوات. لا داعي للتشاؤم، شجع حامد نفسه، أنا أيضاً سأعود، ما ارتكبته بالمقارنة مع الجرائم الأمنية، لا يزيد على جنحة سخيفة، هذا إذا كانت قلة أمانتي الأدبية جنحة يعاقب عليها القانون.

بعد هدوء أعصابه وهبوط فورة هواجسه، خاطب نفسه من جديد، ربما لم يكن شريف حسني وراء استدعائي وأنا أظلمه بظنوني، قد تكون قضية مختلفة. وتساءل لمجرد الأمان: هل تفوهتُ أخيراً بانتقاد للسلطة؟ لا. هل تلفظتُ برأي مضاد للتوجه السياسي للدولة؟ لا. هل غمزتُ من سلوك أحد الأشخاص النافذين؟ لا. بيد أنني وبصراحة، لم أوفر بين حين وآخر، بعض الانتقادات والغمزات واللمزات لسياسات الحكومة، بحت بها لبعض الأصدقاء، شنعوا مثلي وأكثر على الدولة والسلطة. لو كان الأمر خطيراً لجرجروني بالقوة بدلاً من استدعائي بلطف.

□ □ □

في المقهى، سأل معارفه عن عنوان الفرع ٣١٢ فلم يعرفه أحد.

عموماً، قال أحدهم، عنوانه ليس مشكلة، الفرع المعروف يدلك على الفرع غير المعروف. أما ماذا يكون اختصاص هذا الفرع، فانتقل إلى طاولة مجاورة، يجلس عليها معتقل سابق ذو خبرة بالفروع وما يتفرع عنها، ذاق منها الأمرين، ولكي يتقي شرها أصبح متعاوناً معها، ولم يتردد في تحذير معارفه وأصدقائه بكل أريحية، بألا يتلفظوا أمامه بسوء عن الدولة وأعوانها، لأنهم إذا شحطوه وعرضوه إلى سين وجيم فلن يتحمل ضغطاً جسدياً ولا نفسياً، وسوف يبوح بما يعرفه أو لا يعرفه. وهكذا بداعي الاحتياط، ينعزل عن الجميع، ليقيهم شره.

المعتقل السابق لم يبخل عليه بمعلوماته، سمع بشائعات من هذا القبيل، مسموعيات يعتقد أنها موثوقة، يبدو أنها تحققت أو في سبيلها إلى التحقق، نتاج ما طرأ في الآونة الأخيرة من أحداث ولدت مستحدثات، أطلقت فروعاً جديدة للأمن خُصصت للتعامل الراقي مع المثقفين والكُتاب، تمييزاً لهم عن الناشطين المشبوهين أصحاب المآرب السياسية، تؤخذ فيه ثقافتهم المسالمة وحساسيتهم الإبداعية بالحسبان؛ فمثلاً، الفروع القديمة تباشر المطلوبين بالضرب ثم السؤال، الفروع الأحدث تسأل ثم تضرب. الفروع الحديثة جداً، لا يضربون إطلاقاً، أسئلة فقط، ولك مطلق الحرية في الإجابة، أو الامتناع والإصغاء فقط. وهي لا تزيد على مركزين أو ثلاثة، نظيفة ومحترمة، لا قسر فيها ولا إجبار، يخيم عليها جو آمن يصلح لتبادل الآراء بحرية، لا علاقة لها بما سبقها من فروع وما تستخدمه من آليات استجواب لم يبخلوا فيها على حملة الأقلام بالإهانات والشتائم والصفعات، والدفر والنعر، دون التنكيل بهم، لأن التعذيب عادة لانتزاع الاعترافات، أما المثقفون فيبادرون للاعتراف من تلقائهم، ثم بماذا يعترفون، ما داموا يكتبون ما في رؤوسهم، مع

المزايدات والزيادات حيناً، والمبالغات والاستعراضات أحياناً، وكلها بلا طائل؟!

هذه المراكز كُلفت بالقيام بأبحاث ودراسات، واحدٌ منها لجمع المعلومات السياسية والاقتصادية لدول العالم، خاصة دول الجوار. وآخر للبحوث الاستراتيجية ومتابعة تحولات التحالفات العالمية، والثالث إن كان هناك ثالث فعلى هذه الشاكلة. وزُوِّد المسؤولون فيها بصلاحيات استثنائية واسعة، فأجروا انقلاباً على المفاهيم الأمنية المعمول بها؛ أثمرت متغيرات حثيثة، بشرت بمخابرات متحضرة ودمثة، مهمتها مراقبة العالم والتنصت على ما يتمخض فيه من انقسامات وتحالفات، وما يخطط من برامج ومؤامرات تحت عنوان «أجندات».

وكما هو واضح، فإن العمل على هذا المستوى، يجعل الحاجة ماسة إلى المثقفين، ومشورتهم مطلوبة، وتُستمزج آراؤهم بعظائم الأمور وتوافهها دون تمييز، لأن ما نظنه عظيماً قد يكون تافهاً وبالعكس. وهذا ما يدعى بدور المثقف في النظام العالمي الجديد. وفي حال كان التعاون بينهما جيداً، لا يبخسونه أجره، يدفعون له بسخاء، وقد يعطونه سيارة مكفولة الصيانة مع ضمان بتزويدها الدوري بالبنزين.

المعاملة مختلفة، والدليل أن القائمين على المراكز لا يمارسون ما كانوا يمارسونه من قبل، يتجلى هذا في أسلوبهم المهذب في الاستدعاء، لا شحط ولا لبط، بل يتم بأدب وعلى الهاتف؛ كما حدث معك تماماً، ولا يتوقف عند هذا الحد، ستشرب فنجان قهوتك فعلاً، ولن تكون مرغماً عليه، وباستطاعتك أن تطلب شاياً أحمر أو أخضر، وربما زهورات، كل المشروبات الساخنة والباردة

متوافرة. ومن الطبيعي أن يفرض التعامل اللبق بين المسؤول الأمني والمثقف الندية الكاملة، وقد تميل الكفة لمصلحة المثقف. الموقف غير مألوف، بالقياس إلى ما سبق من تعامل حظي فيه الموظف الأمني بالتفوق الكاسح على المثقف الأعزل، بل سيكون محرجاً ومستهجناً وغير لائق حالياً، لكن عليهما التدرب على هذه المتغيرات.

إجراءات، كما يشيعون، ستشمل في المستقبل الأجهزة الأمنية كلها، وتثمر على المدى البعيد شكلاً جديداً تصحح فيه العلاقة بين السلطة والمواطنين، تُفرز علاقات صحية تعتمد الشفافية والحوارات المفتوحة، وإذا كانوا قد بدأوا بالمثقفين فلأن خبرتهم لا يستغنى عنها في هذه المرحلة. ومن الإشارات الجيدة أنهم باشروا بفتح قنوات مع أمثالك من المترجمين، وهي خطوة ممتازة، تتجلى في اعتباركم من المثقفين المرغوب بسماع آرائهم في كيفية التعامل مع العقلية الغربية بحكم صلاتها بالسياسات الخارجية، وقد يهمهم الإصغاء إلى مقترحاتكم في الإصلاحات الداخلية المنشودة.

رُدت إليه الروح. إذا كانت المخابرات بحاجة إليه، بعدما أصابها من تعديلات جوهرية، فلم لا يجاريها ويتلاءم مع عصرنة الأجهزة؟!

□ □ □

بدا بناء الفرع ٣١٢ لولا الحراس وكشك الحراسة، أشبه بمركز صحي للعلاج من الأمراض السارية، تتعالى على أطرافه أشجار الحور والصنوبر، وفي ساحته أحواض الحشائش والأقحوان والدفلى تتوسطها نوافير المياه، والهواء العليل يحمل رائحة النظافة الفواحة بأريج المعقمات. المدخل مرصوف بالرخام، الممرات أنيقة خالية من جميع أنواع الغبار، حتى الدقيقة جداً المتخفية في الهواء، غير المرئية

بالعين المجردة، والشبيهة بأصناف الجراثيم والفيروسات المتناهية في الدقة. هذا ما لاحظه حامد وهو يمشي بين العسكر الذين يلبسون الملابس المدنية، يخترقون القاعات ذات التدفئة الجيدة، وأبواب الغرف الجانبية مفتوحة على مصراعيها، تغص بالباحثين المنهمكين بالبحث، لا ينقصهم سوى الأرواب البيضاء. نقلة مثيرة، وإذا كان لها من دلالة، فاقتناع الدولة بأن الأوضاع السياسية المتفسخة والمأزومة والشعب الجريح والصبور بحاجة إلى معالجة لا مصارعة.

المثير أيضاً، أن المسؤول رئيس الفرع، يلبس بدلة مدنية فاتحة اللون، من الألوان الربيعية البهيجة، مستبقاً ربيعاً سيحل بعد أسبوع. كان المسؤول رجلاً أنيقاً، متوسط القامة موزون الحركة، مريح الملامح، هادئ القسمات، أشيب الشعر، كأنه مدير شركة استثمارية، تُعنى بالعلاقات العامة وتُرضي جميع زبائنها حتى النكدين منهم واللجوجين، نظاراته الطبية تنبئ عن قارئ نهم ومحترف، فمه يفتر عن ابتسامة فواحة بالفلورايد المنعش وتكشف عن صفين من الأسنان ناصعة البياض.

بادره، هل ضايقك أحد خلال مشوارك من مدخل الفرع إلى باب مكتبي؟ أجابه حامد، أرجو ألا أكون أنا قد ضايقتهم. كان على السوية ذاتها من اللباقة والتهذيب. بعدئذ خيَّره بين عدة أنواع من القهوة، تركية فرنسية عربية برازيلية كولومبية. اختار حامد العربية ليؤكد على عروبته رغم قدرته على ترجمة أي نوع من القهوة مهما كان مصدرها إلى لغتنا الجميلة، هذا ما قاله ضاحكاً لرئيس الفرع.

وإذ حانت نظرة منه إلى الباب الجانبي المفتوح على الغرفة الملاصقة، لاحت الرفوف الخشبية على طول الجدار مرصوصة بالكتب، وعلى الأرض أكداس من المجلدات تنتظر دورها لتعتلي الرفوف في الجانب

المقابل غير الظاهر. تعجب حامد، هل أنا في فرع للمخابرات، أم في مركز ثقافي؟! وعندما أعاد نظره إلى مدير الفرع، بدا بوجهه الكالح، وكأنه مدير مركز ثقافي في الريف، وظيفته تشجيع الشباب على استثمار أوقات الفراغ بالقراءة الحرة.

وخلافاً لأي نوع من الفروع الاستخباراتية في الدنيا كلها، لم يطرح رئيس الفرع أية أسئلة، بدأ الحديث واسترسل فيه، كأن حامد طرح عليه مجموعة من الأسئلة، وأخذ يجيب عنها بالترتيب حسب الأولوية، بروية ومن غير تذمر، على نمط محاضرة مسجلة، تكر كراً بلا توقف، بدأها بإلقاء نظرة شاملة على الوضع العالمي المعقد، بعد زوال العملاق السوفياتي وعزلة الجبار الصيني، وتيتم العالم الثالث؛ الأميركيون يجتاحون العالم بذريعة القضاء على الإرهاب. الأوروبيون يحاولون تخفيف الاحتقان المتزايد في المنطقة، لم يفلحوا لأنهم لم يبذلوا الجهد اللازم. القصف الأميركي مستمر على معاقل طالبان المتوزعة في مناطق قبائل البشتون الأفغانية، والقوات الخاصة الأميركية تلاحق أفراد منظمة القاعدة في تورا بورا. الوضع العربي متأزم، يعاني التشرذم والتفكك.

دخل موظف يحمل نسخاً لبرقيات وفاكسات، قرأ مدير الفرع بعضها وألقى نظرة على بعضها الآخر، ثم تابع حديثه؛ الانتفاضة الفلسطينية تتصاعد والقمع الإسرائيلي انفلت من عقاله. في السنوات الأخيرة لم يستطع العرب اتخاذ موقف فعال من الأزمات التي واجهتهم، وإذا كان هناك من نظام عربي موحد فهو مشتت وآخذٌ بالاحتضار. وانتقل إلى الوضع السوري، وما تفرضه عليه الأحداث الراهنة من مبادرات، الوضع صعب والاستحقاقات ضخمة؛ نحن نراقب الأوضاع بحذر شديد، قوات التحالف توالي

تدفقها على المنطقة وتتمركز على اليابسة والبحار والخلجان، تحاصر العراق تمهيداً لغزوه، على سورية أن تكون مستعدة لمجابهة الضغوط والتحرشات الأميركية.

دخل موظف آخر، حاملاً معه رسائل إلكترونية، ومقالات مطبوعة مأخوذة من الإنترنت، قرأ الرسائل، وعناوين المقالات، ثم تابع حديثه؛ موقفنا ثابت، ولا نرضى بالتدخلات الاستعمارية مهما كانت حججها، سواء بذريعة نزع أسلحة التدمير الشامل من العراق أو مكافحة الإرهاب الأصولي. المحافظون الجدد يقودون السياسة الخارجية لأميركا الإمبراطورية، ولا تخفى علينا مآربهم، السيطرة على منابع النفط، والهيمنة على المنطقة. في الأفق تلوح استراتيجية جديدة، الأميركان أعدّوا خريطة جديدة للشرق الأوسط تخدم مصالحهم. للأسف نحن لا نأمل موقفاً حازماً من أشقائنا العرب، بعضهم يتعاملون مع القوات الغازية، وأفسحوا لهم مكاناً على أراضيهم. لن نكون يداً واحدة في مقارعة الغزو، بعد أشهر قليلة، نصبح وحدنا أمام الأميركان، تجمعنا معهم حدود مشتركة.

كان رئيس الفرع قد تقمص شخصية محاضر ناجح، عيبه الوحيد أنه لم يُتح له مجالاً للإدلاء برأي أو بسؤال، مفترضاً أنهما متفقان. حامد لم يهتم بهذه الشكليات، لم العجلة؟! طلب الاستشارة قادم في حينه. ثم لا يهم من يتكلم؟ أو من يسمع؟ عموماً نحن السوريين متوافقون على الخطوط العريضة للسياسة الخارجية، المثقفون حتى المعارضون منهم، لم يغيروا موقفهم الرافض لأي تدخل أميركي، طالما خلال خمسة عقود لم تغير أميركا في سياساتها المعادية للعرب، لكننا نختلف في تفاصيل الأساليب المتبعة في ممارسة السياسة الداخلية. هذا ما فكر فيه حامد.

ويبدو أن المحاضر وصل إلى التفاصيل المختلف عليها. كان الموقف الذي سيصبح متدهوراً على الحدود الشرقية يحتم المحافظة على سلامة جبهتنا الداخلية وتقويتها، ويرتب على الدولة المسارعة إلى إجراء إصلاحات جذرية، إدارية وسياسية، تتناول الوزارات والمؤسسات والإدارات المختلفة.

«بالإضافة إلى أن الحزب بحاجة إلى تفجير وإعادة صياغة من جديد».

فغر حامد فمه، لم يتصور أن المحاضر سيبالغ في تقمص شخصيته الجديدة، ويطلق قنبلة تصيب الحزب!! لاحظ المحاضر فمه المفتوح ونبهه:

«لا تستغرب!!».

حامد، كما بدا عليه استغرب بشدة هذه النقلة القوية والمضادة للحزب، وبوضوح تدميره، مع أنهم سيعيدون صياغته!! شنف أذنيه مصغياً غير مصدق.

«وأقولها صراحة، وأنا مسؤول عن كلامي، يضم الحزب أعداداً هائلة من المنتفعين، مبثوثين في أجهزة الدولة، دولة باتت مصدراً للارتزاق غير الشريف، وبيروقراطية تشجع على السرقة والاختلاس، وفي المقدمة وزراء لعوبون يجرون وراء النساء، ومعهم مسؤولون يريدون الإثراء بأية طريقة، وبأسرع وقت ممكن. ما الذي يحفظ حقوق الناس؟ القضاء. ما الذي نراه؟ قضاء مسيب وقضاة مرتشون ومحامون محتالون».

لخبطه، حتى أنه لم يستطع إظهار موافقته الضمنية. خاصة وقد

بدأت وتيرة انتقادات المحاضر بالارتفاع، وباتت تهدد عمله الفعلي بصفته مسؤولاً أمنياً، عندما أخذ يطالب بالعمل على إحلال الديموقراطية والاحتكام إلى صناديق الانتخاب، وإلغاء قانون الطوارئ والدفاع عن حقوق الإنسان، والسماح بتعدد الأحزاب دون استثناء الإسلاميين، وإطلاق سراح المسجونين السياسيين الخطرين!! ثم وهذا ما قاله بالحرف الواحد:

«تصور على مدى أكثر من أربعين سنة أخفق الحزب في إنتاج مفكرين، أين مثقفوه، اغطس في هذا البحر الزاخر بحزبيينا الهانئين، ولن تظفر بمفكر حقيقي واحد، لماذا نحافظ على الحزب؟! فليحلّ نفسه».

كل هذا دفعة واحدة؟! انبهر حامد بما سمعه، كيف يعارض مسؤول عن الأمن السلطةَ التي وضعته في منصبه، المفترض أنه أبعد الناس عن معارضتها جهراً؟! بل ويظهر كأنه خطيب مفوه من رؤوس المعارضة، شخص مثله كيف استطاع التسلل إلى أجهزة سرية وحساسة كهذا الفرع الذي يبقى رغم التطورات والإصلاحات والتجديدات، فرعاً مخابراتياً؟! طبعاً هذا مستحيل. العجيب، حتى لو كان متسللاً، أو مدسوساً، فقد فاق المنتقدين الدائمين للسلطة جرأة وسبقهم بأشواط، لا سيما، سخريته من الحزب الحاكم والتهديد باستبعاده من الحكم!! في الحقيقة ولو كان هذا مضحكاً، حتى فلول الأحزاب المناوئة لن تستطيع الإدلاء بآراء جذرية منافسة قاطعة بهذه الحدة، رغم أن المعارضة شغلها الشاغل!!

بعد أن عبر رئيس الفرع عن معارضته الشديدة بصوت هادئ ومن غير تشنج، طلب منه أن يأخذ راحته في الرد عليه، وإبداء رأيه مهما كان مخالفاً. قال حامد متردداً:

«لقد كنتَ مقنعاً».

سكت ولم يكمل، لكن رئيس الفرع لم يفته أن ثمة كلاماً ما زال في فمه، فحثه:

«قل بصراحة».

«لكنك تهورت قليلاً، أقصد كثيراً».

«تابع ولا تخش، اعتبر أنك في مناظرة تلفزيونية».

«لو أنني شاهدتك في مناظرة لأخذت جانبك».

كان هذا أفضل مخرج وجده حامد للتعليق على محاضرة، كانت، كما راوده الشك فجأة وبقوة، عبارة عن تمثيل، مثلما يحدث في برامج المقابلات التلفزيونية.

«ألا توافقني بأن ما يدعى بالمعارضة سيجدون أنفسهم، بالمقارنة معي، في موقف ضعيف».

«هذا ما كنت أقوله لنفسي».

«في الحقيقة، نحن معارضون أكثر منهم، لا أحد يزاود علينا».

«صدقني، هذا ما كنت أقوله لنفسي».

«السياسة ليست حذلقة، بل معلومات ومعطيات ووثائق، لدي جهاز يعمل على تزويدي بكل ما أريده، لا ألقي الكلام جزافاً، وسيحكم المشاهدون على ما يقوله كلانا».

«أي مشاهدين؟!!».

«ستوجه لي الدعوات لمناظرات تلفزيونية على الهواء مباشرة، وإذا

كنت أنت المثقف أخذت صفّي، فالشعب مثلك لن يخطئ الصواب».

«هل ستعلن آراءك في الحزب والأحزاب والإسلاميين والديموقراطية وقانون الطوارئ، بهذه الصراحة؟»

«نعم، لكن في الوقت المناسب. نحن نختلف عنهم؛ خطواتنا واقعية، تأخذ ظروف الوطن بالحسبان».

كيف يكون ممثلاً للسلطة، وفي الوقت نفسه ممثلاً لمعارضة شرسة؟! حتى لو كانت معارضته تمثيلية، فإلى أي حد سيمثل؟! أراد أن يسأله شرح هذا اللغز ليفهم وجه عدم التناقض بين السلطة وأعدائها، سوى باختيار التوقيت المناسب!! هل يمكنه ممارسة الدورين معاً؟! لم يتجرأ، رغم الموقف المواتي لفتح حوار تلفزيوني عاجل مع المسؤول المعارض المختبئ وراء بدلة ربيعية، وصفنات تأملية، واستشرافات مستقبلية.

ما منع حامد من إبداء أية معارضة إضافية في جو أُتخم بالمعارضة، إحساسه بأنه بات مقرباً جداً من محدثه. بل وخيل إليه أن هذا التقارب يسمح له طالما تصارحا في أشد المواضيع حساسية، بطلب شخصي يسأله فيه أمنية خاصة، هي رجاءٌ بأن يضع حداً لمشكلته مع الصحافي الموتور. ألم يمنحه المسؤول ثقته واختاره الحكَم الفيصل بينه وبين المعارضة المزيفة، وكان الشاهد على نجاحه المصغر الذي أحرزه، وجعله يتفاءل بنجاح مكبر أمام جمهور عريض؟!

حامد الذي راودته الفكرة، رفضها، وهذا دليل على استقامته المضيعة للفرص، وقال لنفسه: لن أستغل صداقتي معه، هذا المسؤول لم يخلع ملابسه الأمنية لقضاء حاجات شخصية، وإنما ليؤهل نفسه

لمهام فكرية وسياسية رفيعة حساسة ومتناقضة، والتفرغ للتدرب عليها وإيجاد انسجام بينها، لا ليبحث في إشكالات نافلة بين مترجم وصحافي.

لم يتراجع عن استقامته حتى عندما صافحه رئيس الفرع بقوة ومودة، مظهراً عظيم امتنانه له، ثم تأبط ذراعه وكرَّمه بإيصاله حتى الباب، وبدلاً من أن يلوح له بيده مودعاً، أنزلها وعبس، كان قد تذكر. خمن حامد ما تذكره، لا يعقل أن يكون استدعاؤه لأخذ رأيه بتحوله الجذري من شخصية أمنية إلى شخصية سياسية، ثمة أمر آخر، آه...سيلتمس منه استشارة، أو يستمزج رأيه بموضوع، أحدهما سبب استدعائه!!

«نسيت أن أقول لك بأن تسحب مقالتك من الجريدة، لا نريد شوشرة في هذه المرحلة. صاحبك الصحافي شريف حسني رجل نزيه، يحمل على كاهله مهام كثيرة، ولا نريد أن نشغله بالأخذ والرد».

فطار صواب حامد:

«الأجدى أن تطلب منه الكف عني».

«اطمئن، بالنسبة إليك، نحن لا نعدّك خائناً، دعه يقل ما شاء له، هذه فذلكات أدبية، الخيانة الوحيدة هي خيانة الوطن، وأنت منها براء، عداها لا يمكن أن يؤثر عليك شيء».

«أعرف أنني أخطأت، لكن أليس من الظلم أن أدفع ثمن خطئي على حساب مهنتي ومستقبلي؟».

«لا أريد أن أسمع شيئاً، اسحب مقالتك، يعني اسحبها».

«دفاعي عن نفسي لن يضير أحداً».

«لا تجادلني، نفذ ما قلته لك، ولا تضطرني لتحويلك إلى فرع آخر. إذا كنت تظن أن تهمتك غير كافية لشنقك، فسوف يدبرون لك واحدة تكفي لشنقك عشر مرات».

لم يهمه الشنق مرة أو عشر مرات. آلمه فقدانه وهم صداقة عابرة جداً، لم تعمر أكثر من مصافحة وبضع خطوات مقدارها المسافة بين الكرسي والباب. والأسوأ، أن الأمور ستبقى على حالها، لا تغييرات إلا في الوقت المناسب، وقضيته التافهة لن تكون إحداها.

□ □ □

ما الذي أفعله؟! سأل حامد المعتقل السابق الذي وجده، كما تركه البارحة، جالساً وحده، أطلعه على ما جرى معه. فلم يعلق، فتساءل:

«هل هذا معقول؟! هل تصدق؟!».

المعتقل السابق. كان ذكياً رغم طيبته، ولو لم يكن ذكياً، لكان معتقلاً حالياً لا سابقاً. ويمتلك بالطبيعة والتجربة نظرات ثاقبة، لن يبخل عليه بها، رغم أن حامد وجه إليه سؤالين عريضين دفعة واحدة، أخذ المعتقل السابق وقتاً ليفكر فيهما ويجيب عنهما:

«إذا كان قد قال لك بأنهم معارضون أكثر من المعارضة، فهذا يعني أنهم سيسرقون المعارضة من المعارضة، لذلك تراهم يتسابقون إلى القراءة والثقافة والسياسة، الهدف تمزيق صفوفها واحتلال كراسيها، لا سيما أن أغلب كراسيها خالية، ولن تكون هناك مشكلة، ما دام

أن المعارضة كلام في كلام. أما ما هو قابل للتنفيذ، فمتوقف، كما قال لك، على ظروف الوطن، وكل هذه المطالبات العاجلة سيصيبها التأجيل أو الإلغاء. ثم لماذا لا تصدق؟! نعم الدولة تعمل على إعداد طاقم من السياسيين، من قبل كانت الحاجة إلى ضباط، اليوم الحاجة تدعو إلى متحدثين في السياسة. لم يشطّ بك الخيال، عندما ظننت بأن ما يجري أمامك بروفة، بروفة تشمل التدريب على التفكير والنقاش والجدال والحوار. نحن نعيش في عصر الكلام، ولا مفر من تعلم أساليبه ومناوراته وألاعيبه وحيله، سرعان ما تضع الحروب أوزارها، وتبرز الحاجة إلى الاستسلام، المدعو بالسلام، تحت عنوانه يجري تقاسم الحصص وترتيب الأوضاع، مما يستوجب الكلام، الكثير من الكلام. لا تستهن به، تحت غطائه، تدور في العالم كله، أقدار الدول والبشر».

وأراد حامد أن يتفاصح بالتقاطه لحظة تاريخية:

«في هذه الأيام نشهد تواري العسكر وظهور السياسيين».

«لا تتفاءل، إنهم يبدلون ملابسهم، السلطة لا تتغير، وأدواتها لا تتغير، بل تتجمل».

ارتدّ حامد إلى قصته، وتشبث بعدم سحب مقالته من الجريدة، ودعم قراره بفكرة، أن الأجهزة بعدما بدأت تنزع نحو الحلول السلمية، ليست صاحبة الاختصاص في فض مشكلته مع الصحافي، ورئيس الفرع المتسيس لم يكن جاداً، بل كان يرهبه بالأقوال لا بالأفعال.

«بماذا تنصحني؟».

«أنصحك بأن تصدع بما أمرك به، اسحب مقالتك».

بدت على حامد الخيبة، فضحك المعتقل السابق، واستخدم ماضيه الأدبي في تخفيف مصيبة المترجم:

«هؤلاء لا مزاح معهم. مزاحهم لا يشبه البتة لهو صاحبك دي موسيه في مسرحيته «لا مزاح في الحب». إذا كان الرومانسيون لم يحبذوه في الحب، فلا تتوقع من الواقعيين أصحاب الفروع شنقاً كوميدياً».

فركب حامد الباص إلى الجريدة، وسحب مقالته صاغراً وبملء إرادته.

6

القاتل المأجور:
حامد يُفَرّطُ بفرصة ذهبية

بعد هذه الواقعة المحبطة، التزم حامد الصمت، وتجنب الاحتكاك بالصحافي وأعوانه، كي لا يصطدم بهم. فكان إذا دخل إلى مقهى الهافانا، يجلس وحيداً بعيداً عنهم، فيلمحهم يتغامزون عليه، وعلى أهبة التحرش به. ما اضطره للانتقال إلى مقهى الروضة، ولم تكن الحال أحسن، فقاطع المقاهي والأماكن العامة. مما أرضى غرور الصحافي شريف حسني، وقوّى شوكته، مع أنها كانت قوية، وأحس بالزهو من الهروب المزري للمترجم، رغم أن أعوانه خسروا باختفائه تسلية ممتعة.

أما المترجم فصار ينام ويصحو على إيقاع شكاواه: سمعتي باتت في الوحل، لن تقوم لي قائمة بعد الآن، لا مستقبل لي في الترجمة، الجرائد لن تتعامل معي؛ أخذت نبرتها تتصاعد: أين أعثر على مهنة

لا صلة لها بالأدب، وأصحابها لا علاقة لهم بالروايات، بل والأحسن أن يكرهوا الكتب المترجمة، والأفضل ألا يعرفوا القراءة والكتابة؟!

ضاقت به الدنيا. في يوم وكان من أكثر الأيام اسوداداً في عينيه، أغراه البرد الخفيف بالتجوال، فمضى بعد العصر، يغذ خطاه قدماً إلى سوق الصالحية، منقبض النفس، عابس الوجه. وبدلاً من أن يسري عن كآبته، بتقليب النظر في واجهات المحلات البراقة ووجوه النساء الأنيقات والفتيات الحسناوات، أخذ يقلب الاحتمالات في عودة مشرفة إلى الأدب تحفظ له ماء وجهه إزاء غريمه القاسي، بيد أنه لم يعثر على وسيلة ينهي بها نزاعه معه. أفكاره لم تفض إلى شيء، الصحافي اللامع أغلق في وجهه المنافذ كلها، ولو ترك له منفذاً واحداً لما كان لامعاً. بعد وقت، لم يدر إن كان طويلاً أو قصيراً، لم يعد يرى من حوله سوى دائرة هائلة من الظلام.

الظلام!! هذا ما سها عنه، كان الليل قد حلَّ منذ فترة، لم يلحظ هبوطه، تطاحنه مع الاحتمالات المستنفدة والمنافذ المسدودة، أنساه مرور الزمن. أحس بالإجهاد، الأفكار أتعبت رأسه وقدميه، إلى أين كان ذاهباً وإلى أين وصل؟! بل أين هو واقف؟ يا للعجب، كان واقفاً، في آخر خط أوتوستراد المزّة! هل مشى طريق الصالحية بطوله، وطلع طلعة المهاجرين، وعبرَ جسر الربوة، واخترق تقاطع مستشفى المواساة وضجيج الساحة وعجقتها، وسار طريق الأوتوستراد برمته ووصل إلى نهايته دون أن ينتبه؟!

□ □ □

لم ينتبه أيضاً، بسبب الظلام والأفكار المتضاربة، إلى رجل يضع

لفحة صوفية حول رأسه، يسير خلفه تارة، وإلى جواره تارة أخرى، يتعقبه من مكان إلى آخر. ورغم أن الرجل أحس بالتعب، لم يتوان عن اللحاق به عندما عبر الشارع إلى الرصيف المقابل من الأوتوستراد، وتوجه معه صوب موقف السيارات والميكروباصات.

ركب حامد ميكروباص مزة ـ جوبر، وعزم على النزول في الموقف الرئيسي تحت جسر الرئيس، من هناك يأخذ باص ركن الدين، إلى موقف شارع ٢٩ أيار، يشتري ربطة كعك، ثم يكمل طريقه إلى شارع العابد. اتخذ مكانه إلى جانب النافذة، أطل ببصره على الطريق، حركة مرور السيارات على أشدها. بينما جلس الرجل ذو اللفحة إلى جواره على المقعد، واسترخى بكل ثقله، مفرشخاً رجليه على وسعهما. استغرب حامد اللفحة التي تحيط بوجهه وتُخفي ملامحه، كانت أشبه بلثام لا يكشف سوى العينين وفتحة الفم. لم يخطر له بأنه كان يلاحقه منذ أكثر من ساعتين.

«هل يظن المقعد كله له؟» قال حامد لنفسه، ونفخ متبرماً بصوت مسموع، لينبه الرجل الملثم الذي زركه إلى جدار الميكرو أنه تجاوز حدود آداب ركوب سيارات الأجرة والباصات العامة، وهي آداب تنطبق على الميكروباصات أيضاً.

«هل أزعجتك؟» تسلل صوت الرجل أخن وجافاً.

لم تدل لهجته البليدة على تساؤله، قدر ما عبرت عن استنكار ممجوج، كأنه هو الذي ضايقه. فثار حنق حامد:

«طبعاً أزعجتني، المقعد مخصص لشخصين لا لواحد. تضبضب يا أخي، السيارة ليست ملكك. ابتعد عني، قليل من الذوق».

همهم الرجل بصوت كالصرير، وكبس عليه بكتفه.

«جلست إلى جوارك عن قصد، لتسمعني جيداً».

«تتحدث معي عن أي شيء؟! أنا لا أعرفك».

التفت بعض الركاب الجالسين في المقاعد الأمامية مستغربين.

«لا ترفع صوتك». زمجر الرجل.

«ما الذي تريده مني؟!».

همس حامد، وألقى نحوه بنظرة سريعة. تحت الأضواء الصغيرة الخافتة في الميكروباص، كان رأس الرجل الغريب مرتخياً على صدره، وفمه مبروماً نحوه وقد برزت شفاتيره من ثنايا لفحة غطت وجهه بشكل عشوائي. أعاد النظر ثانية، فلم يبد من ملامحه إلا عيناه الجاحظتان وبوزه المعوّج. واللفحة معصورة على وجهه المضغوط تحتها دونما تناسق، فبدت تقاطيع وجهه متقاطعة مع بعضها، وغير متراكبة على بعضها، كل قطعة منها في مكانها غير الصحيح.

«اعتدل في جلستك، لأصغي إليك».

لم يغير الرجل طريقة جلوسه، كان قد بدأ بالكلام:

«ألهث وراءك منذ أكثر من ساعة، ألم ترني؟! لحقت بك من آخر خط المهاجرين إلى آخر أوتوستراد المزة».

«تتبعني... لماذا؟!».

«خشيت عليك من ارتكاب حماقة، ترمي بنفسك تحت عجلات سيارة، أو تتعثر وأنت تقطع الشارع. كنتَ شارداً، عقلك ليس في

رأسك، لا ترى أمامك ولا حولك. أشفقت عليك. سمعتك تتكلم بصوت عال، لم تفصلني عنك سوى خطوات، تفوهتَ بأشياء مريعة، هددت أشخاصاً وتوعدتهم. تصور، أنا الذي لا أعرفك البتة، أصبحت لا أجهل نواياك».

«لا تتدخل في ما لا يعنيك».

«وأعلنت عن رغبتك في قتل بعض الأشخاص».

هل بلغ به الشرود في الشارع حدَّ التكلم مع نفسه على الملأ كالمجانين؟! لم يحدث هذا معه من قبل على الإطلاق، أي وضع سيئ انحدر إليه، حتى هذا الرجل العابر أصبح مطلعاً على مشكلته وأحقاده.

«يبدو أنني خرجت عن طوري».

«لا تزعل، أقدر وضعك، حياتك محطمة، ومستقبلك في الميزان، لو حدث هذا معي، فلن يتحملني عقلي، وربما ارتكبت جريمة وقتلت شريف حسني».

«يا الهي، هل ذكرته بالاسم؟!».

«نعم بالاسم والمهنة، إنه صحافي».

«أرجوك انس ما سمعته مني، كنت غاضباً ولم أكن جاداً».

«وذكرت أشخاصاً غيره، رجوتهم مساعدتك».

«لا شك بأنني كنت أهذي».

«سأخلصك منه..».

لم تكن كلماته واضحة، ربما لأنه همس بها همساً، فاستفهم:

«مم تريد تخليصي؟».

«سأخلصك منه، من الصحافي».

قالها بثقة وخفة، كأن التخلص من الصحافي أمر تافه لا يحتمل أكثر من أن يشوطه بقدمه. لم يتمالك حامد أعصابه، حدق إليه بحدة، ما زال الرجل مخفياً ملامحه، عاوجاً فمه، يفتحه ويغلقه، فكه الأسفل نازل طالع، يمضغ الكلمات بين أضراسه بأسلوب منفر. سارع قائلاً:

«أريد التخلص من مشكلتي لا منه».

«إذا خلصتك منه، فسوف تتخلص من مشكلتك».

أصابته رعدة من لهجته القاطعة. أجابه بحدة:

«يا رجل، هل أنت مجنون؟!».

تعجب من حدته، الرجل أثار غيظه بتقليده الرديء لأسلوب القتلة المحترفين، محاكياً وهو يعلك بفظاظة مجرمي الأفلام الأميركية الذين يقتلون بأعصاب باردة. لم يشعر بالارتياح، قد يكون مجرماً فعلاً، لن يتورط بالحديث مع شخص لا يعرفه. قال مؤكداً:

«لا أريد أن يصيبه مكروه».

«إنه لا يساوي قلامة ظفرك».

علا وجيب قلبه، الرجل يحضه على الاستهانة بحياة غريمه. شمل الركاب بنظرة خاطفة، خشي أن يكون أحد منهم سمع طرفاً مما دار بينهما. حانت نظرة منه إلى الشارع، كان الميكروباص قد قطع موقف جسر الرئيس منطلقاً صوب شارع الثورة. فنهض متعللاً، بأنه

تجاوز المكان الذي يبغي النزول عنده. ونغز الرجل بركبته ليزيح قدميه قليلاً، ليتمكن من المرور. الرجل لم يتزحزح، بل شده من كمه وأجلسه، قرَّب رأسه منه ودسه في صدره، دون أن ينتبه إلى أن اللفحة انحلت وتهاوى طرفها من حول رقبته. على الفور، صدمته تقاطيع وجهه الغريبة!!

سرعان ما أمسك الرجل بطرف اللفحة، وغطى على عجل ما انكشف. كان حامد قد نجح برؤية شيء من ملامحه، لم تكن كريهة فحسب، وإنما بشعة إلى حد لا يطاق. تسمر مشدوهاً، وقد أدرك سره القبيح. بينما أفلت الرجل كم جاكتة حامد، ورفع يده وصوب إصبعه نحو عينه اليمنى كأنه يريد فقأها.

«سنتابع معاً إلى جوبر، لن يكلفنا المشوار زيادة. ادفع عني. سأعود معك، وأدفع عنك إذا لم نتفاهم».

«سأدفع عني وعنك، دعني أنزل».

«لا تظن أنني أريد استغلالك، لست بحاجة إليك. أنا رجل مستقيم».

«دعني، لن أظن شيئاً».

«إذن، اجلس».

اطمأن قليلاً، كان في صوته رجاء.

«أخشى أن هناك سوء تفاهم. نعم أنا متضايق جداً، لكنني لا أرغب بالتخلص من أحد، حتى لو كان لا يساوي قلامة ظفري».

«لن أدعه يضايقك».

«تقولها وكأنك تنوي أن تقضي عليه؟».

«هذا شغلي».

صدمه جوابه الجاف، لم ينف عرضه!! يريد إقناعه بأنه قاتل محترف، لكن من النوع الرث، قاتل مأجور شرشوح، يصطاد زبائنه على الماشي ويتفاوض معهم في ميكروباص... أين أنا؟ في شيكاغو؟! الجريمة في دمشق لما تبلغ بعد مستوى متقدماً، يعرض فيه المجرمون خدماتهم على الناس دون معرفة!! لكنه حرك فضوله، ربما كان الرجل مصاباً بلوثة في عقله.

«ما الثمن المتوجب علي دفعه؟».

«لا شيء».

«هل ستقتله بلا مقابل؟».

«ما أبعدني عن القتل، هل تظنني مجرماً؟».

تراجع بعد أن أوحى إلي بأنه قاتل!! قال حامد لنفسه، تلميحاته لا تحتمل وجهين، وتنكره السخيف المبالغ به يدل على أنه رجل تافه، والمحتمل أيضاً من طريقة عقده اللفحة وعلكه المسكة، ألا يكون أكثر من شخص خرائي!! ومن غير المستبعد أن يكون شريف حسني قد أرسله ليستدرجني إلى قصة أخرى، لن تترجم سوى جنائياً. اندفع قائلاً بغيظ:

«لا تحاول الإيقاع بي، ثم التنصل والتظاهر بالمسكنة، أسلوبك مكشوف، انظر إلى طريقة لبسك اللفحة وعلكك المقرف للمسكة، وتلميحاتك الإجرامية المفضوحة. لماذا تخفي وجهك؟ تريد تمثيل دور المجرم الغامض؟».

«هدئ من روعك. لست غامضاً، أنا مثلك أبحث عن عمل».

«أين العمل في ادعائك أنك مجرم طيب لا يتقاضى مقابلاً على جريمته؟».

«أريد أجراً، لكنه قليل. هذا يعتمد على نوعية الخدمة المطلوبة، أضربه علقة محترمة، أم علقة غير محترمة، أكسر له رجله أو يده، أم أصفعه كفين ثلاثة، أو تهديده فقط ليكفّ بلاه عنك، أيهم؟ قل شيئاً، لا تقعد صامتاً كأن الأمر لا يعنيك».

انفعل الرجل، وتلجلجت الكلمات في فمه، وهو يستعرض بضاعته بصوت خشن مرتعش، ربما كان مصاباً بعطب في رأسه!! صدره يخفق، يداه القويتان ترتجفان، راحتا كفيه متصلبتان وأصابعه انعقفت. كان يحاول أن يثير عواطفه كي يستخدمه.

فجأة ارتخت اللفحة، فسارع حامد وعاود النظر إلى ملامحه، قبل أن يغطيها. كانت تقاطيع وجهه المخيفة والمشوشة، متقلصة على نحو يستدر الشفقة، كأنه أصيب بمغص حاد وأليم. وعندما لاحظ عدم تجاوب حامد قال:

«وإذا أردت فلن أضربه، سأتظاهر بخنقه، وأفلته في اللحظة الأخيرة».

«وإذا مات؟!».

«يكون عمره منتهياً».

بدت المناقشة معه مضحكة، تساءل حامد:

«كيف أستخدمك وأنا لا أعرفك؟!».

«لماذا تريد أن تعرفني، سأقوم بما تطلبه مني. وإذا كنت ترغب في

شيء آخر، فأنا على استعداد، لكن أعلمني الآن».

ظهر الرجاء جلياً في نبرات صوته، رجاء يشي بالصدق، كلماته تتعثر وتتقطع. قبل قليل حاول الرجل بخشونته واستهتاره إقناعه بشخصية أخرى، وفي المرتين كان ماهراً في إخفاء ملامحه بسرعة. ماذا يكون، رجل بائس، مراوغ، محتال، أبله؟! لو أنه يطيل الحديث معه فسوف ينكشف أكثر. قال بخفة:

«إنه يستحق القتل».

انتتر الرجل، ففلتت اللفحة وانكشف أنفه كان ضخماً.

«يجب أن تكون يائساً تماماً حتى تفكر بقتله».

«لقد أوصلني إلى اليأس».

«تمهل، إذا كان يريد تكسير رأسك، فسوف أكسّر له أضلاعه».

قالها بحنق محاولاً استبدال قتله بتكسير أضلاعه، ونسي حذره وهو يقترب بوجهه منه، فبانت شفته العليا مشرومة، وخده الأيمن منتفخاً وخده الأيسر متآكلاً. التشويه واضح، بون شاسع بين مظهره المخيف وارتباكه. كان التناقض مثيراً بين هيأته المخيفة وتلعثمه الإجرامي. فليعبث به قليلاً.

«بعد ذلك، لو رغبت مثلاً في أن أشكرك، ماذا أقول لك، هل أقول شكراً أيها الرجل الغامض الذي لا أعرفه؟!».

«لا أريدك أن تشكرني ولا أن تعرفني، لست غبياً، ينبغي أن أحترس، تعامل معي هكذا كما أبدو لك. شخصيتي الأصلية مختلفة تماماً، أرجوك لا تمعن النظر في وجهي».

«ربما كنت تستدرجني حتى تبتزني».

«لا تستغل حاجتي، منذ شهر وأنا بلا عمل. لدي زوجة وثلاثة أولاد، أودعتهم في بيت أهل زوجتي، وهربت منهم، وعدتهم بأن أعود إليهم بشيء ما. ظروفي السيئة تدفعني إلى أي عمل، ولو كان حقيراً، وإلا ما طلبت منك أن تدفع عني أجرة الميكروباص، تصورني أستجدي المارة، ما الذي سيقولونه عني، رجل لا تنقصه القوة ولا العضلات، أطول من النخلة وأعرض من الحيط، يمد يده يسأل الناس معونة؟! هذا ما يضطرني إلى الإلحاح عليك بطلب عمل مهما كان هذا العمل».

لو سمع هذه القصة في برنامج «العدالة والناس»، لما راقه موضوعها، ميلودراما فاقعة، عاطل من العمل وزوجة وأطفال، ورجاء بالمساعدة، وفاقة إلى حد التسول والجريمة!!

«ابحث عن عمل آخر».

«لا تنصحني. أسند إلي عملاً، مهما كان، لقاء أي مبلغ من المال، ولو كان ضئيلاً. اليوم، أنا في ضائقة، سأمنحك سعراً خاصاً، لن تتخيله، مائتي ليرة فقط».

كان الرجل المخيف يتكلم بانكسار، وقد رفع كفيه وأخفى بهما وجهه. أحس حامد بالذهول، الرجل يقدم له جريمة مطاطة، تبدأ بكفين وقد تنتهي بالموت، لقاء مبلغ زهيد من المال. وتخيل على الفور كم سيكون انتقامه بخساً ومهيناً، لو عرف شريف حسني بأن قتله لن يكلفه سوى مائتي ليرة، ثمن أربع باكيتات دخان!! أو ... وخطر له شيء قاتل له علاقة بالصراصير. ضحك بصوت عال، أغرته الفكرة، كانت لئيمة تصلح مانشيتاً مثيراً في صفحة الجرائم:

تكلفة قتل صحافي مشهور لا تزيد على ثمن بخاخ قاتل للصراصير.

□ □ □

رغم الإغراء، فرّط حامد بفرصة ذهبية، وترفّع عن جريمة كاملة رغم تكلفتها الرخيصة، والأهم استحالة الكشف عن المجرم الحقيقي، من هو الشرطي العبقري الذي سيربط بينه وبين هذا الرجل القبيح؟! حوَّل وجهه عنه، مبرهناً بشكل عملي على رفضه للعرض، وانتفاء الرغبة لديه في القتل. أطرق ببصره أرضاً، لئلا تنطبع الملامح البشعة في ذاكرته، مستنكفاً عن اقتناص نظرة أخرى، أو حتى انتهاز أية محاولة توحي بالتلصص الحقير. ثم رفع رأسه وثبت بصره على الطريق، وتعهد في دخيلته بنسيان ما تبينه من تقاطيع وجهه التي لا تنسى. سمع صوته متهدج النبرات:

«ألا تثق بي؟».

«أنا واثق منك، وأصدقك».

«تبدو مستاء مني».

«بالعكس، أعذرك».

«إذاً لماذا برمت وجهك عني؟».

«احتراماً لرغبتك في السرية».

«لا تهتم، لقد أصبحت صديقي، وسوف ترى أي صديق كسبت، اسمي محمود».

«وأنا اسمي حامد. لكن اسمع، أنا لا أفكر في أذية أحد».

هتف الرجل هلعاً:

«لا تقلها».

«حالتي المادية سيئة».

«حالتي أسوأ».

«لا أريد استغلال ظروفك الصعبة».

«سأقبل بالقليل جداً، بضع ليرات تكفيني، ثمن خمس ساندويشات فلافل. لا تخذلني، بعدما فرحت بالعثور عليك».

مد حامد يده إلى جيبه وأخرج منها ورقة أم الخمسمائة ليرة، صرفها من السائق وأعطاه نصفها.

«بصراحة هذا ما أملكه، قاسمتك إياه».

تناولها الرجل غير مصدق وحاول أن يرد المبلغ إليه.

«هذا كثير».

لكن حامد أجبره على أخذه. وشعر بارتياح شديد لأنه أعطاه النقود بلا مقابل. وكان سعيداً لأنه تخلص من جريمة نكراء، ومن فرط سعادته، أخذته نوبة كرم، فقال للرجل الذي أصبح صديقه:

«سأعطيك عنواني، أما أنا فلا أريد عنوانك، لأنني لا أريد منك شيئاً، إذا احتجت إلي تعال لعندي، وإذا توفر معي المال فلن أبخل عليك».

دلّه حامد على عنوان بيته، بينما خفض الرجل رأسه بحياء، وعندما أراد الكلام تهدج صوته، حاول أن يشكره، فنشج بصوت عال. ومن خلال دموعه سأله:

«أنت مترجم».

«هل تريد أن تترجم شيئاً؟!».

«لن أنساك».

نزل حامد من الميكروباص، وركض باتجاه الموقف المقابل.

7

الناقد:
في الأدب، لا محل للاستثناءات،
الجميع سواسية

بيد أن مأساته لم تنته حتى بعد مرور شهرين على سحبه مقالته، وابتعاده عن شلل الأدباء والصحافيين؛ مع أنه من المفترض أن يكونوا قد نسوه. كان عدم تسامحهم معه مبرراً؛ الثقافة على عداء مع النسيان. وإذا كانوا لم يشفقوا عليه، فلأن الثقافة مثلما ترقق القلب تقسّيه أيضاً. ثم لماذا يتصرف المثقفون على نحو مختلف عن غيرهم؟ وهكذا ليس من المستغرب أنهم لم يدعوه في حاله، أو يوفروه من تلميحاتهم الساخرة، آخرها كان في منتهى اللؤم؛ وَرَدَ في ثنايا مقال كتبه واحد من زبانية الصحافي، شبهه فيه بقزم مشوّه يحاول اعتلاء قامة كبار الكتاب. وفي ظهر اليوم نفسه، قال له أحد معارفه، انتبه شريف حسني لم يرتو غليله منك.

«لكنه آذاني بما فيه الكفاية وأكثر».

«المشكلة أنه لا يراك ليشمت بك. انتبه، سيشن عليك حملة ثانية، ختامية وقاضية. أنصحك، اعتذر منه بطريقة ما».

فانفجر حامد:

«لم يبق إلا أن آتيه زاحفاً على ركبتيَّ وكوعيَّ، وأطلب منه الغفران، فيدوس على رأسي وكرامتي، بعدها ربما سامحني... فشر».

طفح الكيل به، واتخذ قراراً لا رجعة عنه، لن يدعهم ينكلون به ثانية، سيقاوم. السؤال الذي اعترضه، كان عن الأسلوب الذي سيتبعه في المقاومة دون الظهور في الواجهة؟ ليلتها فكر وفكر دونما نتيجة، فتعب ونام نوماً متقطعاً وقلقاً.

قبل أن يصحو، رأى نفسه في المنام، واقفاً على عتبة قاعة كبيرة، أسدل عليها الضباب غشاء رقيقاً، تبدت من خلاله مجلدات كتب ضخمة وفخمة، ولوحات من الفن العالمي وصور لأدباء غربيين مشهورين. ينجلي الضباب رويداً رويداً. يرى في العمق، الناقد جميل حلوم يقرأ أو يكتب، إلى أن يرفع رأسه ويتطلع بعيداً بعيداً مخترقاً الجدران إلى المدى الرحب للأدب. ويا للرهبة... لم يكن يتطلع نحو المدى، كان ينظر إليه، وفي انتظاره!! وإذ رآه هب واقفاً، اندفع نحوه واستقبله بترحاب فاتحاً ذراعيه. عندئذ صحا واستعاد الحلم، ما تفسيره؟!

لا يؤمن حامد بتفسير الأحلام ولا بما تتنبأ به من أحداث مطوية في عوالم الغيب، استرعى نظره منظر مجلدات الكتب واللوحات الفنية وصور الأدباء... والضباب الذي انجلى عن رجل انتضى قلماً. الحلم

لا يحتاج إلى تفسير، بل يفسر نفسه بنفسه؛ كان يحضه على الذود عن قضيته، مثلما ارتأى تماماً، مواربة دون الظهور للعيان وتعريض شخصه لنقمة خصمه الموتور، بل وقدم إليه مشكوراً رجلاً يتولى الدفاع عنه؛ الناقد الذي ظهر في الحلم، والموجود في الواقع أيضاً، وربما كان ينتظره الآن.

□ □ □

جميل حلوم رجل أدب محترف، ومن أهم النقاد الحاليين، وهو الوحيد الذي ينعم على الأدباء بالتزكيات والترفيعات والتصنيفات المضمونة طويلة الأمد، لا لعدم وجود نقاد كفوئين، بل لإطلاعه الواسع المشهود به. كان حجة في ميدانه، بنى سمعته القاسية من شدة أحكامه الصارمة وآرائه الصدامية. استطاع البقاء على قيد الحياة النقدية طوال الربع الأخير من القرن الماضي؛ أكثر القرون اضطراباً وتقلباً، وبرهن على قدراته بكتابة مقالات عويصة وطويلة، لا يُفهم منها، هل هو في وارد المدح أم القدح، فحيَّر الممدوحين والمقدوحين، فعمل له الكتّاب ألف حساب، اتقاء غضبه الجارف وحججه المتينة المستمدة من معرفة راسخة.

بالاستناد إلى الحلم، وجد حامد في الناقد سهمه الأخير. كان على الأقل ممن لم يهتموا بالمماحكات المسفة التي تناولت ترجماته، وبسبب هذا الموقف الذي لم ينتهزه، يصح الوثوق به. ولا يصح الركون إلى ما يروى عن عدم أمانته النقدية، فقد ادعى البعض بأنه يستغل معارفه النظرية لمآرب شخصية، لأنه كما قيل، رفع نساء وفتيات من الحضيض الدنيوي إلى قمة الأدب الرفيع، وأصبح يشار إليهن بالبنان، فلم يتورع مثلاً عن مديح شاعرة مبتدئة ذات ماض شنيع، لكن وجهها جميل وشَعرها طويل، بمقال رائع يحفل

بتفسيرات زئبقية وحلزونية تُحَمِّل شِعرها عمقاً فريداً، ترقى فيه دلالة الكلمة والنقطة والفاصلة إلى استشفاف البؤس البشري واستشعار نهايات الكون؛ وبالمقابل، السخرية بشاعر شاب موهوب وطيب ينتظر كلمة تشجيع، فعاقبه كأنه ارتكب كبيرة الكبائر، بإحالة شعره إلى تفاهات غثة.

من الادعاء التنطع لتحليل شخصية الناقد جميل حلوم، شخصيات النقاد غير سهلة، ربما لأنها مركبة، تحتوي على شخصيتين أدبيتين متناقضتين وأحياناً أكثر، خاصة عندما يعتقد النقاد بأنهم مبدعون أسوة بغيرهم من الأدباء، وليسوا مجرد مفسرين متواضعين للأعمال الأدبية، بل ويعتقد بعضهم أن نصوصهم النقدية إبداع يفوق ما يكتبه الكتاب العظام من روايات وأشعار. فكيف يتواضعون أمام رواية، إذا كانوا أكبر منها، وباستطاعتهم تفكيك أوصالها والتمثيل بها وإحالتها إلى ركام؟! هذه الإشارة ضرورية، لندرك أن الروائيين والشعراء ليسوا أهم من النقاد، وإن كان هؤلاء يتعيشون على ما يكتبه أولئك.

اشتهر جميل حلوم بقوة القلم وشدة المراس، ومنافحته عن قضايا سياسية فات أوانها، ووطنية تُعد من الثوابت، يوشيها بحذلقات فظة وسخريات تبلغ حدود الوقاحة، مع صفاء ثورجي حالم. أما الأدب، فكثيراً ما أرفق القضايا الأدبية عسيرة الفهم، بتنظيرات ذكية، متخمة بصلف فكري، يثريها بتلوي شروحه، وهذا نابع من إيمانه بأن ليس من مهمة المثقف تبسيط الأفكار وتعميمها، بل تعقيدها ولو اقتصرت على النخبة. وكان أول من أثار قضايا نقدية حساسة، ورد الاعتبار للنقاد الحقيقيين مميزاً بين نوعين، فوصف الناقد البرجوازي بـ«الخادم الوضيع» للأدب، وهو مجرد بائع كتب، يقوم

نقده على ترويج الأدب الرأسمالي بالعمل على تسويقه بعروض زائفة وتفاسير مضللة. أما الناقد الثوري فهو «الخادم الأمين» للأدب. وقد أثارت كلمة «خادم» ثائرة الأدباء الثوريين وأزعجتهم، إذا كان هناك خادم، فهناك سيد، ألم تلغ هذه الكلمة من القاموس النضالي، حتى لو كان الأدب هو السيد، أو سعادة، أو معالي، أو فخامة؟! فبدلها إلى «الحارس الأمين» بمعنى المؤتمن على الأدب. فصح القول بأن الأدب أمانة في عنق النقاد.

عموماً شهدت له مواقفه السجالية المتعددة بالحس القومي السليم المتقدم على أقرانه متجاوزاً القومية القديمة المتداولة، مع توجه يساري فائق اليسارية، متفوقاً على طروحات الأدباء الثوريين والقوميين معاً. كذلك كتب ضد السلطات والقمع والرقابة والإرهاب، وندد بالتدخل الأميركي في مختلف بلدان العالم، وقاد حملات التوقيع على العرائض الاحتجاجية دفاعاً عن حرية الفكر والمفكرين، ولم يتساهل مع الرافضين والمعتذرين والمتخاذلين. لم تنشر عريضة، إلا كان اسمه على رأسها.

هضم النظريات النقدية المتتالية التي هيمنت على المنطقة طوال أكثر من نصف قرن، بالإضافة إلى النظريات المؤسسة والأساسية، وتقلب بينها بمرونة فائقة. ومع تضلعه بالموضات الأدبية الطارئة، بقي وفياً للأدب الهادف رغم استخفافه العلني به، واستناداً إليه تشدد في تقييم الأنواع الأدبية، فلم يقبل اعوجاجاً عن تقدميتها. كانت أية شبهة رجعية كفيلة بتحيزه ضدها. حتى أن الكُتَّاب ضربوا في تعنته الأمثال. فرأى أن الرواية تصبح بوليسية، وهذا برأيه مما يحقر الرواية وينفيها إلى مجال الإثارة الرخيصة، إذا ظهر فيها شرطي ولو عابر سبيل، أو واقفاً عند تقاطع طرق يسجل مخالفة مرورية.

(وهذا ما يجعلنا نخشى على روايتنا من هذا الاتهام، دون أن تكون أهلاً له، لا سيما أن في الرواية من سينتحل عدة شخصيات ويتنكر تحت عدة أسماء، بالإضافة إلى أن أحد شخصيات الرواية مجرم غير محترف، ساذج يدّعي الإجرام، ويعرض خدماته على الملأ، كما مر معنا قبل قليل؟! هذه الأمثلة وغيرها لم نوردها إلا لأن هذا التصنيف سيشملها، فهي لا تخلو مما ذكرناه مع البحبحة؛ زد عليها جريمة قتل عن سبق تعمد وإصرار مع قدر من الإثارة والنوايا الإجرامية. وهذا لا يمكن الجزم به، لأن الأحداث ما زالت في بداياتها. لكن الأهم جماعة غامضة، لوجودها أصلاً قبل البداية. جماعة ربما كانت مافيا!! يا للهول، مافيا أيضاً؟! هذا ما سوف يقوله بامتعاض).

بما معناه، حسب منهجه النقدي، أن الرواية البوليسية السريعة الحركة، غير لائقة بالأدب العميق الذي عادة ما يكون بطيء الحركة، تسير أحداثه بروية وأناة. بينما التشويق سطحي، يُفقد الرواية رصانتها، ومكانتها بين المؤلفات الجادة التي تتيح للقارئ التأمل المديد، وبالتالي مجاراة التفلسف الثاقب، والتمهل بالاستمتاع بالأفكار الكبيرة. كل هذا سيضيع، لو مست الرواية شبهة بوليسية، أو حتى تشويش بإطلاق بعض الأعيرة النارية، ولو في حفلة عرس.

(لهذا وغيره، سيرمي الناقد حلوم هذه الرواية بعيداً إلى مكان لا تقع عليها الأبصار، ولن يضعها جنباً إلى جنب مع الروايات التي برع في تقريظها وتشريحها وقتلها من فرط تفصيصها، وهي روايات لا يزيد تعدادها على عشر روايات عربية، تنقص أو تزيد قليلاً حسب متانة علاقاته الشخصية).

وعلى الرغم من تأكيداته مراراً على أن معاييره النقدية أدبية خالصة،

فكثيراً ما حط من قدر روائيين رومانسيين كبار في السن، ورفع من شأن روائيين يتمرنون على كتابة روايات عقائدية ووطنية، لكنهم موظفون في دوائر يحسب لها ألف حساب، إذ لديه هو أيضاً حساباته. وكان يتباهى بقدراته التحليلية، فزعم أنه يستطيع لو شاء، أن يعثر في العمل الروائي على الكوليسترول في الدم وعلاقته بأمراض الشرايين، أو يُخرج لو أراد أعظم رواية من عالم الإبداع حتى لو كانت لدوستويفسكي وبروست معاً. كانت سطوته، والوقائع تشهد، لدى غالبية الأدباء والمتأدبين على قوته التدميرية، فلا عجب أن اشترى الكثيرون صمته بالتزلف إليه.

□ □ □

لم يجتمع حامد سليم بالناقد جميل حلوم إلا لماماً. في تلك المرات القليلة، أظهر المترجم للناقد احتراماً طبيعياً دونما تكلف، واستمع لآرائه، ووافقه عليها مع أنها لم تعجبه كلها، لم يكن اختلافهما السياسي مشكلة، لأنه لا يهتم بالسياسة. ولا اختلافهما الأدبي معضلة، لأنه لا يفهم طروحاته؛ وكانت في تلك الفترة بنيوية وتفكيكية.

استبشر المترجم تفهماً من الناقد الذي لم تستعص عليه نظرية شهيرة في الأدب اعتمدت حجتها على الخطوط البيانية والدوائر والمربعات والمستطيلات؛ وترفع عن المعارك الأدبية الصغيرة، ولم يشارك في الحملة ضده، لا من قريب ولا من بعيد. وفسر حامد صمت الناقد في الحلم باعتراضه على المنحى الفاضح بتحيزهم ضده.

كان اللقاء في منزل الناقد، بعد أن طلب حامد منه موعداً على الهاتف لاستشارة أدبية. ومنذ اللحظة الأولى، عندما أدخله أحد

أتباعه وقاده إلى غرفة المكتبة قبل أن يغادر، تراءى له أن حلمه في سبيله إلى التحقق. إذ على عتبة الغرفة، انسدلت غلالة رقيقة من ضباب رمادي جلل المرئيات، ظهر من داخله الناقد يكتب أو يقرأ. طبعاً نهض لاستقباله، لكنه لم يفتح له ذراعيه، صافحه فقط. فيما بعد عندما سيُعيد الحلم إلى نصابه، لن يكون ضباب الواقع سوى غبش طرأ على عينيه.

طالعته المكتبة عامرة بالكتب واللوحات الفنية والتماثيل الصغيرة، مثلّت بمجموعها صدمة رائعة في جلالها وأناقتها وغبارها، عبرت به إلى محراب يعكس حياة فكرية حافلة بالمعرفة وطلب الحقيقة، لا تقف عند حدود الممنوعات ولا تكتفي بالمسموحات، فمن الكتب التاريخية والدينية والتراثية الصفراء، إلى الشيوعية الحمراء والجنسية الزرقاء والإباحية القرمزية الملتهبة، انتهاء بالمدارس الفلسفية ومختلف التيارات النقدية العالمية الكلاسيكية الوقورة، والحديثة الثقيلة والبراقة، إلى جانبها مكتبة باللغة الفرنسية تشهد بقوة على ثقافته الفرنكوفونية، وحصوله على شهادة دكتوراه لا يعلم أحد بأي شيء، من جامعة السوربون التي لا يُعلم إن كان رقمها بالآحاد أو بالعشرات. فيما أكدت اللوحات المعلقة على الجدران تذوقه للفن التشكيلي باقتنائه نسخاً مطبوعة مطابقة للأصل من لوحات عصر النهضة العارية، وفان غوخ المشمسة، وموديلياني المتطاولة، وبيكاسو الوردية، ودالي السريالية، وبوش الكابوسية، وبيكون المشوهة، ونفايات البوب آرت، مع تماثيل فينوس وفولتير وماركس وغوركي ولينين، المعالم الصلبة على مناهل ثقافة الناقد المتنوعة والمتشعبة.

في بداية لقائه به خابت توقعاته. بان الناقد القصير القامة والعريض المنكبين متجهماً مثل الفلاسفة المتشائمين، وشرساً مثل المصارعين،

ولم يتوان عن تسديد ضربة مفاجئة ومؤلمة، كانت تحت الحزام، دون مقدمات مع ابتسامة تهكمية، اتسعت أكثر من اللزوم؛ كان قد دبج مقالاً ضده، وعلى وشك أن يرسله إلى الجريدة للإسهام في المعمعة التي ستبدأ، وتنبأ:

«هذا المقال سوف يفرمك».

لوَّح بإصبعه بثقة، كأنه حقق انتصاراً على أعدائه الأزليين من الإمبرياليين العتاة والجدد من المتأسلمين الإرهابيين. متوعداً، بأن ما سيكتبه سيتكفل بالإجهاز عليه.

لم يفقد حامد ثقته بالحلم، رغم المطلع المحبط، الموقف يقول: الحلم يباري الزمن الخطي ويسبقه بأشواط، وإذا كان قد ضمن النهايات، فلن تضيره البدايات، ثم ألم يصل إلى الناقد قبل إرساله مقالته إلى الجريدة؟! كانت الابتسامة الواسعة جداً للناقد قد ضاقت، وصارت مزمومة جداً، أقرب إلى التشفي منها إلى الرثاء، ومن جانب آخر بدت انتهازية، وصاحبها على وشك أن يخوض حرباً استئصالية، يقطعه فيها إرباً إرباً، عبَّر عنها قبل لحظات بالفرم فرماً.

لم يدم تفاؤله، الابتسامة المتشفية كانت أقوى من الحلم، أفقدته توازنه، وأحس بالدوار من موقف الناقد الذي لاح متعنتاً أكثر مما هو معروف عنه، وهو يكزُّ على أسنانه ويرمقه بنظرة جزار يجلخ ساطوره استعداداً لتنعيمه إلى فتافيت لحم دقيقة، كي تبقى راية الأدب خفاقة في العالي. كان منظره المتحفز كافياً ليلوم حامد نفسه، ويميل إلى تصديق الشائعات المغرضة الرائجة عنه، كيف فاته أن هذا الناقد يحلل الحرام ويحرم الحلال، لا حباً بهما أو كرهاً لهما، بل استعراضاً لشطاراته النقدية، وأن طموحاته لا تتركز في

عمله ناقداً، بل في توسل النقد لكتابة نص جديد علاقته بما ينتقده واهية، وليس سوى متكأ لإظهار براعته في استعمال أسلوبيات مراوغة مثقلة ببلاغيات مرهقة وتراكيب معقدة، واللف والدوران حول فكرة صغيرة حتى تصبح كبيرة جداً وفارغة جداً، بحيث لا يعدو مديحه للآخرين سوى انتهاز الفرصة لمديح مهاراته وتبيان حداثية ثقافته.

أسقط في يد المترجم، ولم ينبس سوى بكلمة واحدة كانت رخوة تماماً.

«لكنني..».

عبرت أحسن تعبير عن النهاية اليائسة التي استشعرها مسلطة فوق رأسه. فتريث الناقد المخيف. كانت «لكنني» التي نجح المترجم بلفظها قد أدت غرضها، باستدراك كان فعّالاً رغم أنها لم تزد على بضعة حروف، لكنها أومأت إلى جملة كاملة: «لكنني لم أتلفظ بحرف واحد بعد!!» أشفق عليه وقال باستخفاف:

«أقنعني بوجهة نظرك».

توجس حامد شراً، لكنه لم يفقد رجاءه كلياً، لا بد أن للحلم صدقية ما، فتأتأ وثأثأ. سارع الناقد مؤكداً:

«أقنعني، وأنا على استعداد لتمزيقه».

لكنها لم تكن مسألة إقناع، بل مسألة تفهم وتسامح. ترى إذا تفَهَّم، هل يتسامح؟ أوجز اعترافه:

«فعلتي مشينة».

«اتفقنا».

لن يعوقه الناقد الذي سرَّ باعترافه عن الغمغمة في الكلام، وتمهل منتظراً بأريحية أن يأخذ المترجم راحته في المطمطة والشطشطة، قال حامد:

«أقصد أنني حالة خاصة في الترجمة، أنا أول من يشكو منها».

«في الأدب، لا محل للاستثناءات، الجميع سواسية».

ومع هذا أبدى رغبته في الاطلاع على حالته، لكن ليس قبل أن يحذره:

«لن أعدّ خصوصيتها مبرراً للتغاضي عما نجم عنها من تجاوزات».

لاحت بارقة أمل قوية في قبول الناقد الاستماع إليه، وإن مازال الموقف صعباً: أكثر من مرة تعرض للدفاع عن رؤيته الخاصة في الترجمة، وحاول تسويغها بعبارات جهد في أن تبدو معقولة، فلم تخل من وهن. الآن والناقد على استعداد للإصغاء إليه، سيحترس من كل حرف يتلفظ به، كي لا يسيء تأويله. خاصة أن النقاد يؤولون على هواهم. هل يستطيع؟ لا. إذاً، الحقيقة أفضل دفاع. في الواقع كان ما يبقبق في داخله على وشك الغليان، وعليه الإفراج عنه، بإفساح الطريق له. في هذا الموقف العصيب، واجهته الحقيقة بقوة، وأدركها بجلاء، وسيقولها جهراً لأول مرة:

«لدي ضعف لا يزايلني إزاء الشخصيات الروائية».

صمت محدقاً إليه عسى أن يعفيه من قول المزيد، كان قد أحس بالذعر من قول ما أدرك أنه غريب جداً، يفوق حتى ما توقعه، كانت الأفكار تتناهبه وتخيفه. شجعه الناقد:

«أنا أيضاً أحس بضعف إزاء الشخصيات الروائية العظيمة، أحس بها

أقوى من الشخصيات التي أقابلها في الحياة».

تحمس المترجم، فليكشف عما تهيأ له بلا محاذير، الناقد حلوم هو الشخص الوحيد الذي سيفهم ما يعتمل في رأسه. قد تكون حالته شبيهة به، فليتكلم.

«إنها أقوى بما لا يقاس، أنا لا أستطيع تجنبهم ولا مقاومتهم، يخرجون من الورق، وأنا أغادر الواقع، نمضي معاً إلى منطقة تقع على حوافهما، هناك بين الورق والواقع، يخلعون الأقنعة وتصبح النفوس عارية، فتحرضني على التوغل في مجاهيل دخيلتها، أمضي فيها وأكتشف بعض خباياي ومكنوناتي، أية أعاصير وأنواء تدهمني وتأخذني إلى حيث لا عودة!! فلا أتابع، أتوقف، يشق علي مواجهتها. الخوف يدركني. بصراحة، الشجاعة لا تسعفني».

«حالة روائية فريدة» علق الناقد بحسد.

«ليست جميعها هكذا، إنها حالات نادرة؛ الشخصيات تختلف، بعضها لا أقيم له وزناً».

«أتفهم هذا، ولا ألومك».

«وبعضها الآخر أحس تجاههم بالمحبة والعرفان بالجميل، وأحنو عليهم، وقد أتماهى بهم. أرغب في تقديم شيء لهم، فتنازعني نفسي إلى إغنائهم بفكرة، أو إضافة تفصيل صغير إليهم، أو ترميم ثغرة في بنيانهم. واسمح لي بالقول، مهما بلغت معرفة الكاتب بالنفس الإنسانية، لا يستطيع إيفاء شخصياته حقها من التعبير، ثمة تقصير، أحاول تدارك بعضه. أحياناً من شدة اقترابي منها وتفاعلي معها أتحسس آلامها، فأحس بسوء الحظ الذي لازمها، والظلم

الفادح الذي أصابها، أرغب في منحها فرصة ثانية، مما يدفعني إلى إعادة النظر في الرواية وأحداثها وأسلوبها، وتصحيح أمور غابت عن صاحبها، واستكمال نواقص سها عنها!! على التأكيد لا تأتيني، عفو الخاطر، وليست شطارة أو حشراً للإضافات الأدبية، ما أفعله ناجم عن انغماسي الكلي فيها، وسعيي إلى تكهن تأثير الأحداث عليها. هذا كله أمارسه في ذهني من خلال معايشتي لها وتخيلاتي عنها، فيتسرب نزر منها ليس باليسير إلى ترجماتي».

«هناك شخصيات ضعيفة الإرادة، منكودة الحظ، أو سقيمة لا نفع منها، ما الذي يصلح أحوالها؟!».

«آه، هذه، أتمنى لو أكتبها ثانية».

«أنا أيضاً صادفتني شخصيات روائية، لاقت هدى في نفسي، واستحوذت على تفكيري وتصرفاتي لأيام وأسابيع، لم أتخلص منها إلا بصعوبة فائقة».

لم يكمل الناقد سرد حالته، تنبه قبل أن يذكر شخصيتين أثرتا عليه في مراهقته الخانقة، المسخ صرصار كافكا، ومنبوذ ديستويفسكي الذي تحدث من قبوه؛ المترجم لن يأخذهما ببراءة أدبية على محمل الاغتراب والوحدة القانطة، بل على محمل البؤس والحقد وكراهية البشر. أدرك الناقد أنه ذهب بعيداً مع المترجم، في مغامرته المغرية بالمتابعة. وخشي من إبداء أي تعاطف معه، قد يظن أنه يوافقه على آرائه. احتاط، قبل أن يجره إلى حالته، كان في وصف روعتها شعوذة ماكرة، وقاطعه بحدة:

«أنت مؤهل لارتكاب أكثر من حماقة، بل عدة حماقات دفعة واحدة، أين الترجمة من هذا كله، دقة النقل...سلامة التعبير؟».

«لا أغض النظر عنهما، أعتني بهما، لكن تداعيات السرد تأخذني معها، والشخصيات تستولي عليَّ. تعتمل في داخلي أشياء، تترك أثاراً، تُولِّد لدي أفكاراً ومشاعر، أعبر عنها بترجمة ما أخذ يدور في رأسي عنها، وما أتخيله بشأنها، أو حتى ما أحلم به. أعلم أنها من تداعيات قريحتي، ما أفعله، أسهم فيه دون تعمد، لست مجبراً عليه، بل مدعو إليه. هل أدير ظهري لها؟! لا، بل ألبي الدعوة، أو، وأقولها صراحة، فقدت عملية الترجمة بالنسبة إلي، جمالها وجاذبيتها ومتعتها. هذا هو عائدها الرئيسي».

«هذه ليست أسباباً يؤخذ بها. المترجم يترجم ما هو مكتوب على الورق فقط، دون تدخل، وبلا زيادة أو نقصان. ما تفعله، أقل ما يقال فيه، إنه اعتداء على الكاتب والكتاب معاً».

«لكنها مجزية بالنسبة للقراء، يحصلون على عمل مضاعف، مكتوب مرتين».

«بل تخدعهم، إنهم لا يقرأون الكتاب الأصلي».

«لكنني أقدم لهم كتاباً صلته بهم أقوى».

«بل الكتابَ مشوهاً، هل تستطيع أن تنفي علاقته بالكتاب الأول، إنه مبني عليه، ما تفعله أمر لا يُسيء إلى مفهوم الترجمة فقط، بل ويقضي عليه؟»

«لا تنس، الترجمة الجيدة تعنى باحتواء الكتاب وشخصية الكاتب معاً».

«لا أحد يستطيع احتواء أحد، فما بالك بكاتب!».

«لا أحيط به تماماً، بل أحاول؛ ففي الوقت الذي أعمل فيه على نقل الرواية، لا أنقطع إليها كلية. لدي أشياء مختزنة في داخلي، تمدني بالكثير فتتفاعل مع ما أقرأه. وتهيمن عليَّ حالة من الصفاء، أتأمل فيها ما يدور من حولي، تتفتح عيناي وعقلي وقلبي عما يجري في الحياة، ورغم أنه سرد مبعثر غير مركز، لكنه يتداخل مع السرد الروائي. وشخصيات من ذاكرتي وخيالاتي تظهر وتغيب، تعقد صلاتها مع أشخاص الروايات، فيتبادلان المآسي والتجارب والأحاسيس، ويأخذان بعضهما من بعض».

«لا تقنعني، هذا خلط لا يجوز عليَّ».

«كيف أنقل رواية ما، من أي لغة، أو عصر، أو بلد، من غير أن أتأثر بالعصر الذي أنا فيه، والمكان الذي أحيا فوقه؟!».

الناقد لم يجب، كان يفكر، فيما صرخ المترجم وقد أخذته الحماسة:

«إذا كنا بصدد الأمانة، فالأمانة للحياة لا للكتب».

استوقفه الناقد وطلب منه أن يوجز طريقته في الترجمة، دونما فذلكات. فأورد حامد خلاصة مختصرة، كانت دفاعاً محضاً عن أسلوبه:

«أنا لا أترجم الكتاب الآتي من زمان ومكان آخر فقط، بل وأترجم معه أيضاً، ما يربطه بالمكان والزمان الحاليين؛ كلهم معاً ومتداخلين. تخيل عندئذ ما يخطر لي، يا إلهي... أية آفاق تلوح...!!».

دهش جميل حلوم، راقت له الفكرة رغم تفنيداته التي تطال طروحات المترجم بأكملها؛ حتى أنه عندما أمعن النظر فيها، وجدها

تنضح بعناصر ديناميكية مشبعة بعولمية مستقبلية، تحتوي الحاضر مثلما تستوعب التاريخ أيضاً، تشق طريقها برؤيوية جسورة على الورق. فأعاد شرحها لنفسه بأسلوبه الصاعق: نبوءة جنينية خارقة، تتلامح بمثالية على صورة أمانة حقيقية وقصوى، لا تخلو من شغب جلي، شيء يتجاوز التبسيط التافه، لا يفتقر للحرارة، وحس إيماني مثير، لا يمكن فهمه، لكن من الممكن الإحساس به. كان أمام حالة خاصة وعبقرية تربط الحياة والعالم مع الراحل والراهن والمختزن تصوغها الكتابة والترجمة. ينبغي التفكير فيها ملياً ومن جديد، فقال له برصانة:

«دعني أفكر».

لا شك في أنها صرعة لماحة، ومن الممكن إطلاقها وتفجير هذه الأجواء الثقافية الخاملة المتلهفة لأي جديد مهما كان سخيفاً، فماذا لو كان لافتاً بهذه الحدة، وغريباً بهذه الجرأة؟! بالإمكان إرسالها إلى أوروبا وأميركا، كتقليعة شرق أوسطية، تعد بتفاعل زمانين ومكانين، الغرب والشرق، بين دفتي كتاب، تشكل مخاضاً لتفاهم الآخر مع الآخر، وحواراً بين السطور على ورق أبيض، هادئ ومسالم، وبلا ضغائن مستحكمة!! وعبّر عن فرحته بهذه اللقية الباهرة لهذا العبقري القميء الواقف بكل تفاهة إلى جواره:

«أعدك بحملة معاكسة».

وطلب من حامد إمهاله يومين فقط، ليرى بأم عينيه كيف ستنقلب المعركة لمصلحته، محدداً مدى اتساعها؛ لن تكون محلية فقط، بل وسوف ينقلها إلى البلدان العربية. وكان موعدهما في اليوم الثالث.

حقاً، للأحلام كراماتها.

8

سيرة فكرية:
صفعة لهؤلاء الذين ينكرون قدرة التاريخ على مساعدتنا في فهم العالم والبشر

من السهل تخيل حجم الحملة الموعودة المعاكسة وإجراءاتها بمستوياتها المعتادة الدارجة في الأوساط الثقافية. عادة يتَّبع النقاد أسلوبين الشفاهي والكتابي، الكتابي معروف، أما الشفاهي فلا بد من التعريف به، إذ يعود بالنقد إلى أصوله الأولى، التي بدأت باللت والسوالف، والتعريض بما يفعله الآخرون، ويتم جلوساً على المقاعد، أو على الماشي.

جميل حلوم انتهج الاثنين معاً، الأول بالقلم ويأخذ طريقه إلى الجرائد والمجلات والدوريات الأدبية، والثاني الشفهي يمارسه بنوعيه، جلوساً في المقهى، أو ماشياً مع أحدهم، أو بعضهم في الشارع. وفي كليهما يتبع الخطوات التالية، يرمي رأيه بكتاب صادر حديثاً،

قد يكون تصفحه أو لم يقرأه، وهو رأي سلبي حتماً، إذا لم يكن على وفاق مع الكاتب؛ متوخياً بخبث إلقاء كلمته النافذة بين رهط من الصحافيين والكتبة هواة الكتابة الإبداعية، فيتلقفونها ويسعون من فورهم إلى إثباتها كيفما اتفق بحجة، أو من دون حجة، لا تهم قوتها أو ضعفها، ما دام سندها الناقد المعلم الذي خصهم برأي فصل لا يأتيه الباطل من أمامه ولا من خلفه، ولن ينفع الكتاب أن يكون بريئاً من هذه العيوب والمثالب، حتى لو كان شكسبير بلحمه ودمه قد خطه بيراعه. عَقِبَ كلمته هذه، تنطلق الحملة الصحافية في إثر الكاتب؛ وكان الناقد يعلق على سرعة تجاوبهم، بأن كلمة واحدة منه كافية لتنطلق كلابه على أثرها.

الإجراءات التي اتبعها الناقد في شن حملته، ابتدأت بعد خروج المترجم. أجال بصره في الغرفة، وكان ما زال منبهراً بما سمعه، فاستعاد هيئة المترجم الوديعة والكئيبة، وأصابه الاشمئزاز من مظهره عندما تذكر كيف انحنى باتضاع أمام الكتب يقرأ عناوينها، بدا في وقفته الذليلة أشبه بفأر لا يقرض الأدب، بقدر ما يسعى ليختبئ خلف الكتب.

استعاد صوابه، ما هذه الحماقة، هل كان فعلاً في سبيله إلى دفع التهجمات عن هذا الفأر الهزيل، ومتى؟! بعدما استفحلت قضيته، ولم يعد بوسع أحد التراجع عن موقفه!! وكيف سيردّ عنه الأقاويل، ويدافع عما يتهيأ له من خيالات مارقة؟! نحن في زمن عقلاني يستهجن إيجاد المعاذير لحالة هوس مائعة، لن يأخذها أحد بجدية، الرأفة وحدها قد تنظر إليها كنوع مترد من العبث الأدبي، لا المغامرة الجريئة.

بهذه المحاكمة الخاطفة، تنصل من المترجم؛ وبخصوص الصرعة

الجميلة التي خلبت لبّه عن المكانين والزمانين المتداخلين على الورق، لن تضيع هباء، بوسعه الانتظار سنة أو أقل، ثم يُخرجها في حلّة أخرى على أنها فكرته، ويديرها على مستوى أرقى وأرفع، بل وأنفع، وبشكل أكثر عمقاً وأفضل ابتكاراً. عندئذ، من سيصدق، أو يلتفت إلى ما قد يلغو به هذا الفأر المصاب بالثأثأة؟! الأغلب، حينئذ، سيكون قد ترك الأدب لأهله.

□ □ □

ترى ما المبرر في أن يتعمد ناقد له صولات وجولات في عالم النقد سرقة فكرة لمترجم مغمور، ولا يتورع عن التخطيط للتمويه عليها؟! ثمة خلل أخلاقي في شخصيته، إن لم يكن وضاعة متأصلة لكي يتحول وعلى هذه الشاكلة الانتهازية إلى لص، بعد أن أوقع في ظن حامد أنه سينبري لخوض معركة طاحنة دفاعاً عن الخيال!!

لو أن حامداً استعاد تاريخ الناقد (وهي صفعة لهؤلاء الذين ينكرون قدرة التاريخ على مساعدتنا في فهم العالم والبشر) واسترجع نشاطاته السياسية، ابتداء من مقاتلته أميركا الرأسمالية وربيبتها الصهيونية، إلى مصارعة الإمبريالية العالمية بانطلاقتها المعولمة الجديدة، وتأثيرها على عمله كناقد فلن يدهش، إذ لن يكون في ثباته الراسخ ولا في تحولاته المثيرة ما يدعو للدهشة.

المقصود بنشاطات حلوم السياسية، ركوب موجة اليسار، حينما كان اليسار بأحزابه وتياراته المتطرفة والقويمة والمنحرفة، يستهوي الأدباء الشباب المتحمسين والكهول الحصيفين والشيوخ المجربين بنظرياته العلمية واشتراكيته الإنسانية وجدلياته المادية، ويوفر للطاقم الثقافي عتاداً أدبياً من النوع الثقيل: للنقاد مناهج نقدية، وللشعراء

رموزاً ثورية، وللروائيين مدداً من الأبطال الاشتراكيين والزوجات الصلبات والأمهات المضحيات، وللقصاصين قائمة غنية بالبؤس والأسمال البالية، ولكتاب المقالات السياسية سلسلة من العناوين العنيفة تحرض على الثورة ضد الإمبريالية، وتهيب بقوى الشعب العامل وغير العامل التحالف ضد القوى الرأسمالية؛ وتزود الخطباء بذخيرة من البرامج النضالية العالمية مع مصطلحاتها الجاهزة؛ تبدأ بالبروليتاريا الظافرة وتنحدر إلى البرجوازية المندحرة. من هذه التشكيلة الواسعة، لا يعنينا سوى النقاد الذين هاجوا وماجوا وقارعوا الأدباء المخضرمين معاصري الانتداب والاستقلال والحكم الوطني، فطحشوا فلولهم من الساحة الأدبية، دون أن تشفع لهم ضآلة برجوازيتهم الصغيرة بأدنى قدر من التسامح، أو وطنيتهم التليدة بقليل من الرأفة.

لم يكن جميل حلوم قد أصبح ناقداً نافذاً بعد عندما سطر مقالاً مقذعاً ضد دعاة النقد الشكلاني، مستعملاً الأدوات المادية الصرفة لنظرية الواقعية الاشتراكية. فالتفتت صوبه أنظار زعماء اليسار، وفتحوا له الأبواب على مصاريعها، وأخذوا يتخاطفونه، فلم يرض بأقل من الحزب الشيوعي، لأنه أصل وغيره تقليد. فيما بعد، التحق بحلقة تروتسكية صغيرة، لأنه لم يقنع بأقل من الثورة الدائمة، استعاض بها عما تمثله الماركسية السوفياتية المتحجرة من ثورة غُدر بها وتبرجز قادتها.

كان من ضمن ما تولته الأحزاب اليسارية من مهام، بالإضافة إلى السياسية، تثقيف أعضائها وأنصارها أدبياً، بانتقاء منوعات مختارة من الشعر والنثر تقدمها لهم مرفقة بدليل السير التقدمي، فزكت في اجتماعاتها الحزبية ومن فوق منابرها وعلى صفحات مجلاتها

وجرائدها السرية والعلنية نخبة من كادحي القلم، كان جميل حلوم واحداً منهم، وضعهم الحزب الشيوعي تحت رعايته وباركهم وأخذ يروج لهم، ومنحهم دون عناء جماهير غفيرة تقرأهم وحدهم فقط، دونما شركاء، بقصد التثقف بثقافة ثورية خالصة لا تشوبها أية فكرة رجعية؛ جماهيرٌ إعجابها مضمون، وحماستها مفروغ منها.

في تلك الحقبة اليسارية المثالية المناهضة لأي نوع من الاستغلال، لم يكن تعاطف الأدباء مع المضطهدين ودفاعهم عن فقراء العالم ومساجينه السياسيين. إلا من فرط قناعتهم بأن الغلبة في الصراع القائم بين العالم الاشتراكي والرأسمالي، سيكون للاشتراكية حتماً، وأن شعلة اليسار ستبقى خالدة إلى الأبد. فامتطوا القطار الذاهب إلى النصر، واتخذوا أمكنتهم في مقطوراته السريعة، وبشروا به من مقاعدهم الأمامية، ووصلوا إلى المستقبل قبل المناضلين الأشداء والأموات القتلى، وفي طريقهم امتدحوا في قصائدهم الرابضين في الخنادق عند خط النار. وحسبما أعلنوا، كانوا مثلهم في الخنادق، لكن الآمنة والمضمونة، فضمنوا المآدب والمنافع والشهرة.

لم يكتف هو وأمثاله من الأدباء باكتساب الشهرة، بل وأدخلوا في روع الجمهور، أن أدبهم هو الأدب الحقيقي، ووحدهم الأدباء الحقيقيون، وما عداهم برجوازيون يكتبون أدباً عفناً. ومن الغرائب، إيقان الأدباء أنفسهم، بأن شعبيتهم جاءت نتيجة أدبهم!! وهكذا على أكتاف الحزب الشيوعي والفلاحين والبروليتاريا وروسيا والنضال الأممي والعربي والفلسطيني، صعد كتاب وتسنموا قيادة الأدب، فأصبحوا قادة والأدب مقاداً.

اعتقد رؤساء الأحزاب أنهم ألحقوا بكوادرهم فصيلاً متميزاً من المثقفين المنافحين عن التغيير الكبير المنتظر والرؤية المستقبلية للوطن

الاشتراكي، لكن عندما ستقع الواقعة إثر الواقعة، وتُلاحق الأحزاب ومثقفوها، سينفذ جميل حلوم من الشبهات كما تنفذ الشعرة من العجين، ويدافع عن يساريته بأنها كانت مجرد تعاطف مع فكرة العدالة والمساواة، وهو تعاطف استنه أئمة الفكر على مر العصور، عندما لم تكن هناك شيوعية وشيوعيون، ما فعله أقل من القليل بانحيازه إلى الأفكار الإنسانية الخالدة، تلك التي تأخذ بها حتى أحزاب أوروبا اليمينية المحافظة.

تنكر جميل حلوم للأحزاب الشيوعية وأشباهها، وأعلن أنه لم يكن سوى صديق لها، صديق لدود، ودائماً كانت لديه تحفظات شديدة عليها. كان واحداً من فصيلة الأدباء والشعراء الذين لم يخطبوا ود الأحزاب بالقصائد والمقالات النارية، ليحرقوا أصابعهم بالنار، بل ليكسبوا قراء لهم ومصفقين لمحاضراتهم وأشعارهم.

تعزز هذا الموقف عقب تمزق الدولة السوفياتية وتفكك المنظومة الاشتراكية، وتسابق رعيل من المفكرين إلى إعلانه، قائلين بأنهم تنبأوا به منذ عقود. لم يشذّ عنهم، حسب زعمه، كان قد توقع السقوط المدوي للاشتراكية في جلساته الخاصة. وقبل سنوات عندما اشتدت الانتقادات ضد روسيا السوفياتية دعا إلى تجديد شباب الماركسية اللينينية، فذهب في كتاباته النظرية إلى أقصى اليسار، حسب المطلوب في ذلك الوقت. على أنه بعد انهيار جدار برلين، بدأ بتنظيف ماضيه من أية صبغة شمولية، فانتقد الأحزاب الشيوعية واتهمها بالتبعية والتعلق بأشباح ماركس ولينين، ورمى الجماعات التروتسكية والماوية بالطفولة اليسارية. الخطوة التالية، التأكيد على انتسابه لليسار العريض، فاتسع له ولغيره؛ وكان عريضاً جداً، بحيث ضم حزب البعث إلى صفوفه، فوجد الناقد مكاناً وثيراً في صفوف

يسار مريح وشامل. بعدها لم يفعل شيئاً، كان قد سرق الشعلة اليسارية الجديدة، التي ستفتح له الطريق إلى المزيد من التسلبط الثقافي. ولم ينزل عن سدة اليسار، رغم ما طرأ من تحولات يمينية ظافرة، واستطاع أن يكون يسارياً مجدداً، مستخدماً أساليب عملية أكثر يمينية من اليمين. حتى أن بعض المقربين إليه لم يعرفوا، هل كان يسارياً شديد اليسارية، أم يميناً موغلاً في اليمينية؟! ضاعت عليهم هويته، واعتبروه سياسياً بالغريزة، ومن الممكن أن يلتحقوا به باطمئنان، وحده يدلهم على طريق الأمان، ولو أدى بهم إلى الإيمان بالأديان السماوية كلها.

بالإضافة إلى التحاقه بالموجة اليسارية السارية، المُخصّبة يمينياً، عقد صلاته مع المتنفذين من أصحاب المناصب الثقافية، وسعى لتحقيق طموحاته إلى رئاسة تحرير مجلة أو جريدة أدبية، وعينه مصوبة إلى المراكز الكبرى، منصب ثقافي رفيع، وزير أو رئيس لاتحاد الكتاب، أو منصب ثقافي ذي موقع مؤثر يتسلط من خلاله على قطعان الكتاب المنتظمين وملاحقة الشاردين؛ جاهداً في الوقت نفسه ألا يُحسب رسمياً على السلطة. من هذا المنظور، تعامل مع الثقافة، فحوَّلها إلى لعبة شدّ ورخي حذرة ومحسوبة، عملاً بالمقولة المشهورة: لا صداقات دائمة ولا عداوات مستديمة؛ فبات النقد يدور كما تدور السياسة: مع المصالح؛ وللدوران فوائده الجمة؛ مادية ومعنوية، وسلطوية مجزية.

□ □ □

كانت تساؤلاته في محلها: ما الذي سوف أجنبه من مترجم فأر قارض روايات؟! لماذا أدافع عنه وأُعلي من شأنه، وأُشهره؟! لقد تجاوزت هذه المرحلة، شهرت قبله كثيراً من الكتاب التافهين، ما

النتيجة؟! ظنوا أنفسهم عباقرة.

بعد أن سوغ تخليه عنه، حوَّل دونما تردد، مجرى أفكاره نحو الخط الأكاديمي، فهاله ما كاد أن يقدم عليه دون تبصر، وحمد الله، مع أنه لا يحمده أبداً؛ لو أنه سمح بتمرير هذه الترجمات تحت زعم حالة خاصة لا يطولها النقد، فلن يرضى بعدها أحد أن يكون حالة عامة يطولها النقد. للحالات الخاصة مزايا خارقة لا يستهان بها، استثناؤها من المدارس والقواعد والتصنيفات والتعريفات والمواصفات والتخريجات وكل ما اتفق عليه. بينما النقد على العكس، لا حائل يقف في وجهه يعطله أو يكبحه، ولا وصفة سحرية تسمح بحظر التعامل النقدي مع أي عمل، مهما كان مستواه، بل يوضع مع موهبة صاحبه على بساط البحث، تحت رحمة مبضع الناقد. لا استثناءات تحت أية صيغة.

بيد أن ما عزز قراره هذا، وحال بينه وبين التراجع عنه، ما اطلع عليه خلال اليومين الفائتين بعد اتصالات سرية استأنس فيها ببعض الآراء، طمأنته إلى وقوفه في الجانب الآمن.

9

المجموعة:
الحرص على رفعة الأدب وتنقيته من الشوائب

عندما دخل حامد إلى عرين الناقد، لاحظه عابساً، لم يلتفت لعبوسه، غالباً الأدباء الكبار يتظاهرون بأن مزاجهم معكر دونما سبب، ليقال عنهم بأنهم سويعاتية، مما يرفع رصيد عبقريتهم لدى مريديهم؛ إذ أديب بلا صرعة، أديب بلا جاذبية. عدّ حامد نفسه مؤقتاً من مريدي الناقد، وأكبر هذا العبوس المزاجي. لم يكن يعرف أن الناقد أعاد كتابة مقالته وعززها ضده بالشواهد الفاقعة والأمثلة المفحمة.

إزاء بشاشة المترجم وبراءته، بدا للناقد للوهلة الأولى، حجم انقلابه عليه كبيراً، فأحس بمدى دناءته، ومع هذا استصغر ما بدا له كبيراً. ما حيلته بعدما جدَّ من أسباب إضافية، وهي أسباب ليس بوسعه تجاهلها، بل زادت من اعتزامه على التخلي عنه، حتى بات واجباً وعبئاً غليظاً، مما جعله يحس بالحنق على المترجم الساهي، وبحاجته

للتنفيس عما احتقن في داخلة بصب جام غضبه عليه. لكن قبل ذلك، لا بد من ابتكار حجج قوية تبرر عدم وقوفه إلى جانبه. أما على أي نحو فكّرَ ليسوغ انقلابه ضده، ويخفف عنه وقع الصدمة، فقد تنقل بين عدة خيارات، تفحصها عاقداً حاجبيه، وهذا كان سبب عبوسه المزاجي، الذي لم تكن له علاقة بالمزاج، بل بالتراجع عن وعده.

ما الذريعة التي تجعل اتفاقهما لاغياً؟! هل في التصريح عما استجد، أم التحجج بأمر قاهر، أم كلاهما؟! لم يقتنع بهذا ولا بذاك، لا متفرقين ولا مجتمعين، ما دامت القضية غير طبيعية على الإطلاق، وتتجاوز الترجمة والأدب، والدليل أنها أثارت شبهات قوية، وما زالت!! هل يبوح بالسبب الحقيقي؟ مستحيل، تكفي الإشارة إليه بشكل موارب ومبتسر، والأسلم أن يحيله إلى أسباب غامضة، لكنها واردة، ولعل الأفضل لئلا يثير شكوكه، أن يترك نفسه على سجيتها، ويسوّغ فعلته كيفما اتفق، صحيحة كانت أم غير صحيحة، المهم أن يعلل موقفه الجديد:

«هناك ما حدث وينبغي ألا تفوتك معرفته».

أدرك حامد سليم، وهو شاب دقيق الملاحظة في بعض الأحيان، لا يؤخذ بالمظاهر، أن عبوس الناقد، بعد قوله هذا، لم يكن من باب السويعاتية البريئة، ثمة تحول يلوح، تحول لا تحمد عقباه!! تابع الناقد، وهو يحاول أن يبدو موضوعياً:

«يبدو أن تضخيم قصتك أمر مطلوب، لا جدال ستكون الضحية. وإذا كنت سأشارك في عملية التضخيم، فأنا أشارك بواجب عليَّ تأديته.

... قضيتك، وينبغي أن تعلم، تحوطها علامات استفهام كبيرة. ولكي تتأكد، راقب معي تسلسلها: المسؤول الثقافي الذي أبرزها للعلن، لم يكشفها بجهوده ولا بشطارته، بل كما علمت جاءته بالبريد المسجل، فنشرها كما وصلته تماماً. شريف حسني استغلها، والصحافيون الذين هاجموك كانوا مسوقين بنداء التبعية، فحصدوا من ورائها سمعة حسنة.

ومع هذا، قصتك حتى الآن، تبدو عادية لا يختلف عليها اثنان؛ ارتكاب عملية تدليس واضحة من خلال التلاعب بالترجمة. قضية كل من أسهم فيها، جهد في تقديم شهادة حسن سلوك، ولهذا كان الضجيج بالغاً والهجوم مبالغاً به. كانت اختباراً لم يتخلف عنه الكثيرون، وفرصة لإثبات النزاهة الأدبية.

لن أخفي عليك، لقد اتصلوا بي وحذروني قائلين: إن كنتَ حريصاً على سمعتك، فإن تباطُؤك، سيعد تساهلاً يدينك. قلت لهم، لا تزاودوا عليَّ، دائماً كنت سباقاً، وكنتم خلفي تتبعونني. أعرفهم، والكلام بيننا، يتربصون بي على غلطة، لن أقدمها لهم. سارعت إلى توضيح موقفي، لم أجد مناصاً من التكفير عن صمتي بإدانتك كتابة.

لدي تعليق صغير لكنه مهم، أعتقد بأن قضيتك محبوكة وموضوعة بشكل يقصد منه سبر اتجاهات الأوساط الثقافية، إنها وبوضوح امتحان يملي على الجميع التصرف حياله بإحساس عال بالمسؤولية، طبقاً لمقاييس عالمية، لا مقاييسنا المحلية السائبة، وإلا قل لي من يهتم برواية مترجمة وكيف ترجمت؟!

لستُ مخيراً، لا أحد يناصر قضايا خاسرة مهما كانت مبرراتها

قوية، فما بالك بقضيتك المدانة ومبرراتها الضعيفة!! أنا دائماً على مستوى الموقف، بل وأعلى منه، لا تفكر لحظة واحدة بأنني قد آخذ جانبك، وأنصحك ألا تفكر بالاستقواء بأحد، منطقك مرفوض. أخشى أن جهات داخلية وخارجية تراقب ما يجري. من هم؟! حاول أن تخمن، مؤكد أن وراءهم دولاً تزعم أنها تدعم مؤلفيها بهدف الحفاظ على حقوقهم الفكرية، فيما الحقيقة مدفونة في مكان ما. أغلب الذين شاركوا في الحملة، لا يعرفون ما يجري في الكواليس، فقط شاركوا في تظاهرة على رأسها المغفل شريف حسني، وأفضل ما يمكن أن أفعله من أجلك، هو أن أطلب منه الكف عنك، لأنه كلما بردت قضيتك، يُحَمِّيها».

اعتقد الناقد بهذيانه هذا العالي المستوى أنه نجح في تبرئة نفسه من موقفه المتخاذل تجاهه، بعد أن أعطى لتراجعه بعداً دولياً جبرياً، شاركت فيه جهات عليا داخلية. هل هناك نصيب من الصحة في ما قاله؟! محتمل، لِمَ لا؟! وعلى الأصح لا ندري؛ بالأحرى، من يدري؟! ألم يتقصد التكلم على سجيته، ويخلط الحابل بالنابل، والصحيح بالباطل؟!

بالنسبة لحامد، لم يصدق تهويلات الناقد، كانت مخرجاً يبرر فيه عدم مد يد العون إليه، ويسوغ به التحاقه بالمعركة قبل أن تفوته، لأن تقدميته تتقدم دائماً وتشارك في أية ضجة أدبية، ألم يشارك منذ شهرين في الدفاع عن رواية تافهة لمجرد أنها ضد الظلامية، بدعوى دعم الفكر التنويري، رغم أن حظها من الإسفاف كبير، ويكره الرواية وصاحبها؟! لكنها ضريبة العلمانية والفكر الحر، لئلا تتعرض سمعته في منازلة الظلاميين للقيل والقال، ثم هل يترك ميدان النور والتنوير لغيره؟ لا، وليذهب الإبداع مع المبدعين إلى قعر جهنم وبئس المصير.

بعد حديثه الفاحم الذي لم يدع فيه أي أمل للمترجم، انزعج الناقد، لم يلمح رد فعل متفهماً، فندم لأنه قدم له تنازلاً كبيراً لا يستحقه، من هو حتى يبرر له ويسوغ فخلع عنه عبوسه المرائي، ولبس لبوس الناقد الضليع، ولوح بقبضته في وجه المترجم، ونبس ببرود، دونما أي حس إنساني، ومن غير شفقة:

«فلنضع ما قلته جانباً، بالنسبة إليّ قد أستهين بأي شيء عدا الخيانة للأدب، ليس للخيانة حقوق. هذه كلمتي الأخيرة».

لم يهتم حامد بالموقف الذي عاد سيئاً، والناقد الذي انقلب هجومياً وحشره في زاوية الخيانة الملعونة. لم يستسلم، واختار، متحدّياً، الدفاع عن فكرة مدانة، وتساءل بوقاحة:

«لم لا نخون الأدب».

«قل هذا من البداية».

«لا تحدث الخيانة عبثاً، وليس ثمة خيانة من غير طائل، الأدب يقمع الحياة ويشوهها، ما الذي نقرأه، وما الذي نكتبه؟! أدب مزيف، لا يمنحنا سوى آمال كاذبة. الحياة تُسرق منا، والعمر يمضي بلا معنى».

«دعني من الحياة، أنا لا يهمني سوى الأدب».

«ما الأدب إزاء الحياة؟ سأجيبك، خيانة الروايات توفر لي المتعة والفجور، انظر إليّ، أمعن النظر، منحتني الخيانة رؤية أقل كذباً وبهتاناً».

«لا تخلط بينهما، ما يقدمه الأدب لا تقدمه الحياة، لذلك نصون الأدب من عبث الناس».

«الخيانة دائماً هادفة، لا تسوغها الدناءات فقط، بل أيضاً أمانات أخرى، الحقيقة والنزاهة ومباهج الحب وجنون العواطف».

تداخلت في ذهن الناقد الخيانة بالمتعة، والفجور بالروايات، هل هذه أمانات ينبغي أن تبلغ أهدافها؟! أرتج عليه حتى بدت كلمة «هادفة» هدفاً ينبغي ألا يفوته، هل لها علاقة بالأدب الهادف، أم بتلك الأهداف التي وضعها عندما كان يافعاً نصب عينيه وبلغها الواحد بعد الآخر، هل ثمة جديد؟! المترجم قد يُضيعه. لم يحتمل تشعب الفكرة، كانت شديدة الوطأة، هو الذي ضَيَّع كتاباً وأدباء بتنظيرات أشبه بمتاهات، يأتيه هذا الشاب الملتاث بتخريجات تسوغ الخيانة، ملمحاً إليه، لا إلى الأدب الهادف! قال بحزم:

«لن أدافع عنك».

«ماذا تسمي تخليك عني؟».

صمت الناقد، كان صمته أقصى ما يمارسه من خبث، مع أنه لم يتبين في السؤال استرحاماً ولا ادعاء، بل اليأس، مصحوباً بخيبة مطلقة. فابتسم ابتسامة ظافرة كانت في تلك اللحظة، خسيسة. فتداعى حامد منهاراً وقال بألم:

«لقد خدعتني!!».

على الفور خالج الناقد شعور بالارتياح، كان الاتهام قد أنهى المشكلة بينهما، وما عزز لامبالاته، بوادر التصدع التي أظهرها المترجم بعد جسارته الخطيرة. كان حامد قد أخفى وجهه بكفيه، وربما كان قلبه يتقطع من الحزن، أو يكفكف دموعه بصمت. لم يعن الناقد به، وأخذ بكل طمأنينة يعود الهوينى إلى مواقعه ويسترد حنكته النقدية، شكراً للواقعية، لم تدعه ينساق وراء أوهام المترجم

الشاب، ومع هذا لامست الكلمات مشاعره، كانت تنضح بالعتاب والضراعة، فقال بحزم:

«اعتبر مقالتي، طلقة الرحمة، بعدها سترتاح».

نهض المترجم، واستعاد رباطة جأشه. وعلى الرغم من محاولته المتأخرة في إبداء بعض التماسك، لم يُخف على الناقد أنها دون جدوى، كان واثقاً بأنه عندما سيخرج من عنده، سيسقط على الرصيف المجاور لبيته. من المؤسف أنه لن يستطيع أن يقول له ما بذله من أجله البارحة، لكن لا بأس، حان الوقت للتلميح به، لا ريب بأنه سيعزيه.

«لا تبتئس، من جانب آخر لقد ساعدتك، هناك من ارتأى تعميم قصتك في الصحافة الثقافية العربية، قلت لهم بأن الأمر لا يستحق، ينبغي ألا تتعدى الحملة النطاق المحلي، لا داعي لنشر غسيلنا القذر. قد تعتقد بأن ما قلته قليل، بضع كلمات وحسب، لكن هذه الكلمات، ولا أريدك أن تشكرني، أنقذتك فعلاً، غيرك انتهت حياتهم الأدبية من إجراء كهذا قاصم يوازي الإعدام، وإذا أردت التأكد مما أقوله، فاسأل عما حل بالكاتب سميح حمدي، هل سمعت به؟! طبعاً لا، كيف ستسمع به إذا كان إعدامه قد مضى عليه أكثر من عشر سنوات، كان حمدي حينئذ كاتباً على وشك أن يصبح مشهوراً، فأخطأ مع أحدهم. ماذا فعلوا به، لقد سحقوه تماماً. الآن، أين هو؟! لا أثر له، حتى أنت لم تسمع به».

كان الناقد يتكلم بثقة كبيرة، لم يشك حامد بما كان يقوله، بل أخذه العجب من وجود جهة، لا شك أنها من الأدباء، تسحق كاتباً وتخفي آثاره. فسأله:

«من هم؟!».

«ما الذي يهمك منهم؟! على كل حال وكي لا تتهور، أقول لك وباختصار إنهم مجموعة من الأشخاص حريصون على رفعة الأدب وتنقيته من الشوائب».

«لا شك أن شريف حسني واحد منهم».

«لا، هذا صحافي لقلوق وإن كان منهم، لا تسألني المزيد».

«هل هي سرية؟».

«إنس الأمر كله، هذا لا يعنيك».

غيَّر الناقد اتجاه الحديث، لقد أخطأ، أراد أن يتنفج قليلاً؛ فارتكب زلة خطيرة. سارع يزيل أثر ما تفوه به، ببادرة كانت تكفيراً عن خطئه أو ذنبه أو جحشنته... هل ثمة مزيد؟ الأفضل أن يطرق موضوع المصالحة. وعرض عليه التوسط له لدى الصحافي على أن يخوله شخصياً إيصال اعتذار باسمه مع دعوة إلى سهرة في مقصف الوادي الأخضر في الربوة، خلالها يتصافيان، وبناء على هذا اللقاء تصدر فتوى أدبية تعمم على الأدباء والصحافيين سراً دون نشرها في الصحف، تُعتبر فعلته بموجبها من الأخطاء المألوفة التي يقترفها المترجمون، وبذلك يحصلان على مخرج أدبي معقول لكليهما.

لولا زلته التي سبقت، لما استطاع الناقد أن ينهي المقابلة مع المترجم المنهار، بتسوية واضحة، وكانت نصيحته؛ اعتبرها ترضية مناسبة في الوقت الحاضر. فقبل حامد مرغماً بالتسوية والنصيحة، بعد أن فقد رجاءه من النقد والنقاد، وإلا تعرض للأسوأ، هذا ليس زمن البطولات.

□ □ □

للأسف، لم يحصل حامد سليم على مخرج ولا على مدخل. الناقد إذا كان قد تكلم، فلم يصرّ، والصحافي إذا كان قد سمع، فقد رفض التصافي مفضلاً التجافي، ولم يغفر للمترجم النادم فعلته، ولم يقبل بأقل من الاعتراف جهاراً في الصحف بجريمته، مما اضطر حامد إلى عدم الاستجابة لطلبه، لأنه كلما قدم إليه تنازلاً طالبه بآخر، لكنه اعتصم بالصمت وكفّ النظر عن إيجاد حل معه، آملاً أن تتوقف الحملة. لكن الحملة استمرت أياماً معدودات، تقوى يوماً وتخفت يوماً، لم تكن تتصاعد، بل تنتشر. فبات اسمه مضغة في أفواه المتأدبين، وضربوا به الأمثال، ونُظر إلى ترجماته كرذيلة محتقرة.

استمد الحكم المبرم عليه شراسته من الشرعية اللامحدودة للتقيد بالنص الأصلي الذي صار واجباً، وأصبح الحرص على الأمانة المطلقة في الترجمة، هوساً معتمداً ومتداولاً للحط من شأن كل ما يُشتمّ منه مخالفة، بتلميحات مسعورة على رأسها الوصم بالخيانة. وبما أن الهجمة الأخيرة لم تنقصها الحوافز المخلصة للأدب، فقد استباحوه تماماً.

وكان لا بد أن تستنفد الحملة أغراضها، بعد أن استنفدتها مراراً من قبل، وتململ منها المشاركون والمتابعون. فأقفلت بعد أن اختلق الصحافي عقوبات أقصت حامد سليم عن عالم الترجمة المبدعة، مع مضاعفة التهمة، وكانت الخيانة العظمى للأدب، حتى أن بعض القراء ظنوا أن المترجم يعمل لحساب دولة أجنبية.

في تلك الأيام القاسية، تذكر حامد أنه كان سيواجه أياماً أشد قسوة، لو أن المجموعة نقلت قصته إلى الصحف العربية حسب قول جميل حلوم، لكن من تكون هذه المجموعة، وما قصة الكاتب

سميح حمدي، ولماذا أحس الناقد بأنه أخطأ بالإشارة إليها، وحمَّله جميلاً، يبدو أنه حقيقي؟! لا شك في أن المجموعة عبارة عن جماعة من الأدباء المتجهمين العبوسين المهووسين بالأدب، وهذا هو سبب تعنتهم وحرصهم على الضرب بيد من حديد، ردعاً لكل من يأتي بعمل يحط فيه من سمعة الأدب كما يفهمونه، ومن الطبيعي أن يكون لها جولات مظفرة، إحداها اختفاء كاتب كان على وشك الشهرة!!

كذلك تذكر صاحب اللفحة الصوفية، ولم يكن قد مضى أكثر من أسبوعين على لقائهما، فضحك في سره، لو رآه الآن، لطلب منه قتل الصحافي ومعه الناقد المحتال. وتخيل ليشفي أحقاده أنه التقاه واتفق معه على التخلص منهما، فبنى في أحلام يقظته المريرة قصوراً من الأشلاء تسبح في بحر من الدماء.

□ □ □

نُبذ حامد سليم من تجمعات المترجمين وشلل المثقفين وهواة الأدب، أما الجوقة المخيفة التي قادها الصحافي، واختتمها الناقد أحسن اختتام، فقد أبلوا جميعهم بلاء حسناً بذودهم عن حياض الترجمة والثقافة، ونالوا بغيتهم بالقضاء على المترجم المنبوذ، ولم يتوقفوا فعلياً إلا بعد أن أرسلوا نداء إلى أصحاب دور النشر المحلية، وبالمانشيت العريض، نحذركم منه!! وأمراً موحداً، قاطِعوه. فاستجابوا وامتنعوا عن التعامل معه. وأسلموه دون شفقة للجوع والفقر. بعدها اختفى من ميادين الترجمة والنشر.

10

الصديق:
مرتبة العلم أعلى الرتب

تذكّر صديقه سامي، كيف لم يخطر على باله من قبل؟! عندما سيعلم بمشكلته سيهرع لمساعدته، ويجد له عملاً يقيه شر الأدباء ويحفظ له كرامته. كيف نسيه؟! ربما لأنه لم يعد يراه إلا لماماً، والأغلب مصادفة. كان يلتقيه عرضاً في الشارع، أو على موعد في المقهى، فيبادر كل منهما للاطمئنان على صاحبه. آخر مرة رآه فيها، أخبره سامي بتحسن أحواله، أعماله في توسع وتقدم مستمرين، أخيراً استأجر مكتباً جهزه بطاولة ضخمة وكنبات فخمة وسكرتيرة متخرجة من معهد السكرتارية. أما دكانه الصغير لتعقب المعاملات في السنجقدار، فلن يتركه، مردوده جيد، سيشرف عليه، أو يعرضه للاستثمار. حامد لم يصدق قصة عمله الجديد، مع أن سامي أعطاه عنوان مكتبه. كان هذا قبل ثلاثة أشهر، أواخر السنة الماضية.

لم يتفاءل، لو أطلعه على مشكلته في حينها، قبل أن تتعقد لانتهت في بدايتها، الآن حلُّها صار صعباً بعد تفاقمها، وأصبح لها ذيول وعقابيل. على الأغلب سيلومه ويعتذر قائلاً، جئتني بقصتك محروقة. سامي شاطر لا يعوقه شيء. كان يصر عليه، إذا عسر عليك أي شيء تعال لعندي فوراً. حسناً ها هو بعد فوات الأوان، ذاهب إليه، وما سيطلبه منه ليس كثيراً، تدبير عمل له، في مكتب للترجمة المحلفة، لن يعجز سامي عنه، سوق شارع رامي على مقربة منه، يغص بدكاكين ومكاتب التراجمة المحلفين.

كثيراً ما راودته الشكوك حول ما يدعيه صديقه من تقدم ونجاحات، كان يبالغ إن لم يكذب، ليبرهن أن اختياره للعمل الحر، أفضل من العلم والمدرسة اللذين استغنى عنهما. صداقتهما تعود إلى المرحلة الإعدادية، ترك سامي المدرسة دون الحصول على شهادة الكفاءة، والده أصر على أن العلم النافع هو معرفة القراءة والكتابة والعمليات الحسابية الأربع، أما الأكثر فللأغنياء وميسوري الحال. في تلك الأيام، حاول سامي إخفاء رقة حاله، استحى من فقره، وجهر بكراهيته للمدرسة ورأى الدراسة مضيعة للوقت. كان يقول، مهنة تعزيل المجاري والبلاليع تدر مالاً أكثر من الشهادات، وصنعة في اليد أمانٌ من أكبر شهادة جامعية. آنئذ، كانت حقيقة واقعة. بينما حامد كان يعتقد بأن أية مهنة مهما علا قدرها لا تقارن بشهادة مهما صغرت؛ مرتبة العلم أعلى الرتب.

انطلق سامي إلى الحياة العملية التي جربها في العطل الصيفية، وكان أذكى من أن يعمل في كل ما يتطلب جهداً عضلياً شاقاً. استغل موهبته في الكلام، وقدرته على الإقناع، اشتغل أجيراً في دكان للأقمشة في سوق النسوان، وبائع أدوات منزلية في سوق

العصرونية، فبائع أقمشة بالجملة في سوق الحريقة. ثم غاب في شبكات المشاريع الصغيرة لتفصيل الألبسة الولادية الجاهزة والقمصان الرجالية. وظهر بعد سنتين مديراً لمحل بيع فساتين نسائية في شارع الحمراء؛ تركه بعد سنة، ومنذئذ يغيب في معمل ليظهر في محل، مستعيضاً عن مهنة بمهنة أفضل، إلى أن احترف تسهيل أمور الناس، فاستأجر دكاناً صغيراً في السنجقدار لتعقب المعاملات في الدوائر الرسمية. موهبته الجديدة كانت القديمة نفسها، القدرة حتى على بيع سمك في الماء.

اختص سامي بقضاء حاجات الناس وتسيير معاملاتهم في غابة الدولة، وهو عمل يراه حتى الضليعون بالشؤون الوظيفية عالماً معقداً قائماً بذاته، لا يتقنه إلا من توافرت لديه القدرة على استيعاب خريطة الدوائر الحكومية وتشابكاتها العنكبوتية الدقيقة، والمقدرة على الخوض الجسور في مجاهلها. رأسمالها قدمان قويتان، وإلحاح ممجوج ولسان معسول. المؤهلات الإضافية، الوقت والصبر والمراوغة والمعلومات والمعارف.

كرس سامي وقته كله لمهنته، كان قد تعلم الصبر من المهن التي أخفق فيها لافتقاره إلى المال، والمراوغة خلقت معه. أما المعلومات فمخزونه كثير ومعتبر، ولا يقف عند حد؛ المعلومة الصغيرة كالكبيرة لا تُهمل، والأهم تنشيطها على الدوام. والمعارف، حدث ولا حرج، لم يكن هناك من هو أشطر منه في بناء علاقات سريعة وقوية مع الناس، خاصة الموظفين. لا يعسر عليه إقناع موظف صغير، أو متوسط الحجم، بأنه صديقه الحميم، وإلا كيف يلتقط ومن بعيد، بالإشارة ومن دون كلام، فحوى ما يراد منه، إن لم تكن العلاقة القوية جداً سرية جداً؟!

مهما تكن مشكلة الزبون مع دوائر المالية أو العقارية بسيطة، لا تعوز سامي القدرة على إقناعه بأنها صعبة وشائكة وغير سليمة قانونياً، ولا أحد غيره يستطيع أن يحلها بالشكل الملائم والناجع، من خلال مخرج قانوني سليم تماماً، دونما أية إشكاليات لاحقة، مقابل مبلغ زهيد، يبدو كبيراً، لكن ليس كبيراً على تجاوز كل هذه المخالفات القانونية بواسطة تفاهمات تفوقها قوة.

في دوائر الحكومة المختلفة بأنواعها السيئة والطيبة الذكر، أكسبه توسطه لأصحاب الحاجات، مراناً ونجاحاً جعلاه يزعم بأنه وضع الدولة وموظفيها في جيبه الصغيرة؛ مستغلاً الخوف المستشري بين الناس من إداراتها ومؤسساتها ودهاليزها وأوراقها وطوابعها وضرائبها الغامضة وغراماتها الجائرة. لم يكذب في فشوراته، الدولة أحجية لمن لا يعرف دخائلها، وكان على دراية بأبوابها الكثيرة العالية والواطية، المغلقة والمفتوحة ومسالكها الخفية، الخلفية والجانبية. لا يجهل كيف يطرقها، لكل حاجة باب، ولكل باب موظف، ولكل موظف أجر معلوم ومبلغ مرقوم. كان يقول متباهياً بفخر، هذا وحده اختصاص، يحتاج إلى شطارة ومعلمية وذكاء، يفل ذكاء حملة شهادات الدكتوراه، مع فراسة لا تخطئ في معرفة الناس، وتكهن مرادهم ومآربهم من نظرة واحدة وخاطفة.

كان حامد يصادفه في وزارة أو مديرية؛ طالعاً من طابق إلى طابق، أو هابطاً إلى قبو أو مستودع، أو ذاهباً إلى الأرشيف، يلفُّ بين مكاتب الموظفين والمديرين، لجمع عشرات التواقيع والأختام ولصق مئات الطوابع المالية. أو يلمحه طائراً في الشوارع، يقفز من رصيف إلى تاكسي أو ميكروباص، ينطلق من قلب المدينة إلى الضواحي والأرياف، متتبعاً مخالفات يجب تصحيحها وانتهاكات مطلوب

تمريرها؛ تركيب ساعة كهرباء تريفاز، حفر بئر، إزالة شيوع، تصحيح أوصاف، غض النظر عن تجاوزات في البناء، إلغاء أمر بإيقاف كسوة ملحق، خفض ضريبة دخل، معاملة حصر إرث... إلخ. عقبات تجعلك تؤمن بأن الدولة خلقت لتعقيد مصالح البشر، لا لتسهيلها.

فيما بعد، ترك أكثر هذه المعاملات، لا سيما القانونية منها، لصبيان دكانه. واختص بمعاملات من المستوى الأعلى والأرقى، من تلك القضايا النوعية، أي الملغوصة؛ في الوزارات ذات الميزانيات الضخمة، والقضايا الشائكة في المحاكم الاقتصادية والجنائية، وبعض الإدارات مثل إدارة الهجرة والجوازات وشُعب التجنيد. لم تكن مجهدة، كان ينجزها، دون نزول أدراج أو صعود طوابق؛ ومن غير تكلفة عملية، لا لحوسة طوابع، ولا إراقة عرق الجبين أو حبر من قلم. مجرد معرفة بعض الخفايا عن الموظف ابن الحرام فلان الذي لا يتجرأ مخلوق على سؤاله عن مصير معاملة أو قضية لديه؛ هذا الفلان مفتاحه فلان، بمعنى أنه بيت سره القادر على مفاتحته بهذا الأمر وتركيبه على القالب، والتباحث معه بنسبة عمولته وخفضها، أو مقدار حصته وتنزيلها. وطبعاً تفيده أيما فائدة معرفة أن الموظف ذا الملامح المقطبة، تنفرد أساريره لأي عابرة سبيل فلتانة، والبندوق المدير لا يفهم عليه سوى عكروت قده وقدود. واللئيم رئيس القسم ينام على يد فلانة، إن لم ينسطح بين رجليها. أما سكرتير الوزير، ففلانة الفلانية تعرف كيف تداويه، لن تطلب منه بل ستأمره، وإلا حرمته من كيت وكيت. المعنى، ليس بينه وبينهم حاجب ولا بواب. هذا لا يأتي ببلاش، وحسابه مكلف، لكن عائده جيد.

أثبت أنه صاحب مصلحة ومعلم قادر ويده طايلة. كان أسلوب

حديثه الاحترافي مقنعاً ووقحاً، فمثلاً عندما يشتكي الزبون من موظف كان وراء عرقلة معاملته، يعقب سامي باستخفاف، إذا كان الموظف كبيراً:

«علّاك، لا ترد عليه، هذا واحد أكّال خرا».

أما إذا كان موظفاً صغيراً:

«عم يتنطوط، لا تخف، هذا شقفة عرصة».

كان تصغير الموظف الكبير إلى أكّال خرا، مع أنه أبعد الناس عن أكل الخرا، والصغير إلى شقفة عرصة، مع أن العرصة لا يتشقف ولا يتجزأ، كافياً لبعث الآمال العريضة وعودة الروح إلى صاحب حاجة مستعجل ودفّيع. بالطبع يعده بما يسره. ولا يغفل عن إرضاء الموظفين كبيرهم وصغيرهم، بإعطائهم كما يقول الحصة الأكبر. مبدأه باختصار، طعمي التسعة حتى تأكل العشرة. وفيما كان غيره يأكل البيضة والتقشيرة، كان يكتفي بالتقشيرة. هذا سر براعته.

رغم خبراته المتعددة، لم يقرب قضايا تفوح منها رائحة الأجهزة الأمنية، سوى مرة واحدة، تشاطر وأخذ قضية على عاتقه، تابعها في فرع أمني، فكلفه الاستيضاح عنها قضاء سبعة أشهر تحقيقات، كل يوم والثاني يستدعونه ويعيدون معه التحقيق من البداية وعلى مراحل، وكل مرحلة في فرع، ما الذي تعرفه عن زبونك، أهله، الأقربين، الأبعدين، أصدقائه، معارفه؟ أين اجتمعتم؟ ما الذي قاله لك؟ بماذا أجبته؟ وعشرات الأسئلة من هذا النوع الحشري السخيف. قبلها ينقعونه ساعات على كرسي الانتظار، بعد النقع والرقع، يقولون له تعال غداً. جال الفروع كلها وتبهدل فيها كلها،

كالوا له التهديدات والشتائم، وكادوا أن يزجوه في السجن أكثر من مرة، ولم يسلم من التوقيف لأيام معدودات، وأيضاً من الدفر والنعر وبعض الصفعات بلا سبب، مع أن القضية كانت خالية مما يريب، لا تعامل مع العدو، ولا تسريب معلومات تضر بأمن البلد السياسي أو الاقتصادي؛ مجرد أنه توسط، لشخص لم يره في حياته، غادر البلد منذ عشر سنوات، أهله يريدون الاستفسار عن إمكانية عودته، دون أن يجرجره رجال أمن المطار من قاعة الوصول إلى الاعتقال، ومنه إلى سين وجيم قد يمتد إلى أشهر واعتقال سنوات. بعدها حرَّم على نفسه التدخل في شؤون البلد الأمنية الداخلية والخارجية، رغم أنها تدر أموالاً طائلة.

تعلم سامي من كيسه، أي من تجاربه. الدرس الذي تعلمه، لم يكن في شنططته من فرع إلى آخر. بل في أن خط الأمن مربوط، وممنوع على شخص مثله الدخول إليه، حتى لو كانت القضية صغيرة، والواسطة كبيرة؛ ومهما كان السخاء في الدفع. كذلك خط رجال الدولة الكبار، خط محفوف بالسرية، الاقتراب منه يورد المتاعب، الخط محجوز ومحظر كشفه، خاص بالأشخاص المعروفين بأنهم منهم وفيهم، أي من الأقرباء والحواشي. فاقتصر عمل سامي على سلك الموظفين الطفرانين الأندبورية ورؤسائهم الأقل طفراً وأندبورية، إلى أن فتح الله في وجهه تسهيل الأعمال النوعية وأصحابها من الناس الـمُرَيِّشين.

يكفي، لقد وصلنا.

□ □ □

الأحرى القول، وصل حامد منذ دقائق إلى مكتب صديقه سامي،

واستقبلته السكرتيرة بلامبالاة، وأشارت بطرف إصبعها إلى الكرسي ليجلس عليه. طبعاً، لم يغب عن حامد أن المكتب والسكرتيرة من عدة الزعبرة، الهدف منهما التأثير على الزبون، خصوصاً أن وجه السكرتيرة ناشف وتتعمد الانشغال؛ التأثير أكبر عندما تهمله، كما تفعل في هذه اللحظات، لتشعره بضآلة شخصه إزاء ضخامة المكتب وأهمية صاحبه. تدخل وتخرج متبرمة دون أن تلقي عليه نظرة. ثم وحسب البرنامج تتذكره ملطوعاً ومنبوذاً أمامها، فتنخطف وتخبر السيد سامي بزبون يدعى... وسمع صوته عالياً، أدخليه، أدخليه.

استقبله سامي بالعناق والقبلات، قال حامد، مبروك. وقال سامي، الله يبارك فيك، المكتب مكتبك. وتجول معه في أرجاء المكان وأطلعه على الأثاث قطعة قطعة، من الستائر والطاولة والكراسي والمكتبة، إلى الهاتف والموبايل وساعة الحائط، والسكرتيرة. ثم المطبخ الصغير: خصوصي للقهوة والشاي وتحضير سندويشة جبنة أو زيتون، والتواليت: على الواقف، والقعود للسكرتيرة والمضطر جداً، حالة إسهال فقط لا غير.

تلت الجولة لحظات صمت مترعة بانتصار مبهر، ذروته، عندما ثبت سامي عينيه على وجهه، كاسراً بهما عينيّ حامد، لقد تحقق حلمه، أصبح من رجال الأعمال، حلم لا يختلف عليه اثنان، صار واقعاً مرئياً ومحسوساً.

واستعاد بطلاوة أيام بؤسه، أيام طُرد من دكاكين بيع المفرق ومحال بيع الجملة إلى أرصفة الفضلات والنفايات ليهرول من مكان إلى آخر يستجدي عملاً.

«أيام صعبة، علمتني الكثير».

حالياً، الأعمال تأتي إليه يجر بعضها بعضاً، نجاحاته توجت بمكتب فخم هو صاحبه ومديره، ويحل مشاكله على القاعد وبواسطة التلفون.

«فارق كبير بين أن تجري وراء الناس، أو أن يأتوا إليك، يلتمسون رؤيتك، لتسمع شكاواهم وأنت جالس لافقاً رجلاً على رجل؛ التأثير مضمون وأقوى».

رفع ذراعه ودل بإصبعه إلى صوره المعلقة على الحائط مع أعضاء غرفتي التجارة والصناعة، برهاناً على المشوار الطويل الذي قطعه. ثم ارتخى وراء الطاولة كأنه يرتاح من المجهود الذي بذله في المشوار. مال بكرسيه إلى الخلف، وكبس على الجرس، فهرعت السكرتيرة على رنينه، قال لها، فنجانين نسكافيه. كانت الدلائل حاسمة على انتصار وجهة نظره في العمل الحر.

بالمقابل سرد حامد الوقائع المؤلمة لمحنته، وقدم الدليل تلو الدليل على إخفاق طالب العلم، ما الفائدة من حصوله على شهادة بدرجة جيد في الأدب الإنكليزي من جامعة دمشق، إذا الشهادة لم تحمه في هذا الظرف العصيب، بل وكانت سبب محنته.

لم يعن سامي بالإصغاء إليه، حالة صديقه لا تزيد على حالة زبون مغلوب على أمره. لكن الظرف العصيب، سيتيح له إبداء مهاراته اللفظية، مع أن مشكلة حامد بدت عادية جداً؛ عاطل من العمل، حياته الزوجية ليست على ما يرام، أقلام السوء تطارده، وسمعته السيئة تقطع رزقه. طظ، ما الذي يميزها عن مشاكل الخضرجية والطنبرجية؟! فارق بسيط، هؤلاء لا تطاردهم، أقلام السوء.

كان استخفاف صديقه بمشكلته واضحاً، على كل حال الصراع الخفي الذي دار بينهما وحكم علاقتهما منذ مرحلة الدراسة الإعدادية قد قارب على الانتهاء، وهو الآن في العراء مكشوفاً، يرفع راية الاستسلام مختتماً معركة طويلة صامتة بهزيمة منكرة مدوية؛ لقد تفوقت صنعة تعزيل البلاليع القذرة على شهادات العلم النظيفة.

«لقد كنتَ على صواب».

أدرك سامي ما الذي يقصده صديقه بالصواب، لا تصلح الشهادات إلا للتعليق على الجدران، ولقد خطر على باله تعبير يشفي الغليل، لكنه بذيء؛ تمسيح المؤخرات. لا خلاف، كلاهما يعنيان أن الشهادات لا تغني ولا تسمن من جوع.

لا بأس بقليل من المتعة الثأرية، طالما تخيل سامي مجيء حامد، ليزجي إليه التهنئة، ما حصل كان أزود، جاء بحجة التهنئة ليطلب خدمة!! هل يُذكِّره بأنه عندما انشلح بين الأسواق والشوارع، كان حضرته يذهب إلى ثانوية جول جمال ويغازل في طريقه بنات مدرسة الفرنسيسكان، وفي الجامعة يرافق الجامعيات، وفي وظيفته في الجريدة يعاكس الصحافيات. ما الشهرة التي حققها، ما رصيده في البنك؟! بيته مِلك أم بالأجرة؟ لا، لم تبلغ به الخسة حد الشماتة به جهراً، وإن أثلج صدره اعترافه بعدم جدوى المدرسة والجامعة، إزاء ما تعلمه هو من مدرسة الحياة الشاقة. ولو أراد أن يستخلص أمثولة قاسية، فسوف يقول له؛ هذه هي: طلبك مني المساعدة. لكنه رأف به، وأجابه بثقة بالغة:

«اعتبر قصتك محلولة».

سامي لم يشذ عن جوابه التقليدي الدائم، يُسمعه لأي شخص لديه

مشكلة عويصة، رغم أن مشكلة حامد لم تكن عويصة، سيعيده إلى ترجمة الأدب معززاً مكرماً، وبسمعة نظيفة وعطرة، ومع هذا أراد التأكد من جهة الأجهزة.

«هل لمشكلتك علاقة بالأجهزة الأمنية؟».

«لا، إلا إذا رُبطت بالأمن الثقافي. في هذه الحالة، يخشى على ثقافة الغرب لا علينا، أعماله الروائية هي المهددة لا أعمالنا».

اطمأن سامي، ودار عقله كالمروحة، باحثاً عن حل تافه لمشكلة تافهة: ما الحل؟! من سيقصد؟ مع من سوف يتكلم؟ لم يعثر على أحد!! وهذا أمر طبيعي، ما علاقة الذين يفكرون ويكتبون بالأشغال والأعمال. وبما أنه لم يجد أحداً وفوراً، فالأمر شائك ويحتاج إلى بحث أكبر، والتكلفة ستكون كبيرة، وبما أن الزبون حامد، فمراعاته واجبة، والعائد زهيد. مهلاً، بعد هذا الزمن والصداقة، يأتي حامد ويسأله معونة، هل يجوز مطالبته بأجر؟ مستحيل، لن يأخذ من صديقه قرشاً. هذا السخاء ليس مضطراً إليه، لكنه سيجبر نفسه عليه، خطته التنافسية في مراحلها الأخيرة، تحضه لتكتمل على أحسن وجه، إبداء منتهى الأريحية الفعلية الخالصة نحو صديقه دون أي مقابل، ليتميز عنه لا بالشهامة فحسب، بل بالكرم أيضاً؛ الفضيلة العصية على حملة الشهادات.

لكنه أحس بالغبن، قد يظن حامد أن مشكلته يسيرة، مع أنها صعبة وكلفتها تتجاوز المعتاد في حل مشاكل مشابهة. سيضحي بالمال، هذا ما يفرضه الوفاء للصداقة، دون أن يُكافئه صديقه بثناء أو شكر، وهكذا تذهب تضحيته المادية هباء، بل وقد يجهل أن إسكات صحافي مع أعوانه يكلف أضعاف أضعاف قيمة ترجمة كتاب أو

كتابين؛ ولن يصدق ما بذله من مال ليخلصه من ورطته، ويظنه يبالغ ليحمله جميلاً. ومهما ظن أو تبادر إلى ذهنه، سيدرك أن صداقته عزيزة عليه مهما بلغت تكاليفها، لا سيما أنه يعرف أن الصحافيين أعداءه، مثل الموظفين يُشترون بالمال، ويثمنون غالياً بيع أقلامهم، تحت زعم أنهم يبيعون ضمائرهم، فيطلبون مبالغ باهظة، لقاء الكتابة أو الصمت. ومن فرط جشعهم، يعتقدون أن أصحاب المصالح بقرات حلوب، فلا يتورعون عن ابتزازهم بين الفينة والأخرى، بهدية ثمينة. ولا ريب، في قادم الأيام، كلما ترجم حامد كتاباً، سيتصل به أحدهم، ويتغالظ عليه بمبلغ من المال، ولو كان تافهاً.

فجأة أحس برأسه يؤلمه، لا يدهم سامي الصداع، إلا إذا استشعر خسارة قادمة. لِمَ أنا متحير؟ نعم، للصداقة حقوق، لكن ماذا لو أنا قصدته وسألته خدمة، ألن يعتذر ويتعلل بالمبادئ والأخلاق؟ أنا بماذا أتعلل؟ شغلي من فوق الأساطيح. وما دمنا في الحياة فمازلنا نتنافس، اليوم كسبتُ جولة، ماذا عن الغد، وبعد الغد، ألن ينساني وينسى ما قدمته له؟ يوماً ما إذا تسلبط عليّ أحدهم ورماني في السجن، هل يزورني؟: لا، لن يهمه أمري، إن لم ينكرني.

تنحنح، لن يذهب إلى المستقبل، سيبقى في الحاضر، مشكلة حامد ليس لها مفتاح معروف، وحلها خسارة بخسارة. لن يلف ويدور:

«يا صديقي، لن أطيل عليك، ليس بوسعي فعل شيء، الصحافة ميدان لا أرغب في الاقتراب منه، الصحافيون أناس طماعون، تعاملت معهم مرة، وذقت الأمرّين. أنت تعرفهم، ما يساوي مائة ليرة، يطلبون فيه عشرة آلاف ليرة، يظنوننا نسرق الناس، فلا يتورعون عن سرقتنا، والأنكى أنهم يستشرفون علينا».

كانت الصدمة بالنسبة إلى حامد أبكر مما يجب، ألم يقل له قبل قليل، قصتك محلولة؟! وسرعان ما تراجع عن كلامه!! ما الذي جاء به إليه؟ لم يأت ليشكو له حالته، بل ليطلب منه عملاً في محل للترجمة المحلفة. فإذا به يتنطح لمشكلته ويتنصل منها خلال أقل من نصف ساعة!! لن يسأله مساعدته، ثم من سامي هذا، حتى أطلب منه عملاً؟! صحيح أنه صديقي، لكنه غير متعلم، ولا يحمل شهادات؛ وفي الحقيقة، محتال كبير بضاعته كلام في كلام.

انتتر واقفاً، ومن دون كلمة توجه نحو الباب. فقفز سامي من وراء الطاولة وأمسك به وحاول أن يشده إلى الداخل، لكن حامد دفعه عنه ومضى.

المصيبة أن المتعلمين رغم عيوبهم وفقرهم حساسون. قال سامي للسكرتيرة.



11

المفكر المستشار:
هل يفسر هذا جزءاً من اللبس المحيط بنا؟!

حسناً، كيف يعيش شاب بات بلا دخل، لم يعمل حساباً للمستقبل، ولم يكن حريصاً فيما مضى على اقتناء القليل من المدخرات للأيام العسيرة؟

خلال فترة وجيزة، بدأت أزمته الطاحنة تتفاعل دون هوادة وتقضمه بلا رحمة؛ لم يبق إلا أن يعضه الجوع بنابه، ويأتي عليه. فجأة هبطت عليه نجدة، حسب اعتقاده، كانت من السماء، لأن أحداً في الأرض لن يتطوع لنجدته. أما لماذا اعتقد أنها من السماء، فلأن ترجمة الروايات أطلعته على بعض الأساليب السماوية الجاهزة، وإن كانت بطيئة، في انتشال البؤساء الطيبين من وهدة الشقاء المقيم، فالله الذي يمهل ولا يهمل، يتحرك في اللحظة المناسبة، وهي لحظة تقع أحياناً على شفير الهاوية، فيعاقب الأشرار، ويكلأ برحمته

المنكود الفاقد أي رجاء.

النجدة التي هبطت عليه لم تكن من السماء، أحدٌ ما على وجه البسيطة، وهو مبدئياً المستشار الثقافي لدار «العصر الحديث للنشر والتوزيع»، الأستاذ الجامعي حكيم نافع، طلبه للمشاركة في الترجمة لحساب مشروع تنويري ضخم، نهضت به الدار فور تأسيسها، وبُدئ بتنفيذه منذ فترة وجيزة. مشروع ثقافي طموح جداً، يحتاج إلى جهود كثيفة ويكلف أموالاً طائلة، قامت بأعبائه مجموعة «ساترون» الاقتصادية في هدف حضاري استثماري، يعنى بإشاعة الفكر الحر، دون الالتفات إلى أي مردود مالي، آخذين بالحسبان أن عائداته المادية لن تغطي تكاليفه، والأغلب سوف تسجل خسائر فادحة. مخاطر المشروع التجارية الكبيرة، لا تشكل عائقاً، هناك أموال ضخمة رصدت له.

لم يكن ما يعرفه حامد عن الأستاذ حكيم بالقليل ولا بالكثير، فهو لا يجهل مثلاً أن خبرة الأستاذ الأكاديمية الواسعة تؤهله لأعمال بحثية متخصصة تتطلب جهوداً نظرية بالغة العمق، بالإضافة إلى توقه لممارسة جهود عملية على صلة بالفكر والواقع والبشر، وهو ما جعله يتحمس للمشروع. وهذا ليس غريباً عليه. المعروف عنه حيويته المفرطة وولعه بالزحام والعجقة، وكل ما يمت بصلة إلى الشعب والجماهير والتجمعات والتظاهرات والهتافات واللافتات. فمنذ كان صبياً، في مرحلة الدراسة الابتدائية دبت فيه الحماسة السياسية الصبيانية الفطرية، وكاد أن يداس بالأقدام وهو يتظاهر في شوارع دمشق دون أن يعرف لماذا، بعد سنوات سيعرف بأنه تظاهر ضد المجلس العسكري المصري لإصداره حكماً بالإعدام على عاملين في كفر الدوار تزعما إضراباً في شركة الغزل والنسيج. وفي أوائل

المرحلة الإعدادية، شارك بالتظاهرات الطلابية البعثية التي خرجت من مدارس دمشق ضد حكم العقيد أديب الشيشكلي الذي صادر الحريات كما قيل، وقمع الأحزاب الوطنية. وخلال العدوان الثلاثي البريطاني ـ الفرنسي ـ الإسرائيلي على مصر، تطوع في المقاومة الشعبية رغم صغر سنه وحمل البارودة التشيكية دفاعاً عن الوطن. وفي السنة الثانية من مرحلة الدراسة الثانوية ترأس تظاهرة طلابية تأييداً للوحدة بين سورية ومصر، بلد واحد تحت علم واحد، علم الجمهورية العربية المتحدة بقيادة الرئيس جمال عبد الناصر. وفي الحرم الجامعي ناضل ضد الحكم الانفصالي اليميني الرجعي العميل، وكان أحد زعماء الطلبة الذين أقلقوا حكومة الانفصال، إلى أن ختم نضاله الشوارعي واعتلاءه أكتاف رفاقه الطلبة بتأييد ثورة ٨ آذار التي ردت لسورية وجهها التحرري الوحدوي الاشتراكي الأصيل، وأعادت إلى دمشق لقبها الجميل: قلب العروبة النابض.

انتقل بعدها من زحام التظاهرات إلى زحام أقل نسبياً، فنشط في كواليس السياسة، وتجول بين الأحزاب، فانتسب إليها كلها وانشق عنها جميعها. خلالها عقد صلات متينة مع الثورة الفلسطينية وقادة فصائلها بمختلف اتجاهاتهم. ثم حصل على الدكتوراه في الفلسفة من إحدى الدول الاشتراكية الداعمة للقضايا العربية العادلة. كان محظوظاً، ففي تلك الفترة قدرت الكتلة الاشتراكية الظروف الصعبة للدول النامية بعد تحررها من الاستعمار وحاجتها إلى كفاءات علمية محلية. فأوعزت إلى جامعاتها تمييز الطلبة الوافدين إليها بالتسامح معهم دراسياً، وغض النظر عن مستوى تأهيلهم العلمي، لأن شعوبهم بأمسّ الحاجة إليهم. فاستثنتهم الهيئات العلمية الجامعية من الامتحانات المعقدة وسهلت حصولهم على دكتورايات نص على نص، وماجستيرات ربع على ربع، حتى أن بعضهم لم

يتقن اللغة التي حصل بها على شهاداته؛ وأعادت تصديرهم إلى بلدانهم بالسرعة القصوى. وعُدَّ تأهيلهم بهذا المستوى، من بلد الاشتراكية الأم، فتحاً عظيماً بالمقارنة مع انتشار الجهل والأمية في أوطانهم.

استقر حكيم أستاذاً في الجامعة، بعد هدوء عواصف التحرر والحروب النظامية والشعبية والخنادق والمتاريس والعصابات الثورية، وحاول مع لفيف من تلامذته تأسيس جمعية للدراسات الفلسفية والاجتماعية والتاريخية، لم تعمر أكثر من أشهر معدودات لافتقارها إلى دعم مادي يسمح لها باستضافة مفكرين مشهورين. فيما بعد حاز الجدل الفكري في الدوريات العربية جلَّ نشاطاته. ظن مريدوه أنه تقاعد عن السياسة، غير أنه كما بيَّن أكثر من مرة، بالأصل مفكر سياسي، وكل ما في الأمر أنه عاد إلى بواكير اهتماماته النظرية، ففي شبابه دافع عن الكومونة والثورات المسلحة وحروب الغوار بأشكالها الأكثر تطرفاً، من دوافع تنظيرية بحتة. وفيما بعد هاجم الشيوعية السوفياتية وتطبيقاتها؛ من الدوافع التنظيرية نفسها. اليوم، والأمة العربية مستنقعة في استراحة إجبارية، فلا ريب أنها بحاجة إلى اعتماد رؤية حضارية مستقبلية، ولن يجدي عزم العرب على النماء والازدهار إلا بعد استكمال عدتهم النظرية، ليكونوا على استعداد للدخول إلى عالم يوغل في التقدم، بدلاً من التخبط بالأزقة الخلفية المظلمة في عالم يتردى في التأخر.

أغلب المعلومات السابقة مذكورة في مقابلات صحافية تطرق فيها إلى طرف من سيرته الذاتية، وهي سيرة خاضعة للكثير من التفسيرات المختلفة، من صاحبها بالذات. لكن ما الذي يهمنا من الماضي، ما دام الأستاذ تجاهله في السنوات الأخيرة؟! ما يعنينا

حالياً، الأستاذ حكيم بوصفه المثقف الأكثر طلباً في الندوات التلفزيونية المحلية والقنوات الفضائية العربية. لا لأنه الأقدر والأعمق والأفصح، بل لأنه لا يترفع عن مخاطبة الجمهور العربي، ولا يرد طلباً لقناة تلفزيونية حتى لو كانت مشبوهة.

يعد الأستاذ من المفكرين العصريين الأشد تصلباً في طروحاته التحديثية، ومرجعاً رائداً في العقلنة والحداثة، ومتابعاً دؤوباً لنظريات تنبت كالفطر وتزدهر على عجل وتتماوت بسرعة، زد على هذا (بالعودة إلى مقابلاته الصحافية) دراساته للواقع الغربي، وعقده مقارنات بينه وبين الواقع العربي الراكد بقوة والثابت بضعف. مع العلم، في جلساته الخاصة مع مريديه، ولكي يذهلهم بجرأة أفكاره، يسخر من بحوثه هذه ويقومها بأنها دراسات بلا جدوى، الواقع العربي لا يستحق المقارنة من قريب، أو بعيد مع أي واقع في العالم. بعبارة أدق، واقع عصي على الإصلاح، فما بالكم بالتحديث!!

تولى الأستاذ حكيم الإشراف على خطة النشر، تعاقد مع جيش من المترجمين والمؤلفين دون تمييز بين مشاربهم السياسية والفكرية، بعضهم أبدى مخاوفه من المستشار الانتهازي، لكن أغلبهم لم يرفض التعاون معه. كانت حصيلة اجتهاداتهم حوله مثيرة للشكوك، حتى تقدميته بدت ملتبسة في نظر أكثريتهم؛ كانت مجرد أنه يسبق غيره في الالتحاق بالتيار الغالب؛ والدليل طرده من منظومته الفكرية شرطاً رئيساً: دكتاتورية البروليتاريا، بعد أن خوَّن في زمن مضى، مفكرين طواهم الموت لانتقادهم البروليتاريا، أو حتى الدكتاتورية؛ ودعوته اليوم إلى الديموقراطية والترويج المحموم لها، مستشهداً بفترتين مرت بهما سورية، وإن كان قد تظاهر ضدهما، قبل الوحدة وإبان الحكم الانفصالي، مورست فيهما

الديموقراطية وازدهرت في سنوات قليلة، تجلت بانتخابات حرة ومجلس نيابي وأحزاب وصحافة، يمينية ويسارية!! أما آراؤه التي يعتز بمواكبتها لإحداثيات المتغيرات الفكرية، فقد قام باستيرادها شخصياً من الخارج، وعمل على ترويجها في الداخل، وهي من نمط الأفكار المستعارة التي تنتشر بين فترة وأخرى في بعض أوساط المثقفين اللبنانيين المتجددين على الدوام، والسباقين إلى اقتناص فلتات الفكر العدمية والتحريفية والطليعية والحداثية... من تلك التي تمتاز *بأنها تخربط منظومات الأفكار المستقرة فتقيمها ولا تقعدها.*

أفكاره لم تقم حتى تقعد، كانت مستقرة بقوة، لا كمنظومة بل كمادة لها قيمة استعمالية، مجرد أنه يستعملها في قضاء أغراضه، وأيضاً للبروظة والفخفخة، ثم يرميها جانباً باحثاً عن غيرها. كان أول من خرق القاعدة الذهبية القائلة بأن بيروت تصنع الأدباء والمفكرين وتصدرهم إلى العالم العربي، أي أن على المفكر أو الأديب وحتى الصحافي، لكي يُعترف به، أن تقدمه بيروت إلى العالم العربي على صفحات جرائدها الغراء تمهيداً للعالمية. فكانت الإقامة في قبلة الفكر والفن فريضة لا بد منها ليغسل الكاتب قلبه وروحه وقلمه من تأثيرات القمع والطغيان، فيجري طبخه من جديد حسب آخر الوصفات الفرنسية المجربة، مع بهارات تفنيصية لبنانية أضيف إليها أخيراً لمسات أميركية أشبه بالوشم تعيد تأهيله فكرياً. وعادة ما يسارع الأدباء والفنانون توفيراً للوقت وبشكل أدعى للثقة بوصف أنفسهم بأنهم معارضون أحرار مطاردون أو مغضوب عليهم، أو منفيون بإرادتهم، ويتطوعون فور وصولهم لفضح النظام السوري والاعتراف بلبنان مستقل ليثبتوا ولاءهم للحرية، فنافسوا الأحرار اللبنانيين في التشهير بسورية عربية بعثية قومية مناضلة صامدة مقاومة ممانعة....إلخ. وبالمقابل يُكافأ الواحد منهم على

جسارته بتنصيبه مفكراً حراً، أو شاعراً لافتاً، وإن اقتضى الأمر روائياً فذاً، وربما سينمائياً خارقاً. وهكذا اختصر الكثيرون الزمن العادي إلى المجد.

وسواء طال الزمن أو قصر، يدرك بعضهم ولا سيما الشعراء منهم، أن لبنان طافح بأمثالهم، وبالتالي لا تعود بيروت أكثر من محطة. يدركون هذا قبل أن يحصلوا على مأربهم منها، بينما هي حصلت على مأربها منهم، وقبل أن ترميهم طعماً للنسيان في جريدة أو مجلة، وبعدها إلى الشوارع والمقاهي والحانات والثرثرة والأراكيل، ينطلق الموهوبون والأذكياء والطفيليون إلى باريس، ومتوسطو الذكاء والموهبة والمحظوظون إلى الخليج برواتب مغرية. بعد سنوات من الغربة يمزقهم الحنين، فيبذلون الوساطات ويرسلون المراسيل إلى النظام الديكتاتوري مؤكدين توبتهم وحسن نواياهم، وقد يعرض بعضهم خدماتهم على جهاز المخابرات المجرم، ملتمسين العودة بأي ثمن إلى الوطن، لكن دون جدوى. إذا كانت السلطة بلا مشاعر، فكيف تتفهم العواطف؟ هذا مصير من لا يعمل حساباً للحنين!!

لم يخرق الأستاذ حكيم هذه القاعدة الذهبية، بل وتمرد عليها أيضاً، فذهب وعاد سالماً غانماً إلى دمشق بعد قضاء فترة وجيزة هناك، ولكي لا نجعل من حنكته مأثرة مجيدة أو مسألة فيها بعد نظر، لم يكن قدومه إلى بيروت أكثر من جولة استطلاعية، خلالها اكتشف خريج الاشتراكيات الشرقية الأصول الغربية لكل ما يتجهبذ به مثقفو المقاهي من أفكار صاعقة ومزلزلة تدير الرؤوس. صحيح أنها لم تصعقه أو تزلزله، لكنها أدارت رأسه صوب مصادرها. فشد الرحال إلى أراضيها بمنحة غربية كريمة، وشرب من منابعها التي لا

تنضب على خط باريس ـ لندن ـ نيويورك. ففتن بتعايشه مع المناخ الفكري العالمي، والجدل على مستوى دولي عابر للقارات، دفعه إلى إعلان تبنيه للطريق الثالث، فحقق سبقاً على معتدلي اليمين واليسار، أرضى تنفجه، فصار يزعم بأن أقرانه متخلفون عنه من خمسين إلى مائة سنة على أقل تقدير.

هل يفسر هذا جزءاً من اللبس المحيط بنا؟!

□ □ □

عموماً، لن نفهم الأدوار المتباينة والمتلاحقة التي لعبها، إلا إذا صدقنا ادعاءاته بأن أفكاره المبكرة كانت صحيحة في وقتها. واليوم، فات زمانها، وينبغي التوجه دون تردد نحو استيعاب التبدلات ومجاراتها بقوة؛ طبعاً، لم يخفق. كانت مرونته المفرطة التي تأبى التحجر، تساعده على تحقيق إنجازات أشبه بالمعجزات. مما أربك المفسرين التقليديين، فشككوا فيه وفيها. وتساءلوا فيما بينهم: كيف استطاع انتقاد ممارسات السلطة على كل الصعد، وأن يصمها بالشر المطلق، فيما كان رجلها المدلل؟! فقد هاجم التغلغل الثقافي الغربي من طرف، ومن طرف آخر تعامل مع مراكز أبحاث غربية مريبة ومدسوسة، واشتغل لحسابهم دراسات ميدانية لقاء مبالغ ضخمة، كلف بها طلبته الجامعيين الذين لم يجدوا عملاً بعد تخرجهم. أبحاث سبرت أوضاع الأقليات وتوجهات الشبيبة وبنية مجتمعات حلقات الصفيح حول المدن. كما لم يُخفِ صداقاته لدبلوماسيين من السفارتين الأميركية والبريطانية؛ سهروا معاً في أماكن خاصة وعامة، وتبادلوا الأنخاب والآراء، بتفاهم حسده عليه البعض، وقبل الدعوة إلى زيارة بلدانهم، وأصبحت له اليد الطولى في ترشيح باحثين شبان لم يشبوا عن الطوق بعد، جرى تطويعهم وتوسيع

مداركهم بزيارة بلاد الديموقراطيات السعيدة، ولدى عودتهم ينهالون بالانتقادات على بلدهم، بلد الشمولية التعيسة. وفي الصحف، يهاجم الأستاذ دونما هوادة الغرب المتحيز، عدو تطلعات الشعوب، معلناً عداءه لسياسات البلدان التي زارها على الرحب والسعة. كانت تفاهماته مع رجال السفارات على أساس قناتين، سرية، تفاهم مطلق وحضاري جداً؛ وعلنية عالمثالثية، يوسعهم فيها نقداً وذماً.

وبالرغم من زعمه أنه لم يخض معترك الذبذبات الدولية، فقد استشعر حسب قوله المتغيرات في العالم قبل حدوثها من مواقعه المتعددة البريئة في الجامعة والإعلام، متوخياً الحياد والتنبؤ الواقعي. ومثلما تبنّى مقولة نهاية التاريخ، وما تلاها من نهايات متعددة مثيرة، شنّ أعنف هجوم على فكرة صدام الحضارات. وأصبح من أشد مؤيدي العولمة والتبشير بالدور الإمبراطوري الأميركي، قدراً عاتياً لا نجاة منه، مع أنه كان من المنتقدين لدعاة النظام العالمي الجديد وأميركا القطب الأوحد. كانت صلاته برجال القرار في الدولة ممتازة، ولم يغفل عن إرضائهم، بدعوته لهم إلى القيام بإصلاح جذري، ينقضون فيه على أنفسهم، قبل أن تفاجئهم ثورة ملونة على غرار تلك الألوان الفاقعة المنذورة للتغييرات الدراماتيكية، وبذلك يبتدعون أمثولة تتجاوز الطبقات والسلطات والأحزاب والمنتديات والسجون وعرائض الاحتجاج... دفعة واحدة إلى مجتمعات تعتني بهندامها وأكلها وشربها واستهلاك الوجبات السريعة والمشروبات الغازية بوفرة!!

هل يبدو هذا التعريف بالأستاذ غريباً؟! نعم، والسبب شخصيته المتوضعة بهذا الشكل المتنافر في ذهن حامد، وهي شخصية على

تضاد مع الانسجام بالذات، ربما لأن الأقاويل متناقضة حولها. والمفترض ألا تشغلنا، مثلما حالياً لا تشغل المترجم حامد سليم، حتى أنها لم تستوقفه عندما اتصل به الأستاذ بالهاتف ودعاه إلى زيارته في مكتبه في دار النشر للتباحث في بعض الأمور الأدبية والمادية. لم يتوقف حامد عند الأمور الأدبية، بل عند الأمور المادية، وهذا ما جعله يتردد في الذهاب، فقد حامت حول الأستاذ فضائح مالية انطبلت بها الجامعة، اتهم فيها باختلاسات مالية، لم يقم الدليل عليها، فما زال حتى اليوم أستاذاً في الجامعة نفسها التي لم يوفر ميزانيتها التافهة من احتيالاته كما يقال، ونجا من الاتهام بقدرات معارفه الخاشعين أمام موسوعيته المغناطيسية، كانوا يعتقدون أن الأستاذ يُعنى بالماورائيات ولا يفكر بالماديات من أوراق مالية وطيبات وجنس، متاع الحياة الدنيا، فلم يعرفوا شيئاً عن صغائره المريعة، ومثابرته على استدانة مبالغ من المال يحتاج إليها ليومين لا أكثر، ينساها ولا يردها، بالطبع ليس أي مبلغ، يجب أن يكون معقولاً. بالنسبة لحامد، لم يكن باليد حيلة، قرر مقابلته، ما جعله في مأمن من الأستاذ، أنه ليس في جيبه سوى بضع ليرات، لن يستدينها الأستاذ عندما يعلم بمقدارها.

إذا كانت سمعة الأستاذ الفكرية والسياسية لا تهم حامداً، فهذا شأنه، أما أن يلتفت إلى المادية ويهمل الأدبية، فهذا من قصر نظره، إذ إن سمعته الأدبية تثير الاستغراب، فهو حسب أقواله كاره للأدب، وحسب كتاباته معجب به؛ هل هذا تناقض آخر يضاف إلى سلسلة تناقضاته الفظة؟ لا، من الممكن تفسيره: بعض الجرائد اعتمدته موزعاً لشهادات جودة ثقافية متنوعة، كان ثمنها باهظاً على الأدباء، لقدراتهم المادية الضعيفة، وكانوا مضطرين إلى اعتراف الأوساط الأدبية بوجودهم ونتاجهم، فاشتروا شهادته بعشاء فخم،

أو حفلة ساهرة حتى الصباح، وحسب السخاء والبذخ يكون التقريظ. هل في هذا تناقض؟!

وإذا عدنا إلى مفهوم الأدب لدى الأستاذ، فلا بد من القول بأنه كان صاحب مزاج فكه، ومعدة لا تعف عن شيء، ولا يملأ رأسه أقل من بطحة عرق لبناني وكأسي ويسكي اسكتلندي وكأس جن إنكليزي وعبوتي بيرة ألمانية، هذا عياره. بعدها، يفصح عن آرائه، ومنها رأيه في الأدب. فهو، أي الأدب، ثرثرة منحطة متحللة من ضوابط المنطق، وبشكل عام يعتبر الفنون كلها، توابع سيئة للفكر، والأصح من سواقطه. أما رأيه المحدد والقاطع فهو: يقف الفكر في المرتبة العليا من نشاطات الإنسان العقلية الراقية، ويوفر للإنسانية تجارب ذهنية عميقة ومتعاً روحانية خالصة، تتفوق على ما يوفره الفن من تسلية وجدانية عابرة ورخيصة.

ما حظ الأستاذ المفكر من التجارب الذهنية والمتع الروحانية؟ أعداؤه يدعون بأن تجاربه الذهنية لم تكن إلا مجموعة انتقالات مصلحية؛ سوَّغ للسلطة كبت الحريات، وسوَّغ لها إطلاقها، بالمنطق نفسه: الحتمية، والضرورة، ومتطلبات المرحلة. أما متعه الروحانية، فترويحية، تأتي من تناول عياره من المشروبات الروحية.

ثمة خلاف ينبغي الإشارة إليه، كانت كراهيته في الحقيقة منصبة على الأدباء، وكان يصفهم بالشيوعيين الأنذال الحمر، أصحاب الثوابت العقائدية ذوي العقول المتجمدة والمتخشبة؛ رغم ماضيه الذي لم يخل من احمرار قان جداً؛ كان حسب قوله، من هفوات الشباب، من منا لم تصبه لوثة الماركسية اللينينية، ألم تكن تيار العصر الجارف؟! متهماً رفاق دربه القدماء المتحجرين، بأن بقاياهم المعشعشة في الدوائر الثقافية والمجلات والجرائد، بسطوا هيمنتهم على

المنابر الأدبية خلال غيابه عن الوطن الذي طال أكثر من ثماني سنوات، وكانت مؤامرة لإبعاده بحجة التحضير للدكتوراه، تمت بوساطة من الرفاق الشيوعيين ومنحة من الدولة الاشتراكية الصديقة. ويفخر بأنه بعد عودته أبحر وحيداً عكس التيار في محيط من الأعداء المتمركسين الأدعياء والأشداء. هذا الزعم لا يطابق الواقع، إذ لم يعد هناك تيار من الماركسيين الحقيقيين ولا الأدعياء، سواء كانوا أشداء أو غير أشداء، كان يبحر في بحر آمن، مراقَب من أجهزة الأمن.

ولا شك في أن شهاداته التي وزعها بكرم ذات اليمين واليسار، مجرد مزحات هازئة بحامليها النجباء، ولا قيمة لها، مثلما كان تقريظه لأعمال تافهة، عبارة عن مجاملات مدفوعة الثمن، بذلها بسخاء وبلا مسؤولية لاستخفافه الضمني بالأدب. ومن المستغرب أن شهادة المفكر حكيم نافع الحاقد على هلامية الفنون بطبيعتها، كانت تسبغ على العمل الفني حصانة ضد ضروب النقد مجتمعة، لا تجد تفسيرها سوى في تجنب وقاحته وعدم التعرض لبذاءته، كذلك في غباء المتسلطين على الصفحات الثقافية.

انصبّ احتقاره العلني على الشعراء والروائيين والقصاصين الذين بنوا شهرتهم على النضال ضد الإمبريالية العالمية والبرجوازية الكومبرادورية العميلة، والترويج لحروب التحرر والدفاع عن النظام الاشتراكي، وكتبوا حكايات لا تجوز سذاجتها إلا على قرائها من المنظمات الشعبية، وأعضاء الأحزاب الحديدية وأنصارهم الغلاة. أين هم الأبطال الإيجابيون من العمال والفلاحين والمثقفين الثوريين والنساء المناضلات؟ هل حدث مرة والتقينا بهذه النماذج في البيت أو الشارع أو المعمل؟!

ولا بأس أن نعرج سريعاً على نظريته النسائية التي شدد فيها على الذود عن العاهرات الكادحات بنات الليل، ضحايا تلك القائمة الطويلة المعروفة من الأمراض الاجتماعية: البؤس التشرد الجهل الفقر المخدرات الزواج المبكر التحلل الأسري... إلخ، هذا هو الشق المُهين والمعلن من القضية النسائية. أما الشق المخفي والجريء، فقيام المجتمع بعملية فرز طبيعية، يلفظ فيها القحبات من صفوفه إلى الزوايا المعتمة، ليشكلن مادة ترتد بالنفع عليه، فيصنّ طهارته بأجسادهن، حماية للبنات البريئات نساء المستقبل الوضاء من وحوش الظلام المفترسة من الرجال المهووسين والمراهقين المنحرفين. ولقد بالغ في أفكاره هذه، لكي يبعد الأنظار عن مصدرها؛ كانت مسروقة برمتها.

هذه القضايا كلها، لم تعد اليوم تعني شيئاً إزاء دعوات تمكين المرأة والاعتراف بحقوق الشاذين جنسياً، والنقاش الدائر حالياً، لا حول الاقتصاد الحر والموجه، بل بين اقتصاد حر ذي وجه إنساني، واقتصاد حر بالمطلق؟!

ترى ما الذي يجمع بين الأستاذ حكيم نافع والمترجم حامد سليم؟



12

عمل يتطلب الأمانة:
توخّ الحذر مني، لأنني أفتقر للضمير

فكر حامد، بما أن اللقاء لقاء عمل، فما سوف يتباحثان فيه لا بد أن يكون الترجمة، وإذا كان من جملة الذين وقع عليهم اختيار الأستاذ مستشار الدار، فليس من باب الشفقة على حالته كمترجم عاطل من عمل، بل لشيوع أخبار سمعته السيئة، وكونه مغضوباً عليه أدبياً، وعلى هذا لن يكون ثمن ترجماته مرتفعاً، بل زهيداً؛ آخذين بالاعتبار، أن تدني سعره سيحضه على رفع وتيرة إنتاجه لتعويض الفرق. ما خطر له لم يكن صحيحاً، السبب الحقيقي سيعلم به. لكن لا قبل أن يدخل إلى مكتب الأستاذ، ويقول له أنا حامد سليم.

الأستاذ حكيم رجل أقرب إلى أن يكون طويلاً وعريضاً، جسيماً وسميناً، ولهذا بان جذعه من وراء طاولته ضخماً، يلبس بذلة

رصاصية اللون غير أنيقة، وربطة عنق محلولة، لن يرفع رأسه، إنه مشغول، يتأفف ويتفتف، في يده قلم ويكتب على دفتر كبير. عندما رفع رأسه، طلب من حامد الانضمام إلى هيئة الترجمة في الدار. لم ينتظر موافقته، حنى رأسه وتابع الكتابة. بعد دقائق توقف عن الكتابة وأخذ يشرح الخطة التي وضعها للمشروع.

لم يكن لهذا المشروع أن يرى النور على هذا النحو الشامل والمتنوع، لولا استئناسه بالخطط الثقافية المقترحة للعالم الثالث من جانب منظمات ومؤسسات تعليمية وثقافية وتربوية دولية، لا تهمل المتعلمين وأنصاف المتعلمين، ولا تستثني النخبة، فمن كتب الناشئة المبسطة والكتب العلمية والفكرية سهلة التناول، صعوداً إلى أحدث المنهجيات العلمية، وصولاً إلى تيارات الحداثة الأوروبية والأميركية؛ دونما تجاهل لحركة الفكر في السنوات الأخيرة من القرن العشرين، مع التركيز على السنوات المرعبة الأولى من القرن الواحد والعشرين، وتأثيراتها السلبية على المنطقة العربية. الخلاصة، يغطي المشروع رقعة لا يستهان بها من حركة الفكر والبشر في العالم شرقه وغربه منذ القديم إلى الوقت الحاضر.

كل هذا، ولم يف المستشار المشروع جزءاً زهيداً من قيمته، وما ذكره لا يعدو غيضاً من فيض، فهناك أكوام من السلاسل تستحق التعريف بها. على كل حال، لا يهم حامد حالياً، إلا جانب ضئيل منها، سلسلة الروايات الواقعية.

فسأله حامد عن نوعها: واقعية اشتراكية، أم واقعية سحرية، أم واقعية قذرة، أم...؟

فضحك المستشار: واقعية جديدة لم يسبق توقعها من قبل، لا تمت

لهذه الواقعيات بصلة. وهي واقعية جميلة لطيفة وخفيفة.

باختصار، روايات منتقاة، أثبتت مكانتها وشدة رواجها، مضمونة، مسلية وسهلة، تبعث على التفاؤل، تلائم ذائقة قطاعات عريضة من البشر، تغذي مشاعرهم بالأحاسيس المرهفة، وتعالج المآسي العاطفية بأسلوب رقيق. فتهيج الأحزان وتغسلها بالدموع. تؤجج لواعج القلب وتبردها بالوصال. لا أظنك تجهل أن الناس يرغبون في قراءة ما يريح عقولهم، ونحن سنريح بالهم، لن نشْغَله أو نُشَغِّله. لن نستبعد طبقة، ستشمل فائدة رواياتنا الشعب كله بمختلف أعماره وأجياله وتصنيفاته، سيقرأها المراهقون والمراهقات لتنشيط الأحلام، وربات البيوت لتجديد الأوهام، والعمال لزيادة الإنتاج وتحسينه، والمتقاعدون والعجائز للمساعدة على النوم، ورجال الأعمال المسافرون في القطارات والطائرات لقتل الوقت الثمين؛ وترمى مع النفايات بمجرد الانتهاء من قراءتها. ومن المضحك، إن لم يكن من السخف، أننا سنشهد خلافاً لأي منطق أدبي، أن الرومانتيكية الجديدة ستستعيد بانحدارها وميوعتها مكانتها الشعبية المرموقة، إذ تعود القديمة بكامل حمولتها من حب وغرام، وعشق وهيام، ودموع وأشواق، وهجر وخصام، متجددة بالجنس بأشكاله كلها، العادية وغير العادية، وهي للكبار فقط، أما الصغار فعليهم أن يدبروا رأسهم في الحصول عليها. وعلى سبيل المثال، المضاجعات بأنواعها، الغريبة نوعاً ما، أي دون التقيد بالاضطجاع على الفراش، أغلبها سيتم على الواقف في الشارع أو المطبخ وفي القبو أو الزريبة... وهلم جراً بقدر الأمكنة المتوفرة، وكل هذا بطرق وأساليب طريفة، دون تمهيد من عناق وقبلات، لكن لا غنى عن المصمصة واللحوسة.

وللعلم، لن نغفل علاقتها بثقافة السلام، لأننا سنركز على عشق

الحياة وكراهية الموت، والتأكيد على الصورة المقيتة للإرهاب والإرهابيين (هل لديك اعتراض؟) والعمل على تحسين صورة العرب والإسلام (هل لديك اقتراح؟). ولن ننسى الأميركان لأنهم مكروهون جداً، ولا يعرفون السبب. وبهذا نكون قدمنا للقارئ وجبة شعبية ممتعة، مسلية ومفيدة.

لم يحفل حامد بهذا العرض، ولم يهمه ما إذا كان الأستاذ يتكلم جاداً أم هازلاً، أو أنه كان يسخر منه. فتساءل بأدب، باذلاً جهده ألّا يبدو جشعاً، عن الاتفاق وشروطه، وكان يقصد الاستعلام عن الأجر.

الأستاذ فهم، قال وهو يشخبر على ورقة أمامه، سندفع لك على الصفحة كذا. فرد حامد بمنتهى التهذيب، هذا قليل. قال الأستاذ مستغرباً، لا تتعجل، فكر وسوف تقبل. وجد حامد رخاوة من الأستاذ لم يتوقعها، فتعجل وفكر قليلاً؛ الأستاذ يستغل وضعي، وينبغي أن أساومه، فسأله زيادة التسعيرة، وتظاهر بأنه سيذهب إذا رفض طلبه. لم يتوجه نحو الباب، بل وقف وتململ. فتوقف الأستاذ عن الشخبرة ورفع رأسه، وبحلق، عقله لم يستوعب أن يبيح مترجم شاب لنفسه التململ أمامه، رمى القلم من يده وقفز كالملسوع من وراء طاولته، كأن أحداً اقتلعه من مكانه، وفتح فمه كالبورظان، وخرج صوته أجش حانقاً:

«أعرض عليك عملاً يتمناه العشرات، فتدير ظهرك وتمشي».

انفتح فم حامد على وسعه، ونزل فكه التحتاني إلى الأسفل وارتفع فكه الفوقاني إلى الأعلى. لم يعبر عن دهشته، بل سارع إلى تصحيح ما قاله الأستاذ:

«أنا لم أدر ظهري وأمشي، مجرد كلمتين قلتهما لا أكثر!!».

فات الأوان، كان قد تورط مع سلاطة لسان الأستاذ، مع أنه حَسَبَ لمقابلته معه ألف حساب، لكنه لم يتوقع أن يهينه بلا مبرر:

«عمل ممتاز لا تستحقه، وسعر جيد، لا يحلم به شاب مثلك لا يساوي فرنكين».

لم يكتف بالكلام، هجم عليه وشده من كتف جاكتته، ودفعه نحو الكرسي:

«لن تغادر قبل أن توافق».

ففتح حامد فمه ثانية، حسب الطريقة السابقة. لم يتمكن من ابتلاع الصدمة، كانت كبيرة. وبصعوبة أغلق فمه نصف إغلاقة، كانت كافية ليقول:

«هل تجبرني على العمل معك؟».

«وهل تريد إجباري على عدم العمل معي؟».

ما هذه المناقشة الخرندعية، كيف يجبره على عدم العمل معه؟! وهل في مناقشة الأجر إجبار؟! تجاوزت عدائية الأستاذ كل الحدود وبلا سبب معقول!! ربما أتى شيئاً دون أن ينتبه، جعله يتصرف معه بشراسة.

«أنا لا أجبرك على شيء بل أستفسر».

«ومن تظن نفسك حتى تستفسر؟».

حامد لم يظن نفسه شيئاً.

«يا أستاذ، أنت الذي تظن».

«أنا لا أظن، لو أن الأمر عائد إليَّ لطردتك».

ورفع قبضته. توقع حامد أن يضربه الأستاذ، لماذا؟ الله أعلم. غير أنه ابتسم فجأة، كان قد فشَّ خلقه فيه، عاد إلى كرسيه وجلس، دون أن يهدأ تماماً، وأخذ يحملق في وجهه متوفزاً، ينوي الوثوب عليه ثانية ويطبق بيديه على عنقه؛ فاستأذنه حامد:

«هل أذهب؟».

«إلى أين؟! أنت مفروض عليَّ».

اتسعت عينا حامد من الدهشة. الأستاذ لاحظ ردة فعله، فرفع حاجبيه مندهشاً بدوره، وقال يشهده على هذا الأمر العجيب الواقع فيه، وهو يضرب بقبضته على الطاولة مستسلماً لمشيئة من فرضه:

«وينبغي أن أقبل بك».

التقط من جواب الأستاذ سبباً غير مريح لثورته عليه، من يستطيع فرضه على الأستاذ؟ لا أحد، سوى المخابرات. وبما أن المخابرات لن تتدخل في توفير عمل له، قال:

«أستاذ، أنت غلطان».

«كيف أغلط؟ أنت بالذات لا غيرك. ألست المترجم حامد سليم، وقاعد بلا شغل؟».

«نعم، أنا هو».

«منذ يومين طلب مني شخص أن أجد لك عملاً في المشروع».

«شخص؟! لا أحد يفكر فيَّ حتى يشفق عليَّ».

«شخص قوي، ابن حرام وشرير، يعرفك وتعرفه. كلمني بشأنك، وبصراحة أمرني بطريقة مزعجة ووقحة جداً، فلم أستطع الرفض، مع أنني أوقح منه وأستطيع الرد عليه بأسلوب أحقر. أتعرف لماذا قبلت؟».

هدأت خواطر حامد المضطربة، الأستاذ لم يوفر شخصه، واصفاً نفسه رغم أستاذيته بالوقاحة والحقارة.

«قدم إلي خدمة، أنقذني من ورطة لعينة كنت عالقاً بها، قصة مشينة، هل أَطلعكَ عليها؟».

لم يرغب في نفي الاطلاع عليها، قبل أن ينفي صلته مجدداً بابن الحرام القوي.

«صدقني، لا أعرف الشخص الذي تتحدث عنه».

«كنت أختبرك، قال لي بأنك ربما نسيته».

«أنا غير مسؤول عن تصرفاته».

«أصبت، وهذا يفسر اضطراري إلى القبول بك، أنت لا علاقة لك بالأمر. طبعاً لن ترفض العمل، لا أريد أن أعلق معه، العلقة معه خرا، اختبرته، يستطيع إيذائي، لا يهمه شيء، بايع الدنيا بقشرة بصلة. خدمني تقريباً بلا مقابل. وأنا وعدته. ثم إن طلبه سهل وبسيط، نحن بحاجة إلى مترجمين».

انجلى طرف من الأمر، تذكر حامد شيئاً له علاقة بالقوة والشر، أراد التأكد من ملاحظته، لكن الأستاذ تابع:

«سأطلعك على قصتي المشينة، حتى تعرف لماذا قبلت، مع أنني حيوان ورأسي يابس كحجر الصوان. القصة وما فيها، هل تريد أن تسمع؟».

لم ينتظر جوابه، وأكمل:

«تصور، رغم حنكتي تعرضت لإغواء طالبة؛ وعندما أقول طالبة، الأفضل لكي يكون تصورك في محله، ألا تتوارد إلى ذهنك المقررات الجامعية السميكة واللباس الجامعي المحتشم والخجل الجامعي، انزع هذا كله من رأسك، هذه شيطانة، أوقعت بي. كان الرجال في الماضي، يغوون النساء ويهددونهن. اليوم، فتيات صغيرات يتجرأن علينا نحن الرجال الأرذال، ما أغبانا نطالب بتحرير المرأة، كأنهن لسن متحررات وزيادة».

جامله حامد:

«كلنا نتعرض إلى الإغراء».

انفعل الأستاذ وازدادت تفتفته، لا بد من تبرير ما حدث، لا سيما وقد لاحظ أن المترجم الشاب يكتم ابتسامته الشامتة، فنبهه:

«انتبه أنا لستُ بالرجل البسيط ولا السهل».

زمَّ حامد فمه. بينما استطاب الأستاذ الحديث، وأخذ يوضح للمترجم الغر، أن لا أحد يتفوق عليه في ولدنة الحرام ومع هذا تغلبت عليه فتاة صغيرة.

«ضحكت عليَّ، وحصلت على دليل يثبت أنني ساومتها على عشر علامات تضمن نجاحها، مقابل مداعبات جنسية لم أقم بها، غررت بي على الهاتف، آهات ونهنهات ودلعنة وضحكات شلكاتيه، وأنا البغل سايرتها؛ والنتيجة، استدرجتني، وحصلت على تسجيلات بذيئة كانت بصوتي. صحيح أنني واع لهذه الأمور، لكنني رجل، لست من حجر، تهيجت حتى شعر رأسي انتصب. أما هي

فحصلتْ على العلامات، وأنا كدت أن أحصل على فضيحة مجلجلة. ألا تستغرب؟».

«في هذا الزمان يحدث ما هو أمر وأدهى، هناك للأسف فتيات منحطات..».

«لا أحد يفوقني في الانحطاط، لا أعبأ بشيء، أنا سافل عند اللزوم ودنيء بطبعي، لا أحس بالخزي، الجميع مثلي، هم يؤنبهم ضميرهم، أما أنا فلا».

«إذاً، لا مشكلة».

«لولا الجامعة والمشروع والتلفزيون والمؤتمرات، لما كانت مشكلة، هددتني بالتشهير بي، الأولى أن أشّهر أنا بها. لو ادعيتُ أنني فعلت بها كذا وكذا، لن تخلص مني لا بحلال ولا بحرام. لا يسيء إليَّ أن تغويني فتاة في الثانية والعشرين من عمرها، بل يؤذيها».

«سيصدقونك ولن يصدقوها».

«بل سيصدقونها، لدي بعض السوابق، وهناك من يتربصون بي، ويريدون النيل مني، بعضهم يسعى إلى انتزاع الجامعة مني، وآخرون إلى حرماني من المشروع، إذا فقدتهما خسرت معهما التلفزيون والمؤتمرات؛ مصيبة. جعلتني القحبة، أمشي في الشارع بالمقلوب وأحكي مع حالي».

«تحكي مع حالك؟!».

«جاء الأمر على خير، سمعني شخص بشع وأنا بهذه الحالة..».

«بشع؟!».

«نعم، بشع جداً. سمعني أحكي مع حالي بصوت عال، فعرف بقصتي، وتبرع لمساعدتي، طلب مني عنوان البنت، ذهب إليها، خوَّفها، فارتعبت منه، ظنت أنه سيغتصبها، فأعطته التسجيلات، وأنقذني من الابتزاز».

على التأكيد هو محمود، سأله:

«كان يلف حول رأسه لفحة صوفية».

«هذا هو، ما الذي تعرفه عنه؟

«لا شيء، سوى أنه فقير».

«أجبرني على استخدامك عنوة، أقصد أنه يفتقر إلى الأسلوب المتحضر، وهذا ما أثار حفيظتي عليه، لم أتجرأ على الرفض. ضع نفسك مكاني، يكفي أن يقع في ظنك للحظات أن هذا الشخص قد يحطم رأسك حتى لا تفكر برفض ما يطلبه منك. أخافني كثيراً عندما خلع اللفحة عن رأسه، هل رأيته عاري الرأس؟».

«لا».

«شعره كالإبر، كأنه يضع على رأسه قنفذاً».

كانت هالة الأستاذ كمفكر رصين قد تداعت تماماً، فيما هالته كمفكر سافل قطعت شوطاً في التجسد. بل وراق للأستاذ التباهي بأساليبه الفطنة في التعامل مع الناس، والإيقاع بأساتذة جامعيين، بعضهم كانوا من أصدقائه الحميمين. لم يكن تحاقره، وشطاراته الشيطانية في الكيد للآخرين كما ادعى، إلا سبقاً ذكياً في الخديعة، ودراية بوضاعة أناس ينبغي أن يكون على قدهم، والأفضل قدهم وقدود.

«أستاذ، لا بد أنك تمزح».

توقف الأستاذ عن الكلام، وأخذ يفكر، لقد أوغل في استعراض مآثره الدنيئة أمام شخص نكرة لا يعرف عنه سوى القليل، بل أقل من القليل. تأمله، يبدو عليه أنه شاب طيب. ابتسم باستخفاف، واسترد هيأته الأكاديمية الرصينة، وسأله بهدوء وأناة:

«هل الضمير ضروري؟».

«بالطبع».

«توخّ الحذر مني، لأنني أفتقر للضمير. والآن أعيد عليك السؤال، هل الضمير ضروري؟».

كان في التنبيه تهديد، وإشارة إلى أن تكرار السؤال ليس بريئاً. بدا مزعجاً لحامد أن يساوم على الضمير، ويجعل منه مادة للتهكم. فقال:

«لا تسألني، مشاكلي لا علاقة لها بالضمير».

«اسمع إذن، مشاكلي كلها على صلة بالضمير، إذا فكرتُ به فسوف يؤرقني وقد يكلفني عملي وأكلي وشربي، فيما أنا حريص على البهنكة والتعريص إلى حد التخمة».

«طبعاً الضمير..».

«لا تقاطعني. أنا لا أعبأ به. وكن على يقين بأنني لا أتورع عن شيء. فلا تجربني».

«لن أجربك».

«ثمة مسافة بيننا، أنصحك ألا تتجاوزها».

«أستاذ، أعرف حجمي».

«قبل أن أنسى، إذا رأيت صاحبك أبلغه بأنني ممتنّ له، وأنني من أجله وحده وإكراماً لخاطره تجاوزت تقاليد مهنتنا. هو لا يعرف، أما أنت فتعرف أن حكايتك مع الترجمة تُعد مشكلة لنا، وحتى تكون على بينة، سأعاملك بطريقة خاصة، سأراقب ترجماتك، وأولي اهتمامي لخاتمة الروايات. لا أظنك تجهل، المطلوب الأمانة! وأنتَ أبعد الناس عنها».

«لا أخالفك، أعترف بأنني غير صالح للعمل».

«استخدامك لدي أحد تجاوزاتي، ولو استشرت ضميري لرفضتك على الفور. اشكرني، اشكر ضميري الميت».

«أشكرك».

«هناك جماعة من الأدباء لو عرفوا بأنك تعمل لدي فسوف يقيمون الدنيا ويقعدونها فوق رأسي ورأسك».

«جماعة؟!!».

استعاد بلحظة واحدة المجموعة التي جاء على ذكرها الناقد حلوم، ووجدها فرصة سانحة ليقول للأستاذ المفكر بأنه يعرف بعض خفايا الوسط الأدبي.

«لا بد أنهم تلك المجموعة المترابطة من الأدباء المهتمة بتنقية الأدب من أمثالي».

«أية مجموعة؟».

«تلك التي أخفت الكاتب سميح حمدي، ولم تترك له أثراً».

«الروائي... طبعاً لا تريد أن تكون نهايتك مثله، مغموراً».

«مغموراً بالماء؟!».

«أقصد منسياً، دونما ذكر».

«هل ما زال على قيد الحياة؟».

«من يهتم؟».

لاحظ المستشار أنه تجاوز الحدود في الكلام، فاستأنف بانزعاج:

«انتبه لترجماتك فقط، وتقيد بالمواعيد المحددة».

«لكن هذه المجموعة، ماذا تكون حتى..».

«هذه المجموعة، الجماعة، الجمعية، الرابطة... مهما كانت، ما الذي يعنيك من أمرها؟!».

لم يفت حامد أن المستشار قاطعه عن قصد، بعد أن أحس بأنه ارتكب خطأً شبيهاً بخطأ الناقد، ولا يريد التحدث عنها، سواء كانت جماعة أم جمعية أو رابطة... بقي توصيفها سائباً دون تحديد. فكر حامد، إذا كانت تجمعاً من عدة أشخاص، فهذا يحيلها إلى مجموعة صغيرة أشبه بشلة ثقافية، وربما أخوية؛ المستشار والناقد أعضاء فيها. لماذا يتستران عليها كأنها عصابة يجمعها ميثاق سري؟!

صرخ المستشار:

«هل لديك مانع؟».

«لا مانع».

«بالمناسبة، صاحبك الشرير غريب الأطوار، لم يشأ أن أطلعك على عمله الخيري تجاهك. لكنه إزاء إلحاحي، عاد وقال لي لا بأس، قل له بأننا صرنا متعادلين، أي سدد لك دينك وبرئت ذمته تجاهك».

أراد حامد أن يضحك، هل مائتان وخمسون ليرة تعد ديناً، وتساوي الحصول على عمل بحاله؟ الرجل لا يدرك ما قدمه له...عمل يقيه ذل الحاجة!!

«لكن العقبة الوحيدة هي اسمك المشبوه، لذلك لا تستعمله. ما رأيك؟».

«لا أدري».

«لا تدري!! أعطني جواباً بلا أو نعم».

صفن حامد سليم، ألا يساعد نفسه؟!

«أنا موافق».

«لقد اخترعتُ لك اسماً نظيفاً، لم يُستعمل من قبل، ولم يسمع به أحد. كتبته هنا على ورقة، أين وضعتها؟ ها هي... عفيف حلفاوي، هل سمعت بمثل هذا الاسم العجيب؟».

«لا».

«حسناً، وأنت خارج، خذ من السكرتيرة الرواية. بالنسبة للأجر، التسعيرة موحدة. والآن يا عفيف حلفاوي انقلع من وجهي».

في تلك الليلة، لم يستطع حامد النوم، قبل أن يجد تعليلاً لغياب الروائي سميح حمدي عن الأنظار، بالأحرى نهايته المريبة، ألا تشير إلى جماعة غامضة، حاولوا منذ ذلك الوقت محو أي أثر له، ونسيانه وعدم الإتيان على ذكره؟

13

عفيف حلفاوي:
أي جموح في الخيال، لو أنني قبلت بتقاسم ذاتي مع آخر، هو أنا، ويعمل على تبعيضي!!

رضي حامد بالتعرفة المخفضة للترجمة، كانت البديل الوحيد للتخفيف من ضائقته المادية. حياته الجديدة لم تتغير، القديمة نفسها. ولئلا يستثير الشكوك، لم تنازعه نفسه إلى ارتياد المقاهي، أو غشيان الندوات الثقافية ولا مخالطة المتأدبين، قد يتساءلون من أين له بثمن القهوة والجريدة؟! ويحسدونه على تطنيشه مما أصاب سمعته. لن يظهر، إلا باسمه المستعار «عفيف حلفاوي»، مترجماً على الأغلفة الملونة للسلسلة الروائية الشعبية الحافلة بالمتعة والإثارة... وفي مكان محدد «دار العصر الحديث للنشر والتوزيع».

تنشطت من جديد آماله في الترجمة بعد تضاؤلها وانعدامها. لم يكن في قبوله اسم حلفاوي مجرد استعارة لهوية مترجم مجهول لا

شخصية ولا ذكر له، بل إيقاظ مأمون العواقب لطموحاته، فمن خلاله ستجد شطحاته طريقها إلى الورق، شطحات لا تخلو من جرأة تحيل الروايات خفيفة الوزن إلى أعمال أكثر جَداً ووزناً. وإذا كان سيتحمل ضيق أفقها وسقم مغامراتها غير المؤذية؛ فبالمقابل، سيُكافأ بالعمل على هواه مع الحفاظ على الخاتمة، بالتصرف تنقيحاً وشطباً وتبديلاً، دون مواجهة انتقادات سطحية فظة وانقضاضات أدبية مغالية؛ ويستعيد بذلك لمعات من بريق مغامراته الترجمية الخلاقة.

كانت الروايات على الرغم من خفتها العاطفية، تحوز على ميزتين: الأولى، أشار إليها المستشار سابقاً؛ إقبال القراء من مختلف الطبقات والأجيال والأعمار والمشارب عليها. والثانية، لا يقرأها الأدباء والنقاد، وبالتالي لن يدسوا أنوفهم بين سطورها. كانت النخبة الناقدة المتنفذة، لا تنزل إلى مستوى القطيع من قراء الروايات الشعبية.

□ □ □

آماله التي حمَّلها لعفيف حلفاوي، بالإضافة إلى طموحاته التي بالغ بها، لم تثمر، قُضي عليها وهي في المهد. إذ باغته عفيف (رغم أنه اسم فقط) أصيل اليوم التالي. بعد أن جلس وراء طاولة الكتابة، وتصفح الرواية المراد العمل عليها، أمسك بالقلم، سمع حركة، فالتفت خلفه، تماثل ظله مرمياً على الجدار، أكبر من حجمه العادي، متكاملاً على نحو مفلطح، ومرسوماً بشكل إجمالي، خطوطه الخارجية متعرجة وباهتة، وبروز في أعلى ظهره كأنه تشوه ولادي. أما الداخلية فبقعة كبيرة عبارة عن لطخة رمادية مشوشة، تشف عن رأس طولاني بلا تقاطيع، وكتفين ضيقتين، وجذع

متشقق أجوف، وساعدين نحيلين استند بهما إلى الطاولة!! كان الظل يليق بحلفاوي، كشيء بلا ملامح محددة، يؤدي وظيفة ما، يقبع إلى جواره شخص هو الأصل.

أوحت له النافذة المفتوحة والهواء يداعب غلاف الرواية والأوراق البيضاء، بقابلية الظل على التبدد. تكهن مازحاً: لو زاد الهواء من سرعته قليلاً فسيطير حلفاوي مع الأوراق. وإذ تنبه إلى أنه يتكلم عليه كشخصية حقيقية، استنكر عبثه: ما هذا السخف الذي أحاول اختلاقه؟! خصوصاً وقد بدا حلفاوي في تلك اللحظة موشكاً على الإقلاع صوب النافذة، ومغادرة الغرفة على جناح الأثير كما حال التخيلات عادة. غير أنه لم يقلع حتى يغادر، وتكهنه الواهي سينقلب بعد أيام إلى تصور راسخ؛ بأن حلفاوي كان مختفياً في داخله، ينتظر فرصة واتته، خرج على أثرها مجهزاً بهيئة غير واضحة، ليسهم في لخبطة حياته أكثر مما هي ملخبطة، وكأنه ينقصه!!

تصوره لم يصمد، حامد لا يعتقد بمثل هذه الأوهام التي تنتمي إلى عالم الخفايا المموهة بالظلال، ما دام لا خفايا لديه، وهو الأصل، فلِمَ الظل وفي غير أوانه؟ كان الوقت غير ملائم ليُسقط غروب الشمس ظلاً له على أرض أو حائط أو سقف. تراءى له أن إحساسه القوي بوجود آخر إلى خلفه أو جواره أو فوقه، ليس إلا ابتداعاً ذكياً لرقيب كان في داخله وأصبح خارجه، يهدف إلى تجنيبه أخطاء الماضي وهفواته، وفق صيغة تتقيد بتعليمات المستشار، ليس تقيداً كاملاً؛ ثمة هامش للتهور، كذلك للمرونة متسع. الرقابة شكلية، وحتى إذا كان الرقيب مدققاً، فهو مثقف جاد لن يعبأ بروايات غثة ويكلف نفسه عناء مقارنة الترجمة. كان بتخيله هذا

ينبه نفسه إلى تفادي ارتكاب حماقة كبيرة، بخطة استباقية تكبح نزوات إبداعية، في غير أوانها ولا مكانها، لو أخذت مداها، لكانت كارثة، لا تقل عن فضيحته الأولى. حسناً، فليكن هناك من يضبط تصرفاته.

المفاجئ، أن حلفاوي أخذ على عاتقه في الفصل الأول عملية الترجمة ومخاطرها كاملة، ثم تصلب على نحو أربكه في الفصل الثاني، وصار كلما أنجز صفحة أو نصف صفحة، ينهض مستعملاً قدميه القصيرتين ويتمشى؛ يراقب أو يتنصت!! فتحير حامد، الرقيب كما يعرف يمنع وهو قاعد، لكنه تذكر أن الرقيب بمعناه العريض، لا يكتفي بالجلوس بل يذهب من مكان إلى مكان ليتسقط الأخبار. غير أن حلفاوي لم يُعن في جولاته المحدودة بالاقتراب منه، تمشى على هواه، وتعمد الابتعاد عنه، منتحياً بأفكاره جانباً، إلى أن يعود بعد قليل وينكب على عمله. بعد أيام، سيُعجب به. كان بلا مراء، مثابراً ومجتهداً، يقوم بمسؤولياته كاملة، تقوده رغبة جادة في ممارسة الترجمة، وبالتحديد؛ وحده دون توجيهات. هذا ما تلمّسه من حركاته الصارمة والمحسوبة بدقة.

تلك هي المرة الأولى التي يتعامل فيها مع آخر، ومن المضحك، أنه كان هو ذاته، وهو موقف غريب لا يعتاده المرء بيسر، ومنافٍ للعقل، لو مر في خاطرنا أن ذاتنا التي في داخلنا، يسكن فيها آخرُ، منصرفاً بكليته إلى العمل، متعمداً العزلة، تحت زعم الانفراد بنفسه طلباً للهدوء والتأمل والمزيد من العمل!! بينما تصرفاته الظاهرة (وهذا ما أخذ يلاحظه بالتدريج) لا تخفي نواياه الانفصالية المضادة لرغبتنا، المائلة إلى فصم علاقته بنا. لو حدث هذا، لحجنا هذه الطرفة السقيمة. خاصة وقد ألفنا أن ذاتنا هي مصدر رغباتنا

ومشاعرنا وإحساساتنا.

حامد لم يفته هذا الأمر الغريب، وكان من الطبيعي تماماً أن يقول لنفسه مستنكراً: أي جموح في الخيال، لو أنني قبلت بتقاسم ذاتي مع آخر، هو أنا، ويعمل على تبعيضي!! مجرد هذه الفكرة، تدعوني إلى الضحك الهستيري.

ومع هذا رجح أن تكون محنته السابقة مع الترجمة قد صورت له هذا الانفصال عن ظله، أو اللاانسجام في داخله، خصوصاً أنه لم يعد مرتاحاً إلى ما يفعله حلفاوي تحت سمعه وبصره، رغم تغاضيه الجزئي عنه، وإن حبذ إبقاء مسافة بينهما، مسافة لا تصل ولا تقطع، عبارة عن جسر سالك، يتسع للرواح والمجيء، يسمح له بإسداء بعض النصائح والتجارب القيمة، ولا يبخل عليه باستشارات تذلل ما يلاقيه من صعوبات في الترجمة.

جسر النوايا الحسنة لم يستعمل، حلفاوي أعطاه أذناً غير صاغية. فاتسم سلوك حامد إزاءه باللامبالاة، ولم يعد يهمه إن كان حذراً منه، أو مقاطعاً لهذا الجسر. إذا كان لدى حلفاوي برنامج خلاق في فن الترجمة يفكر بوضعه موضع التنفيذه، فليفعل؛ وأفلت له العنان، متوقعاً مفاجآت في العمل.

وفاجأه فعلاً، طوال رواية كاملة، تعتع فيها حلفاوي وتحكك وتمحك، دون أن يأتي بموقف واحد يخرجها ولو قليلاً عن خطها المرسوم في النص، وما كان أكثر المواقف الصالحة للعبث بها. والنتيجة، يا للمأثرة الإبداعية، راعى دقائق الترجمة، ولم تفته حرتقاتها الشكلية!! لو كان هو لما اهتم بها أبداً. المريع، أن تقصيره الفادح كان تقيداً بالغاً بالنسخة الإنكليزية، ولم يرغب عامداً،

والأغلب لم يتجرأ على دس بضع كلمات بين السطور، وربما لم يفكر بذلك فعلاً. كأنما ثمة مباراة في الدقة؛ مع من؟! عمله لا يشهد على قلة حيلته وعدم تدريبه وانعدام نباهته فقط، بل على عجزه كلية عن اجتراح مجازفة بارعة مهما صغرت، فما بالنا بمجازفة ترجمية خلاقة تمتلك قوة الخيال والحقيقة معاً.

ربما تسرع في مناقشة الأمور على هذا النحو، وحكم عليها بتشدد مفرط. حلفاوي (ولا ننسى أنه شخصية دون جسد ولا مخ ولا إحساس) ليس موصولاً به فحسب، بل هما الشخص نفسه، هل في هذا جدال؟! لذلك تساهل معه، لكن عندما ازداد حلفاوي تكتماً، صرخ به حانقاً: ما الذي تفعله؟ كان ينصح نفسه بتحري الترجمة. وبلمحة سريعة، لم تحتمل أكثر من معاينة تصفحية، عذر حلفاوي، على افتقاده روح المبادرة، لا سيما في تجربته الأولى. من بوسعه التغلب على هذه الروايات ذات الحبكات الرديئة محكمة الصنع والشخصيات الهشة الأنيقة والمحببة؟! كانت المغامرات الممتعة والدموع السائبة والعواطف البائخة، متآزرة على نسج حكاية طلية من الصعب اختراقها؛ وإذا أراد فتح ثغرة فيها، فالأسهل أن يعيد كتابة الرواية من العنوان إلى نقطة النهاية.

□ □ □

قبل البدء في ترجمة الرواية الثانية، فكر بتحالف وثيق يجمعهما، يتبادلان من خلاله الرأي حول انتهاج أسلوب يرضيهما معاً. وكان لديه أكثر من اقتراح. حلفاوي أبدى تحفظه إزاء أي تعاون بينهما؛ واستمهله: أريد التفكير بروية. غير أنه اغتنم الوقت ليقتل اقتراحاته درساً وبحثاً؛ تمهيداً لرفضها كلية!! وعند كل خطوة (مع أنه لم يخطوا معاً خطوة واحدة) كان يؤكد على صلابة قراراته التي

يتخذها، وأحدها أنه لن يقدم على شيء إلا بعد التمعن فيه طويلاً؛ وبهذا أبرز ملامح شخصيته؛ عنيد، ذو نَفَسٍ مديد، لا يرهقه جدل مهما طال، ولو امتد الليل بأكمله، حتى أن حامداً اضطر إلى العدول عما كان يرتئيه تجنباً لمعاناة ثقل سفسطة مريرة بلا طائل، أثبتت مراراً عدم جدواها، تدور حول أفكار قيِّمة متخمة بلغو فضفاض، ودائماً من غير فائدة، تدور في مكانها وحول نفسها. جدالٌ، كان على يقين بأنه قادر على خوضه، وعلى يقين أكبر بخسارته. والنتيجة، لا ينجح تقارب بين طرفين غير متفاهمين ولا متساويين؛ أية مساواة تلك عندما يصمم حلفاوي على تنفيذ ما يجول في رأسه فقط؟! وبما أنه لا يوجد رأسان، بل رأس واحد، فلنتوقع أي صداع يصاب به حامد.

ما اكتشفه في الرواية الثانية كان أمراً مثيراً للحنق، لم يجد لحلفاوي عذراً واحداً في رفضه عدم الاستعانة بخبراته، وتصامّه عن نصائح بسيطة تنفع ولا تضر، والامتناع عمداً عن الاستجابة إليه في أمور صغيرة، مبدياً نفوراً كان تعالياً ولا يخلو من تعالم فارغ. مع أنه عرض عليه تجاربه بلطف وألحف عليه بلا أستذة. عفيف لم تعجبه، رماها وراء ظهره دون النظر إليها، أو التفكير فيها؛ ساعياً إلى الاستقلال التام عنه!! مثبطاً عزيمته بصمته وعبوسه وحرنه. فما كان من حامد إلا أن فك ارتباطه به، بحركة أراد منها دفعه إلى إدراك حقيقة واقعة، ذكَّره بها: لولاي لما كان لك وجود على الإطلاق. لكن وكأنه قدم له ذريعة كان يتحينها، تلقفها حلفاوي بخبث وذكاء، عمل في هذا الاتجاه، فبالغ في الانطلاق، وبات قصياً.

«من تكون أيها المدعو عفيف حلفاوي؟ أنت لا شيء من دوني، لا

هيئة معتبرة ولا غير معتبرة، ولا يمكن أن تظهر في صورة فوتوغرافية، ولا تحمل بطاقة مسجل عليها اسمك تثبت فيها شخصيتك التي لا يعرفها أحد غيري، وهي مجرد تواطؤ بيننا. لِمَ تتهرب مني؟ ممّ تخاف؟ يا عديم الجرأة على التفكير. تخشى تشغيل عقلك، لأنك تخشى الاقتراب من الحقيقة، أنا حقيقتك، أما أنت فخطئي وكذبتي وحماقتي التي لن أغفرها لنفسي».

هذا نموذج للاتهامات المسرحية التي وجهها حامد لحلفاوي بأسلوب فج؛ اتهامات ضعيفة، لا أساس لها، إذ لا أساس لحلفاوي نفسه، مهاترة سخيفة، بلا معنى، ومن طرف واحد. حلفاوي لم يردّ عليه، رجاحة عقله أملت عليه الترفع عنها. هذا ما دار في ذهن حامد، فخجل من صغر عقله.

بعد هذا الموقف، انزعج حامد من ضعف تركيزه وتشتت ذهنه وعدم وعيه لحقيقة بسيطة، وهي أن حلفاوي ليس مشكلة عالقة، بل مشكلة مسلية، تبدد السأم عنه، بدعة ينبغي إبقاؤها في حدودها: طريفة ومثيرة، فلا يرفعه إلى مرتبة الوهم، وإلا أصبح وهماً مستديماً. غير أنه كان مطمئناً إلى سيطرته على الموقف، طالما كانت أحداثه تدور في داخله، وإن تجسدت بخيالات تدور حوله. أين المشكلة؟! هل في تبادله الحديث مع حلفاوي؟ لا، الأمر عادي، لديه سابقة في التكلم مع نفسه، والآن مجرد أنه عاد إلى التكلم معها في مكان مغلق، وهي ليست وليدة حلفاوي، بل تكرار لحادثة ظهرت عليه أعراضها قبل أسابيع، عندما لاحقه محمود ذو اللفحة الصوفية على طريق الأوتوستراد وسمع عن متاعبه مطولاً. وكأنها عادةٌ في سبيلها إلى التكون، لكنها غير مرشحة للتفاقم، لأنه متنبه لها، مؤقتة لن تستمر، وإذا كانت

ستعاوده من وقت لآخر، فبسبب ظروفه الخانقة. بعد هذه المناقشة، التفت وصرخ غاضباً في وجهه، أي إذا جاز التعبير في وجه عفيف حلفاوي:

«اغرب عن وجهي، وليمض كلٌّ منا لما هُيِّىء له».

لم يغرب عن وجهه، مضى إلى مكانه، خلف الطاولة، كيف سيفارق وجهه؟! زاد عليه أنهما أصبحا وجهاً لوجه!! انكب حلفاوي على أوراقه يقرأ ويكتب؛ انطمس بين الكلمات، دون أن يبالي بحامد المنطمس بقربه في وحدته، هل ثمة تكافؤ بينهما؟ لا، ليس ثمة تعادل بين وحشة المطموس في الفراغ، وسلوى المطموس في الروايات. وحلفاوي، ليس كما يبدو مختبئاً بين القواميس، أعظم أمنياته النجاة من النقد. كان (وهذا ما خشي منه بعد فترة من الزمن) يتحين فرصة للانقضاض عليه؛ يقرأ نواياه في أعصابه المشدودة إلى هدف واحد، السيطرة عليه بالدهاء، مستخدماً وسائل تقارب خبيثة، تبدت بتحرشه به، بحجة إطلاعه على فقرات أنهى لتوه ترجمتها، متوسلاً منه اعترافاً بجمال الأسلوب وجودة النقل، ويا للبلادة، لم يكونا سوى التزام أعمى بالنص، يريده وبالحيلة التخلي عن مواقعه وجرّه إليه، مدعياً طلب النصيحة، بينما كان يحاول الهيمنة على مناحي تفكيره.

قطع عليه الطريق، كي لا يتسلل إلى أفكاره ويشككه فيها، لو تساهل معه في الأمور الصغيرة، فقد يتخاذل في الأمور الأكبر. ماذا لو نجح فيما ينويه؟! أليس في احتلاله مناطق تقع في لبّ ذاته وخيالاته ضربة قاصمة تصيبه بالعجز، إن لم يكن في مقتل، وتفقده كيانه، ليصبح أداة طيعة بين يدي شخصية لا كيان لها. يا للمكيدة!! هذا الذي يتحوط منه، ربما كان شيئاً ما، لكنه ويا

للمهزلة، ليس شيئاً على الإطلاق.

بعد هذه المشادة (هذا إذا كانت مشادة) أوقف حامد من يُدعى عفيف حلفاوي عند حدود محسوبة، ولم يترك له في برنامجه اليومي سوى بضع ساعات مساءً، يتوخى موعدها في الليل، لقاء وفراق، تبدأ وتنتهي في العتمة، يتخللها عمل تحت الضوء، يتجنبه أثناءها، وقد يتبادلان خلالها نزراً من الكلمات. بضع ساعات، كانت بمجملها الجانب الخفي من حياته. وإذا كان قد أخطأ وسمح بمحض إرادته بنشوء هذا الجانب في صميم شخصيته، فقد كان متخوفاً من قابليته للتضخم، رغم اعتقاده بأنه يستطيع قمعه ساعة يشاء. فلم يمارس عمله في وضح النهار، لئلا يصادفه. لم يرغب في تبين ملامحه عن قرب، لأنه لن يرى سوى وجهه بالذات على نحو قد ينكره، أو ربما فاجأه بملامح أخرى، عندئذ كيف سيقتنع أنهما واحد؟! كانت تلك إحدى وسائل دفاعه عن حقيقة عدم وجوده، كي لا يعيد تشكله على نحو أقوى، غير أنه وبحكم الضرورة وحدها، اعترف به بديلاً عنه في الحياة العملية، ضمن نطاق ضيق للغاية، لا يزيد على مستشار دار النشر ومحاسبها.

□ □ □

مع الرواية الثالثة، بات حامد أكثر حذراً من صنيعته الذي واصل تمرده العتيد بدأب. وسوف يلاحظ أن حلفاوي أصبح وبشكل طبيعي، طوع روايات مكتوبة سلفاً، وترجماته باتت عملاً روتينياً لا تحتاج إلى مهارات، حتى العادية منها، كانت سطحيتها لا تخفي أمراضها العاطفية، وسذاجتها الفطرية لا تتيح مجالاً للتأويل الذكي.

بعد استسلام حلفاوي الكامل لهذه الروايات، عانت مشاجراته معه

من الصمت لا من الصراخ. أما اقتحامات حامد العرضية لها، وكانت في ذهنه جريئة، فلم تزد على الورق عن تدخلات جزئية، على النمط سالف الذكر: كانت السماء مكفهرة، لا، كانت السماء مدلهمة. إن كان هذا يُعدّ اقتحاماً أو تدخلاً، تنتهي بحامد إلى ندب حال الترجمة والمترجمين.

بعدما أوقفه عند حدود حظّر عليه تخطيها، قابله حلفاوي بالمثل، وأقام في وجهه سوراً حذّره من تجاوزه. النتيجة، هزمه حلفاوي، وسجل عليه انتصاراً ملموساً، تبدّى في طلاوة الترجمة. لم ينكر حامد جودتها، بل واعترف بأنه لم تنصع له بقدر انصياعها لحلفاوي. ولن يعسر علينا تبين الجهد المرموق الذي بذله حلفاوي، على الرغم من ملاحظاته القيمة التي حشرها دونما فائدة تذكر. الدليل الجاهز والأقرب، ما دار بينهما من حوار مكتوم حول قضية المدلهمة والمكفهرة، شارك فيه حامد بتساؤلات مطولة، وحلفاوي بهدوء راسخ غير راض وهمهمة استفزازية؛ وسوف ندرك أن السماء المكفهرة؛ هي الترجمة الحرفية والدقيقة معاً، أما أن تكون السماء مدلهمة فهي اجتهاد أصر عليه حامد. وإذا كنا بصدد التقييم دون تحيز، فبرأينا أن المكفهرة أفضل من المدلهمة، ومهما كانت دواعي حامد؛ فإن حلفاوي دون مراء، مترجم مهني من طراز نموذجي.

أحياناً، يقبع حامد خلفه يراقبه ويعدّ عليه أنفاسه، في نظره لم يكن حلفاوي أكثر من مترجم محترف، لا حول له ولا رأي، ينقل كالحمار، بلا ذائقة أو إحساس، حمولة كلمات من صفحات سوداء إلى صفحات بيضاء، يبذل عناءً لا أثر فيه للفكر. يشق على حامد البقاء صامتاً، فينفخ متذمراً، ويبربر حانقاً بانتقادات وتنبيهات،

فيحصل كلام قليل أو كثير، يتقاربان دون حصول اتصال، تليه قطيعة تتجدد، ثم لقاء بارد خال من الحس يدوم زمن الفترة التي تأخذها الترجمة، ساعات قليلة ومحدودة، تضاف إليها، الأوقات المذلة التي يقابل حلفاوي فيها مستشار الدار، يسلمه الكتاب المترجم، ثم يذهب إلى المحاسب ويقبض أجره.

□ □ □

في هذه الساعة من الليل، ونحن في الثلث الأول منه، عفيف حلفاوي مقبل بكل دعة على ترجمة الفصل الرابع من الرواية الثالثة، وإلى جواره حامد، يرمقه بعين حمراء، كاظماً غيظه، دون أن يخطر له أنه سيصطدم به بعد قليل؛ من جراء هذه الرواية المشوقة جداً، العنيفة والرقيقة معاً.

وللعلم، الرواية حديثة، صدرت في الشهر الماضي، للكاتبة الأميركية «إليزابيث ماركاند»، وتسلقت سلم الروايات الأكثر رواجاً؛ عنوانها «العذراء السجينة»، مضمونها يثير موضوعات متنوعة وراهنة في السياسة الدولية والجاسوسية العالمية، ولا تخلو من آراء اجتماعية طريفة في قيم الحضارة الغربية تتناول الأسرة والعنف والحب، ونظرة الرجل للمرأة وعلاقة المرأة بجسدها، وأيضاً مسائل أخرى في منتهى الحساسية.

لن نحاول تقصي هذه المسائل كلها، القليل منها يهدد باحتدام الخلافات بينهما. حالياً، لم يكن حامد يراجع الترجمة من خلف ظهر حلفاوي، لكن شرد بذهنه إلى البطلة العذراء «باميلا»، مسترجعاً أحداث الرواية.

14

باميلا:
مشاعر الحب المعذب والجنس المقيد

باميلا فتاة شقراء جميلة طويلة القامة مكتنزة البدن، تعمل سكرتيرة في الخارجية الأميركية، قسم الشرق الأوسط. وهي بالإضافة إلى جمالها، لطيفة وجذابة، تنهال عليها دعوات متنوعة وبكثرة لافتة، وتتعرض أكثر من غيرها، لإغراءات مادية من دبلوماسيين عرب ويهود وأثرياء بدينين ومشايخ نفط، تبدأ بدعوة عشاء فخمة في مطعم مشهور، تتلوها هدايا ثمينة، مجوهرات أو معطف فرو. كذلك تتعرض إلى إغراءات أقل مادية وأكثر عاطفية من باحثين أكاديميين وموظفين إداريين، تبدأ بعشاء على ضوء الشموع، تتلوها هدايا غير ثمينة، عادة باقات زهور. المعتاد أن تنتهي علاقاتها مع الجميع إلى الإخفاق، رغم أنها فتاة مثيرة شهية تحب الحياة، لكن على طريقتها.

بعد أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، اهتزت صورة

العالم في نظرها، أفقدها الحدث المفجع الأمان والثقة بأميركا منيعة. وكان لوجودها في نيويورك في ذلك اليوم المشؤوم، مع أن عملها في واشنطن، وقع مهول عليها. جاءت بها المصادفة في يوم الثلاثاء الأسود، وكان يوماً خريفياً مشرقاً، لتشهد بأم عينيها المشهد المريع لاصطدام طائرتي البوينغ ببرجي مركز التجارة العالمية. وتتذكر بمنتهى الدقة والألم، انهيار البرج الجنوبي من المبنى مطلقاً سحابة هائلة من الدخان الكثيف، وانفجار البرج الشمالي، بعده بنحو نصف ساعة؛ حاصدين بسقوطهما آلاف القتلى الأبرياء.

لن تنسى باميلا المنظر المريع... وسط مانهاتن وقد تغطى بالرماد والحطام، وامتلاء الشوارع بالمارة الهلعين يفرون بأقصى سرعتهم، والأحذية النسائية ذات الكعوب العالية متناثرة على الأرصفة والطرق، خلفتها السيدات المذعورات ليتمكنّ من الركض، رجال الإسعاف يخلون الجرحى والمصابين بحروق بالغة والقتلى الذين سقطوا من الطوابق العالية، رجال الإطفاء يحيطون بأنقاض البرجين، ويبدأون بفتح ثغر بين أطنان هائلة من الركام بحثاً عن الجثث والأحياء.

في تمام الساعة العاشرة والنصف، غاب عن سماء نيويورك، وبمشهدية مرعبة البناءان اللذان كانا قبل ساعات، الأعلى في العالم. كانا مَعلمين عزيزين على باميلا، تتذكرهما في منتهى البهاء والجمال، وسوف تفتقدهما. ففي يوم مشمس، يمكنها رؤيتهما يشعّان من بعيد. وإذا ما ضلت طريقها في أسفل المدينة، باستطاعتها النظر إلى أعلى لتجد البرجين متميزين عما حولهما، فتستدل بهما على وجهتها.

تجلى العالم غامضاً وعدائياً، أميركا مستهدفة من الإرهابيين القتلة،

ومحاصرة بالإرهاب الأعمى. في طريقها إلى العمل كان الانتحاريون الإسلاميون الملتحون والجواسيس العرب يتراءون لها بملامحهم الشرق أوسطية، البشرة السمراء والعيون السوداء والشوارب الغليظة؛ هناك عند شارات المرور ومنعطفات الطرق، وعلى سطوح المباني والشرفات. ولقد تطاولوا عليها، واقتحموا أحلامها أكثر من مرة، اختطفوها وعذبوها واغتصبوها. سيطرت عليها فكرة أنها كموظفة في الخارجية هدف أكيد للإرهابيين.

صارت حذرة جداً في علاقاتها، وعاهدت نفسها على عدم قبول دعوات كيفما اتفق، وقاومت عروضاً لا يستهان بها، وضربت عرض الحائط بمجوهرات الأثرياء العرب وتحرشاتهم السمجة وشموع الباحثين الأكاديميين وأحاديثهم المملّة. وأهملت دعوات فاخرة ورجالاً من النخبة، حاجتها لم تكن ماسة للجنس الخشن.

شكلت باميلا على الدوام إحباطاً للرجال الذين خرجوا معها. لم تسمح لهم خلال العشاء بأكثر من ملامسات سطحية، وبعد العشاء بعناق لا يتعدى العناق البريء وقبلة على الخد!! في الخارجية تقوّلوا عليها بأنها فتاة مناورة تطمح إلى قبض ثمن عذريتها باهظاً من أثرياء مهووسين يفضلونهن شقراوات وعذراوات. أو تطمع بالزواج على الطريقة العربية التقليدية، محتفظة ببكارتها لشيخ يمتلك إمارة وشعباً يستخرج له النفط واللؤلؤ، وحتى لو تزوجت على الطريقة الأميركية فلن تقبل بأقل من الرئيس الأميركي أو وزير خارجيته، فتندروا عليها؛ وطنيتها لن تردعها عن فضيحة تؤدي إلى تطليق أحدهما لتتزوجه. الأقاويل لا تزعجها، بل ترضي غرورها وتسعدها، إن لم يسعفها جمالها بأن تكون أميرة، فعلى الأقل تشكل أنوثتها

تهديداً لمكانة السيدة الأولى أو زوجة وزير الخارجية. باميلا خيالية جداً، وباردة العواطف مع أن جسدها ممشوق وريان. للتذكرة، باميلا تحب الحياة كما ذكرنا، وإن كان بصورة متقشفة ومعقدة، وهذا ما سوف يتوضح خلال الرواية.

لم تصبر باميلا طويلاً، قبلت بعض الدعوات باحتراس شديد مع اتخاذ الاحتياطات المناسبة، ومنها دعوة الدبلوماسي العجوز المتقاعد. خطر لها أن إلحاحه المتكرر على الخروج معها، لمجرد أنه يشتهيها بالنظر، ولن يضايقها بسبب كبر سنه وارتخاء عصبه. لم يأخذها إلى مطعم صيني أو تايلندي، بل إلى مطعم راق، المطعم السويسري.

في الجو الخافت الأضواء للمطعم الأنيق الذي بدا محايداً، أثارت آراؤه غير المحايدة شكوكها. على عكس الآخرين، مع الموسيقى الناعمة، أدار الدبلوماسي الحديث معها حول النزاعات الدائرة في العالم، وتوقف عند الشرق الأوسط!! كان مطلعاً على أحوال المنطقة لقضائه أغلب سنوات خدمته في السفارات الأميركية العاملة في البلدان العربية. توجست باميلا شراً، لماذا اختار من العالم كله هذه المنطقة الساخنة، فيما كانت المناطق الباردة في الدول الإسكندنافية، تواتي الجو الهادئ والموسيقى الحالمة؟! وإذا شاء ألا يبتعد نحو شمال أوروبا، فالحديث عن جنيف وبحيرتها يتلاءم مع فخامة المطعم ومأكولاته الخليط من الأطعمة الألمانية والإيطالية. تراءى لها أنه يستدرجها للإفضاء بمعلومات عن أجندة الخارجية السرية، وعزز شكوكها، تعاطفه مع الإيرانيين ولم يشتم العرب. فكرت، إن لم يكن عميلاً لإيران أو لبن لادن! فعلى التأكيد للعراقيين. في الرواية، كان الديكتاتور العراقي ما يزال رئيساً لبلده، يتحدى الأميركين ولا يبالي بتهديداتهم.

بادرت باميلا إلى إعلام مكتب التحقيقات الفيدرالي بالعميل المتقاعد دبلوماسياً، فطلبوا منها الاستمرار في الخروج معه، والتصرف بشكل لا يسترعي شكوكه ولا فضوله. وتولى المحقق الفدرالي الشاب تيم هوبكنز الاتصال بها وتوجيهها. في العشاء التالي، تابع الدبلوماسي سرد ذكرياته عن الشرق الأوسط المعقّد، وكان بعد مضي أسبوعين على لقائهما الأول قد ازداد تعقيداً، وأدلى بآرائه في الوضع الشائك المتدهور جداً في مناطق الحكم الذاتي الفلسطيني، وكان قد أصبح أيضاً على وشك الانفجار، أكثر مما هو متفجر، بعد الانتفاضة الفلسطينية الثانية، وتوغل القوات الإسرائيلية في مدن وقرى الضفة الغربية. تحملت باميلا عبث الدبلوماسي العجوز، بصبر مسؤول عالي الوطنية، لا سيما حينما دبت الحرارة في أصابعه، وبدأت تجوس في مناطقها الجليدية، وهو يظنها مناطق حارة على وشك الغليان، أو تغلي بأصوات مكتومة.

حوصر الدبلوماسي بالشبهات على الرغم من ماضيه الفارغ تماماً من أية إثارة. الفدراليون لا يقنعون بالمظاهر، والأمن القومي الأميركي المهدد، لا يستثني أحداً، فأحالوا خموله الوظيفي إلى تستر مريب يفسر ماضيه النظيف. تركزت تقديراتهم في المكتب على الإيرانيين والعراقيين، أحدهم اشتراه. بعد استدراجات وكمائن شاركت فيها باميلا بنجاح وذكاء، وتحريات مطولة طالت من جديد تاريخ حياته وزيجاته وأولاده والبلدان التي تنقّل بينها والعمليات التي شارك بها وارتباطاته القديمة مع المخابرات الأميركية، بالإضافة إلى وضعه تحت نظام مراقبة دقيق أحصى عليه أنفاسه وهمساته، تداعت الشبهات أمام حقيقة قاطعة، الأميركي الـ«واسب» لا يخون وطنه، وإن اكتشفوا صغائر وتفاهات كانت من اختصاصات الأطباء النفسانيين، كاعتياد الدبلوماسي على مص إبهامه قبل النوم، وسرقة بعض

الأشياء التذكارية الصغيرة الخاصة بالنساء مثل الملابس الداخلية. لم تنته القصة بهذه الطرائف السيكولوجية، دون إرهاب وإرهابيين، إذ اكتشف الشاب هوبكنز خلال تحرياته باكستانياً، عميلاً لبن لادن، ساعدت باميلا في القبض عليه.

مكتب التحقيقات طمأن باميلا، الدبلوماسي العجوز لا تشوب نواياه شائبة تجسسية، وهو أحرص منها على الوطن الأميركي الحر، وبإمكانها أن تقيم معه علاقة مأمونة دونما مخاوف، وهم واثقون تماماً من مآربه السياسية، خطأه، اعتقاده أنه باستعادته بعض المواقف المحتدمة من حروبه الدبلوماسية يسخّن جلسته معها، وكيلا تصدمها محاولاته الجنسية في المستقبل، أعلموها بأن تحرشاته لن تتجاوز الأصابع والشفاه واللسان، أي اللمس والقبلات واللحس، وخسائرها كيلوت وصدارة؛ رجل الخارجية السابق يشكو من عجز جنسي طبيعي، وبسبب وضعه الصحي الدقيق، لم ينصحه الطبيب بتناول المنشطات الجنسية.

إلى هنا، والموضوع تشويق في تشويق، أما العقدة التالية في الرواية، فقادمة، مكتب التحقيقات سينفض يديه من باميلا ويتركها لقمة غير سائغة لكهول الخارجية المتصابين جنسياً. ما فاتنا الإشارة إليه، منذ بدء اتصالها بالرجال الفدراليين وتعرفها إلى العميل الفدرالي السري تيم هوبكنز الشاب الوسيم القوي والذكي، تطور العلاقة بينهما وسط أجواء من الخوف والترقب وحبس الأنفاس، فمثلاً عندما تخاف تلتجئ إلى صدره فيحميها بذراعيه القويتين، وبما أن مخاوفها تكررت، اضطرت مراراً إلى اللجوء إلى أحضانه، ويبدو أن حكاية الخوف والاحتضان ساعدا على وقوع الواحد منهما في حب الآخر. بعد فترة قصيرة، تتداعى الأمور التي كانت تسير على ما

يرام، وتستغني الخارجية عن خدمات باميلا، تحت زعم إثارتها فضيحة دبلوماسية دون مبرر.

يدعمها هوبكنز في محنتها ويخوض من أجلها معركة ضارية ضد رجال الخارجية الذين تآمروا عليها وأقصوها عن عملها، فنستعيد أجواء الإثارة والتضليل، وسرعان ما تفاجئنا عقدة أخرى، وهي عقدة غير روائية، بل جنسية. إذ بدلاً من أن تقف باميلا إلى جانبه، تتجاهله بتصرفاتها الجافة المقتضبة، المتكلفة والمفتقدة للحميمية، تنفر منه، وتخفي مشاعرها نحوه، ولا تبذل له بعضاً من أنوثتها، وتتراجع عاجزة إزاء فرصة حب حقيقية جمعت بينهما، ولكي تتخلص منه تتقاعس عن التعاون معه!! ما السبب؟! يكتشف هوبكنز مأساة حبيبته، كراهيتها للجنس بجميع أشكاله القويمة والمنحرفة، والرجال بمختلف أنواعهم الوسيمين والبشعين، فيخوض غمار حرب أخرى ضد مخاوفها الجسدية ووساوسها الليلية وهذياناتها الجنسية. كانت سجينة عذريتها!! ومتى؟! في عصر اللذة والتلذذ. إذاً، كيف سينقذها حبيبها من أغلال عذريتها؟! وهو فصل آخر ممتع.

تنتهي الرواية بتحقيق انتصارين، الأول كشف التواطؤ غير المتوقع بين أحد مديري مكتب التحقيقات وبعض السياسيين الفاسدين والدبلوماسيين المنحلّين، والثاني، عبور باميلا الآمن إلى جنة الجنس تحت رعاية هوبكنز ودرايته.

تحقق الرواية عدة عناصر لا غنى عنها للنجاح في أسواق القراءة، فهي متخمة بمشاعر الحب المعذب والجنس المقيد والمشاهد العارية الفاحشة والخجولة. وعلى الرغم من محليتها الأميركية الشديدة، تلقي الأحداث العالمية بظلالها على الرواية من خلال التلويح

بالمؤامرات السرية والعملاء العراقيين والإيرانيين، والتخويف بالعقيدة الجهادية الإسلامية.

□□□

بالعودة إلى عفيف حلفاوي، لم يحرك مضمون الرواية ولا أحداثها شيئاً لديه، كأنه لا يفهم ما كان يقرأه بالإنكليزية ويعيد كتابته بالعربية. بكل بساطة، كان ماضياً في الترجمة قدماً إلى الأمام من صفحة إلى صفحة كالبلدوزر، غير عابئ بالنعوت المقذعة التي وُصِفَ بها العرب والإيرانيون، والخلط بين اللحى الإيرانية والذقون العربية، والتعاون بين دولة الملالي وحكومة حزب البعث العراقي!! والغمز الوقح من المسلمين والدين الإسلامي، الدال على جهل مفضوح بالعقائد والعبادات، ورمي الحكام العرب باتهامات على شاكلة أنهم لا يكتفون بقهر شعوبهم بالحديد والنار، بل ويأمرونهم بالصلاة خمس مرات في اليوم، ويجبرونهم على عدم تناول الطعام إلا بعد غروب الشمس، لمدة تمتد شهراً كاملاً من كل عام، ويقودونهم بالسلاسل إلى الحج، ويمنعون المرأة من قيادة السيارات، ويضربون النساء وتاركي الصلاة، ويعتقلون المخنثين واللواطيين، ليعتدوا عليهم في السجون!!

هذا ما تقوله المؤلفة إليزابيث ماركاند على لسان باميلا الموظفة العليمة بخريطة الشرق الأوسط وتاريخها اللاهوتي ومتغيراتها السياسية وانحرافاتها الجنسية، ومعها الدبلوماسي المتمرس بالتقاليد العربية والخبير بالصحارى والحريم والغلمان والذباب، والعادات غير الصحية من الأكل بالأيدي ورمي الأوساخ من الطوابق العليا إلى البصق في الشارع والتحشيش في المقاهي العامة، ومن ذكرياته الطريفة التي لا ينساها إبان الحرب الأهلية اللبنانية تنقلاته بين

شطري العاصمة بيروت على ظهر جمل حرون!!

حلفاوي لم تستفزه بطلة الرواية، بينما حامد رآها بلهاء خبيثة استغلت جسدها بالتلويح به مقابل عشاء ومعطف فرو وخاتم ماسي، ومصابة بعقد نفسية للأسباب الشائعة نفسها في الروايات الرائجة الأكثر مبيعاً، رأت وهي طفلة أباها يضاجع أمها، وضبطت أمها تضاجع رجالاً غير أبيها، أصابها المنظر بقشعريرة دائمة من الجسد العاري للرجل، ثم حادثة بشعة لم تنسها، فقد حاول اغتصابها أحد أقاربها، كان من سوء حظها عجوزاً سكيراً قذراً، فاستحكم بها رهاب جنسي، كان علاجه الناجع، الحب الذي افتقدته والجنس الذي كرهته، فاستغل هوبكنز لحظات تهيجها البالغ فحطم قضبان عذريتها.

الرواية تدعو للسخرية. قال حامد لحلفاوي، وتستخف بعقل القارئ الأميركي، وتُعادي القارئ العربي تحت أستار السياسات الدولية التي تنشد السلام وتقدم الشعوب وتعميم الديموقراطية والحضارة والتكنولوجيا في العالم. عدا البون الشاسع بيننا وبينهم في العادات والأخلاق، فمثلاً العذرية لدينا ليست وصمة، بل فضيلة؛ بينما الغربيون يجدون في غشاء البكارة عائقاً تنبغي إزالته في مرحلة المراهقة، بمجرد أن تعي الفتاة جسدها ومشاعرها الجنسية، ويدل بقاؤه سليماً على عدم بلوغها سن الرشد، أو أنها غير مرغوبة. العذرية لديهم مرتبطة بالفتاة القبيحة وعدم التكيف الاجتماعي والنفسي. أما لدينا، فمرتبطة بالعفة والأخلاق.

البكارة يا حلفاوي، ليست غشاء هشاً، بل حاجز صلب يحول بين الشبان والتسيب الجنسي والانحلال الخلقي، وهو أثمن ما تمتلكه الفتاة، تقدمه لزوجها ليلة الزفاف. لكن حامد سيستدرك ما قاله،

ويبين لحلفاوي أنه شخصياً ليس متشدداً في هذا الأمر، ويتساهل فيه، ويرى العذرية زهرة قد يقطفها الحبيب في لحظة حب جارف، قبل أن يصبح زوجاً، ومخاطره، إذ للحب مخاطر أيضاً، موت الحبيب، أو تخليه عن حبيبته.

أراد حامد تضمين أفكاره في الرواية، إما في ثنايا النص، أو هوامش مرقمة تضاف على متن الكتاب، تشكل ردوداً سياسية وأخلاقية وتصويبات جغرافية وتاريخية مفحمة وتصحيحات ساخرة وهجائية، تعليقاً على ما ورد من مغالطات. عفيف حلفاوي لم يهتم بالأفكار أو الردود أو طريقة عرضها، كان غاطساً في الرواية إلى قمة رأسه، مستكلباً على الكلمات والحروف لا يهمل فاصلة أو نقطة، لا يتوقف ولا يتريث، لا يسمع ولا يريد أن يسمع، أو حتى أن يعمل حساباً لما هو قادم في الفصول التالية، بل ارتد عائداً إلى بداية الفصل الرابع، وصحح الجملة:

كانت السماء مكفهرة...

سيدرك حامد وبألم أن حلفاوي صاحب القرار الأخير في الترجمة، وقبوله في بعض الأحيان بما يقترحه عليه، مراوغة لا تدوم، سرعان ما يعود عما قبل به. ومع أن حامداً يعي أن عفيف حلفاوي ذو وجود نظري بحت، أي غير منظور ولا ملموس، لكنه أصبح محسوساً، وله مكان في أعماقه، ثمة من زرعه هنا في داخله، لا يستطيع عنه انفكاكاً ولا انفصالاً.

15

رئيس التحرير: مهما بلغت النفوس من سمو، والعزائم من إخلاص، فإن أصحابها يجافيهم النوم، إذا باتوا على الطوى

في اللحظة التي اكفهرت السماء على الورق، قُرع الجرس. لم يلق بالاً إليه، كأن رنين الجرس مكتوب على صفحات الرواية؛ إلى أن قرع ثانية، وتردد في أذنه، فلبث مأخوذاً. بحلق بين السطور، لم يعثر على رنين أو طنين، فأدرك مصدره، سارع وفتح الباب، ليجد الأستاذ عبد الرحيم واقفاً يحمل إليه خبراً سعيداً.

كان الأستاذ عبد الرحيم، مديره السابق في مرحلة وظيفية سلفت في حياته، إبان عمله مترجماً في قسم الشؤون الدولية في جريدة يومية، بعد تخرجه من كلية الأدب الإنكليزي، وقضاء فترة خدمته الإلزامية في الجيش. آنئذ، لم يطل المقام به أكثر من أربعة أشهر عندما طُرد حامد لترجمته مقالة لكاتب أميركي معروف يحلل فيها

مواقف الجانب السوري في مفاوضات السلام مع الإسرائيليين الجارية تحت الرعاية الأميركية، كاشفاً عن تنازلات مزعومة ادعى كاتبها أن السوريين قدموها في المفاوضات. كان الاحتياط يوجب عدم ترجمة الفقرة المشككة بالموقف السوري، ما دامت افتتاحيات الصحف في ذلك اليوم أكدت عدم تقديم سورية أية تنازلات للجانب الإسرائيلي؛ وكي لا تظن بعض الجهات الداخلية والخارجية أن في نشر المقالة على الرغم من أنها مترجمة من ألفها إلى يائها، تعبيراً عن وجهة النظر السورية السرية الحقيقية. كان أدنى خطأ متعمد أو غير متعمد يودي بأصحابه إلى العقاب. فجرى أيضاً إبعاد الأستاذ عبد الرحيم إلى منصب أدنى في مؤسسة للأعلاف والدواجن، لإهماله مراقبة الترجمة ومراجعتها حسب الأصول.

«اليوم اختلفت الأمور». قال الأستاذ عبد الرحيم.

أما لماذا اختلفت، فلأنهم استدعوه من مفرخة نموذجية للصيصان الكندية، وعُين قبل أيام رئيساً لتحرير مجلة أسبوعية سياسية فكرية ثقافية؛ أُقصي رئيسها السابق لأسباب إدارية، بعد تسجيلها خسائر فادحة تصاعدت أسبوعياً مع صدور كل عدد جديد، وفي العامين الأخيرين أصبحت مأوى للفتيات الجميلات من اللواتي لا يعرفن فكفكة الحرف. سيعاد إصدار المجلة بحلة قشيبة، لتواكب الأحداث العالمية والمحلية، ويجري حالياً تجديدها بنشاط مضاعف لبعث الحيوية في أبوابها كلها، بالاعتماد على أقلام جادة ومحترفة.

«فوضوني بانتقاء طاقم التحرير».

جاء الأستاذ ليلاً، لئلا يراه أحد يطرق باب المترجم المنبوذ، بغرض لملمة الأشخاص عناصر طاقم التحرير. طلب من حامد أن يكون

واحداً منهم. مرؤوسه السابق رفض، فثار بينهما نقاش حام دام ساعة من الزمن. الحجج المضادة التي أوردها الأستاذ كانت قوية، وأكثر من مقنعة، بحيث غدا موقف حامد في منتهى الضعف؛ رغم أن موقفه كان مبدئياً ودفاعه متماسكاً وعذره واضحاً، وحسب تعبيره:

«طموحاتي كثيرة، لكن ما الفائدة؟ لن أستطيع فعل شيء، أنت تعرف الأجواء أكثر مني، سأتعرض إلى أكثر من رقابة، ولن أكتب إلا ما تريدونه، ما أريده أنا لن أكتبه، وإذا كتبته لن يظهر، ومع الزمن سأنساه، أو أتناساه. أريد أن أكتب ما يعتمل في رأسي. إذا عملت معكم فلن أنجز شيئاً، وسأكون محسوباً عليكم، وأفقد صدقيتي لدى القراء. كيف أبرر موقفي أمام ضميري؟».

تسارعت كلماته بحماسة، فقد تذكر طموحاته العظيمة، عززها ضميره الذي استيقظ وآلمه، كيف يقبل بعمل إضافي لن يكون راضياً عنه؛ ما يقوله الآن نصف الحقيقة، والنصف الثاني، سر مختبئ في داخله يضايقه ويحاصره، لم يعد وحيداً، هناك عفيف حلفاوي يشاطره حياته، يأخذ منه نصف جهده، في ترجمة روايات أهدافها مشبوهة، وإذا انكشف فسوف ينطبق عليه النقد الموجه دائماً للمثقفين: الازدواجية.

لم يتطرق الأستاذ رئيس التحرير لما دار في ذهن حامد، لأنه لم يسمعه، ولا لدفاعه المحكم الذي سمعه. بدايةً تجاهله، واتخذت محاولاته منحىً واقعياً، بسبب واقع العمل الذي يحتاج إلى كفاءات مهنية ومؤهلات حقيقية. لقد تعامل معه في الماضي، وكان في منتهى التعاون، في حينها لم يأخذ على محمل الجد إشكاليات ترجماته التي أثارت لغطاً في الوسط الأدبي، وكثيراً ما كان يتساءل

عما حلَّ به، وعندما أوكلوا إليه رئاسة تحرير المجلة تذكّره. بعد السؤال عنه، تجمعت لديه أخبار كثيرة عن أوضاع مرؤوسه المتردية جداً.

آثر حامد دائماً عدم الإتيان على ذكر زواجه الذي تعثر طوال السنوات الخمس الماضية بالشجارات والنقارات، هذا الأمر يمضّه كثيراً، لا سيما بعدما هجرته زوجته مع الطفلين، ومع أنه تعهد بنفقتهما، تخلف منذ أشهر عن الدفع إثر فضيحة ترجماته، زوجته صبرت عليه ولم تطالبه، كانت تعلم بأنه لا يملك ثمن ما يأكله، أبوه وإخوته يساعدونه في أمور معيشته. شفقتها عليه لم تجعلها ترأف به وتفكر بالعودة إليه، الكيل طفح بها، رغم أنه كان زوجاً طيباً وأباً عطوفاً، لكنه غاطس بين الكتب، حياته القراءة والكتابة. وكانت آخر كلماتها له قبل أن تصفق الباب وراءها وترحل: إذا كنت تحب القراءة، فتزوج من الكتب.

هذه المعلومات لا تخفى على الأستاذ عبد الرحيم، مشاكل المثقفين مع زوجاتهم متشابهة، ولهذا توالت حججه كاسحة:

«إلى متى ستبقى عالة على أقربائك؟! هل تضمن بقاء أبيك على قيد الحياة؟ ألن ينفد في يوم قريب صبر زوجتك؟ ألست مسؤولاً عن طفليك، أم تنوي التخلي عنهما. ماذا ستفعل، تتسول، تشحذ لقمة عيشك؟ إصح إلى حقيقة حياتك المزرية، كفاك أوهاماً وترهات؛ مهما بلغت النفوس من سمو، والعزائم من إخلاص، فإن أصحابها يجافيهم النوم، إذا باتوا على الطوى».

«اللعنة». قال حامد سليم لنفسه.

أحس بالجوع، كان قد نسي عشاءه، رغيف الخبز والبيضة المسلوقة

في العراء، لا بد أن الرغيف يبس. لم يردّ على الأستاذ ويقل له إن وضعه أصبح أفضل بعد تعاقده مع «دار العصر الحديث للنشر والتوزيع»، ومع هذا يبقى سيئاً، ماذا تفعله تلك المبالغ التي يتقاضاها لقاء ترجماته، إنها بمجملها مبالغ ضئيلة، خمس عشرة ألف ليرة مقابل كل رواية يترجمها، يأخذها بعد جهد شهرين أو ثلاثة، بما يعادل خمسة آلاف ليرة شهرياً، بالكاد تقيم أوده وثمن قهوته وسجائره وجرائده وتكاليف المواصلات وحلاقة الشعر والصابون والشامبو وفواتير الماء والكهرباء والهاتف. المبلغ غير كاف، ولا يمكن ضمانه، إلا إذا استمرت الروايات بالتدفق.

لم يتابع الأستاذ انتقاداته، دخل في صلب الموضوع:

«لن تقرب الترجمة، سوف تدير قسم المحليات الثقافية، تحت عنوان الراصد، تغطي أخبار الأدب والفن والندوات الثقافية، والأنشطة الفنية من مسرح وسينما وعروض تشكيلية، وتشرف على صفحة المراجعات النقدية التي تتناول الشعر والقصة والرواية».

«هذه المواضيع أصبحت بعيدة عن مشاغلي».

لم يأبه الأستاذ عبد الرحيم باعتراضه، كان مطّلعاً على نشاطات حامد عقب طرده من الجريدة، تابعها واستوقفته كتاباته المتنوعة حينما عمل مراسلاً ثقافياً لصحيفة لبنانية، وأعجب بتحقيقاته الممتازة.

«كان جهداً جباراً، لقد غطيتَ بجدارة تحسد عليها موسماً مسرحياً كاملاً ومهرجاناً سينمائياً، ولا تنس مهرجانات المحبة والبادية وبصرى؛ زملاؤك الصحافيون أشادوا بقدراتك النقدية. كنت وحدك ماكينة ثقافية، عدا عروضك ومتابعاتك في الرواية السورية

الصادرة خلال العقد الأخير. كانت، ويشهد الجميع، متميزة فعلاً».

خفف مديح الأستاذ من مقاومته وأثلج صدره، رغم أن عمله الصحافي خلال تلك الفترة لم يكن سوى البحث عن مورد للمال، اضطر إليه، بعد أربع سنوات؛ سنتي حب وسنتي خطبة. أعقبتها تكاليف الزواج وتكاثر مصروفاته وتضخم أعبائه والتزاماته. ظنها مرحلة مؤقتة، لكنها امتدت بسبب ولادة الطفل الأول ثم الثاني، فانهمك في العمل الصحافي، وكان مثمراً، غذّى الكثير من اهتماماته وراق له، إلى أن أخذته حمى ترجمة الروايات.

أطرق برأسه متواضعاً، أخيراً هناك من رأى أنه جدير بالإطراء. ابتسم الأستاذ عبد الرحيم، خطته الارتجالية نجحت، أردف بسرعة قبل أن يفارق مرؤوسه القديم والقادم تواضعه، واستبق محدداً وغامزاً:

«اكتب ما تريده، الأدب لا علاقة له بالسياسة؛ الشعر عواطف وغزل ووطنيات، والقصص جنس وذكريات، والسينما مغامرات وجرائم وعنف، والمسلسلات التلفزيونية غراميات وتاريخيات خيالية، والمسرح صراخ وتهريج. والنقد إما جدي لا أحد يفهمه، أو ساخر وثقيل الدم. قل لي لماذا الرقابة، وأنت الناقد لها والرقيب عليها. وفي النهاية، الأمر عائد إليك في نشرها أو عدم نشرها، وأنت تعلم بأن أغلبها تفاهات».

لم تمر الجردة الفنية البريئة على حامد، لأن رئيس التحرير أول من يعرف بأن الأدب سياسة أيضاً، وأن التفاهات أسّ البلاء. رد على مديره اللاحق متعجباً:

«ما الذي سأراقبه؟!! هل ثمة كلمة تخلو من شبهة سياسية أو

أخلاقية أو دينية؟! فما بالك بالقصة والشعر والمسرح والسينما، كلها معاً؟».

«الأوضاع تغيرت كثيراً».

لكن الأستاذ سيحدد مستوى تفاؤله:

«هذا لا يعني أن هامش الحرية أصبح مفتوحاً على مصراعيه، بل مواربا، بات أعرض من السابق؛ سنعمل من خلاله، ونسعى بالتدريج إلى توسيعه. ولكي تكون الأمور واضحة بيننا، لا تقترب من نصوص الروايات المترجمة، أي لا روايات مسلسلة على حلقات ولو كانت حائزة على جائزة نوبل. اتفقنا، أليس كذلك؟».

وتابع دون أن يدع له مجالاً للرد، أو التعليق:

«الهدف تحريك الأجواء الثقافية، وإشعالها بالمعارك والمساجلات والمناقشات، وإثارة قضايا إبداعية حقيقية، بلا مجاملات أو اعتبارات خلا الأدب، ودون قلة أدب. أريد أقلاماً مسؤولة، لا تفتقد الدراية والخبرة، والأهم، نظيفة».

سارع حامد سليم، وقد لاحظ أن النظافة لا تنطبق عليه:

«سمعتي لا تساعدني».

لو لم يتنطع حامد ويشر إلى سمعته السيئة، لوفر على نفسه هذه المبادرة، كان الشرط الوحيد والأساسي للأستاذ عبد الرحيم لعودته إلى العمل تحت إشرافه، عدم استعمال اسمه الحقيقي.

«اكتب باسم مستعار».

«ربما عرفوا».

«لن يعرف أحد سواي».

ما الاسم الذي يختاره؟! فاقترح: أحمد حلفاوي. ثم استدرك مصححاً: أحمد حلفاني. هل تراجع بالغريزة؟ لا، تذكر مأساته مع عفيف حلفاوي، قال لنفسه، يجب ألا يكونا أقرباء من العائلة نفسها، وإنما يشتبه في قرابتهما بشكل يوحي خطأ أنهما أقرباء، لا أكثر. وهكذا تم تنصيبه في وظيفته، مسؤولاً عن صفحات الراصد؛ تحت اسم: أحمد حلفاني.

قبل أن يغادره الأستاذ، تذكر حامد المجموعة، صاحبة الشأن في النشاط الثقافي السري. لا ريب أن رئيسه بعد سنوات طويلة قضاها في رحاب الصحافة، يعرف شيئاً عن الكاتب سميح حمدي.. فسأله عنه:

«هل تتذكر كاتباً بهذا الاسم؟».

«سميح حمدي!! أتذكره، كان كاتباً واعداً جداً، قرأت له رواية منذ أكثر من عشر سنوات، وتوقع البعض له مستقبلاً زاهراً، لاقى هجوماً شديداً على روايته الثانية، فهاجر بروايته الثالثة إلى بيروت فلم ينشروها، طار إلى القاهرة، وخاب أمله هناك، لماذا تسأل عنه؟!».

«ما الذي حلَّ به!!»

«إنه مفقود، سمعت عنه منذ فترة، هناك من رآه في مكان لا أذكره، كان في حالة يرثى لها. لقد قضوا عليه».

«قتلوه؟!».

«من سيقتل كاتباً مسكيناً؟».

«ما الذي فعله؟».

«أعتقد أنه ارتكب خطأ بانتقاده جملة من النقاد دون تعيين، فاحمرت عيونهم عليه، وهاجموا روايته الثانية ومسحوا بها الأرض. وبالطبع لم تجد روايته الثالثة ناشراً يقبل بها، قيل بأنهم عمموا اسمه على دور النشر. ربما هذا، وربما شيء آخر. أحياناً الشخص نفسه لا يعرف ما الذي ارتكبه، وأثار نقمة النقاد عليه، بينما لا بد من مجاملتهم. لقد تجاهلوه تماماً، ولم يعد يُسمع عنه شيء. كيف خطر لك؟! اليوم لن تجد أحداً يعرفه».

«ألم يسامحوه؟».

«تعرفهم، في منتهى اللؤم. تستطيع أن تنتقد سياسياً، لكن لا تستطيع أن تنتقد كاتباً أو ناقداً، لا تصريحاً ولا تلميحاً. إنهم حقودون، لا ينسون».

«المجموعة، أليس كذلك؟!».

«المجموعة!! من أين جئت بهذا التعبير؟! إنهم بضعة أدباء يؤازرهم بعض الصحافيين. لكنني غير متأكد، صار لي زمن وأنا بعيد عن الوسط الأدبي».

حمد حامد الله على أن الكاتب المغمور لم يقتل، وإن كان مصيره ما زال مجهولاً. أما المجموعة، فيبدو أنه لا تعلم بها إلا القلة.



16

أحمد حلفاني:
ليست المشكلة في أخذ الأول مكان الثاني أو العكس، بل فيما ستؤدي إليه من انزلاق حمولات فكرية من صاحبها إلى غير صاحبها، وانتقالها بذلك من مجالها إلى مجال آخر لا يصلح لها.

لم يطمئن حامد لما استجد على صعيد العمل. كان عفيف حلفاوي وحده مشكلة مقلقة لم يجد حلاً لها؛ بغتة أضاف إليها مشكلة أخرى، لا تقل عنها وزناً؛ شخصاً بالحجم الكامل: أحمد حلفاني!! ما الذي بوسعه فعله سوى ضمه إلى من سبقه، وإيجاد مكان له؟ نعم، ثمة إيجابيات، آفاق العمل توسعت وتعددت، والمردود المالي سيشهد قريباً ازدياداً ملحوظاً، يساعده على تسديد ديونه القديمة، ويمنحه بعض الرفاهية. لكن أصبحت لديه مشكلتان، نشأتا

متعاقبتين، منافعهما المضمونة لا تعوضان العواقب الناجمة عنهما.

التحليل السابق للوضع الجديد لا يخلو من حقيقة، وسيكون حامد دقيقاً في توصيف الورطة العالق فيها، ويذهب بعيداً في تميز ما يختلف به حلفاوي عن حلفاني، بتأكيده على طبائعهما المتباينة، وهي فطنة تستدرك ما قد يتلوها من أخطاء، إذ على هدي شخصيتيهما يُرَشّد تعامله معهما. حلفاني الراصد، ليس نسخة طبق الأصل عن حلفاوي المترجم، أو امتداداً له، لكل منهما خصوصيته. حلفاوي مترجم مدقق، يتمتع بجَلَد يحسد عليه، ومخ سميك لا يحسد عليه، زد عليهما إرادة حازمة لا تلين، لا يتقبل انعطافاً ولا انحرافاً، فهو أشبه بـ«الفايت بالحيط»، كما يقال عن أمثاله. بينما أحمد حلفاني كاتب ذكي أريب؛ وراءه يربض تاريخ لا بأس به من النشاط في الصحافة الثقافية، يؤهله للشغب والتأمل والمكائد والنزاعات والمناورات وإصدار الأحكام، خبرات استقاها من حياة حامد الشخصية المهنية السابقة، وإلا من أين سيأتي بالماضي والخبرة ومعرفة الخبايا والفضائح؟! كذلك عفيف حلفاوي، على المنوال ذاته، رغم استقلاليته وفجاجته، استمد مهاراته في الترجمة من حامد بالذات.

يصبو الراصد حلفاني إلى الكمال الفني والأدبي، ولا يجهل بأن ما يصبو إليه شيء، وما يحصل عليه شيء آخر، فيغض النظر بحكم طبيعته المرنة عن قصور ما يتحقق، مقارنة بما يصبو إليه، بتساهل زائد، بإبداء طراوة وظيفية، غير معقولة أحياناً. حيويته تنجده بحلول وإنجازات سريعة، وبإيجاد مخارج لأمور لا مخرج لها، دونما تنازلات جسيمة عن النزاهة، يستخدمها على الوجهين بتشدد وبتراخ، حسب الظروف، أي أنه يتحكم بها. فعندما يتشدد،

يتصلب إلى حد لا يطاق، وعندما يتراخى، يخشى أن تفقد نزاهته نزاهتها، لذلك يسعى إلى الوقوف عند الحد الفاصل بينهما، في الوسط الذهبي؛ قد ينجح وغالباً يفشل.

بينما ينشد المترجم حلفاوي الأمانة والدقة معاً، (ماذا تكون غير الترجمة الحرفية؟) لا يرضى بغيرهما بديلاً، ولا يتغاضى عن أي سهو، أو زيغ مهما دق (فكيف بالتزويد أو التنقيص عن عمد) أو انحراف مهما صغر (فكيف لو كان كبيراً مع سبق الإصرار؟) لهذا وغيره، عندما أنهى ترجمة الروايتين السابقتين، لم يشعر براحة البال، أيقن من وجود خلل لم يستطع تحديده، ورغم تحوطه الفائق، توجس من خطأ نجم عن هفوة غير مقصودة. أما إفراطه بالهواجس، فباعثه الوسواس المتأصل لا الضمير الحي.

من العسير القول، أن حامداً يتوافق مع شخصين، لكل واحد منهما طرائقه في التفكير وأسلوبه في العمل، غير أنه وللضرورة أحكام، يتوافق معهما ضمن حدود يجهد في مراعاتها ومن الصعب تقديرها، ليس لأنها متغيرة، أو حسب الأحوال، ومزاجية نوعاً ما، وإنما لأسباب أخرى من الممكن رسم خطوطها العريضة بوضوح لا يخضع للتبدلات الطارئة. مع أن كلاًّ منهما يعبر عن شيء يختلف عن الآخر.

بالإجمال، لا يلاقي أي منهما ارتياحاً لديه، فلا يأنس إليهما، ويسعى إلى مراوغتهما. لا سيما أنهما فُرضا عليه فرضاً بحكم ظروف مادية قاهرة. وإذا كان مصرّاً على التكتم عليهما، فلأنهما كليهما لا يخلوان من ضعة رغم مناقبهما الأخلاقية الحميدة، لتوسلهما رضى الآخرين في تنفيذ أعمالهما. هذه الصفة المركبة، تضعهما في مرتبة أدنى منه، مع أنهما لا يتطرفان في إظهارها، غير أن

شخصيتهما ترتكز عليها. هذا الجانب لا علاقة له بنظريات علم النفس الاجتماعي أو علم نفس الأفراد، بل بحالة خاصة، لا تتنكر لما يتمخض في داخل البشر من نوازع تتجلى بانبثاقات مجهولة، لا يتنبهون إليها؛ تفيض فجأة على سطح الحياة، إذا وجدت الدافع والمجال والإمكانية، تندفع إلى الفعل دونما حيطة لما يمكن أن تجره من أذى على النفس والآخرين. وقد يتنبه البعض من ذوي البصيرة اللماحة لمثالب هذه الحالة، فيحاولون إخفاءها ريثما يتعرفون على أسبابها، بغية اجتثاثها من جذورها. هذا ما يعتقده حامد وأولئك الذين يحسون بخطورتها، ويسعون للتخلص منها لئلا تستأثر بشخصياتهم؛ وإذا لم يتداركوها فسوف تتسلل إلى مناحي حياتهم، كما عانى منها حامد في جانب من الخلاف ضئيل حول الترجمة بينه وبين حلفاوي.

□ □ □

تتبدى هذه الانبثاقات من خلال مفارقات يلحظها المرء، مثلما يحدث حالياً معه، في هذه المرحلة المشوشة من حياة يشاركه فيها اثنان يستخدمان قدراته، ويعتقدان بأن لهما الحرية في التعبير عما يشاءان، وإن استفزه ولم يعجبه، أو لا يرغب في قوله أو سماعه، وله الحق في ألا ينسب إليه. المفارقة، اضطراره هو بالذات، لأن يكون الناطق باسميهما!! فيما لا يروق له النطق بما يجول في رأسيهما، وإلا فلماذا يتخفى عليهما؟ هناك أشياء في دخيلته لا يرغب في التصريح عنها حتى لو أراد، إلا إذا اختار الوقت والظرف المناسبين. أما هما فلا يعبأان بالوقت ولا بالظرف، يجريان على هواهما دونما حساب لما هو قادم، أو لما تخلفه أقوالهما وتصرفاتهما وراءها من عقابيل. خشيته ليست جراء مخاوف يتخيلها، بل

مخاوف أكيدة نابعة من توقع أخطاء قد تزجه لا محالة في مآزق وخيمة.

هل رضي حامد سليم بقسمته الجديدة؟ نعم، وهل هناك خيار آخر؟ لئلا نبالغ، لم تخل من حسنات لا تنكر؛ مجزية من الناحية المادية، وتداعب غروره من الناحية الأدبية. عدا أنها سلواه الوحيدة، ولو كانت مضنية، على الأقل من حيث الإشراف الجدي على تنظيم حياة تعقدت، وأخذت بالتضخم مهنياً، وتوزعت بين اثنين، تكلفه جهداً عملياً بقدر ما هو فكري، وفي الوقت نفسه عدم التدخل في شؤونهما، مع أنها شؤونه. وعدم الاكتراث بما يقدمان عليه، مع أن نتائجه ستقع على رأسه. كان توقع الصدام معهما يثير في نفسه التطير؛ الأنسب، ما دام آتياً، تأخيره قدر المستطاع، متى بدأ لن ينتهي، غالباً لن يرسو على بر، وإذا رسا، فليس على بر السلامة.

وعى مأزقه معهما دونما إبهام. لم يكن ملزماً بهما، أو مسؤولاً عنهما فقط، كانا في واقع الحال، يسكنانه، وساحة عملهما في موقع عمله بالذات، ألم يحتلاه؟! لا انفصال بين ثلاثتهم، يرعاهما كعبء لا مفر منه، مقابل تستره وراء اسميهما المستعارين، بيد أنهما وهذا أمر واضح وضوح الشمس، من دونهما لا يستطيعان تحقيق إنجازات ولا نجاحات، أو حتى خيبات. وإذا أراد الظفر بالسكينة، ينبغي إحلال الوئام بينهما، وبشكل أساسي، وئام يتم على حسابه ضماناً لسير العمل، فهو المتضرر الوحيد من خلافات سيقع حلها على عاتقه وحده. أما وجودهما المحسوس، فهو، عملياً رغم حسيته، رمزي؛ يُرمز إليه بأسماء على الورق، تتطاير قليلاً أو كثيراً، ريثما يأتي يوم تتبخر فيه.

كانت المناورة معهما بحكم التصاقهما به، محدودة للغاية، فلم تفده

حساباته ولا ذكاؤه. في الحقيقة، لا جدوى منهما إلا في الحدود السابقة، وهي دقيقة، وقد تنقلب إلى عكسها. كان مكشوفاً لهما، مثلما كانا مكشوفين له؛ لن يتورط معهما بحركات اعتباطية ولا قسرية. الحل الأمثل لإدارتهما على نحوٍ يحقق الغرض من نشاطهما، ويرفع إنتاجيتهما، لن يحصل بالإقناع المنطقي (إذ لا منطق يحكم علاقته بهما) ولا وجهاً لوجه (كيف يكون لهما وجوه، إذا لم يكن لهما وجود؟!) إذاً، لا مفر من المداورة والصبر.

تم الأمر ونجح فيه مثلما تمنى وأكثر. رغم أنه من الصعب تحديد أيهما كان الأنجع، المداورة أم الصبر؟! لابد أنهما تآزرا معاً، وأدى القليل من المداورة، مع الكثير من الصبر إلى سيطرته عليهما، بتأمين دوام محدد لهما، يحتل فيه كل منهما الزمن المخصص له فقط، دون التعدي على زمن غيره، ويحصر تحركاته ضمن غرفة العمل الوحيدة، لكن ماذا عن أوقات الفراغ، والفراغ مفسدة، ومجلبة لمتاعب ينبغي التحرز منها، قبل أن يحصل ما لا تحمد عقباه، لأسباب يوضحها هذا الموقف المتكرر:

كان حامد بين انكباب وآخر على طاولة الكتابة، ينهض طلباً للترويح عن نفسه، فيذرع الغرفة الضيقة طولاً وعرضاً، مستجمعاً أفكاره من جديد. الغرفة ممتلئة بالدفاتر والكتب العربية وأكداس ضخمة من الروايات باللغة الإنكليزية، وأكوام من قصاصات الصحف، ومصنفات تحتوي على ملفات عن مواضيع متعددة: المرأة والسرقات الأدبية وعصر النهضة والرحلات الاستشراقية وغيرها، مكدسة فوق الأرفف. الجرائد والمجلات مبعثرة على الأرض؛ وفوقها تشابكت أشرطة توصيلات الكومبيوتر والهاتف والسخانة والمروحة. حاول حامد إعادة ترتيب محتويات الغرفة مراراً، لكن الفوضى روح

اعتادته وتلبست المكان وأبت مفارقته، وشكلت نظاماً عشوائياً عتيداً، أيّ محاولة لترتيبه، يُسهم بإضاعة أوراق وفقدان ملفات، فبات اللا ترتيب عين النظام.

بعد وصفنا للمكان، لنتصور تحت ظل نظام اللا ترتيب هذا، كيف سيكون النهوض والغدو والرواح... ترويحاً، ويشملهم ثلاثتهم، ثلاث نفوس متنافرة تعاني من الإجهاد والغيظ المكتوم والتطنيش؟! المقصود منهم اثنان، حلفاني وحلفاوي. أما حامد فرغم أنه الأساس، فإن دوره هنا أن يُدير، لا أن يُدار، وبشرط أن يكون متيقظاً، لكي يفي الترويح عن النفس بإراحة الأعصاب، دون العبث بهذا اللا ترتيب عن قصد أو غير قصد. ولن يكون مجدياً، إلا بإفساح المجال أولاً، لهذه الرياضة البسيطة المُطَرّية لتشنج عضلات الرقبة والظهر، مما يستدعي إخلاء الطريق من الأغراض للتمكن من التجول دون عوائق. ثانياً، ألا يعرضهما التسكع غير المنتظم إلى الاصطدام ببعضهما بعضاً، حينما يكونان معاً في وقت واحد في الغرفة نفسها. ثالثاً، وضع برنامج عملي يضبط تحركاتهما في الزمان والمكان.

بيد أنها، فعلياً، ولئلا نسترسل، عقبات غير واردة، كما يبدو للبعض، بسبب انتفائها كلياً، لاستحالة وجودهما معاً في مكان واحد (فوق الكرسي نفسه) وزمن واحد (في الساعة نفسها)، عدا أنها نافلة لا يجوز الإشارة إليها. فلماذا يدعى برنامج التريض بالثلاثي، الذي هو في حقيقته ثنائي، وفي الواقع أحادي؟!

لكن خلاف ما ألمحنا إليه ليست نافلة ولا مستحيلة، بل وببساطة شديدة قابلة للوقوع، ومن الممكن، بل من الطبيعي جداً وجودهما معاً، واحد يشتغل والثاني لا يشتغل، واحد يفكر والثاني يقيل، واحد يكتب والثاني يتلصص عليه، لا سيما أنهما لا يشغلان على

أرض الغرفة ولا في فضائها حيزاً، وإنما يشغلان جسداً واحداً، ويمتان بصلة إلى أعضاء الجسد نفسه، من عضلات وظهر ورقبة، ويستعملان أعضاء المشي العائدة إليه.

ولتفَهُّم المقصود، لنتخيل ما يمكن وقوعه، عندما يأخذ حامد الموكل بهما، القيام بالرواح والمجيء لحسابهما؛ كما هو مفترض، وبمجرد مباشرته تلك الرحلة الصغيرة، تتقمصه طبعاً الشخصية التي تطلبه لهذه المهمة الترويحية، فيجاريها مشياً وتلوياً وتأملاً وشروداً في الذهاب والإياب، وليس في الأمر نشاز. لكن إذا تذكرنا أنهما اثنان، وبوسعهما امتطاؤه دونما استئذان، فالحذر واجب.

وهكذا عندما تهبط على أحدهما فكرة مستعصية ترهقه، أو يتعب من الجلوس والانحناء؛ فإن الدواء العاجل هو تليين الجسم بطقطقة الرقبة وتمسيد الظهر ومطمطة الساعدين، أو المشي على غير هدى. فيهب ساعة يشاء، دونما استئذان أحد، ويستخدم أعضاء المشي المشتركة، فهي كما يعتقد أعضاؤه وتحت تصرفه. ما الذي سيحدث، عندما يكون الآخر قد سبقه إلى استخدامها؟! وكي لا نبقى في مجال التخمين والتخيل، أو نبدو وكأننا نتكلم عن حادثة وهمية، متوقعين ما سوف يحدث أو لا يحدث، ونخشى ما قد يفعله هذا أو ذاك، فالحقيقة أنها وقعت مرتين خلال الأسبوع المنصرم. إذاً، ما نصفه، ننقله مما جرى فعلاً.

لكي لا نستغرب، علينا تذكر أن الحدود بينهما غير مفصولة فصلاً تاماً، الحدود توضع لتحدد الأشياء وتفصلها عن بعضها بعضاً، هنا لا أشياء ولا جمادات، وإنما ما يشبه الأرواح الهائمة لا الأحياء الساكنة، وبما أنهما متطفلان على حامد سليم وهو شاب من لحم ودم غير محكم الإغلاق، فإن وجودهما يعاني حتى حين يرغب في

الاستقرار، من الترجرج والتمدد داخل قالب فضفاض متحرك، إذ قوامهما الأثيري المتحرر من ثوب الجسد، يسيل عبر أي منفذ متوفر. ففي فاصل المشي، وهو فعل حركي مادي، يحصل التداخل وهي حادثة سببها شرود الأفكار وتشردها من موضوع لآخر، داخل المكان، أو خارجه؛ كأن ينهض أحدهما فجأة تحت ضغط العمل أو الملل من الاضطجاع ويدخل في الجسم الماشي، دون الانتباه إلى أنه مشغول بآخر، يلتصق به، ويزاحمه، وقد يحل محله، لأن الواحد منهما لا يدري بوجود الآخر. فإذا ذرع حلفاوي الغرفة ذهاباً، فلا يشترط أن يكون هو الذي يذرعها إياباً، أي الشخص الذاهب ليس بالضرورة الآيب، سواء كان الذهاب والإياب طولانياً أو عرضانياً، ولئلا نبالغ في العرضاني، أو نتوهم العرض عريضاً، ميدان التسكع لا يزيد على فسحة، مهما كانت واسعة، تبقى صغيرة، تسمح للشخص بالدوران في مكانه والعودة من حيث أتى. بعكس الطولاني، وهو أطول، مع أنه طريق متعرج بين أكوام الورق.

وسواء كان حلفاني أو حلفاوي، الذارع العرضاني أو الطولاني، فلا معضلة، طالما كانت محصورة بالمشي الحركي فقط. المعضلة في التداخل بينهما وما ينطوي عليه من نتائج غير متوقعة، رغم عدم وضوحه للعيان، لأن ما سوف يبدو منه، لا يُظهر سوى لفتة خفية صغيرة غير ملحوظة، تُرى بعين الخيال الثاقبة جداً، عبارة عن عملية انتقال من وضعية سير إلى وضعية سير مطابقة، تُنجِز نفسها بخفة تامة، أي وكأنها لا تحدث، تتم وحدها أوتوماتيكياً، حسب آلية حلول ذاتية وبطرفة عين، تكتمل أثناء مشي يلازمه اطمئنان كامل غير حذر؛ انزلاق شيء لا يُرى، إلى جانب شيء لا يُرى، تتبعها عملية دخول وخروج تنجز بسلاسة بين اثنين دون أن يدري ثالثهما، الذي هو رجلنا حامد صاحب الأمر والنهي، ناطور العلاقة

بينهما!! ودون أن يلاحظها أحدهما سواء في الذهاب أو في الإياب، مع أن الذاهب لن يكون الآيب، كما قد يختلط طريق الذهاب بطريق الإياب، فلا هو يدري ولا هما يدريان، هل هم ذاهبون على طريق الإياب، أم آيبون على طريق الذهاب!!

الحالة حتى الآن، لا تشكل فيها هذه الخربطة، سوى أتفه عواقبها، ولن تأخذ هذه الصورة أبعادها المدمرة في أذهاننا، إلا إذا أدركنا اختلاف ما يحمله أحدهما من أفكار عما يحمله الآخر من أفكار، المشكلة ليست في أخذ الأول مكان الثاني أو العكس، وإنما فيما ستؤدي إليه من انزلاق حمولات فكرية من صاحبها إلى غير صاحبها، وانتقالها بذلك من مجالها إلى مجال آخر لا يصلح لها، واجتماعهما في بؤرة واحدة، بحيث لا نعرف، أيها يعود إلى عالم الترجمة، وأيها إلى عالم الكتابة، وبالتالي العالمي من المحلي، والغربي من الشرقي، والإنكليزي من العربي. الحصيلة، تخالط وامتزاج عالمين متباعدين تفصلهما الأساليب واللغة والأدوات، واستواؤهما في فضاء ألغيت فيه الجسور وعطلت الحدود. هذا لن يعبث بالعمل، بل سيقضي عليه قضاءً مبرماً.

لتفادي المصيبة، الأمر السليم احتفاظ كل منهما بشخصه وحاله معزولاً عن الآخر. هذا ما سعى حامد إلى التحكم فيه، بمنع التسيب في السير، وتحديد أوقات الدخول والخروج، بما دعاه تنظيم حركة المرور.

□ □ □

يومياً من الضحى إلى ما بعد الظهر بقليل، يمارس الراصد حلفاني نشاطه من قراءة وكتابة، ما دامت تصله وعلى مدار الأسبوع المواد

المرشحة للنشر بالبريد الخاص، بواسطة مراسل شاب مجهز بدراجة على الطريقة القديمة؛ مهمته تسليم المواد الواردة إلى المجلة، وتتم باليد، توخياً للسرية الكاملة. بعدئذ يتبادل حامد الرأي والملاحظات بالهاتف مع الأستاذ عبد الرحيم حول عدم صلاحية بعض المواد الأدبية، أو مراعاة توقيت نشرها حسب المناسبة أو الواسطة أو الاسم، ثم يُعدّ ما تبقى من أبواب صفحات الراصد الثقافي، مستعيناً بالإنترنت، مراعياً تنويع موضوعاتها وحسن تبويبها، فيزور مواقع الجرائد والمجلات العربية والغربية الثقافية، ويتصفحها، ويختار أكثر الأخبار كشفاً وآخرها مجاراة للحركة الأدبية العربية والغربية. يرسل بعدها مواده المنتقاة بواسطة البريد الإلكتروني، جاهزة إلى المجلة.

مساءً، يأتي دور المترجم حلفاوي، بعد أن يتأكد حامد من عدم وجود حلفاني في الغرفة، أي ألا يكون بمتناول بصره أو بصيرته، يتفرغ كلية للقادم، ويكابد بالقرب منه عناء النقل والتنقل بين لغتين، يرهق عينيه ويحرق أعصابه، ويتعرق حتى في الليالي الباردة دونما بذل جهد عضلي، إلى جوار مترجم بليد وعنيد لا يعرق ولا يبرد، يعمل حتى آخر الليل على ترجمة الفصل تلو الفصل من رواية «العذراء السجينة».



17

الزوجة:
عندما يفقد الحب مبرر الاستمرار، يموت مثل غيره من الأوهام

في اليوم الأخير من الشهر، قال منهكاً، ما هذه البلية، غدوت ثلاثة أشخاص، متى أفرغ لنفسي؟! أنا مظلوم، أقوم بواجباتي كلها، ولا حقوق لي. في اليوم التالي، بعد شهر من العمل المتواصل، استمتع بكونه حامد سليم، بعدما صرفت له المجلة راتبه الشهري، أرسله إليه رئيسه الأستاذ عبد الرحيم، بواسطة المراسل، فاستعاد اسمه الأصلي، ومسؤولياته كزوج وأب، وانطلق لرؤية طفليه وزوجته الحردانة في منزل أمها.

اشترى من بسطات شارعي البحصة والثورة لعبة عروس لابنته سهى، وللصغير مؤيد سيارة حمراء بلاستيك تعمل بالزنبرك، ومن كشك الجرائد والخردوات تشكيلة أكلات طيبة؛ شيبس وبسكويت وشوكولا. ثم ركب الميكروباص، ونزل في ساحة الميسات. من

محل بيع الأزهار، انتقى وردة حمراء لزوجته.

زوجته بسمة لم تسرّ بالوردة ولا بالزيارة، مع أنه دفع إليها نفقة الطفلين عن ثلاثة أشهر مستحقة سابقاً، ووعد بتسديد ما تبقى من النفقة القديمة مع اللاحقة خلال الأشهر القليلة القادمة. هيأتُه لم تعجبها، تبدو أمارات غريبة على وجهه.

جلس على الصوفا في غرفة القعود، كأنه ضيف، صامتاً ومهموماً. قالت بسمة، ماما لن تأتي. لم يعلق، يعرف حماته لا تطيق رؤيته، أسمعته مراراً بأنه يعذب ابنتها، ولا يستحقها. صفن بشيء يدور خارج الغرفة. فكرت بسمة، هذا الشيء لا بد أن يكون سخيفاً، ربما كان يستمع إلى شكوى امرأة متحررة، زوجها لا يشجع مواهبها الأدبية، ويحصي عليها خطواتها خارج البيت، ويضطهدها داخل البيت. بعد لحظات، تثاءب وبدا عليه الخمول، ربما كان نعسان، يتذكر حلماً سريالياً نجم عن سهرة امتدت البارحة إلى ما بعد منتصف الليل مع أصدقاء قدموا من بيروت، لم يتركوه قبل جولة في فنادق المرجة. عندما مال برأسه، ورقّت تعابير وجهه، قالت لنفسها، لا بد أنه يطارح إحداهن الغرام.

بغتة، حصل تبدل على وجهه، اضطربت ملامحه وماجت. كما عهدته في آخر أيامهما الزوجية، تغلي الأفكار في رأسه بغتة، ينتفض غاضباً لمجرد أنه تذكر مناقشة تافهة مع أحدهم، وسرعان ما يهدأ. في الحقيقة، كان يُبعد (وهو أمر لن يخطر لها) عن ذهنه تهويمات تخالطه في مثل هذا الوقت، إذ ينتهي مشواره مع حلفاني، ويبدأ رحلته مع حلفاوي. عند هذا الفاصل، انتبه وهو يودع الأول ويستقبل الثاني، إلى أنها تراقبه، فتذكر أنه في مكان لا مشوار فيه ينتهي ولا رحلة تبدأ. فاستعاد شخصيته الزوجية، وفتح فمه،

ورجاها العودة إلى المنزل.

«بسمة، البيت من دونكِ خراب».

كررّها بآلية عدة مرات، بلا ندم أو تبكيت ضمير، يُنهي إليها أمراً مسلماً به، وفي كل مرة تعاهد نفسها على ألا تعود؛ ملامحه الشاحبة أشبه بملامح التائهين، لا التائبين.

«ما ردكِ؟».

«لا أريد أن أقول شيئاً».

كيف أحبته؟! أو هل أحبته وعاشت معه تحت سقف واحد؟! كيف استمرت حياتهما وأنجبت منه ولدين غير جدير بهما، واحتملت لامبالاته بهم جميعاً؟! سنوات وهو يعيث فساداً في الأسرة الصغيرة، لم يراع حقوقها الزوجية، أو يفهم، لمجرد الفهم أن بيت الزوجية مقدس.

«لقد تغيرتُ».

فتحت عينيها مدهوشة، ما الذي تغير فيه؟!

«لم تعد لي رغبة في السهر، ولا أصدقاء أذهب معهم. أخرج لماماً، وظيفتي الجديدة تتطلب مني المواظبة على العمل، وتجبرني على البقاء في البيت».

سكت مسروراً، لا لم يكذب، لقد تغير، تغير كثيراً، إلى حد لا يستطيع الإفصاح عن مقداره، كيف يقول لها، هناك اثنان، يعيشان معه، هما هو بالذات، لا يظهران لكنهما موجودان. لم يعد واحداً بل ثلاثة.

«لن تتغير، طبيعتك تمنعك، طالما وعدت بإصلاح حياتنا، ولم تف بوعدك».

حاول أن يرد، لكنها تابعت:

«لا تفسد علي حياتي، رتبت أموري من دونك، أمي تعتني بالطفلين أثناء غيابي، فرصة لن أضيعها، سأستفيد منها ريثما تدخل سهى مرحلة التحضيري، ومؤيد الحضانة».

«وأنا؟!»

«انتهينا».

لن تبقى تحت رحمة طيشه ونزواته، قاست منه كثيراً خلال الأشهر الماضية، ولا متسع في حياتها للمزيد من التجارب الخائبة.

«لن يُصلحكَ شيء».

هز رأسه موافقاً، ثم كرر طلبه دون حماسة.

لم يكن شريراً، ولم يضربها، يهملها أياماً وأسابيع، لا يحمل هماً ولا غماً؛ المسؤوليات من نصيبها. كانت تعمل في وزارة الاقتصاد، وتقوم بتأمين ما يلزم من أغراض البيت، تشتري حليب الأطفال والخبز والخضرة، ومن ثم الطبخ والنفخ، والتنظيف والترتيب؛ ومن واجباتها أن تذكره بواجباته وكتاباته ومواعيد زيارات الأهل وتسديد فواتير الهاتف والكهرباء والماء. وتنبيهه كل فترة من الزمن إلى أنهما زوجان، وأن الأزواج ينامان مع بعضهما بعضاً في الأسبوع مرة على الأقل!! المرأة تشتهي النوم مع رجلها، أو تشتهي أزواج الأخريات؟! إذا كان يقضي حاجته خارج البيت، فهي تريد أن تقضي حاجتها داخل البيت، لكن مع من؟! يغيب من الصباح

حتى المساء، وأحياناً يوماً أو يومين، أين كنت؟ كان المترجم المبدع في رحلة استطلاعية إلى تدمر أو أفاميا لرؤية الآثار، أو منطقة ما زالت الحفريات فيها قائمة ستطلع منها مملكة وألواح تبدل تاريخ العالم القديم. ثم تأتيها الأخبار، أمسية أدبية مع قاصة امتدحها الحضور، وعندما عرفوا أنها مخبولة، انفضّوا عنها بعد أن أشبعوها سخرية، فأشفق عليها وواساها، أوصلها إلى بيتها، وعاد منهكاً من التعب. سهرة في مقصف الرواق مع كومبارس بائسة، انتقد الجالسون دورها الصغير، فبكت وشدت شعرها، دافع عنها، فمزق أحدهم قميصه. أو تسكع ليلة بطولها مع شاعرة معتوهة، عقب سكرة في خمارة في باب توما، لم تتركه إلا بعد أن أسمعته ديوانها الأخير، فتقيأ على بنطاله، ونام على إثرها يوماً بكامله. الله وحده، يعرف كيف يقضي أوقاته مع غيرهن من النساء اللواتي يخنّ أزواجهن، ولا يوفرن عشاقهن من الخيانة. وأحياناً يصطحب معه إلى البيت أحد من أصدقائه السفلة، يعزمه على الغداء أو العشاء، يتشدق هو بالمسرحيات والروايات، وصديقه الأديب ينهش أعراض زوجات رفاقهم الأدباء. وإذا قضى يوماً في البيت، يختفي بين الكتب ساعات النهار والليل، ماذا كانت حصيلة عبقريته؟ تخبيصات في الترجمة وفضيحة عارمة.

اضطرت إلى تحمل حماقاته، بل وسامحته، لكنها غير مضطرة إلى التغاضي عن إيقاظه حباً قديماً في حياته، وتصديق أكاذيبه عن محبوبته!! لو أنها لاحظت عليه الآن تغيراً حقيقياً نحو الأحسن ولو ضئيلاً، لما ترددت في العودة، ما زال كما ألفته على استعداد لمعاودة أخطائه، والتغير نحو الأسوأ، وربما ما زال ساهماً في حبه الأول.

هل يكفي أن تحبه؟ لا لن تحبه، ولن توجع قلبها به. لم يعد الحب

مبرراً كافياً للاستمرار، يموت مثل غيره من الأوهام. رومانسيات الغرام ذهبت بها رياح الشوارع المؤدية إلى الجامعة، وكافيتريات الوعود الجميلة، ومشاوير الأيدي المتماسكة، كلها تبددت تحت ظلال زيزفون المنفلوطي وشجرة لبلاب عبد الحليم عبد الله؛ القصص التي أحبتها، واقتبسا من صفحاتها أغبى عهود الوفاء الأبدي، تبادلاها على مقعد في حديقة السبكي وقد تلاصق رأساهما، زمن ساذج وجميل، ليته لم يكن!! ما الذي بقي من الحبيب؟! ابتسامة طيبة، وعينان زائغتان بين الحماقة والبراءة. وكالمعتاد رأسه هنا، وأفكاره محشورة في زاوية ما في مكان بعيد.

دار في ذهنه شيء من هذا القبيل، ما جدوى عودتها إلى البيت؟! المناكفات إياها. وخطرت له أيضاً أشياء ليست من هذا القبيل، تصادق على صحة تخمينات زوجته، رأسه هنا، وجلّ أفكاره بعيدة هناك. ما الذي أخذ أفكاره بعيداً عنها، مع أنها كانت قريبة منها؟! خطر له بأنهما لو ناما مع بعضهما لانتهت مشكلتهما على الفور، وحملا الطفلين وعادا إلى البيت سمناً على عسل، لكن بسمة لن تطاوعه، أمها بالمرصاد لضعفهما الجنسي!!

الضعف الجنسي!! أهي عبارة عابرة؟! نعم، لكنها حولت مجرى ما يدور في ذهنه، وأخذته إلى حدث غائم على صلة بالجنس والضعف معاً، تقلب بينهما، متابعاً تساؤلات سبقت، أيهما سوف يتغلب على الآخر؟ هل تقوى امرأة بضعفها الأنثوي على مغالبة محرض جنسي ذكوري فعال؟! الطبيعي أن يصرعها، لكن ماذا لو كان الجنس مرتبطاً لديها بتاريخ حافل بكراهية الرجال؟! في هذه الحالة، هيهات أن يصل الرجل إلى مأربه بسهولة!! ما الوصفة المضادة للضعف والمنشطة للجماع؟! فاهتز من عنف السؤال، وأخذ يفكر بالجواب.

كانت خواطره قد ارتحلت ورحل معها، وأصبحا كلاهما في عهدة عفيف حلفاوي، محشورين في زاوية حادة مع الأميركية العذراء التي كانت جد باردة في الرواية، وجاء الحب ورفع حرارتها إلى درجة الغليان.

باميلا في الشرفة متمددة على الأريكة، نصف عارية وأكثر قليلاً، ملابسها الداخلية الشفافة تكشف عن الخطوط المنحنية لجسدها اللدن. يدخل هوبكنز يحمل كأس الويسكي، يضعه جانباً، يقترب منها فتخاف وتستر بيديها مكامن أنوثتها غامقة اللون. هوبكنز يعانقها، يعتصرها بيده اليسرى، ويقبلها قبلات ملتهبة. بينما يده اليمنى تتخلص بخفة من ملابسه. باميلا، تبادله الهيام والقبلات، يداها لا تغادران موضعيهما، الأولى في العالي تغطي صدرها على مستوى الحلمتين، والثانية في الواطي مدسوسة بين الفخذين، على تناقض مع وضعية التلاصق المتصاعد نحو الحميمي الحامي جداً. اتخذت باميلا وضعية الدفاع عن المنطقة السفلية الأساسية والمنطقتين العلويتين الفرعيتين، فلم تسقط يديها، وتستسلم للحبيب الهاجم؛ معيدة قصة حبها إلى مرحلة الصقيع، بعد أن دهمتها، لمحات أشبه بشريط سينمائي تفسر العلة الرهيبة لسجنها العذري.

على الشريط، تخايل أبوها عارياً على رقعة السماء العارية من النجوم، والشامات السوداء الأشد سواداً من الليل، مبعثرة على منكبيه وأسفل ظهره وعجيزته، يضاجع أمها المتخفية في العتمة. أبوها بجذعه العريض ومؤخرته الضيقة يخور كالثور، تتلامح أمها مستلقية تحته، ثم وجهه مغمور في صدرها، للوهلة الأولى اعتقدت أنه يرضع الحليب، لكن عندما سمعتها تئن، ظنتها تتوجع، فأيقنت بأنه يأكل ثدييها الكبيرين الأبيضين، فصرخت مفزوعة. منذئذ،

اختلط في ذهنها، العري بالحليب والحيوانات الناطحة بالشامات والنجوم، والفراش بالخوار، والأنين باللهاث، فنضجت قبل سن البلوغ، وكرهت الحليب بأنواعه الطبيعي والبودرة والمبستر، وخافت من الرجال العراة.

وقف حامد إلى جوار باميلا يراقبها، وكانت في ذروة تهيجها، مقاومتها تضعف، خط دفاعها الأخير على وشك السقوط، فيما ارتفع هوبكنز بجذعه عنها، خلصها من سروالها الداخلي، استدار ليرميه بعيداً، فوقع بصرها على بضع شامات سوداء متناثرة على ظهره ومؤخرته، فتذكرت ظهراً آخر بمؤخرة مشابهة، وانقلب حبيبها الوسيم إلى ثور هائج على وشك أن ينطحها، ويلتهم مناطقها البارزة والحساسة، بادئاً بثدييها ناصعي البياض، وكانا بين يديه وبمتناول فكيه، جاهزين للقضم والبلع، فدفعته عنها كالمجنونة. لم ينتبه لحركتها هذه، استرعت سمعه حركة أخرى خافتة جداً، فارتد بلمح البصر عميلاً فيدرالياً على رأس عمله. سحب من تحت الأريكة مسدسه (الفيدراليون لا ينسون وضع أسلحتهم على مقربة منهم). نهض واقفاً، دفع باب الشرفة بقدمه، واستند بظهره إلى الحائط، سمع دعسات أقدام على سلم الحريق. وبسرعة البرق قفز وهو نصف عار خلف ظل يركض، ولاحق بسيارته السوداء السريعة المشبوه الباكستاني في شوارع نيويورك.

استخف حامد بالعلة الجنسية الرهيبة، قال لحلفاوي، في طفولتنا رأينا مشاهد تقشعر لها الأبدان، وسمعنا قصصاً مكشوفة جداً، لم تترك فينا أثاراً محبطة ولا عقداً مستعصية. رد حلفاوي، نحن لا يؤثر فينا شيء، باميلا تختلف عنا، إنها فتاة مرهفة الأحاسيس أصيبت بكدمة نفسية، تلزمها رعاية وعلاج لطيف يقوم به طبيب نفساني، أو

حبيب طويل البال. قال حامد، الأفضل أن تدافع عن عفتها، وترفض تسليم عذريتها لهوبكنز إلا في الوقت المناسب، بعد أن تتأكد من حبه على الأقل، هذا سبب أقوى لتتدلل وتتمنع. قال حلفاوي، الفتاة غير متكيفة، لا تستجيب في الالتحام الجسدي سواء أحبت أو لم تحب. أصر حامد، كل شيء في أوانه. فقال حلفاوي، الجنس في الغرب أمر طبيعي، مثل الأكل والشرب، ولا مانع يمنع المرأة من ممارسته مع من تريد. قال حامد، الحب لديهم لا بهجة له، أما عندنا فبهجتة لا أول لها ولا آخر. قال حلفاوي، بهجته واحدة في الشرق والغرب. وضّح حامد، رهجته عندهم أكبر من بهجته. فتعجب حلفاوي، وما الرهجة؟! قال حامد، يسلطون عليه الأضواء ويحيلونه إلى احتفالات وأزياء مكشوفة، وضجيج وأفلام وإعلانات، بينما هو تعريص وتجارة، في حين أكثر ما يجعله جميلاً هو الصمت، لأنه يدور بين اثنين لا ثالث لهما ولا بينهما. لكنهم يضحون بالعيب من أجل المال، ويعرضونه على الملأ؛ نحن نستحي. قال حلفاوي، وهم يستحون، لكن الحياء والعيب الزائدين، عقد لا شعورية. فقال حامد، المجتمع الأميركي مجتمع يبرر القتل وارتكاب الموبقات بعلل نفسية. غضب حلفاوي، إلى أين تأخذني؟! فغضب حامد، أنت الذي تأخذني! قال حلفاوي، لا تتدخل في عملي، الزم حدودك. قال حامد، أنا ملتزم بحدودي، وواجبي تنبيهك إلى أمور أخلاقية. قال حلفاوي، هذه أمور خلافية، وأنا مجرد مترجم فقط، ليست مهمتي الهداية، ولا مهنتي الإصلاح.

«وأنا ماذا أكون، إن لم أكن مترجماً».

كاد أن ينساق إلى إحدى تلك المشادات الاعتيادية، لكنها انقطعت قبل أن يعلو بصوته، كانت زوجته بسمة تنظر إليه مستغربة، لم

تفتها تشقلبات وجهه العجيبة. لا، لن تفهم ما يعتمل في رأسه. نهض على عجل. فأشفقت عليه:

«انتبه إلى نفسك، حالتك لا تسر».

وأردفت ساخرة:

«أصبحت تهذي من فرط الغرام».

كلماتها لم تزعجه، بقدر ما أزعجه حواره مع حلفاوي المتحرر على الطريقة الغربية الرائجة، وتطاوله عليه بتحذيره من إبداء رأيه بدعوى التزام الحدود، وكأنما هناك حدود يتوقف الرأي عندها. من حسن الحظ أنه لم يتابع مناقشته، مع أنه باستطاعته إفحامه، ليس من المأمون تشجيع مثل نقاشات كهذه، سيثور غضبه وتفلت منه كلمة، ينخرط بعدها في حديث مطول مع نفسه، وإذا اعتاد هذا النمط من الأحاديث (هذا إذا اكتفى بحلفاوي وأغفل حلفاني) فمع الزمن سيصاب بانفصام في الشخصية من الدرجة البسيطة، فيصبح اثنين، واحد طيب والآخر شرير، يتحمل غباء الطيب، ووقاحات الشرير، ويقع في مآزق وإشكاليات؛ اليوم كرمى لعذراء أميركية هيستيرية، وغداً من أجل عصابيين وسيكوباتيين، يعانون هذيانات بالجملة، من الشعور بالدونية إلى جنون العظمة.

«وأنتِ، راجعي أمورك ولا تتهوري».

«عندما تصحو من غرامياتك، يكون الأوان قد فات».

شكرها على ضيافتها، ومضى. في الشارع قال، لماذا شكرتُها؟! لم تُضَيِّفْني قهوة ولا حتى بماء. وقبل أن يصل البيت، تذكر لم يطلب رؤية الطفلين؛ عادة إذا جاء متأخراً، كانت تسمح له بإلقاء نظرة عليهما وهما نائمان في سريريهما، يقبلهما وتغرورق عيناه بالدموع.

زوجته بسمة على صواب، حالته لا تسر، كان مخبولاً بالفعل.

سيتذكر أيضاً كلماتها الأخيرة، ما الذي قصدته بالصحوة من غرامياته؟! ضرب على جبينه بجماع كفه. هل ما زالت تعتقد أنه على علاقة مع ليلى شكران؟! ولم تصدق حتى الآن قصته البريئة معها. مجرد أنه ساعد امرأة منكوبة عقب عودتها من الغربة بعد ثماني عشرة سنة، ماذا يكون بالنسبة إليها سوى ابن الجيران فقط؟ وهي لم تعد بالنسبة إليه سوى ابنة الجيران في حارته القديمة سوق ساروجة.

□ □ □

ولأن للفصول القادمة علاقة بقصة قديمة في حياة حامد، لا بد من التعرض إليها:

أحب حامد ليلى عندما كان صغيراً في التاسعة من عمره، وكانت في الثالثة عشرة من عمرها. لم تعلم بحبه لها، فلم يتبادلا رسائل الغرام. نجحت في الصف الخامس الابتدائي، فلم تعد تظهر في الحارة. لم يرها طوال العطلة الصيفية. في العطلة السابقة لعبا معاً في باحات داريهما، وتباريا بالراكيتات والريشة في الزقاق الملاصق لبيتيهما. نبهت عليه أمه ألا يقرع بابهم، ليلى كبرت، البنت تنضج قبل الصبي. أما هو فلم يكبر إلا بعد سنوات عديدة، وسيزداد حبه لها، يتتبعها على طريق المدرسة، يكلمها ويمشيان معاً ويوصلها إلى البيت. عندما علمت أمه قالت له، عيب، لا يصح أن تمشي معها. فلم يعد ينتظرها. خلال رفقتهما، لم يحس بالسعادة، كانت تستصغره، وتعامله كأنها أكبر منه بعشرين سنة، لكنه أقام على حبها.

احترق محل أبيها، فاضطر إلى بيع البيت والانتقال مع عائلته إلى مخيم اليرموك. بحث عنها، ووجدها، تعمد أن يبدو لقاؤهما مصادفة. تمشى معها عدة مرات، لكنها لم تقتنع بأنه بدأ يكبر، بقي في نظرها الصغير رفيق اللعب الفصعون، كأن السن التي فارقتها، لم يفارقها بعد.

في السنوات التالية، سيسمع عنها أخباراً صاخبة؛ تمردها على أهلها وزواجها بالرغم منهم. بعد مرور حوالي عشرين عاماً على آخر مرة رآها فيها، ستتصل به. وتقول له بأنها تابعته في الصحف، كتاباته آنستها في غربتها. ثم التقاها، كان وضعها سيئاً، ما الذي جرى لها؟ تساءل مستغرباً تحولها من فتاة مرحة، إلى امرأة مهمومة تبدو أكبر منه بعشر سنوات، كأن الحياة والسنين لا ينبغي أن تنال من الصورة النضرة لليلى شكران الفتاة التي أحبها ذات يوم. قصة تبدو أشبه ما تكون برواية طويلة، سيتذكرها حامد مسلسلة على حلقات، كل حلقة في مكانها.

18

عباس:
الثورة التي لم تقبل بأنصاف الحلول، تذهب إلى عالم التراجعات والتسويات

على الطريق الواصل بين البيت والمدرسة، تفتحت مشاعر ليلى على الغرام، ومن أجل الحب وحده سترفض الخُطَّاب متعللة بإتمام دراستها الثانوية والحصول على شهادة البكالوريا. لن تظفر بها، ستغامر وتهرب مع حبيبها الفلسطيني عباس حماد إلى لبنان. لم تكن قد بلغت السابعة عشرة من عمرها، عندما أغواها المناضل الشاب بعدالة قضيته، وصوته الملعلع كالرصاص في تظاهرات مخيم اليرموك، وفيما بعد بملابسه المبرقعة ومسدسه ٩ ملم ورشاشه الأوتوماتيكي. لم يرض أهلها الذين جاء بهما الفقر من حي سوقساروجة إلى أزقة الحجر الأسود عن غرام ابنتهم المراهقة بالولد الأسمر الذي ترك كلية الحقوق وأعلن التحاقه بالعمل الفدائي لتحرير فلسطين من عصابات الصهاينة. طلب يدها، فرفضوه، هل العمل الفدائي مهنة؟ وسوف يصدمهم إضرابها الرومانتيكي عن

الطعام، ثم فرارها الجنوني وعبورها الحدود إلى ربوع لبنان الذي كان يعاني من الحرب الأهلية والمجازر الطائفية والقتل على الهوية. أمها أرسلت لها، عودي لا تقتلي أباك من القهر. فردت عليها بعبارة غير ثورية تغفر لها ذنبها، الأعمار بيد الله.

بعد اجتيازه لدورة التدريب، شارك بعملية استطلاعية على الحدود، بعدها انفرطت المنظمة، ولم يعد لها عنوان ولا شعارات، فانتسب إلى أخرى. ثم انتقل إلى الجبهة الشعبية ليستقر أخيراً في فتح. وليلى معه تخوض من بعيد اشتباكات لا تدري متى تبدأ ومتى تنتهي، في الجنوب وبيروت وطرابلس، ثم الخروج والترحال من مدينة لمدينة، قبرص صنعاء الجزائر ثم تونس، نهاية المطاف لم يحطّا رحالهما في الدولة الفلسطينية المرتقبة، فلم يريا الضفة الغربية ولا غزة. مسلسل تضاءل النضال فيه حتى تلاشى، من الاستحكامات المطلة على الأرض السليبة وعمليات التسلل وزرع الألغام والقصف بمدافع البازوكا، إلى المكاتب وحفيف الورق والجحور المطلة على شوارع يتتالى عليها الحر والبرد، وبحر تدور في أعماقه قنوات المفاوضات السرية.

في بيروت كانت في مواقعها غير الآمنة على الخطوط الخلفية، معرضة للقصف والحرق والذبح، بين المستوصفات وغرف الإسعاف السريع والموت السريع والحقول المحروقة والحواجز الطيارة والخنادق وفنادق النجوم الخمسة العارية من النجوم، الآهلة بالقناصة والمقاتلين ذوي الشعور الطويلة والذقون غير الحليقة، وراديو لا يتوقف عن بث بلاغات النصر وأغاني العودة. خلالها تنقلا إلى أكثر من بيت، مأوى تحت الدرج، غرفة فوق السطح، شقة بصالة وغرفتين، وتلفزيون يبث نشرات أخبار تلغو بتسوية على الأبواب، أو متوقعة، في علم الغيب الأميركي.

انتظرت مراراً عودة فتاها عباس مسجّى على محفّة، فيرجع على قدميه تفوح منه رائحة السجائر وشحم السلاح يشوبهما عطر خفيف. تسكت ولا تصدق أن للبارود أريج العطر النسائيّ، وأن بطلها الذي ينام على صورة فلسطين، يضطجع مع النساء على أسرة الفنادق المحررة. في تونس، يأتي في آخر الليل، سكران ومعه أصحابه سكارى مثله، رفاق درب التحرير يرافقهم شبان من أحزاب يسارية ومتطرفة يعج بها الوطن الكبير، وجدت لها أنصاراً وأعواناً في مخيمات المنافي التعيسة والجحور البائسة والمباني المرفهة. يأمرها بإعداد العشاء، ترفض، فيلعن أمها وأباها وأبو الشام يللي طالعتها، وأبو مخيم اليرموك يللي لمّها منه. فتشتمه وتلعن أبوه وأبو بلده والبيارات والزيتون، يتدخل الرفاق، يروّقون الجو بينهما، فيتصالحان ويتعانقان، ويساعدها بإعداد العشاء.

تلك كانت أيام البطالة الإجبارية والنمائم الانهزامية، لا نضال ولا مقاومة. يتفادى القدوم إلى البيت قبل منتصف الليل، يتأخر في المقاهي والمطاعم والحانات، يُضَيِّع الوقت مع الرفاق في ثرثرات وطنية يُخَوِّنون فيها الجميع. يدعها وحيدة نهباً للشكوك ولروائح العطر، ولغيرة تسومها عذاب الهجران؛ تتخيلهن ينتزعنه منها، نساء دخيلات ومسترجلات، عشيقاته الفلسطينيات اللواتي تزوجن الثورة ورجالها، ومن قبلهن اللبنانيات مناضلات الحركة الوطنية التقدمية، وتونسيات استهوتهن القضية الفلسطينية المشرقية، وفرنسيات تدلهن بالثورة والكوفية. مجيئه إلى البيت مبكراً، حفلة نكد، مشاحنات ومناحرات تتفاقم إلى سباب وعويل، ولا يتوقفان إلا عندما ينطرح أرضاً، أو تفقد وعيها. يصحوان منهكين، يعتذر منها دامع العينين، ويرتد إلى موقعه ثورياً حالماً بفلسطين، يعّدان معاً خطة لاختطاف طائرة يطوفان بها حول العالم، محطتها الأخيرة، القدس. هناك

يفجرانها ويتفجران فوق أرضها، وتمتزج أشلاؤهما بهواء الوطن وترابه.

خلافاً لتوقعاتهما، بعد عقود الخيام والمخيمات والعراء، وسنوات الملاجئ والملاجئ البديلة والمنافي الطوعية والقسرية، ولجت الثورة التي لم تقبل بأنصاف الحلول، عالم التراجعات والتسويات، وعوضاً عن كامل فلسطين، يجب القبول بنصفها، ربعها، جزء صغير منها، بل وينبغي توحيد الجهود لاهتبال الفرصة قبل أن تضيع كما ضاع غيرها. باتت خلافاتهما بأنواعها السياسية والعاطفية، روتيناً ضرورياً، اتخذ إيقاعاً صامداً ودورياً، كان عامل أمان ضد الجنون، وتنفيس احتقانات ما قبل الإغماء، ومسوغاً للبكاء والانهيارات العصبية، يتخففان فيها من آلام البطالة والعطالة، وأخبار الفراغ والتسويف والانتظار والتنازل عن الحقوق والأراضي. وسوف تنحدر مواجهاتهما إلى مزيد من العنف والإهانات، فيضربها ويحاول خنقها بغية إسكاتها، ويشتمها مسبغاً عليها لقباً ذا جنسية عالمية لا تحدّه حدود، عابراً للقارات: الشرموطة. تنتهي مشاجراتهما بطردها إلى الشارع: يجر الشرموطة من شعرها، يدفعها بقبضته ويرفسها بقدمه، لتنسطح على الدرج، يقفل في وجهها الباب، وتشهد الأرصفة والجيران، المرة تلو المرة، وقوف الشرموطة الزري، منكوشة الشعر، مورمة الخدين وحافية القدمين، بعدد الشرمطات المتسارعة على شاشات التلفزيون من مدريد حتى أوسلو، والمزيد على الأبواب.

حاولت الانتحار مرتين، وأجهضت مرة. صممت ألا تحبل، كي لا يتشرد أولادها من رصيف إلى جحر، ومن مخيم إلى خيمة، ويروا أباهم يضرب أمهم، ليكبر الصبيان ويحملوا الكلاشينكوفات ويُقتلوا

على الحدود، إن لم يقضوا حياتهم في السجون، وتكبر البنات ليتزوجن مناضلين ينعتنهن بالشراميط.

أما الانحرافات التي ارتكبها قادة آمن بهم، والسرقات المتتالية لمسؤولي المنظمات لأموال الثورة؛ فعذاب آخر، كانت لا تعلم بها، إلا بعد معاناة مريرة في داخله، يخشى أن ينكشف أمامها، وتنكشف قضية مقدسة باتت مجالاً مفتوحاً للنهب السريع والثراء العريض، لا يبوح بها إلا مرغماً، عندما لا يعود بمقدوره احتمال كتمانها. يتلو عليها متأثراً قصة خيانة رفيق طفولة ومخيم أو سلاح أو منظمة، واختلاسه أموال المساعدات العربية. ينفس عن آلامه بالسكر الشديد. أما شكوكه وهواجسه فبالمسدس، يخرطشه ويصوبه إلى رأسه تارة وإلى رأسها تارة أخرى. جلسات تمتد حتى ساعة مبكرة من الصباح، مصحوبة بالتشنجات والنشيج، وأحياناً بالدماء. أخيراً، كالمعتاد، يرميها إلى الشارع.

أمسى الفتى الذي أحبته، مناضلاً عاطلاً من النضال، موسوساً وشقياً؛ محاطاً بالخونة وعملاء الأميركان والموساد والأنظمة الرجعية والتقدمية العربية، الارتياب يأخذه إلى الهستيريا، والهستيريا ترسله إلى الجنون. استحوذ عليه هوس المحاسبة والاقتصاص، وغالباً، ما تكون هي ضالته، يخضعها إلى عملية استنطاق طويلة وشاقة، تحتاج لتجيب عن أسئلته، إلى ذاكرة تاريخية تحتفظ بكل ما مر على فلسطين من مؤامرات وخيانات وكوارث ونكبات، وذاكرة تجسسية لتساعدها على إيجاد ما يربطها بالمخابرات السورية وميليشيا الكتائب والأميركان وربما العراقيين والليبيين، وضلوعها بمجزرة أو مذبحة وحصار، والدور الاستخباراتي الذي لعبته عندما طاردتهما نيران الجيش السوري ودباباته حتى طرابلس. كان الإرهاق وشفقتها عليه،

وتمني النوم إلى حد الرغبة في الموت، يدفعها إلى الاعتراف بأنها كانت جاسوسة تنقل أخبار المقاومة للمخابرات السورية والأميركية والإسرائيلية.

عقب انتهاء التحقيق يصدر عليها حكماً بالإعدام رمياً بالرصاص، يعصب عينيها، وإذ يهب لإعطاء الأمر بالتنفيذ، يتمايل جيئة وذهاباً، فيما تكون قد سقطت عن الكرسي منهكة. يتهالك فوق الأرض، يزحف إليها ويعانقها، يُبرِّئها وتغفر له. كانت ساعات وحدته الرهيبة تسبق ساعات الاستجواب، كان بحاجة إلى من يشاركه قلقه، ويصب عليه نقمته، يتهمها لتشاركه عذاباته، يتهمها ليختبرها، هل ما زالت صامدة؟! يخشى أن يغدر به الموت أو يمضي إلى الخيانة مثل الآخرين. لم يعد له سواها، كانت الإنسان الوحيد في حياته، الذي يمنعه من الارتداد عن مواقفه، لولاها لتخاذل، صمودها وصبرها كانا صموده وصبره، لم تمض وتتركه، فلم يمض ويترك ما جعلها تؤمن به، هي التي شهدت قسمه في عز غرامهما على التضحية بحياته من أجل الوطن، وطن يعرفه بلدة بلدة، قرية قرية، حارة حارة، وبات يعرف البيت الذي كان سيولد فيه، غرفة غرفة. والحارة التي كان سيلعب فيها، أزقتها ومنازلها ودكاكينها. سمع عنها، ورآها رؤية العين في عيون أبيه وأمه وإخوته وأقربائه، وأحب تلك الأرض التي لم يطأها، أكثر من أي بقعة في العالم. وعندما لم يبق من النضال سوى ذكريات، والثورة سوى حجارة وبقايا انتفاضة أطفال، كان إيمانه يترسخ، الكفاح المسلح هو الطريق الوحيد لتحرير فلسطين.

فكرت بقتل نفسها، ولم تفكر بالتخلي عنه ولا بالهرب منه، كانا معاً في الضرّاء المتوالي، والنفي المتلاحق، متعاهدين على عذاب

تقاسماه مناصفة. وطالما تمنت، بل وسوف يتراءى لها أن مصيراً واحداً لا غيره، سيجمعهما معاً، ويلفظان أنفاسهما أثناء أحد تلك التحقيقات الدورية، يُصيبها بطلقة بين عينيها، يعانقها ويسدد الثانية إلى رأسه، وهكذا يحتضنها ويهربان إلى حيث لا يوجد فلسطينيون مشردون وإسرائيليون قتلة وأميركيون أنذال، وعرب بلا كرامة، ولا كل ما يمت للثورة والتراب الفلسطيني بصلة. مجرد فضاء، وأرواح هائمة على وجهها، بلا أوطان تعيسة.

في الموعد الذي يبدأ فيه باستنطاقها، تحقق مشهد طالما تخيلته، جاءوا به على محفة ملفوفاً بعلم الثورة الفلسطينية، ضحية مشادة تافهة في سهرة دعا إليها صديق لم يره منذ اجتياح بيروت، حطت طائرته ليومين في تونس، سيغادر بعدها إلى باريس. تبادلا الأنخاب ودار بينهما جدال عقائدي حام، ثم اختلفا حول بعض الوقائع، واختلفا أكثر في من يتحمل مسؤوليتها، لم يخل جدلهما من اتهامات، طاح السكر بالصديق، فاتهمه بالجبن وما كان منه إلا أن اتهم صديقه بالخيانة، أيدها بإشاعة لم توفره من شبهة إعطائه معلومات عن مسؤول كان رئيساً له، اغتاله عملاء الموساد. فسحب الصديق غاضباً مسدسه وأفرغ طلقاته على الجدار وزجاجات البيرة وصورة لقائد الثورة الفلسطينية، أخطأت إحداها طريقها إلى شعار «ثورة حتى النصر» ثم ارتدت، أصابت صدغ عباس وقتلته على الفور.

□ □ □

جرى ترحيلها، بعد أيام من الدفن، قبل أن يحل أربعينه. فلم تحضر تأبينه الأول والأخير، أعطوها تعويضاً عن خدماتها لزوجها وللثورة، مبلغاً من المال ثمن بطاقة ذهاب بلا إياب ومصروف إقامة شهر،

ريثما تجد عملاً مع وعد براتب تقاعدي، لم يصل إطلاقاً. كان الشهيد قبل أن يموت قد عجل بإبعادها، فمنذ سنوات دأب على أن ينشر بين رفاقه عدم ثقته بها. عادت إلى دمشق آسفة على رصاصة لم تكن من نصيبها، وقبر لن يزوره أحد. عندما قاربت الطائرة أن تحط في المطار، أطلت على مدينتها، فرأت بساتين الغوطة وسفوح قاسيون وساحة الأمويين، منظراً وديعاً لا يشبهه منظر في الدنيا، ما أجملك يا دمشق!!

لا أحد في انتظارها، لا أب، لا أم، لا أخ، لا أخت. الجميع قطعوا علاقتهم بها. أقامت في فندق شعبي رخيص، اتصلت بالبيت. قال لها أخوها، أبواك ماتا في غيابك، وأغلق السماعة. في اليوم التالي اتصل بها وقال لها، ارجعي، غرفتك محفوظة لك، ليست منة، بل وصيتهما. كان أخوها قد تزوج ورزق بولدين، يعمل على شاحنة صغيرة موزعاً للأدوية. قال لها، لا تفكري بالعمل، أحوالنا لا بأس بها، وسوف تتحسن أكثر. على العكس، أحوالهم لم تكن على ما يرام، تركتهم فقراء، وما زالوا فقراء.

قبل أن تدخل غرفة مراهقتها، تركت خلف الباب ثماني عشرة سنة من الحب والزواج والشقاء، كأنها لم تكن. دواوين الشعر في أدراجها، وبكلاتها تحت وسادتها، وثيابها البناتية في خزانتها. ورأت نفسها فتاة تقرأ إلى جوار المدفأة كتبها المدرسية، وفي فراشها الروايات العاطفية، وعند النافذة تكتب رسائلها الغرامية، لمحت الولد الأسمر على رأس تظاهرة يلوح بقبضته، فأحبته ثانية. وقبل أن تعيد سيرتها معه، فتحت حقائب السفر، فتناثرت وقائع صباها وشبابها، وذكريات رهيبة، ذهبت بها إلى الهزيمة ووعود التحرير والنصر والعودة، والتآلف مع الموت والجنون.

عاشت رعباً قد يندلع فجأة، ووساوس قد تتجدد بلحظات. ألم تفارقها بعد؟! بلى، قلبت الصفحة، ذاك ماض انتهى. ودلفت إلى الحاضر، إلى عالم يمشي الهوينى، عائم ومريح، مثل يوم طويل بلا نهاية، بلا أخبار، بلا هدف، خاو، مقلق، بلا تضحيات يومية، بلا حواجز وشهداء على مدار الساعة. عالم يسعى إلى حتفه بصمت، إلى قبره دونما ضوضاء. أيام تمضي لا شيء يميزها عن سنوات تتباطأ، وتتسع للكثير من اللامبالاة، والهدوء الطاعن في الوسن، وآفاق من السأم المقيت واللذيذ. كان كل ما تريد أن تفعله اليوم، قد تفعله في الغد، أو بعد غد، أو لا تفعله أبداً. لا أحد ينتظر، كل شيء قابل للتأجيل والتسويف والإلغاء ومبارك بالنسيان العاجل.

كأنما حياتها الماضية التي باتت قصية، كابوس ما، قرأت عنه، أو رأته في أحلامها، أو في سينما، يدور عن امرأة في زمان ما؛ امرأة أخرى، ليست هي، ولم تكنها، حياة من فرط خيالاتها اليائسة وظلالها البائسة، لم تحدث؛ وربما الأخرى، تلك الأخرى، لم تعشها، بل قرأت عنها، أو رأتها في أحلامها، أو في سينما، عن امرأة في زمان ما، حياة امرأة هي الأخرى، ليست هي، ولم تكنها؛ وربما تلك الأخرى أيضاً، لم تعشها، بل سمعت عنها... حياة لم تحدث قط، لا، لم تحدث!!

وكأنها أيضاً حياة حقيقية، حياة عاشتها بإفراط من كثرة ما ذرفت من دموع وذاقت من سباب وشتائم وضرب، وعانت من دورات استنطاق وأسئلة زائفة؛ واستجوابات طائشة، لم تكن سوى أدوات تأنيب وتعذيب وإذلال في دوامة مريعة لا تمل من الدوران، ولا تنتهي حتى تبدأ، تأخذها إلى حياة كانت ذهاباً بلا إياب، ومهما اقتربت منها، فسرعان ما تمضي وبسرعة قصوى، لتنطوي في خضم

زبد يرحل هو الآخر إلى الأبد.

هدنة النسيان لن تصمد، ومحاولات الإنكار لن تدوم، أخبار المفاوضات والمساومات والتنازلات والاجتياحات وعودة الاحتلال إلى مناطق السلطة والمقاومة الضارية، قصف الطائرات وتقدم الجرافات الإسرائيلية، منازل تُفجر وتهدم، وعائلات تطرد من بيوتها، أطفال يبكون آباءهم، ونساء يلطمن وجوههن ويندبن أزواجهن، وصواريخ تغتال شبان المقاومة، وجنود إسرائيليون يقتلون دون تمييز الأطفال والشيوخ، وعمليات استشهادية يقوم بها فتيان وفتيات بعمر الورود.

لا، ليست قضية بائدة، أو بولغ بها، أو تخطاها الزمن. لا تحاولي، شواهدها ما زالت، وأنتِ ما زلت. لن تستطيعي نكرانها ولا الانفصال أو الابتعاد عنها. ألم تؤمني بها؟ اكفري بها لترتاحي منها، اكفري بها قبل أن تبحثي عن قضية بديلة.

لم تكن تتخلى عن ماضيها فحسب، بل عن كل ما أحبته وكرهته، عن الأمل والألم والفشل والسعادة المستحيلة، وما كرست له روحها وإخلاصها، عن مفردات لغة سطرت بها أحلامها، عن مستقبل لن يأتي، وكل ما كانت على استعداد لبذله بلا حساب.

تلك كانت تساؤلات المراهقة والثورة، تعود بكامل عنفوانها، بعد تجارب العدالة المرهقة والتشرد والمنافي والحقوق المشروعة الضائعة، وزمن أتعبها وهدَّها، لم يترك لها متنفساً للحياة. لماذا الآن؟! هل تغير المشهد؟ هذا الموت الجهادي، ليس بطاقة دخول إلى الجنة، بل احتجاج على الظلم، وتصد لعدو ظالم، قوي وجبار، واحتقار لعالم عقلاني ومراءٍ، انحطت واقعيته إلى استسلام ورضوخ. ليس الخلاص

بالموت، ولا انتحار اليائس، إنه فعل إيمان بالله والوطن، فعل إيمان بعدالة دنيوية على هذه الأرض، فعل تضحية، لا هذيان ديني. موت عظيم، بسيط وقاس ومؤلم، يفقد فيه المرء حياته وأهله وأحباءه، من أجل الآخرين كي لا يخنعوا، كي لا يستسلموا، موت مقاوم ومقاتل، يُفتدى بالروح والجسد، ويبشر بحياة ينبغي أن تعاش في الوطن بكرامة.

قالت لحامد:

«مصيري، شئتُ أم أبيت، ارتبط بفلسطين، بلدنا المسروق، قد لا يستعاد، لكن يجب أن أؤمن كما آمنت دائماً، بأنه يجب أن يستعاد».

□ □ □

في يوم قادم، سيقوده موعد عجيب إلى لقاء معها (وهو موضوع فصول قادمة) ويتعرف مرة أخرى إلى ليلى شكران، وسوف تفاجئه بما طرأ عليها من تحولات وآلام، وكأنها ليست هي. لكنها تبقى الفتاة الأولى التي أحبها في زمن مضى.

19

الإيمان والجريمة:
أهذا ما يدعونه بالتدين الشعبي؟!

كان الوقت مساء، عندما غادر زوجته، وعاد أدراجه الهوينى إلى البيت. عند مدخل الحارة، لمحه يتمشى على الرصيف أمام بنايته، عرفه فوراً من اللفحة حول رأسه، صديقه القبيح الوجه محمود!! كان قد مضى على لقائهما الوحيد في الميكروباص أشهر قليلة. اندفع نحوه واحتضنه، فانزاحت اللفحة عن وجهه. لم ينفر من بشاعة ملامحه ولا رائحة عرقه وملابسه القذرة. أين أنت يا رجل؟ وعاتبه على تأخره في المجيء إليه. تلعثم محمود واعتذر بمشاغله. كان قنديل عمود النور يحيطهما بدائرة واسعة من الضوء ويسبغ على قبح صديقه المرعب بشاعة مبهرة أزاحت عن تقاطيعه ظلالاً وأخاديد سوداء، فبانت ملامحه في منتهى الوضاءة ومنتهى الطيبة؛ إجمالاً، ما زالت هيئته تبعث على الخوف.

«معروفك معي لا ينسى». قال حامد.

ابتسم محمود بخيلاء، واتسعت ابتسامته، فظهرت فجوة معتمة في مقدمة فمه بين صفي أسنانه الصفراء. كانت السن الأمامية غير موجودة، فأضفى فقدانها على رأسه الضخم نقطة ضعف مرحة، كسرت حدة تقاطيع وجهه الشريرة، وأعطت لابتسامته طابعاً كوميدياً ممتعاً، فأصبح باعثاً على الضحك.

«لم أفعل إلا الواجب».

قالها وألقى بنظرة متوجسة إلى مدخل الحارة، لا بد أن الشرطة تبحث عنه، أو أنه بحاجة إلى المال. أمسكه حامد من ساعده وشده معه إلى البناية. حلت ساعة تصفية الحساب، كان مديناً له بعمله في دار النشر. هل من المعقول أنهما متعادلان؟ وظيفة المترجم لا تساوي مائتين وخمسين ليرة، بل تفوق هذا المبلغ مائة مرة. محمود سيطالبه بدفع ما ترتب عليه، معه حق، الرجل يريد أن يعيش، لديه زوجة وأولاد وبيت ومصاريف. لماذا لا أدفع؟ ألم أنتفع؟ الحياة تقول: انتفعْ ونَفِّعْ.

صعدا الدرج؛ خلصنا من التحيات والسلامات، بعد قليل ستبدأ المساومة، محمود سيقول لي: وظيفتك تدر كذا في الشهر، كذا في السنة، كذا في خمس سنوات، فإذا حسبنا ١٠٪ من المبلغ يكون كذا، ادفع يا صاحبي. لن يساومه كثيراً، سيسأله محاسبته كل شهرين. محمود لن يقبل، وهو سيتحجج بعدم قدرته على الدفع مقدماً.

دخلا البيت؛ لو استطاع أن يرطب الجو بينهما، فسوف يخفف من وطأة المساومة المقبلة. عَزَمَه على العشاء، طعمي الفم تستحي العين.

محمود اعتذر، قال تعشيت. أصر حامد وجره إلى غرفة القعود، أجلسه أمام التلفزيون، وذهب إلى المطبخ وحضر الطعام، شاي وجبنة ولبنة ومكدوس وبيضة مسلوقة. قال له، تفضل. فهجم محمود على المائدة، من شدة جوعه لم يمضغ الطعام، أخذ يبلعه بلعاً. فتباطأ حامد في التناول والمضغ، مفسحاً له المجال ليأخذ نصيب الأسد، ويبتلع أكبر كمية ممكنة، فالتهم محمود الجبنة واللبنة والمكدوستين والبيضة المسلوقة مع رغيفي خبز وشرب إبريقاً من الشاي. امتلأ كرشه وارتخى.

ابتهج حامد، فلتكن ليلة عامرة.

«ما رأيك بكأس نبيذ أحمر».

«لا قدر الله».

«ألا تشرب؟!».

«تبت والحمد لله، عقبال عندك».

ثم نهض، أين المغسلة؟ توضأ ووقف يصلي صلاة العشاء.

صاحبه الشرير يصلي خاشعاً!! يرفع يديه إلى رأسه، الله أكبر، يعقدهما إلى بطنه، يركع؛ سبحان ربي العظيم، يستقيم بجذعه، سمع الله لمن حمده، ربنا لك الحمد والشكر. يسجد؛ سبحان ربي الأعلى. يقعد باسطاً كفيه على ركبتيه، يدعو الله أم يستغفره؟! هذا ما يدعونه بالتدين الشعبي، ويليق بمجرم شعبي، يجبر الناس على استئجاره، لتهديد خصومهم بالقتل والاغتصاب. ثم يصلي طاهر الذيل وبنية صادقة!! إجرام وتدين معاً، كيف تتسع حياته لهما؟!

تديّن على البرَكة، أم على التوكل؟! أجاب محمود وكأنه سمع ما دار في دخيلته.

«يا صاحبي، طوال النهار نرتكب المعاصي، الصلاة تهدينا وتخفف من ذنوبنا، لماذا لا تصلي؟! الله يهديك».

«كيف ستخفف الصلاة من ذنوبك، وأنت لا تطيع الله؟».

«بل أطيعه».

«ولماذا تلاحقك الشرطة؟».

«ما علاقة الشرطة بالله؟! ربي يقدر ظروفي ويسامحني. الدولة لا تقدرها ولا تسامحني. الدولة تطاردني، والله ينقذني».

«لكنه لم ينقذك؟».

«لا تكفر. أين أنا الآن؟ أنا مختبئ عندك. من جاء بي إليك، وقبلها من أرسلك إلي؟ الدولة؟! هل الدولة هي التي أرسلتك لتنقذني؟ الله يا أستاذ».

فهتف حامد بانبساط:

«وأنت أيضاً مبعوث العناية الإلهية، أنقذتني من البطالة».

وكاد أن يكمل بمزحة؛ الله يعرفنا، كلانا طالحان غير صالحين لنكون من جنس الملائكة. لكنه أمسك عن الكلام، لو أثار موضوع الله والملائكة فلن ينتهيا حتى الصباح، من يقنع محمود بأن الله لم يعد يرسل أحداً، وأن ذنوبهما إلى تراكم بانتظار يوم الحساب.

على كل حال، قبل حساب الآخرة، يتعين عليهما إنهاء حساب الدنيا، خاصة أن محمود اتخذ وضعية المتهيئ للمطالبة بأتعابه، فاتخذ حامد بالمقابل هيئة المستمع رحب الصدر؛ الواضح أن محموداً يريد منه تسديد دينه مع التكاليف الإضافية. محمود لم يتكلم إلا بعدما تنحنح وتلكأ واحمر وجهه، ثم عوج رأسه وأطرق بعينيه أرضاً، والتمس بحياء أن ينام الليلة عنده... ليلة واحدة فقط.

«على الرحب والسعة، البيت كله على حسابك» صرخ حامد فرحاً.

وجوده لن يزعجه، بل سيعوق عمل حلفاوي، فلتكن عطلة. لكن لماذا حتى الآن لم يطالبه محمود بالوفاء بما عليه من دين، كأن ما بذمته محسوم. إذا كان محسوماً، فعلى أي وجه؟!

مضى الوقت. ربما كان محمود ينتظر مبادرة مني! فكر حامد، إذا لم يطالبني بحقه، فلن أطنش، أنا لن آكله عليه، صمتي يجعله يظن أنني أستغله. فتنحنح قائلاً:

«لم أنس دينك عليَّ، اعذرني، لن أستطيع تسديده حالاً ودفعة واحدة، سأقسطه على دفعات، كل شهرين دفعة».

قفز محمود من مكانه طائش الصواب، ونفر الشر من ملامحه، وصرخ:

«ما الذي تقوله يا رجل؟».

فانخلع قلب حامد. فيما تابع محمود ثائراً:

«أنت صاحبي، لم تبخل عليَّ بشيء، قاسمتني مالك، وشاركتني

خبزك وملحك، وآويتني في بيتك. ما الذي تريد أن تسدده؟! أوَ تظنني ناكراً للجميل. كيف تتجرأ؟».

صعقه غضبه المفاجئ، فهم أنه عاتب عليه، فقال بخوف:

«لقد منحتني عملاً، جنيتُ منه مالاً».

انقطع قلب حامد، وهو يراه مندفعاً نحوه، مهمهماً في وجهه، وملوحاً بقبضته:

«استحِ، هذا كلام لا يقال ولا يسمع. إياك والتلفظ به ثانية».

وتعالى صوته ملعلعاً، بشاعة وجهه تضاعفت، الشرر يتطاير من عينيه، والزبد يتناثر من شدقيه، يذرع الغرفة طولاً وعرضاً، يخبط بقدميه على الأرض، يهدد ويتوعد، كأن هناك من يصارعه، يداه تغالبان الهواء وأصابعه تقلصت على عنق شخص يبلعط بين قبضتيه.

تراجع حامد إلى الوراء، دبَّ الرعب في قلبه، خشي أن تطوله يده فيعصر له رقبته أو يناله بضربة على رأسه. لم يقترب منه، إلا بعدما جلس وهدأت أعصابه، وقد ارتسم على وجهه برود يشوبه تساؤل بريء، كأنه يريد الاستفسار عن شيء، ويجهد في تذكره دون جدوى. فاسترد حامد توازنه وتأكد أن هذا المسكين الجالس أمامه، ليس ذاك الشرير الذي تلهى قبل قليل بتحطيم وجه أحدهم وقصم ظهره، وقال له:

«لم أقصد جرح مشاعرك، أردت مساعدتك، مساعدة أخوية».

«إذا أردت مساعدتي، فساعدني على تأمين عمل، يغض أصحابه النظر عن هيئتي، ولا يطلبون جمال الخلقة ولا رشاقة القوام. سألت

الكثيرين، ولم يرض أحد بتشغيلي لديه، لا في سوبر ماركت، ولا بائعاً أجيراً في دكان، أو حاجباً في مكتب، كي لا يخسروا زبائنهم. قلت لهم الله خلقني وخلقكم، قالوا مشكلتك معه. أين أذهب برأسي هذا؟ إنه ملتصق بجسمي، يذهب معي، أينما ذهبت».

صفن حامد، ثم اقترح:

«اسع إلى عمل تكون أنت صاحبه».

«أحتاج إلى رأسمال، لم يقبل أحد مشاركتي على عربة أبيع عليها خردوات في السوق تحت جسر الثورة. قالوا سترعب الزبائن ويهربون منك».

«اشتغل ناطوراً ليلياً، لن يراك أحد في الظلمة».

«أقبل بأي عمل عدا الليلي، لن أعذب زوجتي برؤيتي نهاراً».

«زوجتك، هل تخاف منك؟!».

«هي تقول لا، لكني أراعي مشاعرها. عندما تزوجتني كان شكلي لا بأس به مقبولاً، ثم تعرضت إلى حادث سيارة، فتشوهت، وكلما كبرتُ ازدادت بشاعتي. ما ذنبها؟ إنها إنسان ولها عينان، لن تحتمل ما لا يطيقه غيرها! بالمناسبة، وهذا كلام بيننا، لا تستطيع امرأتي أن تنام معي في وضح النهار، ولا تتقبل مناغشتي لها. مع خلقة كهذه، لا تنفتح نفسها. أما في الليل، فضايعة الطاسة، الدنيا عتمة».

ما يقوله صحيح، العين بتاكل. من أين سيهبط عليها الانبساط نهاراً مع هيئة تقطع الشهوة والشهية؟ آه، لو كنت أستطيع مساعدته.

التفت نحوه فرآه يمعن النظر إليه، هل كان يقرأ أفكاره؟ لا، لأنه سأله:

«أما زلت ترغب في قتل الصحافي الحقير؟».

«لا».

«أنا على استعداد لتأديبه».

«قصتي انتهت معه، مضى كل منا لسبيله».

«ألا ترغب بتأديب أحد غيره؟».

«بالطبع أرغب».

«دُلّني عليه، بشرط أن يستحق الضرب، حتى أكون مرتاح البال، سأثق بك، وأعتمد عليك. أنا مسلم، لا أريد ارتكاب معصية ثقيلة».

«يا صاحبي لن تفلت من كونها معصية، سواء كانت ثقيلة أو خفيفة، الإسلام ليس عبادات فقط، صلاة وصيام وحج، بل التعامل مع الناس بالحسنى، لا تقل لي بأنك لا تعرف».

«أعرف، لكنني غير متعمق في الدين».

«الابتعاد عن أذية الناس لا يحتاج إلى تعمق في الدين».

«اتركني كما أنا، أنا متدين على قدي، ولا أرغب بالمزيد، الله سيسامحني. ما المشكلة إذا كان الضرب عملاً، ألم تفكر أنت بالقتل؟!».

«هي رغبة فقط، لا أريد تحقيقها».

«إذا كنت متردداً من أجل المال، فسأعطيك سعراً مخفوضاً وأمهلك في الدفع».

«الضرب، لا، وإلا كان عليَّ أن أضرب الكثيرين، أكثر مما تتصور».

مضى الحديث بينهما على هذه الصورة، أغلق حامد في وجهه سبل الضرب والقتل، فعجلت الخيبة بذهاب محمود إلى النوم. ورغم أن حامد عرض عليه فراشه، لم يرض محمود أن ينام إلا على الصوفا.

في الصباح، وهما يفطران، عرض عليه حامد كل ما معه من مال، وزعم بأنه يفيض عن حاجته. وسيدبر أموره حتى نهاية الشهر.

رفض محمود، لن آخذ منك قرشاً واحداً، لدي ما يكفيني لأسبوع ريثما يبعث لي الله بعمل. أصر حامد، خذه احتياطاً.

فأصر محمود، كيف، أنا مديون لك بإيوائي وحمايتي من الشرطة؟!

قال حامد، هل أنت في خطر؟

قال محمود، لا، سوء تفاهم.

قال حامد، لكنك مطارد.

قال محمود، لا تشغل بالك، اليوم سأتصل بمن كلفوني بالمهمة وأخبرهم، وهم يدبرونني.

قال حامد، إذا لوحقت ثانية فلا تتحرج، تعال لعندي.

قال محمود، وأنت إذا احتجت إليّ، تعال إلى بيتي في الحجر الأسود.

ودلّه عليه.

20

مقالة عويصة:
ما ذنب القراء المساكين؟!

بعد انقطاع ليلة كاملة، طالعه حلفاوي وحلفاني في غرفة الكتابة، مثلما تركهما في اليوم السابق، بين الكتب والأوراق والأقلام، الواقف واقف والقاعد قاعد، كانا في انتظاره، وربما لم يكونا. في مثل هذا الوقت، يكون الراصد حلفاني على رأس عمله، على أهبة تحرير المواد المطلوبة لإرسالها إلى المجلة في الوقت المحدد، قبل حلول الظهر. وجده منهمكاً في القراءة والتصحيح. بعد الغداء والقيلولة، حلَّ المساء، وجاء دور المترجم حلفاوي، وكان على أبواب الفصل السادس من رواية «العذراء السجينة»، لم يخطّ كلمة بعد. أعطاه إشارة الانطلاق، فأبحر حلفاوي في خضم الترجمة الواسع والمتلاطم.

في آخر الليل، مع الشاي والموسيقى الكلاسيكية، ناسمه شعور

عميق بالاطمئنان، ما خشي منه في السابق، لا محل للشكوى منه اليوم، العمل يمضي على منوال سليم، لا داعي للمخاوف، حياته لا يتنازعها اثنان يعملان على مقربة منه، وإن تخيل في بعض الأحيان أنه بات واحداً منهما، لا يتميز عنهما بشيء!! وبما أن الأمور تسير على ما يرام، شط به الوهم إلى وجود شخص رابع متوار في مكان ما يدير ثلاثتهم بحنكة، وقبل أن يتخيل خامساً وسادساً، أبعد خواطره الطائشة، وعاد إلى صوابه والواقع.

لكن تساؤلاته سرعان ما تجددت، إن لم يكن هو المدير، فمن الذي يديرهما، وبالأحرى من الذي يديره معهما؟! هل ثمة غيره، إذا كان، فمن هو؟! لم يلمح شيئاً يطل عليه أو يتوارى منه، ولم يحس بأنه مراقب، وإنما مجرد الشعور بأن هناك من يدفعه إلى أمر لا يريده، ويفاجئه بمواقف غير مواتية، بدأت باختلاق شخصين صار وجودهما ضرورياً كتجسيد شكلي لأسماء مستعارة، حتى بات يراهما، مهزلة... الأسوأ أنها جازت عليه، بل وأصبح وجودهما يبتكر إشكالات من النوع الذي أطلق عليه «أزمة مرور»، فغدت أزمة حقيقية يعمل لها حساباً.

غير أن ما يجري يؤكد، وإن كان مخايلاً بعض الشيء، أنه أحد ثلاثة، وفي الآن نفسه ليس بأحدهم قطعاً، وإن كان يديرهما فعلاً. من جهة أخرى، يخيل إليه بأنه يُدار، رغم انعدام الدليل على وجود غيرهم، هو وهذين الاثنين، ولولا أنهما يُسيِّران أعمالاً لا يصح تسييرها باسمه الشخصي، لما كان لهما أثر. وربما لم يكن هو نفسه له أي أثر.

وبصرف النظر عن وساوسه العابرة، كان رضاه عظيماً على ما تحقق من وفاق، ومن دون تعاون بينهما، لانتفاء الحاجة إلى تعاون

سيكون بلا شك مجلبة للفوضى. حتى ولو كان وفاقاً مرحلياً. كان أمله أن يسير العمل، *تحت شعار أثبت جدواه*، عدم تدخل الأول في عمل الثاني وبالعكس، بعيداً عن تباين أمزجة ثلاثتهم وأسمائهم المتمايزة، في تنظيم كان ناجحاً.

لكن، من قال إن الرياح تجري بما تشتهي السفن؟ غالباً، تجري بما لا تشتهي.

□ □ □

إثر صدور العدد الأخير من المجلة الأسبوعية التي يعمل فيها مشرفاً على صفحات «الراصد»، اتصل به رئيس التحرير وسأله عن سبب تأخره في إدراج مقالة الكاتب محسن علي حسن، المرسلة إليه منذ أسبوعين. فرد عليه، لم أتأخر بل أماطل. فسأله متعجباً، إلى متى! فقال، إلى أن يدرك صاحبها أنني لن أنشرها. تعجب رئيس التحرير ثانية، ألا تعرف من هو محسن علي حسن؟! حامد لا يجهل أن المذكور كاتب مشهور، ومن فطاحل كتاب المقالة الفكرية والنقد الأدبي والدرامي، بل ويعرفه عن قرب، معرفة كانت شخصية وحميمة، وبينهما قعدات ومشاوير، وأوجاع وأتراح. ومع هذا لن ينشر مقالته، لأنها عسيرة على الفهم، أعاد قراءتها مرتين وثلاثة، وأمعن التفكير فيها، ولم يتغير رأيه. هذا العسر ليس لأن المقالة العويصة عميقة، بل لأنها أنموذج على اللت والعجن، فاقتنع بعدم نشر مادة لن يفهمها القراء؛ ما ذنبهم المساكين؟! فرد رئيس التحرير، عسى أن تمر الأمور على خير.

اعتقد أن الأمر انتهى على خير عند هذا الحد، لكنه كان قد ابتدأ. بعد أسبوع، وعلى مدى أيام تتالى تلميح إثر تلميح في الجرائد

اليومية تنتقد المشرف على صفحات الراصد، بعضها بأقلام متتبعين للشأن الثقافي من شلة الكاتب محسن نفسه، والبعض الآخر بقلم صحافيي الجرائد من المشاركين بالجنازات والحفاوات الأدبية؛ تساءلوا عن جدوى صفحات ثقافية هابطة المستوى، وطالبوا بإيقافها لضعف موضوعاتها. رافقتها مقالات جانبية، تبدو وكأنه لا صلة لها بما جاورها، نبهوا إلى أمر مفروغ منه، بأن الكاتب محسن علي حسن معروف عربياً، وترحب الصحافة في الخارج بكتاباته. مع توضيح بما قدمه من جهود كان لها تأثير كبير على إنعاش الأدب والدراما في البلدان العربية، وما لاقاه من تقدير لديهم، بالمقارنة يُعد الاهتمام المحلي الخجول به انتقاصاً من مكانته. دون الإشارة إلى أن تحركه العربي الدؤوب كان على المستوى النفطي حصراً. واتفقت المقالات على تحذير جماعي، اتخذ صيغة رؤيوية: المؤسف أننا ندفع كتابنا الكبار للهجرة بأقلامهم إلى الخارج!!

هل هناك تعاضد بينهم على النيل منه؟ طبعاً، اتجاه الهجمة كان موحداً، والهدف: المحرر الناشئ المتأدب غير المعروف أحمد حلفاني. كانت على الرغم من تخفّيها خلف دوافع حسنة، ردة فعل غاضبة محسوبة على عدم نشر مقالة الكاتب المشهور. توسعت التلميحات والتلميعات إلى تجريحات، لكنها لم تبلغ التعريض والتصغير، بإيعاز ربما من الأديب الأريب نفسه، أسهم فيها صحافيون مرتزقة، بقيادة رئيس الجوقة الصحافي اللامع شريف حسني... ما غيره؛ فقد كان لمحسن علي حسن عليه أفضال، وهي فرصة لتسديدها بمثلها. غير أن الهجمة، التي انحصرت على ماسبق من تلميح وتجريح، لم تتجاوز الحدود المرعية؛ تريثوا على أمل معرفة من يقف وراء أحمد حلفاني، أي من الذي جاء به إلى المجلة، ومن وراءه، ومن يدعمه؟ وبدا لحامد في لحظة قاتمة، أن قصته مع الترجمة في سبيلها إلى

التكرار مع حلفاني.

بحكم معرفة حامد بالكاتب محسن علي حسن، لم يجهل الإهانة التي وجهها إليه، إهانة وفرها له باطمئنان اسمه المغمور أحمد حلفاني. أما لو أبداها المسكين حامد سليم، لمُزق بالأقلام وسُوِّد وجهه بالسخام، كان ماضيه وحده كفيلاً بسحله.

لكن، من منا بلا ماض؟! لا أحد، كذلك الكاتب المشهور، أسوة بغيره، يمتلك ماضياً، بيد أنه مختلف تماماً، حافلاً بالانتصارات والإنجازات الأدبية، وأخيراً الدرامية، نقرأ فيه تاريخاً قائماً بذاته. وربما في قول مدير التحرير: ألا تعرف من هو محسن علي حسن؟! دلالة، لم يقصد صاحب السؤال أن يسأله فيما إذا كان يعرفه أم لا، كان يريد أن يذكره بأياديه البيضاء على ثقافة ما زالت مدينة حتى اليوم لتعاليمه الأدبية، أو تعاني منها، ما الفرق؟!

كاتبنا غني عن التعريف، تاريخه هو تاريخ الصعود الفكري الظافر للثقافة التقدمية، وانحسار الثقافة الرجعية؛ لعب هو ورفاقه أدواراً لافتة، وصنعوا تاريخاً أدبياً متميزاً، جديراً بالتوقف عنده، وإلقاء نظرة عليه.



21

تاريخ أدبي:
يا ويل من لا يلتزم

لم تتضخم سمعة الأستاذ محسن علي حسن ورفاقه، وتتورم بالألقاب الكبيرة، وتلعلع أصواتهم الجهيرة فوق المنابر، إلا بعد أن سادت فكرة الالتزام وتسيدت على الساحة الأدبية، سبقها وأعقبها جزر ومد وعواصف وأنواء. تمكنت بعد معارك مطولة بدلت فيها حلتها عدة مرات وعمقت تنظيراتها من التغلب على غيرها من المدارس النظرية، أهمها مدرستان تقعان على طرفي نقيض: الواقعية الاشتراكية والفن للفن. اكتسبت فكرة الالتزام المناعة النقدية الكافية، وتقولبت بدراسات أغنت مفاهيمها وطورتها إلى شعارات ومقولات، بحيث لم تعد كما كانت. إنجازها الأكبر، مجاراة العصر دون أن تضحي بالأصالة. أما كيف؟ فهذا مشوار طويل، وإن كان قصيراً على الورق.

□ □ □

إثر اكتساح الواقعية الاشتراكية للأدب في العالمين الشرقي والغربي، واطلاع مثقفينا عليها (كان هذا حوالي منتصف الأربعينيات وطوال الخمسينيات والستينيات من القرن المنصرم، ولم يقتصر على الشيوعيين)، أحسوا بالضعف والصغار إزاء بنيانها النظري المتين، لاسيما بعد خروجنا من العهد الاستعماري المقيت ناقمين على الانتداب الفرنسي وكل ما يمت إليه بصلة من عسكر وثقافة وعادات ولغة. أعجبوا بنضاليتها الأدبية الهادفة، ودعوا إليها، فعَلَتْ مكانتها في جرائدنا ومحافلنا ومنتدياتنا، رغم نفورهم الضمني منها، لم تكن من اختراعهم. لكن، سيتغلبون على أنانيتهم الإبداعية؛ الأدب جهد البشرية جمعاء.

مع الوقت، شكل تبنّي الواقعية الاشتراكية مأزقاً ذاتياً لا يمكن الدفاع عنه. هل يجوز أن تصبح مضامين آدابنا القومية عالة على موائد الشيوعيين الأممية؟ ألا يكفي أننا لم نفلح في اجتياز عصر النهضة، وما زلنا نراوح في مكاننا، كأننا لم نظفر باستقلالنا بعد، ولم ندخل العصر الصناعي ولا الفضائي ولا الإلكتروني (الصناعي كانت منتجاته في حالة استيراد، والفضائي في بداياته مجرد أخبار في الإذاعة والتلفزيون. أما الإلكتروني فيسمعون عنه أموراً أشبه بالخرافة منها بالحقيقة)، وأضعنا قروناً في الدروشة، وخسرنا أراضي دون حروب (كانت حرب ٦٧ الصاعقة، قد أعقبت حرب ٤٨ الخاسرة) ولم نبز العالم في شيء سوى الشعر!! أَوَ ندع أفضل ما نفخر ونعتز به، مما أنتجته القريحة العربية في عصورها الزاهية، عرضة لاستباحة مفاهيم الواقعية الاشتراكية المُسخرة للعمال والمطارق والفلاحين والمناجل؟! ما الذي يبقى منه، لو أطيح بالأطلال والمديح والهجاء والفخر وشجاعة الشجعان؟!

الأشد إحراجاً، بروز الواقعية الاشتراكية جزءاً لا يتجزأ من آلة الدعاية الشيوعية النشطة في المنشورات السرية والكتب الحمراء العلنية، وتكريسها نهجاً أساسياً في النقد الأدبي السوفياتي، هدفها إقامة فن منسجم مع العقيدة الماركسية اللينينية. بيد أن التساؤلات كانت مفحمة وصريحة مع النفس:

كيف نرفع راية شيوعية للأدب، ونستقوي بنظرية أممية على كتابة أدبنا المحلي، بينما نشن حرباً على الحزب الشيوعي ومبادئه. ولئن كانوا دخلاء علينا، ألسنا متطفلين عليهم، عندما نتبنى مقولاتهم؟ لا يمكن إنكار أننا إذا كنا نكتب على شاكلتهم، فنحن عملاء لهم، ما دمنا أولاً وأخيراً نستهدي بتعاليمهم وهي تعليمات مصدرها موسكو، وبالتالي أصبحنا وإن كنا لا ندري، نكتب لحسابهم!! ماذا نسمي عجزنا: إفلاس، اختلاس، سرقة، اقتباس، مؤثرات أدبية؛ لنقل تلاقح أفكار، لكن ما هي أفكارنا التي تلاقحت مع أفكارهم؟!

كان الشيوعيون بالفعل، يتهمون مفكرينا وأدباءنا بسرقة تنظيراتهم، وتعريبها جملة وتفصيلاً، من ترسانة الأفكار الماركسية، ابتداء بالمادية التاريخية، وليس انتهاء بالواقعية الاشتراكية، وانتحال ما أنجزته من أبنية فوقية، دونما سند من أبنية تحتية.

□ □ □

فكرة الالتزام، لاحت مذ وصلت أصداؤها الأوروبية إلى أسماع النخبة المثقفة، كطوق نجاة، ينقذ الأدب من الأخطبوط الشيوعي. ما أهّلها على الفور لاحتلال موقع لها، أولاً البراءة المتحلية بها؛ لم يكن إشعاعها سوفياتياً، بل فرنسي، قادمة من باريس عاصمة الحريات السياسية ورائدة الطفرات الجمالية والصرعات الأدبية. ثانياً،

صاحبها جان بول سارتر الفيلسوف والأديب الوجودي المعروف، ذو الشهرة العالمية، المثقف المبرز في أهم الموضوعات الفلسفية والأدبية والأخلاقية والسياسية والثقافية، والمناضل الثوري المرموق، رجل القضايا الكبيرة دون استثناء الصغيرة، كتنظيم تظاهرة احتجاج ضد أرباب العمل.

بالنسبة إلى أصحاب الميول اليسارية، المتطرفين منهم والمراهقين والطفوليين، بدت نظرية الالتزام قزماً إزاء الصرح الشاهق للواقعية الاشتراكية. سارتر!! أليس هو المسرحي الذي كتب عن الذباب والمومسات الفاضلات والأديب الشاذ جان جينيه؟! تداعت فكرة الالتزام إلى الحضيض بسبب المومسات والذباب وجينيه، إذ ليس ثمة مومسات وفاضلات، ولا أديب وشاذ، أو ذباب جدير بمسرحية ومأساة.

بالمقابل هب الأدباء اليساريون العروبيون، محسن علي حسن وجماعته، للدفاع عن الالتزام: سارتر فيلسوف تشغله المسائل الكونية الكبرى، برهن على أسبقية الوجود على العدم، بل ورأى العدم وجوداً!! لو لم يكن الالتزام مسألة جوهرية في صميم مهمات الأدب الاجتماعية، لما تنطح له. كان الفيلسوف الفرنسي قدوة مواتية على الجبهات الملتهبة الأمامية، على الجبهة الأولى، يضارع الروس في المادية والإلحاد ويفوقهم في الأممية والتحرر. وعلى الجبهة الثانية، يتصف بميزات لا يستهان بها: لا حزب يمثله، ولا أعضاء ينشطون سراً لترويج أفكاره، ولا قيادة تحت الأرض تتآمر وتخطط للتظاهرات والكومونات. بيت القصيد، لا مشاكل أمنية، لا منشورات، لا مطاردات. أما الواقعية الاشتراكية، فشبهات وملاحقات، والناطقون باسمها يرددونها تحت ظلال الرايات

الحمراء، يرعاهم حزب حديدي، لا عمل لديه سوى النضال ليلاً ونهاراً، للاستيلاء على السلطة.

حالما بدأت فكرة الالتزام بالانتشار في الوسط الأدبي، عكف دعاتها على صوغ أنموذج أدب جديد يقوم عليه كُتاب ذوو رسالة هادفة، لم يعودوا ناظمي شعر أو مبدعي حكايات وقصص أو مؤلفي حوارات مسرحية طريفة، بل رجال فكر أشبه بكتاب مقالات مناكفة وحجاج، بادروا من جديد لتصفية حساباتهم القديمة مع مدرسة الفن للفن وممثليها، فعابوا عليهم شكلانيتهم البرجوازية؛ كتابات تبدو جميلة، لكنها مجانية، لا تخدم شيئاً البتة، مجرد تهويمات لغوية شاعرية، وعواطف مريضة كاذبة، وبلاغة غير ذات معنى، تشكل إرثاً من اللامسؤولية تجاه مجتمع رد على أناشيدهم وتأوهاتهم بتهميشهم مع مؤلفاتهم. وبما أن الوسط الأدبي كان يعاني فقراً في الأتباع المخلصين لمدرسة الفن للفن، استعانوا بسارتر ثانية، لتكبير الحملة وتثقيلها، وطحشوا رموزها من الفرنسيين على الرغم من أسمائهم اللامعة، فلوبير وفاليري واللوطي بروست. أما الالتزام، لمن لا يعرفه، فدافع داخلي، وإلزام طوعي، يُلزم الكاتب بأن يسهم بالنصيب الأكبر في تهيئة المستقبل، مستقبل البشرية. إذ لا يخفاكم أن للأدب وظيفة غايتها إحداث بعض التبدلات في المجتمع الإنساني.

راجت فكرة الالتزام وأصبح لها متحدثون باسمها، وأتباع منافحون عنها، يطيلون شعورهم وسوالفهم ويدخنون الغليون، ويبصقون على وجوههم في المرآة، يصاحبون النساء القبيحات، وينامون معهن دون عقد نكاح، ويتسابقون إلى الاستماع لأغنيات جولييت غريكو، ويحلمون بالحج إلى الحي اللاتيني والتسكع في شارع بيجال.

يكتبون أدباً محقوناً بالغثيان والسأم ويهذون باللزوجة والعفونة، والتفاخر بمعاناة الضياع والقلق، والإيغال في التهتك واللامبالاة، أطالوا ألسنتهم، وشتموا البرجوازيين الأنذال. مأساتهم أنهم محكومون بالحرية، فسخروا من الأديان والروحانيات والآباء والأمهات، واستعدوا عليهم أفاضل المشايخ واليمين المتخفي واليسار الخجول ومعه اليسار الوقح.

شن المشايخ حملة على الفجرة أذناب المادية الكافرة، لم تتصاعد أو تستمر، كانت الدولة بالمرصاد للجميع، خشيت أن ينفخوا في حبة الالتزام ويجعلوا منها قبة. كذلك تعاون معها اليمين واليسار على فضح براءتها، فقاموا بردها إلى أصولها العدمية السفيهة، وشهروا بمنابعها، هل نحتفي بها على أرضنا، بينما على أرضها تعرج وتعاني أسوأ أيامها مع البنيوية الصاعدة؟ وكان قد صدر حكم بالإدانة على النظرية الأم في أوساط اليسار في مدينة المنشأ باريس: الوجودية فلسفة غير إنسانية.

سارع محسن علي حسن ورفاقه وأسقطوا الالتزام من برنامجهم، وهي أصلاً فكرة لم تحز على رضاهم الكامل منذ البداية، استعاروها لتمشية الحال، لئلا يخوضوا معاركهم الأدبية دون أسلحة نظرية. وأضافوا إلى عدم رضاهم عليها، بعد انفضاضهم عنها، أسباباً أخرى لرفضها، أهمها أنها تنبذ الشعر وتحطّ من مكانته بدعوى أن الشاعر يتعامل مع الكلمات، مثل عازف على بيانو، يُصدر أنغاماً جميلة بلا معنى، بينما الكلمات، بالإضافة إلى أنها كاشفة للمعنى، أداة فعل وتثوير واتخاذ موقف... وتصلح نداءً يوجهه الكاتب إلى ضمير الناس!! والأنكى لا يمكن استخدام الشعر كالنثر وسيلة للدعاية أو في تحمية الجدال. شكلت دعوى سارتر هذه إحراجاً لهم من قبل،

فلم يجاهروا بها، لأن الشعر القومي دحضها وأثبت فاعليته كواحد من أقوى دعايات الحزب المناضل في المناسبات الجماهيرية والأغاني الحماسية والزجليات الارتجالية.

كما أنهم اكتشفوا أن نظرية الالتزام فقيرة بالمفاهيم، ضحلة، وطموحها متواضع، ما النصيب الذي سيسهم به الكاتب في تهيئة المستقبل؟ المزيد من القلق والغثيان. وما النتيجة؟ إحداث بعض التبدلات؛ تبدلات فقط؟! أي أن التغيير لن يكون شاملاً وجذرياً، وإنما بعض التبدلات الغامضة. كان طموحهم يتجاوزها بمراحل، أما إلى أين؟ فلا أحد يعلم. عموماً، ليست شيئاً يعتد به بالقياس إلى إشعال العالم وقلبه رأساً على عقب، وإرسال البرجوازيين إلى جحيم معتقلات الأشغال الشاقة الأبدية، والمنافي القسرية.

□ □ □

في الحقيقة، جاءت فكرة الالتزام متأخرة، بعد أن تشربوا الواقعية الاشتراكية، التي لا يهمها الماضي ولا الحاضر بل المستقبل، مستقبل بلا استغلال ولا طبقات، المساواة أمل البشرية. بدا المستقبل بمرمى النظر، ومهمة العملية الأدبية تعقبه خطوة بخطوة، تحت جناح القوانين المادية. هذا بعد أن وضعوا أصابعهم على الداء الوبيل للأدب: إهمال التحريض الثوري؛ القوة الدافعة للصراع الطبقي التي ستعمل على تغيير العالم والإنسان.

أصبح تأجيج الصراع الطبقي وتغيير العالم وبناء الإنسان الجديد ونبذ الأنانية الفردية والعمل على سعادة البروليتاريا من المهام المقدسة للأدب. مهام تنجز من خلال مخطط مرسوم، يقوم على تنفيذه جنود بررة، حسب برنامج له بنوده وشروطه ومفسروه وشرّاحه

وأخصائيوه؛ وفّر على الكُتاب التخبط في سديم الأدب ومتاهاته: ينبغي للكاتب ألا يكتب عن همومه وعواطفه، والابتعاد عن مقاربة شخصيات روائية كالتي ابتدعها دستويفسكي وغوغول، أرواح ميتة من الماضي، وليدة أنظمة إقطاعية ورأسمالية، أورثت كُتابها عقدها النفسية واضطراباتها السلوكية؛ خلاف النظام الاشتراكي، الذي هو نظام بلا عقد وشرور، ومن غير منافسات وأحقاد، ودونما وساوس طبقية.

وجهت كراسات الإرشادات الأدبية الكُتاب صوب البطل الحقيقي، سليل الجماعة الاشتراكية: شيوعي، واع، متحمس، متفان، فعال، غيري، مغامر بالمعنى الإيجابي، والأهم إنسان بسيط غير منافق ولا مرائي، يركز على هدف أعلى وسام، ويُخضع مصالحه الخاصة، لمصلحة القضية العامة، ولمصلحة الحِزب على وجه التخصيص. صفات تتفادى حالات الانقسام وعدم الانسجام داخل المجتمع. أنموذج الإنسان الاشتراكي الجديد، هو الحزبي المناضل من أجل المستقبل، يضحي بسعادته وسعادة أقرب الناس إليه، ويكبت حبه الأبوي لأولاده وغرامه لحبيبته في سبيل المثل الأعلى: الحزب.

لكن المحذور ما زال محذوراً، لا ينبغي الوقوع في أحضان الشيوعيين، فاضطروا رغم أنوفهم إلى التمسك بما تخلّوا عنه، فاستعادوا قديمهم: نظرية الالتزام!! في الحقيقة لم تكن أفضل، لكنها لم تكن أسوأ وتؤدي الغرض نفسه دون حساسيات إيديولوجية. نظرية الالتزام لم تخيبهم، أنقذتهم ثانية، لكن دون الإتيان على ذكرها. رأى محسن علي حسن ورفاقه أنفسهم وكلاء سارتر الخفيين في المنطقة، والمفوضين المطلقين بتنقيح أفكاره وتفسيرها وتطويرها، والتلاعب بها.

ستؤكد فكرة الالتزام المشذبة صلابتها، وتثبت مرونتها بقدرتها على احتواء نظرية الواقعية الاشتراكية، فألحقوا بها من جملة ما ألحقوا، الماركسية الصحيحة والقويمة، وبرامج الشيوعية العالمية، والأدب الاشتراكي، والثورة الدائمة. وأضافوا إليها خططاً تتصدى للواقع المريض، وتعمل على تحقيق أحلام الوطن العربي بالوحدة، كملاحق تأبى الانفصال عن جسمها. فازدهر الالتزام، لكن تحت مسمى آخر، الواقعية الاشتراكية الحية، لتصبح نظرية علمية متكاملة. ومن فرط تكاملها، ضاعت الطاسة، فلم يُعرف الالتزام من الواقعية، ولا الواقعية من الالتزام، واختلط قديم الواقعية بجديدها، وحقيقتها بأوهامها، ومع هذا، يا لسوء حظ من لا يكون واقعياً!! لكن أية واقعية؟

كان هذا في الوقت الذي وصل فيه كتاب روجيه غارودي الأخير إلى المنطقة، وأرسى على حين غرة مداميك واقعية بلا ضفاف، وأعاد كافكا إلى الحظيرة التي طرده منها السوفيات. عندئذ ضاعوا، ولئلا نضيع معهم، لن نسترسل في مساجلات أدبية عميقة، قد تكون عقيمة، تداعياتها غير مفهومة ولا تعنينا. الخلاصة، ارتد الرفاق إلى التزام بلا ضفاف مموهاً بالجماهير، وأشهروه سوطاً فوق رؤوس الكتاب، ويا ويل من لا يلتزم!!

كانت مجرد وقفة، أخذوا فيها نفساً، تداولوا فيها مناهج أخذت واقعيتها الحثيثة تهددهم. كما كانت الأحزاب التقدمية وعلى رأسها الحزب القائد تطالبهم بفعل شيء، لا ينسب إلى الفرنسيين ولا الروس، شيء ما عربي خالص، وفي الوقت نفسه ينافس أحدث التيارات الأدبية المتوالدة كفطر مسموم. فولدت بعد تمحيص فكرة: الأصالة والمعاصرة (استوردوها على وجه التخمين الأقرب إلى اليقين

من القاهرة المحروسة). فتخلوا عما سبقها بموجب الأسباب التالية: لافتة الالتزام صغيرة، ضئيلة القيمة أدبياً، مشبوهة بصاحبها الفرنسي وادعاءاته الأدبية؛ أما الواقعية الاشتراكية، فمقيدة بتعليمات موسكو، وملوثة بدماء ضحايا الطاغية ستالين المجرم. عودوا إلى الجذور (مثلما عادت الأحزاب اليسارية في العالم) فعادوا إلى ماركس وإنجلز ولينين، واكتشفوا المعنى الحقيقي للأدب والفن، جانسوه مع ما استجد من واقعيات متنوعة، تلك هي: المعاصرة، أضافوا إليها: الأصالة (وهي تعبير غامض، لم يتفق عليه اليمين ولا اليسار)، وكانت مزيجاً من التراث والدين والعامية والفنون الشعبية (حفلات الزار، عروسة المولد، كركوز وعيواظ، رقصة السماح...)؛ وباجتماع الأصالة والمعاصرة حصلوا على خلطة غير موفقة، أجروا عليها تحسينات وتعديلات، وحمولات ذات قوام عصري، فكانت: الواقعية الاشتراكية العربية الجديدة.

□ □ □

تحت هذا العنوان، نصّب محسن علي حسن ورفاقه أنفسهم قيمين على الأدب، وجعلوا من النظرية الجديدة منارة يهتدون بها في تبرئة الأدباء وتخوينهم. راجت وانتشرت بدعوى السيطرة على الطبيعة الأدبية الذاتية المتمردة، نتاج الميوعة البرجوازية المتسيبة. وأعادوا توجيه دفة الأدب نحو التعبير عن طموحات الطبقات العاملة والفلاحية والحرفية الكادحة، والانتصار للمرأة نصف المجتمع البائس، المهضومة حقوقها والمغيبة عن الحياة العامة، والعمل على إخراجها من البيت إلى أسواق العمل، مع مراعاة عروبتنا من عادات وتقاليد ومكرمات. فقسموا التراث إلى تقدمي ورجعي، رفعوا لواء الأول ونكلوا بالثاني.

في تلك الفترة، حاول محسن علي حسن غض النظر عن الكادحين لاعتبارات محض واقعية، إذ ما الذي يستطيعه الأدب أن يقدمه لهم، ما دامت الدولة تقدم لهم كل ما يحتاجون إليه من عمل وكرامة وأوقات فراغ وبذور وجرارات ودبكة وهتافات؟! ومع هذا سيضطر إلى اعتبار العمال والفلاحين مسألة جوهرية لا مفر منها، رغم أنها مسألة شكلية لا طائل من ورائها.

أتاحت النظرية بحلّتها الجديدة للكتاب وصغار الكتبة مهما كانوا عديمي خبرة في الأدب، أو حتى بلا أدب، ممارسة النقد، عُدّتهم ما اقتنصوه من مقولات حاسمة، وقوالب جاهزة ومقاييس حازمة أصبحت معياراً للحكم على: تقدمية وجودة وعبقرية وإخلاص وعمق ونزاهة ومستقبلية ودوام وخلود... العمل الفني؛ تحت راية كبرى: الانتصار لقضايا البشر المهضومة حقوقهم إزاء وحشية الغول الرأسمالي.

على شاشة الأوضاع المحلية، كان إخفاق الوحش الرأسمالي، وعجزه عن النيل من منجزات العهد الثوري الاشتراكي جلياً، على الرغم من تحينه الفرص، كانت الجبهة الداخلية متينة وصامدة، والأمور مستتبة للمسحوقين والمضطهِدين، النظام نظامهم والسلطة سلطتهم. اللغز الذي حير الأدباء: لماذا لم يتخلص المسحوقون من انسحاقهم والمضطهَدون من مضطهِديهم؟! بل وبصراحة، لماذا لا يزال المسحوقون مسحوقين والمضطهَدون مضطهَدين، مع أن دولة العمال والفلاحين، دولتهم؟! وبصراحة أكبر، الوحش الرأسمالي على ضخامته وشراسته لا يزيد حسب ماو تسي تونغ، عن نمر من ورق؛ تأثيراته معدومة، وحسب الكراسات الحزبية، لا يستطيع الدفاع عن نفسه، خاصة أن الشعب المكافح على استعداد لتمزيقه شر تمزيق.

وطرحوا سؤالاً جريئاً، ما الحائل بين العمال والفلاحين ودولتهم الثورية؟! فتوجهت أصابع الاتهام ثانية، وربما عاشرة إلى مدبري المؤامرات من عملاء الإمبريالية والبيروقراطيين والجواسيس والعملاء، وبقايا العهود القديمة. ولا تنسوا أعوانهم المعششين في أرجاء البلاد، وعلى الأخص المثقفين البرجوازيين؛ فنشطوا في تنظيف أجهزة الدولة منهم. تركزت همة الأدباء المناضلين وذكاؤهم على الكشف عنهم وفضح ممارساتهم الرجعية تمهيداً لإزاحتهم عن مناصبهم، مستعملين ضدهم النظرية المتجددة ذاتها، الصالحة لكل زمان ومكان، فلم ينفع المثقفين البرجوازيين محاولاتهم الادعاء بأنهم ملتزمون بالوطن، لأن التزامهم، ومن غير نقاش، كان بمنبتهم الطبقي الرجعي فقط.

أساليب الأدباء النضالية التصادمية، كانت عنيفة ضد المعارضين، مع أن أحداً منهم لم يعارض أو يجافص. فاتهموهم بأنهم ضد التقدم، صحيح أنهم لم يعلنوها صراحة، بل داروا ولفوا وضمنوها في كتاباتهم، ترميزاً وغمزاً ولمزاً. دهاؤهم لم ينطلِ على أحد، فجرى تصنيفهم والتشهير بهم تحت لافتة دعاة المجتمع الرجعي البالي، وهم بضعة أدباء وصفوا بأنه لا جديد لديهم، ولا دور لهم، أشرفوا على نهاياتهم، فكرهم قديم بدوي إقطاعي ومتخلف، ومعهم دعاة التحررية من أشلاء أدباء الماضي الذين تشغلهم القضايا الميتافيزيقية، والنزاع بين الدين والكفر، وترديد تشكيلة شعائر الرفاهية والبطر: الملل والقرف والسأم والحيرة والتردد. إلخ. مع دعاة البرجوازية الصغيرة، الورثة الأوفياء لمأساة الإفلاس السياسي لطبقتهم الآيلة إلى الاندثار، فردانيون قانعون، يعادون الدولة الاشتراكية، ومولعون بالشكوى. وبدورها أجهزت السلطة عليهم بوسائلها، فبادرت بإرسال بعضهم إلى بيوتهم، وضايقت الآخرين فاستقالوا من وظائفهم، ومنهم من فضّل الهجرة.

التأثير الأقوى مفعولاً، كان من نصيب الأدباء الجدد الذين لم يختاروا طريقهم ولم يصنفوا بعد. هؤلاء لم يكونوا بحاجة إلى اختيار ولا نقاش؛ أصبح الكاتب الطالع في دنيا الأدب، لا يتوسل الأنموذج البروليتاري في قصصه وشعره، بل في حياته أيضاً. يزعم أنه من طبقة فقيرة، والأفضل معدمة، وينفي عن نفسه أية صلة رحم بالبرجوازية، وإذا كان من طبقة متوسطة الحال، أو شابت نشأته شائبة غنى أو كفاية، يُشهّر بطبقته وينبذ عائلته ويحتقر أباه وأمه، وإذا رأى أحد أقربائه الموسرين في الطريق لا يسلم عليه. ويعلن على رؤوس الأشهاد انتسابه إلى الطبقات الكادحة بقصيدة أو قصة أو مسرحية، معبراً عن مصالحها التاريخية ومتنبئاً بانتصارها الحتمي.

اختصاراً واحتياطاً، تزلّف الكتبة إلى الأستاذ محسن وأخذوا يعرضون عليه مخطوطات أعمالهم ويطلبون رأيه فيها، كان استحسانه لها يعني أنها موافقة لخط الواقعية الاشتراكية العربية الجديدة. كذلك الفنانون، تفهموا الحس الجمالي الخشن للواقعية الأخيرة، فرسموا لوحات عمالية وفلاحية، زينوها بالآلات والرفوش والمعاول، وثواراً يقتحمون المتاريس، أو قصراً كقصر الشتاء، وتظاهرات هائجة ومائجة، تقاوم نيران البنادق الفتاكة بصدور المقاومين العارية.

هجر القراء الأدب البرجوازي المنحل والرخيص، وتحولوا صوب الروايات التقدمية، ذات الآفاق الإنسانية الرحبة، المتميزة بأبطالها الإيجابيين الجسورين، وسفهت الشخصيات الضعيفة السلبية. أصبح القارئ يعرف إلى أي جانب يقف، ومن يؤيد، ومن يستلهم في تصرفاته. واكتسب الأدب معاني بعد أن كان من غير معانٍ، فالمرأة والربيع والبستان والزهرة والشمس أصبح لها مغزى اشتراكي، فلم

تعد المرأة مثلاً، فتنة وجسداً وإغراء، بل أم مكسيم غوركي، والوطن الاشتراكي، وهبة شعوب الشرق ضد الإمبريالية العالمية.

ثمة تاريخ جديد يكتبه الأدب، ليس تاريخ الأفراد، بل تاريخ الجماهير، جماهير كانت مهمشة، وأخذت تحتل الصدارة في هذا المنعطف الهائل من مسيرة العالم، فاستعد أيها المستقبل لاستقبالها بأنوارك الساطعة، أنوار الحقيقة. بدأ التاريخ الفعلي للإنسان، تاريخ ليس ثمة من تاريخ قبله، ما سبقه تواريخ باطلة غير إنسانية؛ الإنساني يبدأ الآن، وأنتم أيها الأدباء سارعوا إليه، اكتبوه واحتفوا به.

فهبّوا واستعدوا للقائه واستقباله على أحسن وجه، وخلفوا وراءهم أطلال تاريخ مهزوم وتعس، تاريخ لم يعر اهتماماً إلا للملوك والخلفاء والمماليك والولاة، وأهمل العوام والكادحين، ولم يعترف بهم، وكانت الصيحة... أرسلوا به إلى مهاوي الفناء والرذيلة والعدم وسلة المهملات... انظروا إلى الأفق، لقد أشرق صباح لن يغرب أبداً.

صباح سيتبارون إلى تبجيله بأسمى آيات المديح.

هذا الصباح إلى ماذا يرمز؟! دبج الشعراء قصائد التمجيد لرجال الطليعة الثورية، أبطال التغيير الجذري والتحول الاشتراكي، وأشاد القصاصون بالفلاحين والسدود والأراضي المعطاء والسنابل الذهبية، وأطنب الروائيون في تقريظ البروليتاريا والمعامل والتراكتورات والأراضي المستصلحة، وكال المهيجون المديح للجنود والكلاشينكوفات والقنابل اليدوية، وزجّل الزجالون، للوطن التقدمي المحاصر بالرجعية وأذناب الاستعمار. وتسابقوا إلى وصف الجوع

والبرد والفاقة وتجاعيد الوجه وخشونة الأيدي والأسمال البالية، ومنحوا عنايتهم القصوى لتصوير البؤس والتعبير عن مقارعة الظلم والتوق إلى العدالة. أما المفكرون الرصينون، فتعالوا عن الوصف والرمز، وخصوا بعنايتهم التوجهات القومية الوحدوية، ونظَّروا للنهج اليساري العربي اللاشرقي واللاغربي.

□ □ □

أخذت الأحزاب التقدمية المحسوبة وغير المحسوبة على الدولة، تصنع أدباءها على عجل وتنفخ فيهم بلا خجل، وتكرسهم مشاعل فكرية في مطبوعاتها وعلى هوامش الجرائد الحكومية. وحضت التعليمات الحزبية على اقتناء كتبهم والانكباب على مطالعتها والتمثل بأبطالها، وتلاوة أشعارهم وحفظها عن ظهر قلب، إن لم يكن تلحينها وإنشادها، فصدحت في القاعات العمالية والجامعية والمراكز الثقافية صفوة الأشعار والشعارات، وتزينت الاجتماعات الجماهيرية الحاشدة بالنخبة الثورية من القوالين والشعراء والشعاراتيين المهللين المجعرين، أخذوا على عاتقهم اختلاق نزالات، يخوضونها بلا مشقة، ومعارك ضروساً يحطمون فيها الأدباء البرجوازيين والعشائريين العتاة والخبثاء الرأسماليين (من هم، أو أين هم؟! لا أحد يعرف) يهزمونهم، وفوق جثثهم على المنابر يتعانقون، وفي الخفاء يتحاسدون ويشتمون بعضهم بعضاً، كل منهم يزعم أنه الأكثر ثورية، والآخر مدعي ثورية.

المحاكم التي انعقدت على الورق، عادت إلى الماضي أيضاً، لتنظيف التراث من رجعيته، فلم يسلم منها حتى أولئك الذين لاقوا حتفهم على النطع منذ ما يزيد على ألف سنة، فقطعوا رؤوسهم ومثلوا بهم ثانية، والذين امتُحنوا في أديانهم، امتحنوهم ثانية في اجتهاداتهم

وعرضوا بجهلهم وفتاواهم، ولم يفز سوى الماديين الكفرة ومحترفي الزندقة والملحدين الفجرة. ودبجت محاضر اتهام انتهكت المجلدات الصفراء وشهرت بشحوبها المشبوه، ولم يشفع لها قدمها، سبب صفرتها. حملات أهدرت دم التاريخ الرجعي وأجهزت على مروجي البدع والخرافات والتعاويذ، فتناثروا صرعى على صفحات الحقائق الدامغة.

على الطرف المقابل، وبالرغم من ندرة الأدباء الرجعيين وبقاء حفنة منهم على قيد الحياة بعد موتهم الواحد بعد الآخر بتكتم وصمت، لم تتسع لبقاياهم صدور الأدباء التقدميين وأخذوا يصطادونهم واحداً بعد آخر، لا يرحمون شيخوختهم وعجزهم، ويمزقونهم دون شفقة على مشرحة النقد. وانتقموا من الأدباء الأشرار ذوي الشهرة العريضة، وعلى رأسهم الشاعر الصفيق والغزلي الخليع، الذي بنى صيته فوق أجساد النساء والعذارى الرقيقات، فهرب بجلده ورأسه وشِعره إلى بلد الضباب، ليبني هناك شهرة تضارعها فوق أجساد شعوب استباحها حكامها الأقرباء قبل غزاتها الغرباء.

كان الأدباء الشباب متحمسين للقتال، وقادمين بعزيمة من الحقول والمدارس ودفاتر الإنشاء ورسائل الغرام، ناقمين على الكلية العسكرية التي لم تقبلهم في عداد المتطوعين في الجيش، فاتخذ هواة الأشعار منهم طريقهم إلى جرائد الدولة، ومنها إلى صفحاتها الثقافية، حاملين الريف على أكتافهم، بعد غربلته من القحط والقيظ والجفاف والصقيع والبعر والبعير، وعمموا أطروحتهم السعيدة عن ليالي الحصاد تحت ضوء القمر، الصيف وحفيف الأشجار، الشتاء وخرير الجداول، الربيع والنسيم العليل، الخريف والأوراق الصفراء المتساقطة، على إيقاعات الدبكة والميجانا والعتابا وزقزقة العصافير في

سماوات صافية ورحبة، ناكدوا بها أهالي العاصمة الطرشان من وطأة الضجيج المتبلدين المخدرين بروائح البنزين والمازوت. والرازحين تحت الغمامات السوداء المنطلقة من عوادم السيارات.

وبدورهم أخذوا بالتدرب على الواقعية الاشتراكية العربية الجديدة تحت إشراف مبدعيها، فأصبح اللؤم يقطر منهم من فرط معارفهم، بعدما امتلكوا الحقيقة كاملة بلا نقصان، تحت راية الثورة والمستقبل، المرفرفة عالياً في سماء التقدم، معاهدين الكادحين عدم التهاون في تحصيل حقوقهم، فصوروا آلامهم وعذاباتهم في العهد الإقطاعي، وفضحوا جبروت الرأسمالية وشراهتها، وتوعدوا أيضاً البرجوازيين الجدد مصاصي دماء الشعب، من سلالة المستغِلين الذين قضت عليهم دبابات العدالة الثورية منذ بضعة عقود.

تنشطت المعارك على صفحات الجرائد، معارك كالمعتاد نبعت شراستها من الالتزام بالطبقات المعدمة، والإيمان بحقوقها، والدفاع المستميت عن مكتسباتها خيفة عليها من الزوال. كانت كلاماً في كلام، وجعجعة في الهواء، افتقدت الأعداء والخصوم، ولم تفتقد جحافل الإمبرياليين وأعوانهم المتخفين في الشعر والنثر وعتمة السينمات وخشبات المسارح وجدران صالات الفنون التشكيلية. ولن ينسوا، سيردون الجميل لأساتذتهم الأدباء الميامين، بتنصيبهم على عرش الأدب، والثناء على كتاباتهم الرائدة، وإحاطة صورهم بهالات من النقاء والإيثار، وإغداق آيات التكريم عليهم وعلى مآثرهم.

لكن الأدب طاحونة لا تكف عن طلب المزيد من وجبات الجديد والتجديد، ففرمت من جملة ما فرمت الواقعية الاشتراكية العربية الجديدة، بعد تنكر قادتها وأعوانهم لها، دون أن يذكروها بخير أو

شر؛ وسوف يتذكر النقاد والمنظرون شقيقتها الصغرى: الالتزام؛ يتلقفونها، ويعاد الاعتبار لها من جديد، ينفخونها، لتتضخم إلى مقولة هائلة، وتصبح التزاماً بالإنسانية وحقوق الإنسان، وحرية المرأة، والوطن والديموقراطية والتعددية وصناديق الانتخاب، والاعتراف بالآخر والحق بالاختلاف. كان الرفاق من الأدباء الواقعيين الكبار أول من سارع وتبنى هذه الدعوات وروجوا لها، وسار على دربهم الصغار الموتورون، بعدما أصبحوا أشد لؤماً وحقداً.

هذا الفصل لم ينته، المستقبل المنشود لم يأت. جاء المستقبل غير المنشود، وأصبح بدوره ماضياً. وسيتلوه كالمعتاد مستقبل آخر، ما زال في طور القدوم.

22

الكاتب المشهور:
لا مساومة ولا مهادنة في أخلاقيات الأدب والفن

قبل انحسار طوفان الواقعيات الاشتراكية المتنوعة بسنة أو سنتين، وقبل هبوب جائحة الواقعية السحرية بشهر أو شهرين، تعرف حامد سليم إلى الكاتب المشهور الأستاذ محسن علي حسن، في مقره الدائم مقهى الكمال الشتوي (أو الصيفي، حسب الطقس أو الفصل) متربعاً في زاويته المعهودة التي تحمل اسمه، والملاصقة للواجهة الزجاجية المطلة على زقاق المتنبي. ولا بأس بإيراد لمحة جغرافية عن هذه المنطقة الدمشقية، توخياً للواقعية، وتأكيداً على أن ما يجري، إنما يجري فوق الأرض في شوارع كانت معروفة للقاصي والداني، وبات يجهلها حتى هؤلاء الذين يسيرون فوقها، ويستعيضون عن المدينة التي نعيش فيها، بمدن وهمية أشبه ما تكون

بماكوندو، المدينة التي استلهمها الروائي المعروف غارسيا ماركيز من مدن أميركا اللاتينية.

يمتد شارع بورسعيد من ساحة بوابة الصالحية حتى جسر فكتوريا، وقد طرأت عليه عدة تسميات، فعندما كان بلا اسم، أُطلق عليه شارع السكة، لمرور سكة الترام فيه، ثم شارع غوابيبه في زمن الانتداب الفرنسي، تكريماً للجنرال غوابيبه، فشارع الملك فؤاد الأول، نسبة لملك مصر. أخيراً شارع بورسعيد بعد حرب السويس، تخليداً للمدينة المصرية التي قاومت العدوان الثلاثي الإنكليزي الفرنسي الإسرائيلي. وكان زقاق المتنبي الوديع والهادئ، المتفرع عنها، يسمى بدخلة الكبانية، نسبة لشركة الترام البلجيكية، حيث كانت الترامواىات تبات ليلاً في ساحتها، أوائل القرن الماضي حتى منتصف ستينياته. ثم أصبح مقر شركة الكهرباء الحكومية. عند مدخل الزقاق، إلى اليسار، وعلى المنعطف، مقهى الهافانا المعروف بروداه الشبان من مختلف الأحزاب الوطني والشعب والبعث، وعلى امتداده سينما الأهرام، وكان اسمها روكسي بينهما مطعم لوازيس، يواجههم على الرصيف المقابل من شارع بورسعيد مقهى البرازيل، وكان أكثر خصوصية، رواده من الأدباء والصحافيين الكبار والسياسيين المعروفين. يلي الهافانا بعد عدة محلات، مكتبة دار اليقظة العربية بواجهتها العريضة، وكانت شهرتها عريضة أيضاً في الخمسينيات بمنشوراتها المترجمة للأدب الروسي والفرنسي، ثم سينما الكندي المعروفة سابقاً بسينما أدونيس، فمقهى الكمال، ومطعم الندوة، وكان في زمن مضى ربما مطعم «الشانوار» في الأربعينيات، وكان من البارات المشهورة في دمشق أيام الانتداب الفرنسي؛ تتخللهما محلات ب ب للوازم الأطفال والرضع، وبائع نظارات، وحلاق وبائع فروج مشوي وساندويش.



يجلس الأستاذ محسن في المقهى تحيط به شلته، وهي شلة أمضت عمرها في الجدالات والمناحرات والمشاكسات الأدبية، وكان لها نصيب في المطاحنات السياسية والتبشير الإيديولوجي. أثبتت تعاضدها في الأفراح والملمات، ولم تنج من الخصومات الأدبية العاتية والنمائم الشخصية، كما لم تنج أسوة بغيرها من المتغيرات القهرية، وكانت أشبه بالكوارث الكبرى والصغرى، وتماثل نوائب الدهر التي لا مرد لها.

هذه الشلة، عدا من مات من أعضائها في ظروف طبيعية، أو تمرد وهرب، أو عصى وانشق، أو انسحب منها والتحق بشلة أقل أو أكثر أدلجة، أو ودَّع الأدب إلى غير رجعة؛ تشكيلة مطاطة، تنتفخ وتكش، تبعاً لأحوال المناخ الأدبي والسياسي، فعندما ترتفع درجات الحرارة، كما في حرب الخليج الأولى والثانية والثالثة، يتزايد حجم الحضور حتى يبلغ تعدادهم حجم تظاهرة. وحينما تنخفض، يتفرطعون مثنى وثلاث لضرورات تحكمها خصوصية تبادل النمائم ونشرها، والتسلي بمضغ فضائح وأسرار ذوي الشأن من أصحاب السلطة. فتقتصر نوعياتهم على الأشخاص الموثوقين، لا سيما أنهم في بعض الأحيان يتناقلون أخباراً قد ينجم عنها مساءلات واستجوابات وخراب بيوت.

أخيراً، أمست الشلة مختصرة نوعاً ما، تضم أصحاب الأستاذ، رفاق المسيرة الأدبية ممن لم يتساقطوا على الدرب بعد، بالإضافة إلى شبان رعى خطواتهم الأولى في الأدب والصحافة، مع لفيف غير دائم من شعراء مغرورين وروائيين متذمرين، وكتاب سيناريوهات مقنزعين، وصحافيين محنكين، وأدباء منبوذين ناقمين على الجميع دونما تمييز. كانوا بمجموعهم بطانة لا غنى عنها، خاصة المهرجين الذين لا تخلو

الجلسة من دونهم، والمطبلين الذين يوافقونه على ما يقوله. مهارته كانت في إيحائه لكل واحد من المقربين إليه، أنه صديقه الوحيد الذي يعتمد عليه في السراء والضراء. أما عندما تدعو الحاجة، فلا يتحرج من إظهار غضبه، ويطرد بقسوة من لا يروق له، لأسباب يزعم أنها مبدئية.

لو وصفنا مقابلة حامد الأولى للأستاذ محسن، فلن تخرج عن مألوف نوعها، بين شاعر خجول يتلمس بداية الطريق، وكاتب جريء يتمتع بشهرة راسخة؛ وإذا كان تأثير مثل هذه المقابلات يختلف من شخص لآخر، فلأن تفاصيلها الصغيرة مغايرة. في حالته، ثمة مس كهربائي أصابه برعشة صاعقة، عقدت لسانه طوال جلسة هيمنت عليها الألفة الأدبية. كانوا، وقد تقاربت رؤوسهم، يتبادلون الرأي حول أحداث راهنة وساخنة، لها علاقة بفلسطين والجبهة الوطنية التقدمية والمحسوبيات، وهو جعل السخونة تسري إلى الشاعر الخجول، والعرق الغزير يبلل صدغيه ورقبته ويخترق قميصه إلى جاكتته. لبث صامتاً، ولم يأت بحركة من يده إلا ليمسح بين الفينة والفينة بالمنديل عرقه المتصبب. فيما كانت الريح الباردة تهب في الخارج، ترشق زخات المطر على الواجهة العريضة للمقهى، فترتطم ذراته على صفحة الزجاج المصقول، فتسيل حبات الماء وترسم الشارع والمارة بأشكال ملتوية.

تبدى على الأشخاص من حوله، نفاد الصبر والحنق. بعدما انحرف الحديث بهم نحو الاستعدادات الجارية لمهرجان دمشق السينمائي، ثم تشعب إلى الجريدة الأدبية الأسبوعية التي أصبحت حكراً على العاملين فيها، ومنه إلى الوزارة التي مضى على تشكيلها بضعة أشهر. بينما كان الأستاذ محسن الوصي الروحي على الفن

والسياسة، يصغي للجميع، وعندما تكلم أصغى الجميع إليه، انتقد منظمي المهرجان، كيف يصفون المهرجان بالدولي ولم تشترك به سوى بضع دول من أوروبا الاشتراكية الشرقية سابقاً وأميركا اللاتينية؟ كما لم يتسامح مع أعضاء هيئة التحرير في الجريدة الأدبية الأسبوعية ورماهم بالارتزاق السفيه من ممارسة نفوذهم على كتاب المحافظات النائية، فكسبوا أصواتهم في انتخابات اتحاد الكُتاب، عدا تنكات السمن والزيت والجبن بلا مقابل. أما الوزارة الجديدة، فهي كالتي سبقتها مع تغيير بضعة وزراء لا يزيدون على خمسة؛ إذاً، ما زال اللصوص في الحكم.

رمق حامد تعابير وجه الأستاذ بافتتان، وأنصت إليه بكل جوارحه، يسمع صوتاً طالما ترقب سماعه من المذياع كل أسبوع، والآن يخرج الصوت من فمه مباشرة. تمنى أن يلمس ساعد الأستاذ ويشد على يديه مؤيداً، لم تفصله عنه سوى فناجين القهوة. عندما كان يراه في التلفاز، كان بعيداً، لا يلمس.

لم يأت إليه، إلا بعد أن تبرع أحد أقرباء زوجة الأستاذ يعمل في شركة للاستيراد والتصدير بالتوسط له بالمقابلة. كان الأستاذ محسن لا يرد طلباً لأقارب زوجته وكانت الثانية، بعد الأولى التي توفاها الله (ولهما قصة سيرد ذكرها بعد قليل).

قصد حامد عرينه في مقهى الكمال، حاملاً معه مجموعة قصائده؛ أيام كان الشعر ديموقراطياً، يهبط وحيه على الجميع ويقرأه الجميع، يتعاطاه الطلبة المراهقون، وربات البيوت وعاشقون على كبر، وفتيات على صغر يتفتحن على الشعر قبل الحياة. أمسك الأستاذ محسن بالمجموعة الصغيرة ودسها في جيب جاكتته، وقال له، سأوافيك برأيي في الأسبوع القادم. شكره حامد ونهض للذهاب.

أمره الأستاذ: اقعد، فقعد مبهوراً، وطلب له فنجاناً من القهوة. فعظم في عينيه فوق ما كان عظيماً. ما هذه البادرة من الكرم؟! أنا لست سوى شاعر مجهول لم ينشر حرفاً واحداً، ويحتاج إلى فتّ خبز ليحظى بالجلوس إلى جوار كاتب قدير مسموع الكلمة. خلال الجلسة لم يتوجه إليه بالحديث، خصه فقط ببعض النظرات، منها نظرته الأثيرة المصحوبة بابتسامة بروفيلية متواطئة وساخرة، ترتسم على نصف وجهه، وتترك نصفه الثاني على حاله. فيما بعد سوف يعرف بأن هذه الابتسامة تخفي وراءها لؤماً خبيثاً ومدمراً، وتعني أنه يبيّت أمراً؛ كان لؤمه في تلك الجلسة من نصيب أحزاب الجبهة الوطنية التقدمية المصابة بالشلل الدائم منذ ولادتها الجماعية. بعد انتهاء الجلسة، انطلق طائراً من الفرح. تمنى أن تعجب أشعاره الأستاذ الذواقة.

بعد أسبوع، نصحه الأستاذ بالإقلاع عن الشعر، وكانت له تجربة فيه لا تحمد عقباها (مربوطة بالقصة التي وعدنا بذكرها): الشعر لا سوق له، اذهب إلى الرواية. وألقى عليه محاضرة في فن الرواية، خلاصتها، لا قصة بلا مقولة إنسانية ذات فائدة، بل إن المقولة أهم من القصة؛ المقولة تحكي ألف قصة وقصة. إذ افتقدت القصة إلى المقولة، فطريقها مرسوم... إلى الزبالة. أضاف إليها خلفية لا بد منها، وكان يجب أن تسبقها، عن الواقعية الاشتراكية العربية الجديدة مع تعديلات زعزعت أركانها. سمع محاضرته، وأخذ بنصيحته ونبذ الشعر، لكنه لم يذهب إلى الرواية، ذهب إلى النقد، ومنه إلى الترجمة، على أمل أن تقوده الترجمة فيما بعد إلى الرواية.

عندما خاض غمار النقد، حاز إعجاب الأستاذ، والدليل أنه أعطاه بعضاً من مؤلفاته، وهي مجموعة هائلة من مقالاته القديمة المحتوية

على ما يدعى تنظيراته وأبحاثه ومعاركه الأدبية والنقدية ومشاهداته في بلاد الله الاشتراكية، وانطباعاته وآراؤه في كل شيء، من تاريخ برقوق إلى جغرافية دول حوض البحر الأبيض المتوسط، تنطوي على تأملات اجتماعية محلية وفلسفية عالمية، يعرج فيها على الفن والأساطير، وريفنا المهمل والشعوذة والطبخ والزواج والطلاق وزنى المحارم. وقال له أسمعني رأيك. فتهيب الموقف، من هو حتى يكون له رأي في ما سطره كاتبه المحبوب واسع الاطلاع والمعرفة؟! وأكبر تواضع الأستاذ الذي لم يتبدل قيد أنملة مذ عرفه.

لم يكن قد قرأها كلها، عندما أشاد بها. فقال له، اكتبه. قال، ماذا أكتب؟ فقال، أليس هذا رأيك؟ قال، نعم. فرد بنزق، اكتبه. فكتبه. قرأه الأستاذ ونبهه إلى أمور غابت عنه، وطلب منه بعض الإسهاب هنا، والإيجاز هناك، ثم أن يطَوِّلها، ويضع لها مقدمة وافية تحتوي على لمحة عن تاريخ الأستاذ الأدبي، أخيراً أن يعيد صياغتها بحيث تغطي عدة عشرات من الصفحات تنشر تباعاً. صدع بما طلبه منه، بعد ذلك، اعتبرها الأستاذ دليلاً إلى فكره، وأخذ على عاتقه إرسالها بالتقسيط، على فترات متباعدة إلى جرائد ومجلات دمشقية وبيروتية.

قصد الأستاذ بهذا أن يطوي تاريخه الأدبي، والالتفات إلى الفنون الحركية؛ المسرح والسينما والمسلسلات التلفزيونية، باتت الدراما فن الحاضر الصاعد نحو المستقبل وإلى ما شاء الله. هذه الفنون تحتوي القصة والشعر والرواية والموسيقى والرسم والنحت والديكور... وإذا كانت الإضاءة فناً فهي لا تستثنيها!! ولم يعد يلتفت إلى الفنون الراكدة سوى بداعي الثرثرة في المقهى، وإن كان بين الفينة والأخرى يتحف الصحافة بإحدى مقالاته القديمة المعدلة والمنقحة والمزيدة

(كالمقالة التي أرسلها إلى الراصد الأدبي) ليذكرهم بماضيه، وإلى أنه لم يغادر ساحة الأدب، وما زال على رأس نشاطه في الأدب النقدي.

أصبح محسن علي حسن الناقد الدرامي المعتمد والمهاب في الصفحات الثقافية الفنية، لا سيما أنه جاء إلى الدراما مسلحاً بعتاد فكري من النوع الثقيل، متنوع وفعال لا نظير له، لم تشهد الساحة الفنية مثيلاً له. توجه من النوع الثقيل، فوراً صوب إصلاح الخطة التلفزيونية، وكم كان في برامجها من إسفاف وفي تمثيلياتها من انحطاط!! فحطم مسلسلات تمثيلية ضخمة لم يرق له مخرجوها وكُتّاب سيناريوهاتها. واستنّ في النقد الفني منهجاً صارماً ومتصلباً، فلم يعبأ ببهرجات الممثلات والممثلين وأخبارهم وملابسهم وسرقاتهم الفنية والشائعات التي تتناولهم من خصومات وغراميات وتحاسدات ومخالفات، وإنما بمدى تأثير المسلسلات على الشعب الذي يمتح منها عواطفه ومشاعره وأفكاره وأقواله وأفعاله وأحلامه، ويتقوت منها طوال شهر رمضان المبارك.

كان هذا مع هبوب رياح المسلسلات التلفزيونية، وما أثارته من تفاؤل بعد نجاحها في سورية والبلدان العربية، ففتحت شهية الكثيرين للكتابة التلفزيونية ومنهم الأستاذ، ومن أولى بالدراما منه، بعدما تبين في داخله قدرة ليس على نقد ما تبثه الشاشة الصغيرة، وإنما موهبة درامية لا شك فيها، فكتب السيناريو، وانطلق انطلاقة كبرى بمسلسل من ستين حلقة، لم يحظ بشعبية كاسحة، كان كما قال أعلى من مستوى المتفرجين، ولم يكررها ثانية.

واكب حامد النشاط الدرامي للأستاذ محسن مقالة مقالة، ومعها متابعة كل ما يشاهده الأستاذ من مسلسلات وأفلام وعروض مسرحية. في المقهى، عند كل لفتة، أي كلما أدار الأستاذ وجهه

نحوه، كان مُطَالباً بالثناء على مقاله الأخير شفهياً، ريثما يثني عليه كتابياً في الجرائد لو أتيح له المجال، تمهيداً للثناء على مجموعة مقالاته الأخيرة بعد جمعها بين دفتي كتاب تحت الطبع، أو سيصدر قريباً، أو صدر حديثاً، فيعقب عليها من جديد بمقالة جامعة، ترسل إلى عدة جهات، تؤكد على أهميتها الراهنة وما تقدمه من فوائد مستقبلية. بات واجبه الرئيس امتداحه في جلسة المقهى الأسبوعية، وكانت تبدأ بالتعليق على برنامجه الإذاعي، أو على مقابلة أجراها أو مقالة نشرها، تتلوها مناقشة مرهقة تمتد ساعة وأكثر.

بات حبيس ورطة تتكرر كل بضعة أيام، حاول الإفلات منها، بعدم التفوه برأيه. كان يصمت ليدع للآخرين مجالاً يدلون فيه بآرائهم، فيرسم على ملامحه أمارات الإعياء، ويشرد خارج المقهى. فيرده الأستاذ بعنف إلى الداخل، عندما يسأله بحدة، ما رأيك؟ تمنى أن يكون مثل غيره، يشعل سيجارة الأستاذ، أو يشتري له جريدة، أو يدفع ثمن قهوته، أو يعزمه على الغداء، مقابل إعفائه من التقريظ القسري الدائم. غير أن الأستاذ ذا القلم السيال، والشهية المفتوحة للمديح، لم يستهوه أي بديل مادي.

طالما تمنى حامد التخلص من خجله، وحاول الابتعاد عن الشلة، بيد أنه أخفق، كان إذا تخلف عن موعد يُرسل في طلبه، فيعود صاغراً؛ الخجل يولد مع الإنسان، ويبقى معه كظله لا يفارقه، يمنعه من الاعتراض وإظهار ضيقه. كان إحساسه بالذنب يتفاقم ويضغط عليه ويحاسبه، ليس لموافقته أستاذه على أفكاره، بل لأنه أصبح أحد المطبلين المعتمدين.

على حين غرة، استيقظ ضميره بفظاظة، وطالبه بالخجل من العهر الثقافي الذي يمارسه دونما وازع أخلاقي. كانت كلمة العهر من

الكلمات التي درجت في الجرائد وحملت أكبر اتهام وأقسى تشنيع على عدد من المثقفين لم يتمسكوا بمبادئهم وغيروا معتقداتهم من اليسار إلى اليمين، فباعوا أقلامهم لا أجسادهم، لسد رمق عائلاتهم كما ادعى بعضهم، أو لقناعات فكرية، كما قال آخرون، فانتقلوا اضطراراً أو طوعاً من الإلحاد إلى التدين، ومن الماركسية إلى الرأسمالية، ومن الاشتراكية إلى الليبرالية!! فأهمل المثقفون محاسبة السياسيين صناع كوارث الوطن ومآسيه، وفضحوا إخوانهم في المهنة، حتى ظن البعض أن هناك مؤامرة غربية تحاك لتعهير الثقافة العربية، بينما الأمر لا يعدو سوى أن الأوضاع المتردية بحاجة إلى كبش فداء، يذهب ضحيتها المغلوبون على أمرهم من الكتاب، أما المتمكنون فلا يصيبهم خمش ولا خدش. وكان بعض الذين تعهروا وعُهروا، قد مثلوا من قبل عقل الأمة المفكر وضميرها الحي، أما لماذا كانوا الأسهل منالاً، فلأنهم أناس عزل من السلاح وحيطهم «واطي» وبضاعتهم الكتابة. لم يبتدعوا جديداً، وإنما امتطوا الموجة السائدة، لإثبات بُعد نظرهم الفكري والسياسي، بعد أن أثبتوا وبجدارة قصر نظرهم طوال عقود انقضت؛ فجاء تفاعلهم الجبان والمخزي مع انهيار الأيديولوجيات، حدث نهايات القرن الماضي، تحت تأثير خوفهم من التخلف عن عصر الصعود الإمبراطوري الأميركي. وقبل أن نقفز عن هذه الفكرة العارضة، في الحقيقة، كان المثقفون أنفسهم هم الذين اكتشفوا العهر الثقافي وطنطنوا به. وهي جرأة تحسب لهم، لأنها تنال منهم.

اعترض حامد على ضميره الذي عبر عن قلقه بنابي الألفاظ، وطالبه بوصف أخف وقعاً، وأقل إيلاماً، فتلافى ضميره هذا الوصف البذيء، ونعته بالإمعة!! كأن ضميره لا يعرف بأن سبب علته هي الخجل، وأن خجله من الآخرين أقوى من خجله من نفسه. ولهذا

كره النقد والكتابة. غير أن الظروف ستوفر له مخرجاً، عندما طلبت منه دار للنشر ترجمة رواية من الأدب الإنكليزي المعاصر على جناح السرعة. هذا ما نقله للأستاذ، مشيراً إلى أنه مضطر للانشغال قليلاً عنهم، بعدها تباعد قدومه إلى المقهى. وانسحب من الشلة بدعوى التفرغ للترجمة، إلى أن انقطع عن المجيء.

□ □ □

بعد غياب سبعة أشهر، ظهر حامد في مقهى الكمال حاملاً عدة نسخ من كتابه المترجم. ألا ينبغي من باب الخجل، إن لم يكن من باب المجاملة واللباقة أن يُطلع الأستاذ على باكورة أعماله في الترجمة؟ بعد أن وزع على الحاضرين كتابه، قدم إليه نسخة مع الإهداء ممهوراً بتوقيعه، مروساً بـ: أستاذي الكاتب الكبير... استهله بعرفانه بالجميل نحوه ومديونيته له، وحاجته الدائمة للاستهداء بآرائه القيمة... إلخ من التبجيلات الضخمة والسخيفة التي يحبها الأدباء المشهورون. لو أن حامداً كان دقيق الملاحظة، لما فاته أن الابتسامة اللئيمة تلامحت على وجه الأستاذ محسن رغم سخائه في المديح، ولكان ندم على عودته إلى المقهى، ولما فكر بالرجوع ثانية. للأسف، كان ضعيف بصر وأعمى قلب. عاد في الأسبوع التالي، ليتلقى انطباعات الأدباء حول ترجمته للرواية، طامعاً ببعض المديح، ألم يمدحهم كثيراً من قبل؟

خلال الأسبوع، لم يطرأ تغيير كبير على الأستاذ محسن تجاه الناقد الذي ترك النقد والتحق بالترجمة. كان التغيير الدرامي قد بدأ يحصل منذ أخذ تابعه الشاب بالابتعاد عن الشلة. لم يفت الأستاذ تململ المفسر النبيه لأفكاره. خلال صحبتهما اطلع على الشخصية الرخوة لتلميذه، فتنبأ بهربه وتمرده، وواكب انسحابه المتدرج

بتعليقات ساخرة طرحها على أعضاء الشلة: هل وجد شلة غيرنا؟ أوَ يرغب في الانشقاق عنا، والانضمام إلى شلة معارضة، أم أنه طامح إلى تشكيل شلة يتزعمها ليناكفنا؟ بعد فترة، ضايقه سؤال أرَّقه، ما الذي لم يعجبه بشلتنا؟ كان جوابه حزيناً، كافأني بالتنكر لي. بعد أشهر، تساءل، هل أنا السبب؟! لم يكن له سوى جواب واحد، نعم، خطئي أنني عملت منه زلمة.

تلك الاستفهامات والظنون، ترددت طوال غياب حامد علناً وفي دخيلة الأستاذ الذي اتهمه بالجحود، ومع هذا كان مستعداً لطي صفحة الماضي ومسامحته. لكن بعد أن جاء إلى المقهى ووزع كتابه على الحضور، لم يعد هناك بديل من تجريصه. لأول مرة يحس بنكران الجميل والإهمال الشديد وبأنه ظُلم من صديقه الشاب بفظاظة، وكان يعدّه من أقرب المقربين إليه. بل وبدت كلمة ظلم صغيرة جداً، لا تحيط بما وقع عليه، من تلميذ عاق ارتكب بحقه جرماً حقيراً. أحس بهذا حينما تناول الكتاب وفتحه؛ كاد أن يرميه أرضاً ويدوسه بقدميه، ولم ينفث عن غضبه قليلاً إلا بعد أن غادرهم. علق الأستاذ بصوت مكلوم، ما الذي يظنه؟ فاستدارت الرؤوس إليه. قال مفسراً فجيعته، يريدني أن أعمل دعاية لكتابه، فليخسأ، يذهب ويأتي كيفما يحلو له، حتى الكرخانة لا أحد يدخلها ساعة يشاء!! كانت تلك إشارة إلى أنه لن يرحمه، في يوم مشهود قادم.

ما الذي جرى للأستاذ محسن حتى أحس بظلم كبير لم تحتمله أعصابه ولا رجاحة عقله، فوصف ما وقع عليه بالجرم الحقير؟! لن ننساق وراء تخمينات، إذا أردنا أن نعيد الأمر إلى نصابه، نقول إن الأستاذ في اللحظة التي أمسك فيها بالكتاب، أحس بالإهانة، كان

موقناً أن تلميذه سيعود مطأطئ الرأس طالباً الصفح ومختلقاً المعاذير المقنعة لإثبات وفائه بعد غيابه المتعمد، بدلاً من ذلك جاء بوجه بارد وعينين وقحتين ووجّه إليه صفعة قوية، ووضعه أمام الأمر الواقع، دونما أعذار واعتذارات، مرتكباً فعلة دنيئة فاقت فعلته السابقة!! قدم إليه كتابه منجزاً ومطبوعاً، فيما ـ وهنا الصفعة ـ كان ينبغي أن يطلعه عليه قبل الطباعة ويرجوه تدبيج مقدمة للكتاب، أو على الأقل يلتمس منه كتابة مؤخرة، وهي تقريظ موجز يوضع على صفحة الغلاف الخارجي. لكن لا مقدمة ولا مؤخرة!! فهذا احتقار ما بعده احتقار، وهي الخيانة بأم عينها.

في اليوم المشهود، توقع حامد كما أسلفنا، تلقي بعض الثناء على عمله، أشبه برد جميل أو دين، مما تعارف عليه العوام بالقول، حكّ لي لأحكّ لك؛ وهو تعامل ساري المفعول ومستشر بين الأدباء. فمثلاً عندما يقرظ كاتب، كتاب أحدهم، فعلى أحدهم مهما كان علو كعبه في الأدب أن يسارع ويشكره مواجهة أو بواسطة الهاتف، ريثما يرد الدين، وإلا انقلب عليه وأصبح من ألد أعدائه. وفي بعض الأحيان، يتصل المُقرِظ بالمُقرَّظ، وينبهه إلى أنه امتدح كتابه الرائع، ويمننه باكتشاف مواطن الجمال فيه، ثم يستغل هذه المجاملات ليمرر إليه إشعاراً بأنه سجل عليه واحدة وينتظر منه واحدة مقابلها، فإذا كان كاتباً مثله، فعليه أن يقرظ كتاباً له، وإذا كان صحافياً، فعليه أن يكون جاهزاً لتقديم خدمة يسأله إياها، لهذا يتعثر الكتاب المبتدئون الذين يجهلون الأصول المتبعة في مستهل حياتهم الأدبية، بخصومات وعداوات لا يدرون لها سبباً.

إذاً، في اليوم المشهود، كان الأستاذ محسن محاطاً بصحافيين شباب، وللمصادفة البحتة بمعجبات لطيفات أيضاً؛ يستعرض قدراته

في السخرية من أدباء معروفين. عندما لمح حامد يقترب، ابتسم ابتسامته البروفيلية الأفعوانية، التي احتلت نصف وجهه المتوتر، فأحس حامد بالخوف، من هذا النصف الشرير الموتور للأستاذ، يعرف عواقبه، كان شاهد عيان أكثر من مرة على مواقف أطلعته على ضروب شرسة من مفاعيل لؤمه، ما الذي فعلته للأستاذ؟! لا شيء، ربما ضايقه شاب متفرنج من هؤلاء المتحلقين حوله، الأستاذ لا يروقه أن ينافسه أحد على قلوب العذارى، ولو كان بعمر أولاده. ولم يحس بالاطمئنان، إلا عندما لمح النصف الثاني لوجه الأستاذ وكان على خير ما يرام، بل وفي ذروة أستاذيته وتلطفه مع الآنسات. ومع هذا استغرب ترحيبه المبالغ به، وتوسوس مزيداً من الوسوسة، واحتار بين النصفين إلى أيهما يطمئن فعلاً؟ وقبل أن يمحص أيهما سيكون من نصيبه، كان الأستاذ قد استعاد بلمح البرق الرواية المترجمة، واستجمع معها العناصر الجامعة لنظرياته النقدية وانتقى منها ما يلائم الموقف، وصبها كلها وبأبشع صورة على الرواية والروائي الإنكليزي، ثم أطلق شتائمه البذيئة لتصيب بإحكام المترجم العربي الذي انطبشت الهجمة على رأسه دون رحمة، كأنه مؤلفها من ألفها إلى يائها، مع أنه لم يؤلف حرفاً منها.

تسمر حامد مذهولاً، يتلقى تعنيفه وبذاءاته، ولم يكن قد جلس بعد، وحواليهما الصحافيون الشبان والآنسات الشابات مأخوذين جميعاً بدقة هذا النقد البنّاء المحكم، وقد اهتزوا طرباً من وقع الشتائم الواقعية، التي أتت على الروائي والرواية وفعست في طريقها المترجم الذي أخذ يتمايل رغم تسمره كالقصبة في مهب المناهج النقدية، ويتكتك من القهر مربوط اللسان. فيما كان الأستاذ يكيل له الشتائم المقذعة على إقدامه وبمنتهى الحماقة على ترجمة رواية برجوازية عفنة، تشجع على التمييز العنصري والعلاقات البرجوازية

المريضة، وتتهجم على اليسار وتشيد بالتحلل الأخلاقي والعيش بلا هدف وبلا مبادئ، بلا مسؤولية أو التزام، وتدعو للتسيب واللامبالاة المطلقة.

فوجئ بالهجوم الصاعق، فلم يتفوه بكلمة دفاعاً عن الرواية. كان الأستاذ بعد تسديد ضربته القاضية، قد انتزع نظرات التقدير، بعد نظرات الإعجاب من الآنسات المبتسمات والصحافيين المقهقهين، واتسعت عيونهم ليرمقوا شزراً المترجم الملخوم والملعون. الأستاذ لم يرتو غليله، فنهره قائلاً، إياك والظن أنني أتساهل مع الوصوليين. ورماه بنظرته الخبيثة البروفيلية وكانت لئيمة لؤماً كاسحاً، واتهمه بأنه شخص يجري وراء المال، باع نفسه للسفارة الأميركية لقاء دريهمات. ففتح حامد فمه مصححاً: الرواية بريطانية. فرد عليه: وللسفارة البريطانية أيضاً. ثم أدار وجهه وتابع حديثه السابق مع الأوانس، ولطعه كالكلب واقفاً دون أن يدعوه للجلوس، مظهراً احتقاره له عقاباً على فعلته النكراء. الأوانس، ومن دون كلام، أدركن أن الأستاذ محسن لا يساوم على المبادئ الأساسية والفرعية، ولا يهادن في أخلاقيات الأدب والفن؛ كما لا يقبل عذراً لكاتب أو فنان، بمعنى أنه يتعين عليهما التحكم بخياراتهما سواء في إخراج فيلم أو في كتاب يكتب أو يترجم أو يقتبس. وسوف يجلب الأستاذ أنظارهن، لأنه لا يفوته شيء، إلى أن الاستهانة بأخلاقيات الحياة، لم تكن في إدانة الحرية الشخصية، أو التستر على الجنس وجسد المرأة، بل في مداهنة البرجوازية.

□ □ □

الإضافة الأخيرة التي جلب الأستاذ أنظارهن إليها، لم تكن بريئة في تلميحاتها، أو لها علاقة بالأخلاق أو البرجوازية!! لمن يجهل،

الأستاذ محسن يشتهي الفتيات الصغيرات، مجرد شهوة لا غير، دونما رغبة تتعداها إلى فعل فاضح ومحبط. يدّعي الأستاذ أنه ينبسط بهذا القدر من النظر، فهو يستحلي طول البنت الفارع وشعرها الأشقر الطويل أو الأسود لا فرق، والخدود المتوردة، والشفايف الممتلئة، والعيون النجلاء، مجرد استحلاء، مع بعض الملامسات السطحية، يعزوها إلى تذوقه للجمال على نحو أنيق ومرهف، خال من اللغوصات الجنسية.

كان حسب ادعائه حريصاً على صحته الجنسية، يخشى الأمراض التناسلية من الزهري إلى الإيدز وما بينهما من دمامل وقروح وتقيحات وتخرشات في المناطق الحساسة. يعيش حياة زوجية هانئة، غير نموذجية تماماً، ولا يريد تعكيرها. خاض قصصاً غرامية مشهورة أنكرها وتخفى عليها. فقد أحب في مطلع شبابه جارته، وكانت أكبر منه في العمر، وخاض المعارك من جراء إصراره على الزواج منها. كان فقيراً يسكن في قبو عبارة عن غرفة واحدة مع منافعها، وهي تسكن فوقه في بيت سياح نياح مع حديقة صغيرة، ورثته عن أبيها مع أساور وكرادين وأطواق وخواتم من الذهب عيار ٢٤ تعادل ثروة تغنيها عن السؤال حتى الممات. وكانت موظفة مرموقة؛ مديرة الشؤون الإدارية في مؤسسة تابعة للدولة. فكتب لها الأشعار، وحسب منطوق قصائده، هام بها وذرف الدموع وساح في الأزقة. قصائد ملتهبة بالعواطف الجياشة ومشحونة بالأشواق اللاعجة. فيما بعد عندما تذكر كتابات شبابه اعتذر عنها. قال بأن غرامه الأعمى حرضه على قرض الشعر وهو الذي أوقعه في حبها. لم يكن إسباغه الفتنة على المحبوبة، إلا لدواعي النظْم فقط. وكما تعرفون، الشعر لا يرحم، يضع الشاعر في موقف صعب، فهو مضطر لوصف حبيبته بالجمال، ولو كانت حيزبوناً.

اجتمعت العائلة، أخوالها قالوا لها، شاب أصغر منك بسبع سنوات، لن يتزوجك إلا طمعاً بمالك؛ هذه حقيقة. فرفضت الخطيب الشاعر، فهددها بالانتحار إن لم تقبل. ورد لأخوالها الصاع صاعين، يريدون إبقاءك عانساً ليرثك أولادهم؛ هذه حقيقة أيضاً. مع الصبر والإلحاح مالت إليه، أهلها لم يميلوا إليه، وتربصوا له، ضبطوه وهو يتعربش على سور حديقتها، أمسكوه وجرجروه إلى المخفر، فأرسل لها مع الشرطي رسالة استعطفها فيها. سارعت وأسقطت الشكوى عنه في موقف مشهود وتزوجته وقاطعت أهلها وأقرباءها. بعد الزواج، هجره الإلهام فتحول إلى النثر، وابتدأت حكاياته مع الأدب غير المنظوم، مع أن زوجته وفرت له الفراغ اللازم والهدوء المطلوب لاستدراج شيطان الشعر. ولم تبخل عليه بكل ما يلزمه من البابوج إلى الطربوش، فأصبح يدخل إلى البيت أميراً ويخرج وزيراً، غير مسؤول عن شيء. في هذا الوقت المتخم بالرفاهية بدأ تأثره بالماركسية، وأخذ يحرض على الثورة.

بعد أكثر من عشر سنوات زواج، تقدمت زوجته في العمر المقدار نفسه، فتباشعت؛ القلق يمنعها من النوم. عزت إلى الأرق سبب تنفيخ وجهها وبقبقة عينيها وتهدل ثدييها وتورم أنفها... وسريان التجاعيد. كانت أخبار غرامياته الأدبية (لم تكن الدرامية قد بدأت بعد) على قدم وساق. ما أضعف موقفها الجمالي، أنه بدا عليها أنها لم تكبر عشر سنوات بل عشرين سنة، فأصبح فارق العمر بينهما سبعة عشر عاماً، فكان الناس يظنون أنه ابنها، وبعضهم يقولون هذا ليغيظوها. فتنبه إلى شبوبيته الطاغية، وكان «صاحح» له، فأحب شاعرة ناشئة، فتاة صغيرة في السن، فاحتاج إلى الشعر، لم يعاوده، فبثها قصائده القديمة.

لم يتجرأ على تطليق زوجته، المال والرسمال بيدها، حاول إقناعها بالزواج عليها بالحسنى مدعوماً بآيات قرآنية لا يأتيها الباطل، ولا يفلح معها التأويل التقدمي. طبعاً لم تقبل حتى لو وصمت بالزندقة والكفر. كانت حجته قوية، فهي عاقر، وسن اليأس لم يدعها إلا بعد أن أيأسها بشكل نهائي. مع هذا كانت تأمل بالحمل. ولكي يطمئنها، حلف الأيمان المغلظة، لن يتزوج أربعاً سيكتفي بواحدة ثانية فقط، تنجب له ولداً يرث مواهبه، بعدها يستغني عنها. لم تصدقه، فكرت على هذه الحالة، إذا كانت تصرف أموالها على واحد، فسوف يكونون اثنين، ريثما يصبحون ثلاثة. أعقبها صد ورد، ثم معارك وضع القدر حداً لها.

لم تصبح الفتاة زوجته الثانية، إلا بعد أن عانى عذاباً مريراً قبل الزواج بها، أما العذاب المقيم الأكثر كلفة والأشد مرارة فكان بعد الزواج. ففي فترة القيل والقال والمشاحنات التي سبقت جمع شملها في عش الزوجية، لم تفتر زوجته المرحومة عن سعيها إلى تعطيل أحد أوصاله عن العمل، مستهدفة ذكورته بالذات، وقد تكون نجحت من كثرة ما سقته وأطعمته من غرائب وعجائب من قذارات، دستها في حشوة أقراص الكبة المشوية، اشتملت على بولها وربما خراها، إلى دم حيضها، ولم يكن دمها لأن حيضها فاتها، فتبرعت لها جارتها المتعاطفة معها في محنتها بقليل منه دون علم زوجها، وكان كافياً، فلم يرزق فيما بعد بالولد. من هذا الجانب كان القدر عادلاً، (هذا ما قالته جاراتها وقريباتها) ومن جانب آخر سابق، لم يكن عادلاً (هذا ما قالته جاراتها وقريباتها من قبل) فالقدر الجائر كان قد أنفذ فيها قضاءه، (لو لم يكن جائراً لقضى عليه بدلاً من أن يقضي عليها.) وفات زوجته المتوفاة أن تشمت به وبها، بل وكان في وفاتها إنقاذ لحياته؛ كانت تنوي تمويته بالسم

الهاري. ومع هذا كان عادلاً (هذا ما قالته جاراتها وقريباتها فيما بعد) كان القدَر يُعدّه لعقاب مأوساوي أشد من السمّ.

ورث البيت والمال ومعهما نصف ارتخاء في نصفه الأسفل، خسارته كانت جسيمة، انتصاب غير كامل (إذ الانتصاب لكي يؤدي الغرض منه، يجب أن يكون كاملاً، وإلا فما الجدوى منه؟). من أين جاءته هذه المصيبة؟! كان طوال فترة مشاحناته مع المرحومة متنبهاً لما يشربه ويأكله!! (على الأغلب لم يستطعم) لكنه لم يعمل حساباً للسحر، فأصيب جزئياً وفقد نصف فحولته، كما برر مرة وبمنتهى الحرج لأرملة لا تؤمن بأنصاف الحلول، في موقف لا يقبل أي عذر.

الحقيقة، كما وصلته بحذافيرها، أنها عندما ذهبت لقضاء العمرة، ذهبت بهدف الانتقام، وقفت في الحرم وبكت، رفعت يديها وتلمست أستار الكعبة المشرفة ودعت عليه بأن يحلَّ نصفه التحتاني، دعاؤها نفذ فيه وأزود، رغم أنه لم يكن التحتاني بالكامل، أما لماذا؟! فلأن نصف النصف، أي الربع كان أكثر إيلاماً، وأقوى حسرة. فلم يتمتع بالفتاة المسكينة التي أصبحت شرعاً زوجته، حتى أن الانتصاب غير الكامل أخذ يميل إلى النقصان، فتناقصت متعتها غير الكاملة بالتدريج حتى... (هذا أمر يخصهما).

أحياناً، عندما ينطلق على سجيته، يتأسف على استهلاكه لقواه الجنسية، ويعزوه إلى شهرته المبكرة، التي عانى من جرائها تهافتاً عليه من النساء اضطره إلى تلبية رغباتهن على حساب طاقته، فاستنزف مخزونه لسنوات قادمة. على هذا النحو برر الأستاذ مصيبته، بعد تغامز مثقفات مطلقات ومغامرات في خريف أعمارهن، غررت بهن ضجيج دعواته التحررية، وأردن إثبات أنهن

ما زلن بمستوى الحرية اللواتي نشدنها عندما كن في ريق الشباب، ويسمح بها وضعهن الحالي، بعد أن فاجأهن الطلاق أو الهجران وفاتهن قطار الزواج الثاني أو الثالث، فعوَّلن على شراهة الأستاذ الجنسية الدعائية. للأسف، خذلهن شر خذلان، وبالمقابل شنعن عليه شر تشنيع. بعدها كف عن استعراض غزواته الجنسية واكتفى بغزواته العاطفية العذرية المحضة، دون التورع عن التربيت على زنود وأفخاذ الشاعرات والقاصات الصغيرات وتلمس أعضائهن النافرة من فوق لفوق، والقبلات على الخدين والجبين وشمشمة الرقبة، بحجج بريئة! لن نكمل، حتى لا نخرج عن موضوعنا ثانية.

ولنتابع: تنبه حامد إلى وقفته الذليلة، فـ: تراجع مجرجراً أذيال الخيبة. هكذا وصف انسحابه مترجماً إياه بأمانة، ترجمة حرفية عن الواقع، دونما حذلقة.

□ □ □

عقب الدرس التأديبي بأيام قليلة، عاد حامد إلى المقهى، ليعتذر من الأستاذ ويعاتبه قليلاً، أدرك فداحة فعلته، بلا ريب كان وقحاً في تصرفه معه، كان من الأصول والتهذيب عدم حرمان الأستاذ من كتابة المقدمة، أو على الأقل المؤخرة.

لمحه الأستاذ وهو متوجه نحوه، فرفع وجهه ونظر إليه. تردد حامد، ابتسامة الأستاذ الأفعوانية لطشت عينيه، وما تشكل على إثرها من انقسام وجهه إلى نصفين غير متساويين، القسم الشرير أكبر من القسم المخادع. هذه الحركة أعادت إلى ذاكرة حامد ما جرى قبل أيام، ومواقف أخرى من هذا القبيل؛ أتى بعضهم لتقديم فروض الطاعة والولاء، فوجدها الأستاذ فرصة ليذلهم ثانية ويمسح بهم الأرض.

تابع حامد طريقه، مرَّ من أمامه بتؤدة، فنظر إليه الأستاذ بطرف عينه، واستعدّ ليحرن ويتدلل، ويعبس ويعاتب. لم يلق حامد عليه السلام، وجلس إلى طاولة مجاورة. توفز الأستاذ وتكهربت ملامحه، حتى نصف ابتسامته الأفعوانية، فارقتها الابتسامة، وبانت أفعوانية بالكامل. لاحظ واحد من أعوان الأستاذ ما جرى، فهرع إلى حامد ووبخه.

«هل جننت؟!».

أجاب حامد ببرود وبصوت عال:

«ما الذي فعلته؟».

«تقعد إلى جوار الأستاذ ولا تسلم عليه!».

«لن أطيل عليك، بالمختصر، استضرطني فاستخريته».

طنَّت في أذن الأستاذ، وتظاهر بأنه لم يسمعها، إذ لمح على وجه حامد تعبيراً لم يطمئن إليه، أنبأه بتياسة غريمه الشاب، وتحفزه للعراك. كان حامد في حالة تربص، يكفي أن يسمع شتيمة واحدة يطلقها الأستاذ، ليشرشحه شر شرشحة، لكن الأستاذ لم يتفوه بكلمة. تلك كانت الخاتمة غير الأدبية لعلاقتهما الأدبية.

ولأن للقصة بقية، لا بد من إعطاء فكرة عن الرواية المترجمة، لإيفاء الموقف حقه من الإيضاح. بطل الرواية الإنكليزي، شاب فقير، قدم من الضواحي الرثة لمدينة لندن، يخفي نشأته البائسة، ويتزلف لرفاقه الموسرين، مجاهراً باحتقاره لليساريين والزنوج وحركات التحرر. يتمكن بانتهازيته من الحصول على مركز مهم، يبتز رجل أعمال، ثم يفضحه ويدفعه إلى الانتحار. الأحداث تجري داخل إطار من العلاقات المشبوهة مع لوردات وسياسيين محافظين وسيدات وفتيات

من طبقة المجتمع العليا والطبقة الطفيلية من محترفي المراهنات وتجارة الرقيق الأبيض. رواية تعبر عن أفول شمس الإمبراطورية بعد استقلال الهند، وانتشار عدوى تحرر المستعمرات البريطانية، يعزو البطل أسبابها إلى انتشار الشيوعية في العالم، وتنامي الحركة العمالية في إنكلترا وكثرة المهاجرين والجهر بالمساواة العنصرية، فيُعيِّر ذوي الأصول الآسيوية بانحطاطهم وبدائيتهم، ويصب جام غضبه على المدافعين عنهم. لم تكتسب الرواية شهرتها في ذلك الوقت إلا بسبب تعريتها للمجتمع البرجوازي وفضحها للعلاقات النفعية التي تحكمه.

بعد غضب الأستاذ على المترجم في المقهى، اهتم صحافي كان من الحضور، فكتب مقالة لم توفر الرواية من الانتقادات، بالاستناد إلى تقييم كاتب مشهور لا تقبل أحكامه الزيغان، وزاد عليه وبرهن على رجعيتها النتنة وغمز من نوايا مترجمها، وعلى الخط نفسه، تبعه آخرون، أيدوه دون تمحيص. فكتب حامد دفاعاً عن الرواية، سخر فيه من آرائهم النقدية المستقاة من آراء الكاتب الكبير الذي خلط بين المؤلف والبطل، وأخطأ فهم الرواية، أليس من السخف انتقاد الرواية على ما كانت الرواية نفسها تنتقده بكل جلاء؟!

رفضت الجرائد، الواحدة تلو الأخرى نشر رده حفاظاً على علاقات محرريها مع الأستاذ محسن وأعوانه. أصر حامد وهددهم برفع شكوى إلى مديري التحرير. كاد أن يرتكب هذه الحماقة، لحسن حظه، أنقذه أستاذ لغة عربية ترك التدريس، يعمل مصححاً لغوياً في الجريدة. قال له، ما الذي تريد فعله أيها المجنون، تشتكيهم لمدير التحرير؟! سيصغي إليك، ويقتص منك، تمهل، ما حدث معك لا شيء بالنسبة لما حدث مع غيرك، هل تعرف أنهم يقيمون الدنيا

ويقعدونها إذا انتقدتهم على أخطائهم الإملائية، أو الأخطاء الناجمة عن السهو؟ يا بني، إنهم حقودون، فما بالك ووراءهم الأستاذ، اهرب بجلدك منهم.

(تذكر حامد، الآن فحسب، بعد مرور أكثر من سبع سنوات على هذه الحادثة، أن المصحح اللغوي ضرب مثالاً على ذلك روائياً مفقوداً، لن يكون إلا سميح حمدي بالذات، كيف غامر بمستقبله الأدبي عندما انتقد بعض الأدباء وكان من بينهم الأستاذ محسن. ما الذي حلَّ به؟! لا بد أنه مات من الخزي والقهر!!).

وسوف ينصحه المصحح اللغوي بقراءة كتب الأستاذ محسن. كانت النصيحة غريبة، لأن المصحح علق على مؤلفات الأستاذ بأنها فضيحة. قال له بأنه قرأها. فرد عليه، اقرأها ثانية. سيعيد قراءتها، وتفجعه جعجعتها ورداءتها، كانت الصدمة كاملة، بأي عين قرأها في المرة الأولى؟ بعين العمى أم بعين الرضا؟ بالعينين معاً، الأولى لا ترى، والثانية عن كل عيب كليلة. فقد وضحت له مثالبها، لأنه أعاد قراءتها، مستحضراً شخص صاحبها، فتبين بالمقارنة بينهما، أن ما يقوله الأستاذ شيء وما يكتبه أو يفعله شيء آخر!! من أين جاء بشهرته؟

من غرائب الأمور أن كتاباته كلها، لا تكفي لترسيخ شهرته، ومع هذا كان شخصية مطلوبة على مختلف الأصعدة، وظاهرة لافتة، لم تفرض وجودها بالكتابة النقدية المتميزة، أو بالرأي العميق، ولا بفتوحه الدرامية، بل بالنشاط الثقافي الدائم، والحضور المكثف للمحاضرات والندوات، وارتياد الصالونات والجمعيات الثقافية، والظهور في المقابلات المتلفزة. كان بطلاً من أبطال المصادمات الأدبية، والتشهير الدرامي، والتحريض على التصدي للرأسمالية، ما

أحاط اسمه وشخصه بسمعة كفاحية أدت إلى تتويج أعماله بقيمة لا تستحقها.

ما الذي جعل من كاتب رديء وجعجاع أديباً معترفاً به؟! لم يكن سوى التاريخ الظافر الذي كرسه في زمن كانت الأحزاب هي التي تصنع الأدباء، مقابل ترويج قضاياها التقدمية، من الواقعية والاشتراكية إلى الالتزام ودكتاتورية البروليتاريا؛ هذه وغيرها فتحت له أبواب المؤتمرات والمهرجانات داخل البلد وخارجه، فمُنح الدروع الفضية والذهبية وكُرِّم أكثر من مرة في حفلات رسمية. وظهر في السهرات المخملية المترفة، وفنادق النجوم الخمسة، مثلما ظهر من قبل في نوادي العمال، ومدرجات الجامعة، ومنتديات الفقراء والمقاهي الشعبية. كان رجل الزمن الاشتراكي ثم الزمن الأميركي، وجوده الدائم في الصحافة وشاشة التلفزيون، جعل منه سلطة معنوية في الأوساط الأدبية المكتظة بالناشئة من الشعراء والقصاصين الباحثين عن مكان ظليل تحت شمس الحياة اللاسعة، فتقربوا منه، واغتنموا المناسبات لتملقه، وبات صغار الصحافيين طوع أمره. واعتاد رؤساء التحرير خطب وده، وإرضاء خاطره، واستمزاج آرائه في الكبيرة والصغيرة. ونظروا إليه كمرجعية فاصلة ونهائية في الفكر والأدب والفن والحياة، لا ينازعه فيها إلا أدباء على شاكلته.

بعد هذه الجولة، إذا عدنا إلى ما نحن فيه، أي امتناع حامد عن نشر مقالته في صفحة الراصد، فسوف ندرك أنه لم يتجرأ عليه فعلاً، وإنما استغل حلفاني النكرة في الوسط الأدبي، وهكذا مهما أصاب حلفاني من ضر، فلن يصاب حامد بأذى. حلفاني لم يخيبه، بل واتخذ موقفاً صارماً، طالما تمناه. ألا تكون الشهرة وحدها جواز مرور لنشر موضوعات عتيقة، متنكرة بحلة جديدة من التنظير

النقدي العويص، تارة عن الواقعية المجددة، وأخرى عن الشعر الحر، وأخرى عن الأدب النسائي والرواية والتاريخ... إلخ؛ مصادر كسب متجدد، لقاء قديم، الجديد فيه، المزيد من التعالم والتعمية.

هل كان حامد سليم ينتقم منه متخفياً وراء مجهول عقاباً له على موقفه القاسي من روايته المترجمة الأولى، ومن ترجماته كلها؟ على التأكيد، حتى أن الأستاذ لم يقصر خلال أزمته الأخيرة في الترجمة، انتهز الفرصة وأسهم بدوره في كيل الاتهامات له. وكان تعليقه المأثور عنه في مقهى الكمال االشتوي (كان الطقس ماطراً، مع أن الربيع هلَّ منذ أكثر من شهر) عندما جاء ذكره، ألم أقل لكم؟! برهاناً على نبوءته التي لم تخب فيه.

لا نشك في أن حامداً انتقم من الأستاذ، وهذا ما يجعلنا نقول الحكي ليس كالفعل! وبعيداً عن المثاليات، حامد إنسان كغيره، لا ينجو من الأحقاد والصغائر، ولو كان موقفه محقاً وقوياً.

□ □ □

في المقهى، دارت الأحاديث باستخفاف حول المحرر المجهول الذي تطاول على سدّنة الأدب. من هو حتى يُقيّم كتابات الأستاذ؟! من هو حتى يهمل مقالات الكتاب الكبار في الأدراج؟ من هو حتى يغلق في وجوههم سبل الكتابة في الصفحات الثقافية لمجلة تابعة للدولة؟ من هو حتى يمنعهم عنها، كأنها ملك له ورثه عن أبيه وليس ملكاً خالصاً للشعب؟ والشيء الكثير من هذا الإلحاح على الـ من هو، مع التسفيه؟

حسب خبراته تلمح الأستاذ محسن مواصفات شخصية غريمه، فقرّ رأيه على أنه أديب مبتدئ تافه ونكرة، فاستنكر من ولد طري القلم

من يافعي الثقافة، لا يعرف الألف من المصطيجة، لم يسمع باسمه أحد، لا يفقه أصول الأدب، ولا يميز الشعر من الشعير، يتنطع للحكم على كتاباته... بأية صفة؟! ما هي مؤهلاته؟

الأستاذ محسن لم يتوعد أحداً على الإطلاق، لم ينزل إلى هذا الدرك، أراد أن يعرف هذا الولد، رغم أنه لم يهتم به، وإنما لمجرد الفضول لا أكثر، كما قال. لكن من يعرف الأستاذ سيدرك مدى الإهانة اللاحقة به، وهو يداري غيظه بتلك الابتسامة التي تفاقم تلويها وأصبحت مرعبة جداً، ولو شاء مترجمنا تقريب الصورة إلينا بلغة متفاصحة معبرة، لكتب: كمن يحرق الإرم غيظاً. وربما لو دققنا النظر في التبدل الذي طرأ على ابتسامته في الآونة الأخيرة، لتأكدنا أن نوايا الأستاذ الشريرة لم يعد يشفيها شيء، أو يقف في وجهها عائق. ومع هذا لم يرفع الأستاذ محسن سماعة الهاتف، ويسأل الأستاذ عبد الرحيم عن الصلاحيات الموكولة إلى الولد الذي يشتغل عنده في صفحة الراصد، أين تبدأ وأين تنتهي؟ بل أخذ يحضر لمعركة ستبدأ ولن تنتهي على خير، ولن يقبل بأقل من إسقاط الأستاذ عبد الرحيم مع الولد البلعوص. معركة صمم على أن يديرها من مقهى الكمال الصيفي (كان فصل الصيف قد هلت بشائره قبل قدومه، بيوم حار جداً).

طاش صواب الأستاذ عبد الرحيم، تخوف مما آلت إليه الأمور، وطلب من حامد تجاهل الانتقادات الموجهة إلى المجلة، وإسكات الجميع بنشر مقالة الأستاذ في موضع بارز، ترضية له عن التأخير. وحذره بأن الكاتب الذي رفض مقاله، أديب سليط اللسان، له وزنه الأدبي والدرامي مهما كان رأينا فيه، وسبل النشر موفورة له في سورية وخارجها في لبنان والخليج، وصلاحية أعماله ليست محل

مناقشة أو مراجعة أو تحكيم. ثم، دار هذا الحوار:

«أستاذ حامد، انتبه، المجلة عمرها قصير، لا تحتمل هذه الهجمة».

«أستاذ عبد الرحيم، إنها المعركة التي طالما ترقبناها، وهذه فرصتنا».

«المجلة مازالت تحت الاختبار».

«هذا هو اختبارنا الحقيقي».

«لن تستطيع أن تكون نداً له».

«بل أستطيع، جرِّبني».

«لن أجربك ولن تجربني. هذا فصل الكلام».

«لكنك وعدتني!».

«وعدتك بماذا؟!».

«بتسخين الأجواء الثقافية بالمعارك الأدبية».

«إذاً، اذهب على بركة الأدب، ودافع عن موقفك، رافقتك السلامة».



23

الاحتيال:
إياك والانصياع لوهم يقيس عمق الفكر بغموض التعبير

الحوار السابق، لم يتبادلاه بكلماته ولا بمعناه، دار في دخيلة حامد فحسب، واستخدمه لإقناع الراصد المترصد حلفاني في المضي قدماً إلى الأمام. الحوار الحقيقي الذي دار مع رئيس التحرير، كان تحذيراً على نمط: لا توجع لنا رأسنا، الأستاذ محتال شرس يعضده أنذال نصابون مثله لا يتورعون عن شيء، لا تعلقني معه.. إلخ. وبما أن ما دار من حوار بينهما كان على هذا المستوى من التوقعات والمخاوف، لم يزوده ببركات الأدب، بل لوح بالتنصل منه، والادعاء بأن المسؤول عن صفحات الراصد الأدبية استغفله وأرسل المواد إلى المطبعة، دون أن يطلعه عليها. حامد طلب استمهاله قليلاً، سيجرب شيئاً يبرِّد المشكلة، إن لم يضع حداً لها. فقال رئيس التحرير: جربْ

على مسؤوليتك الشخصية، وإذا فشلت فسوف أستغني عنك. فابتدع حامد الحوار السابق، ليشد من أزر حلفاني في معركته القادمة. وبالفعل ارتفعت معنوياته، وأخذ يستعد للهجوم.

أعاد حامد قراءة مقالة الأستاذ ليحدد، لماذا رماها بالغموض واعتبرها احتيالاً، عقوبته المنع من النشر، لا سيما أننا في زمن، ليس الغموض اتهاماً يحط من قدر الكاتب، بقدر ما هو ميزة مثيرة يعتد بها كبار المؤلفين. وهو نوع من اللعب لم يعد حكراً عليهم، بل بات مبذولاً لأعوانهم وتابعيهم، فتخصصوا في تفسيره، وتعبقروا في تأويل معانيه، وبزوا أساتذتهم في فبركته.

بينما الوضوح، سيئة لا جدال فيها، تصيب صغار المؤلفين، ولا تغفر لهم جهلهم وسطحيتهم. هذا ما تعارف عليه أدعياء الأدب، تحت زعم أن الكلام الواضح أقرب ما يكون إلى أحاديث الشوارع ودردشة المقاهي وثرثرات النساء، وفي أحسن أحواله، صحافة؛ لا يعبر عن فكرة عميقة، ولا معاني ثقيلة.

□ □ □

راقت لحلفاني فكرة وصف الوضوح بعدم العمق، ووجدها لا تخلو من حقيقة هامة. فتساءل قائلاً:

أليس من الضروري، في هذا الوقت المولع بالسهولة والاستسهال، التذكير بأن الأفكار الخفيفة سطحية، ومآلها إلى التلاشي بعد قولها مباشرة، خلاف الأفكار الثقيلة الأدبية منها والعلمية، يعدّ غموضها لا وزنها عنوان قيمتها، وهو المحك في تمييز جيدها من رديئها. ابتداء بمجاهل الكون المادي الكبير إلى الكون الإنساني الصغير، انتهاء بالكائنات الدقيقة جداً غير المرئية بالعين المجردة. وخير مثال قريب،

غموض النفس البشرية، يشهد عليه، منذ اليونان القول الخالد «اعرف نفسك»!! الفضيحة أن الإنسان لم يعرف نفسه حتى الآن، رغم ما بذلته البشرية من جهد في هذا المضمار، استهلك دونما فائدة. لم نتقدم في المعرفة، إن لم نوغل في الجهل، وطالما لمسنا كيف تفلت نفس المرء منه وتتصرف على هواها، مع أنها لصيقة به، فلا يستطيع التحكم بها، بحيث طاب للبعض أن يعزو جرائمنا إلى غموض دوافعنا. كذلك ما يدعى بالأفكار العميقة الحديثة التي نتعب في تقصّي معانيها، وهي أعماق بطبيعتها زئبقية، قابلة للانزلاق والدوران والتواري والسيخان. نحن نعيش في عصر الآلة والكومبيوتر والحروب الإلكترونية ورحلات الفضاء والفيزياء الحديثة وثورة الاتصالات والمعلوماتية، عصر يحفل بنظريات وكشوف ومخترعات معقدة بطبيعتها، أيّ تبسيط في تناولها يعد تزييفاً لها؟!

الاستعراض الذي يقوم بسرده أحمد حلفاني، وكان بصيغة سؤال طويل يتضمن جواباً مطولاً، يدل على ثقافته المتنوعة، ثقافة ليست أحادية الجانب، فهو يحاول أن يفهم الأمور من جوانبها كلها، ولنتابع محاكمته النقدية:

لم يذهب الكتاب الكبار والباحثون إلى الغموض طائعين، بل مجبرين، فلم يجوّزوا لأنفسهم كتابة شيء سهل القراءة عن موضوعات غامضة في جوهرها، هذا إذا أرادوا الخوض فيها، لذلك اختاروا الغموض رغم المشقة، وإذا كانوا قد تطوعوا لارتياد المجهول، فانقياداً لروعة المغامرة في اكتشاف المناطق الشائكة والمحرمة. فيما تُركت البساطة للبشر العاديين، يعيشون بواسطتها على هينتهم، بلا عناء ولا تدبير وبقليل من التفكير، يساعدهم على قضاء مآربهم في الحمام والفراش والمطبخ، ويُسهّل عليهم شراء حوائجهم من السوبر ماركت، وعلى هدي مفردات قليلة يروِّحون عن أنفسهم،

فيتبسطون ويتباسطون في السيارين والمطاعم الشعبية والحدائق العامة وأماكن اللهو. على هذا المنوال، وبالبساطة نفسها، تصاغ أخبار الحوادث العالمية والمحلية والرياضية ونجوم السينما والتلفزيون وكلمات الأغاني وكتب تعليم الطبخ. البساطة دارجة بين الناس، أما الغموض فللخاصة؛ لكل ميدانه، ولكل نصيبه.

أوغل حلفاني بعيداً في دفاعه عن الغموض، فأضعف موقف حامد، دون الانتباه إلى أنه يقوي موقف خصمه الأستاذ محسن!! من أين لقرينه القدرة على هذا التفاصح الحصيف؟! تساءل حامد مستعيداً تقسيم حلفاني المبطن، في ثنايا كلامه، البشر إلى طبقتين، قلة ذكية وغامضة، وأكثرية ساحقة غير غامضة، معدل ذكائها عادي وأقل من المتوسط، إن لم تكن غبية. القلة الذكية الغامضة، تحكم الدول وتتحكم بالبشرية، تدبر المؤامرات وتسوس الغالبية العظمى الغبية. أما الأكثرية الواضحة والساحقة، فمحكومة ومسحوقة، حاجاتها قليلة وطلباتها أقل.

□ □ □

حلفاني، إلى هنا، وكفى. انتفض حامد، كيف تتجرأ على تفسير الصراعات الدولية والتناقضات الطبقية بالتناحر بين الغموض والوضوح ؟! لا تكمل، وإلا أوقعتنا أيضاً في التمييز الجيني.

مدركاً أنه لو أفلت العنان له لفسر بالغموض كل شيء، وردد كالببغاء فحوى أقوال بعض الكتاب العنصريين؛ وبرهن ما دام يتذاكى، أن البشر مذ يخلقون في بطون أمهاتهم يُجبلون على الغموض الرفيع، أو البساطة المبتذلة. لكن تلكأ حامد في الرد، ليس من باب الخمول، وإنما الشطارة، كي يتيح المجال لحلفاني استنفاد حججه. وقال له أكمل، فاستأنف حلفاني كلامه ومضى في تحليله

الثاقب، لا يلوي على شيء:

ألا تعلم أن للغموض محبيه ومؤيديه، ولو كان أغلب رواده ومريديه المختبئين وراءه منتفعين منه؟! إذ للغموض رهبة مشوقة؛ ألم تقرأ الجملة التي اعتاد الروائيون إيرادها، عندما يريدون لفت أنظار قرائهم إلى شخصية متميزة في رواياتهم، ليأخذوها بعين الاعتبار، أو تخويفهم منها، أو بذر الشكوك حولها، وإيهامهم أنها غير عادية، ليعملوا لها ألف حساب وحساب، فيختصرون هذا كله بوصفها بأنها: محاطة بهالة من الغموض؟!

فنهر حامد نفسه قائلاً، لا مفر من تدخلي، وإلا انقلب حلفاني عليّ. فأوقفه وقال:

يا عزيزي حلفاني، لو لم تكن قريني، وأقرب إليَّ من حبل الوريد، لما اهتممت بتصحيح معلوماتك؛ الموقف يستدعي أن نكون صفاً واحداً، وعلى تفاهم ووئام لا على تناحر وخصام، حالنا المشتركة لا تتسع للنزاع، وإذا حدث نزاع بيننا فسوف نمزق بعضنا بعضاً إرباً إرباً.

فتعجب حلفاني، واعتقد أن الأمر خطير، وهو خطير بالفعل، وقال له، من يمنعك من الكلام، قل ما تريد قوله، دون مقدمات.

فقال حامد، أحسنت يا حلفاني، لم تخيب ظني فيك، ما أريد قوله لك، أن المشكلة ليست في الغموض بحد ذاته، بل في تعمده بلا مسوغ؛ فمثلاً، عندما حاولت فهم مقالات الأستاذ الأخيرة، وبرغم تشغيلي لمخي بكامل طاقته، دوخني البحث عن الفكرة الرئيسة، وأخذ مني وقتاً طويلاً، وماذا وجدت؟ أفكاره العتيقة نفسها، أُعيد تركيبها بعبارات وترتيبات مغايرة، على نسق مخالف للمألوف. ثم

دثرها بطبقة سميكة من الغموض، لئلا نكتشف فوات وقتها وذهاب عهدها وتقادم الزمن عليها. وإذا جربنا إزالة هذه الطبقة عنها، فسوف ترتد إلى فكرة صغيرة أرهقها اللف والدوران، أو فكرة معروفة ومطروقة باتت مملة، مسروقة أو منتحلة، أو فكرة شائعة، أزال غموضها الشيوع عنها.

ولاحظ معي، إن انتشار الغموض لا يمنحه المشروعية الأدبية، ولو كان الشعر سنده الأكبر، ولهذا وجد مرتعاً خصباً بين شلل الشعراء المتنافسين، ومن جرائه يخوضون حرب حياة أو موت في مضمار الجديد والأجدّ والحديث والأحدث وما بعدهم. إذ كل شلة تخشى أن تتجاوزها شلة أكثر منها غموضاً وجنوناً أو تعقيداً وهلوسة، لو تخلفت فإن شعراء المقدمة لن يصبحوا شعراء المؤخرة فحسب، بل سيشيَّعون إلى مدافنهم مع لعنة الوضوح المستنكرة. لذلك يتباهون منعاً للالتباس المغرض بأن أحداً لا يستطيع فهم شعرهم، المقتصر على الخاصة من نخبة النخبة. وأصبح من الدارج أن يكتب الشاعر كي لا يُفهم. وهو بالذات، في دخيلة نفسه، لا ينكر أن ما يكتبه اليوم لن يفهمه غداً.

وفي الأجناس الأخرى، غدت الجدة والحداثة في تتويه القارئ عن المعنى، وتبعيده عن المقصود وخلطه بغيره، وتحميل الفكرة زوائد وحواشي تسبغ عليها أهمية، يستعرض الكاتب مهاراته اللغوية، للتعمية على أفكار مستهلكة أو مفرطة في سطحيتها. هذا ما صادفني مراراً مع نقاد الروايات. فالناقد، يتصنع المنهجية، ويتشاطر في اللغة، ويتمحك متفلسفاً ومؤدلجاً، ليتعسف في إيراد أحكامه النظرية، وكأنها تتطابق مع ما ينتقده، فيشط ويمط، ويتطعوج ويتزحوك، ويتملعن ويتلعون. ويتوسل أي شيء ليبرهن على صواب

ما ذهب إليه، فتجده يدع الرواية وما تزخر به، وينكش خيطاً ما، يُسبغه عليها عنوة ليؤكد أنها أخطأت المطلوب، فتصبح الرواية رجعية أو غير إيجابية، آية في الكمال أو تشكو من الضعف... فيجد ما شاء له أن يجد، وقد تسعفه قريحته الملتوية في تلبية جهله، إن لم نقل ضغائنه، فيقتطع من الرواية كلمة أو سطراً أو موقفاً، ليثبت قسراً أنها تنفي نفسها بنفسها، فيحشرها في قالب هي بريئة منه، قالب صُبَّ في ذهنه. فيا قريني، لا تغشك أقوال النقاد، أغلبهم يدّعون العكس، لكنهم يكذبون. حتى بات امتداح الناقد أو ذمه لعمل ما، لغاية في نفسه، يمرره بالتلاعب والخبث... والتماس الغموض، لكن الأدب منه براء.

الغموض للأسف، نهج متبع على نطاق واسع، يمارسه النقاد الذين أغلبهم ليسوا بنقاد وإنما متأدبون يدعون النقد، فيستغلون الغموض للتغطية على قصورهم وتقصيرهم، غموض يتعمد التخفي والمواربة والالتفاف إلى حد تضييع الفكرة، هذا إذا كانت هناك فكرة، والهروب من بساطة الأسلوب ووضوح العبارة لئلا ينفضح قوله المعاد المكرور والمهزول.

فيا قريني حلفاني، ليست هناك فكرة أدبية أو فلسفية أو علمية مهما يكن حظها من التعقيد والعمق والدقة، إلا وتستطيع ملامستها ومجاذبتها والتعبير عنها بلغة مفهومة، وإيصالها إلى عقل القارئ. وهذا لا يتم إلا بشروط، منها: أولاً، إجادة فهم الفكرة وتمثلها جيداً، لتتمكن من التعبير عنها بوضوح، وقتئذ ستواتيك الألفاظ الملائمة لها دون قسر. ثانياً، الأمانة، توخّ ما تمليه عليك، فلا تستخدم فذلكات تنظيرية أو فلسفية أو لغوية لإسباغ قيمة على ما تكتبه. ثالثاً، النزاهة، لا تسبغ ضغينتك على الكِتاب لأنك تكره الكَاتب. رابعاً، وهو

الأهم، ألا تنصاع لوهم يقيس عمق الفكر بغموض التعبير.

قريني حلفاني، إياك والخديعة، إن جعل أية فكرة في متناول البشر، ليس ترخيصاً لها، أو حطاً من قيمتها. فلا تخشَ البساطة والسلاسة في عرض أفكارك مهما كانت ميتافيزيقية أو مادية، تُعنى بالطبيعة أو بما وراء الطبيعة؛ الفكر لا يُحتكر، بل يبذل بتقريبه إلى عامة القراء، إنه للناس، جميع الناس، ويتعين علينا تقديمه للجميع بلا مقابل. فلا تحاول تحت أي حجة أن تمسك عنهم أرفع الأفكار وأعمق المعاني والقواعد في علم السياسة والأخلاق، أو تحجب عنهم الإشكاليات النظرية في فلسفات المدارس المثالية والظاهراتية والوضعية المنطقية والوجودية والماركسية والبنيوية والتفكيكية إلى ما بعد الحداثة. وإذا كنتُ قد نسيتُ الكثير أو البعض منها، فبوسعك من أجل تغطية أشمل العودة إلى فهارس المذاهب الفلسفية والأدبية والعلمية، وعلم الاجتماع وغيره.

فقال حلفاني، إذا فتحنا هذا الباب، فسوف يسقط نقاد كبار، ومؤلفون في أجناس تنظيرية متنوعة، ومفكرون جهابذة يساريون وليبراليون وحداثيون ومناضلون ومتقاعدون وفانتازيون وطفيليون ومتطفلون.

فطمأنه حامد، لا تخف عليهم من السقوط والتساقط، سرعان ما ينهضون، هؤلاء لا يخشى عليهم من كسر ساق أو خلع رقبة، طالما أنهم احترفوا ركوب الفكر بأنواعه الموسمية والطارئة والمحلية والدولية. وإنما إرثِ لحالك، إذا وقعت في قبضتهم، فلن يرحموك.

□ □ □

انشدّت عزيمة حلفاني ولم يخف، استعرض مقالة الأستاذ الكاتب محسن علي حسن، ثم كتب رداً عليها، مورداً حججه بقوة مفنداً

ما فيها من أفكار ملخبطة ومدَّعاة، قديمة وجديدة، عظيمة وسخيفة، وشواهد غير مطابقة. لم يراع سوى أمر واحد، ألا يذكر اسم المنقود، محيلاً انتقاداته إلى شبح من أشباح الوسط الثقافي!!

هنا علينا أن نجد عذراً لحلفاني، فقد عمل طبقاً لخبرة حامد في عالم الكتابة، فكان في منتهى الحذر، وأورد حججه دون غموض. ووافقه حامد، معك حق، إذا ذُكر اسم الأستاذ، فإن ابتسامته الأفعوانية ستنفث سمها الزعاف وتلدغك لدغة ترديك قتيلاً؛ عملت حسناً بعدم استثارة جنونه، إذا جنَّ، فلن يوفرك من أذى معارفه المتنفذين من الأدباء والضباط وحتى المخابرات، وينتقم منك انتقاماً جباراً لا يبقي ولا يذر، وقد أذهب أنا ومعي رئيس التحرير بين الأقدام.

ولقد ربح حلفاني جولة، كانت من حسن حظ البساطة، وأيضاً الغموض، ربحها لافتقادها إلى خصم ظاهر!! الأستاذ لم يتجرأ على الدفاع عن الأشباح، لو دافع عنهم، فسوف يعترف بعالم مباح لهم، بينما لا يرغب في انكشاف علاقته بعالم تحكمه علاقات نفعية فاعلة وغير منظورة على حساب الأدب. تجاهل المقالة، ولم يرد عليها. لماذا يدخل في حجاج، إذا كان المقال لم يقصده ولم يوجه الكلام إليه بالذات؟! كان الجميع وعلى رأسهم الأستاذ محسن موافقين على أن قوة التعبير في التماس الوضوح.

دون عقابيل، انتهت معركة كادت أن تطيح بحلفاني ومن هم أمامه وخلفه وفوقه، أنقذه منها، حسن التخلص بقوة الفكر، لا بأية قوة أخرى.

كانت انتصاراً عظيماً، لولا ما خالجه من خواطر، وربما أوهام، قادته إلى قصة أخرى.



24

المافيا:
لا بد لأي كاتب مهما بلغ من عبقرية من دفشة مافيوية

بعد معركته الناجحة والمثمرة ضد الغموض، لم يشعر بالارتياح. أدرك متأخراً أنه بتصديه لمحسن علي حسن، قد خاض حرباً واسعة النطاق ضد عدد كبير من الأدعياء، هؤلاء لن يغفروا له هزيمتهم، سيبحثون عنه، ولن يقنعوا بأقل من القضاء عليه قضاء أدبياً مبرماً. وتهيأ له (هكذا كأمر منته) أنه أصبح مطلوباً من عشرات الحاقدين!! وركبه من جراء فقدانه لأساسيات المناعة المستمدة عادة من الواقع (وهي مناعة طبيعية مضادة للتخيلات الجامحة) هاجس منغص، صوَّر له خصومه يتحفزون للانقضاض عليه والتنكيل به، بغية إخماد روحه المتوثبة للكتابة والترجمة.

طاحت تصوراته السيئة بانتصاره الأدبي الساحق. مع أنه كان واثقاً بأنه يختلق وساوس ضعيفة لا أساس قوياً لها، وإذا كانت الهجمة المتوقعة قد بدت له ساحقة وبلا حدود، فلأنها كانت تقتات من معين مأساته. لم يفلح، في طردها، الخيال المريض أقوى من الواقع السليم؛ ثمة منطقة معتمة في داخله، تفلت منه ولا يستطيع السيطرة عليها.

لكنه سيتماسك ويعزو استفحال هواجس باتت يومية إلى الغوامض التي أيقظها من سباتها وهاجمها، فارتدت عليه بهجوم معاكس تركت وراءها شعوراً، خشي أن يصفه بالغموض، لكن لا مناص، كان كلي الغموض، أودى به إلى شعور باليقين، بأنه على موعد دائم مع المصائب!! إحساس تخثر إلى مشهد لا يفارقه، موضوعه الانتقام. يتماثل فيه الروائي سميح حمدي إلى جانبه، نحيلاً متهدم القوام غائر الخدين (مع أنه لم يره بتاتاً)، كلاهما مغموران في برميل يمتلئ بالخراء، لا يظهر منهما سوى رأسيهما؛ عقوبة صارمة ليس ثمة أوسخ منها، ولا يمكن تصورها (ومع هذا تصورها)، أصدرتها المجموعة إياها، لتعديهما على عالم الأدب النقي، ضاربة صفحاً رغم طهرانيتها عن التناقض الصارخ بين النقاء والخراء. ستليها عقوبات لا تقل عنها قذارة، تُعِدُّ لها المجموعة نفسها. بات مصيره إن تمكنوا منه، لا محالة، شبيهاً بالمصير المجهول للكاتب المسكين. وتساءل من باب الفضول والتحوط، ترى بعدما غمروه بالنسيان، ماذا كان مصيره؟! الموت بؤساً ويأساً، أم هذا من بنات أفكاره!!

لو أنه في أميركا، لاستعان بمحقق جنائي خاص، يأتيه بأخبار الكاتب المفقود، يقطع بها الشك باليقين، قد يكون تحت المعالجة في مستشفى أو محتجزاً في مصحة عقلية، أو فارق الحياة منذ زمن

طويل. مصير المغمورين لا يلتفت إليه أحد، يموتون ببطء بعد معاناة طويلة، أو يصابون بمرض عضال لا شفاء منه، أو لوثة تذهب بهم إلى الجنون. هل يدع نفسه لواحد من هذه المصائر، مريضاً تسيل ريالته من فمه ويتبول على ساقيه دون إرادة منه، أو مجنوناً يتسلى بدهن وجهه بالغائط، ليخيف زملاءه المجانين.

عَصَرَ دماغه، فخطر له صديقه سامي!! سامي يضارع المحققين الخاصين الأميركان، بل وأشطر منهم، خاصة في مدينة يعرفها كدمشق، لا تخفى عليه خافية فيها مهما تخفت!! ولا يعسر عليه الحصول على معلومات عن أي شخص!!

وما كان منه إلا أن تجاهل خذلانه له في المرة السابقة، واتصل به، ربما أفلح هذه المرة.

□ □ □

انبسط سامي من اتصال حامد به، ما دام سيطلب شيئاً، فمياه الصداقة ستعود إلى مجاريها بينهما، هذه المرة سيقدم له خدمة مجزية لا تنسى. حامد لم يسأله المستحيل؛ بعض المعلومات عن كاتب يدعى سميح حمدي، ضاعت أخباره منذ سنوات. سأله سامي قبل أن يتورط بوعد يصعب عليه تنفيذه.

«هل لصاحبك نشاطات سياسية؟».

«كان ناشطاً روائياً فقط».

وأرفق حامد ما يعرفه عنه، أديب نشر روايتين، الأولى أحدثت صدى، الثانية لم تحدث صدى؛ والثالثة لم تنشر. توقع له الكثيرون

مستقبلاً رائعاً، فحسده بعض الأدباء وأضمروا الشر له، وسلطوا عليه مجموعة، أو جماعة، أو تجمعاً، أو جمعية، وربما أخوية أو عصبة؛ كانت إحداها وراء اختفائه.

«عصبة؟! تقصد عصابة؟».

«لا. العصبة لها علاقة بالأدب وما يماثله من نشاطات ذهنية وقومية واجتماعية وسياسية، أما العصابة فبالجريمة حصراً. أنا أتكلم عن أدباء».

«قل لي، إن لم تكن العصبة عصابة إجرامية، فما الوصف الذي تطلقه على الاختفاء المشبوه لأديبك الواعد؟».

حامد لم يجاره، ما أبعد الأدب عن الجريمة، ما دام الأدباء يخوضون معاركهم على صفحات الجرائد، فلن يرتكبوا سوى حماقات على الورق، لا جرائم على الأرض!! ولئلا يشتط سامي في التفسير، اضطر إلى إشهار مخاوفه وتحديدها:

«أخشى من مصير مشابه، هذا إن لم أكن أعيشه. وضعي لا يختلف عن وضع سميح حمدي. أنا في الواقع مختف مثله، أريد أن أكون على بينة من خطوتهم التالية».

أقسم سامي على فضح أمرهم، مهما كانوا عصبة أم عصابة أو حتى جمعية خيرية أو معلوماتية. ووعده بالكشف عن مكان الكاتب المختفي أو المفقود أو الضائع أو... مهما كان وضعه. أمهلني أسبوعاً فقط.

عادة، يقيس سامي الأسبوع بشهر، إن لم يكن بستة أشهر. هذا من

أصول الشغل، وهو أسلوب دارج يربط الزبون بصاحب العمل بواسطة مهل قصيرة، تفيد بتهدئة العميل وتفاؤله بحل قريب، بينما الحل بعيد. سامي من هذا النوع، يستسهل إعطاء المواعيد القريبة الكاذبة، وبما أن حامد أدرى به، لم يتوقع أن يتصل به بعد أسبوع بالتمام والكمال، ويطلب منه القدوم على وجه السرعة قائلاً بظفر: المعلومات جاهزة.

لم يكن تقيّد سامي بالمهلة التي حددها، لصدقية عابرة، بل لأن منظر صديقه حزَّ في نفسه؛ لم يره من قبل مرتبكاً وخائفاً على هذا النحو المثير للأسى. صمم على مساعدته، وصادف أن جهوده كانت في مكانها فأعطت ثمارها.

بداية، حدد سامي الأماكن التي سيرتادها بحثاً عن الأديب المغمور، فلم يخطئ طريقه إلى الشلل المنبوذة لجماعات الأدباء المتذمرين والصحافيين الناقمين المبعثرين في المقاهي الرخيصة المتوزعة في شارع النصر وساحة المرجة. فأصاب تنقيبه المكان الصحيح، وحصل على قدر كبير من الحقائق، يشوبها القليل من الأكاذيب، أو بالعكس؛ ومنحته سواء كانت أكاذيب أو حقائق، فكرة عما يعانونه من إذلال لا يحتمل، وإن كان أغلبها سببه أشخاص مجهولون!! وإذا أزحنا مشاعر الاضطهاد العصابية المتخيلة، فلا ريب أن هذه المشاعر تصبح فجأة حقيقية وتودي بهم (كما لاحظ لدى بعضهم) إلى النحيب وشد شعر الرأس واللحية. المهم أنه أمسك بطرف الخيط، وتمكن بواسطته من الحصول على معلومات كانت مبذولة في تلك الأمكنة، لكن ينبغي السعي إليها وتحريض المسحوقين أدبياً على الإفضاء بها، بسبب خجلهم من الإفصاح عنها، وهو مجرد دلال مصطنع. فما بالنا إذا كان سامي يُخرج الحية من وكرها، ومن

أستُدرجوا إلى الكلام لا يحتاجون إلى استدراج!!

كان الصيد وفيراً، حتى أن حامداً بعد أن اطَّلع على ما جادت به ثرثراتهم من معلومات، اعترف دون مجاملة بأنها فاقت توقعاته. فيما علق سامي بثقة، يا صديقي إذا كنتَ قد وجدتَها أكثر من اللزوم، فلأنك تعرف أقل من اللزوم.

□ □ □

اتخذ سامي وضعية الأخ الكبير والناصح الأمين ذي التجارب المتنوعة. طبعاً، حقائق الحياة القاسية والخبرة والتعامل مع البشر، كلها تفرض نفسها، فسامي الذي سعى في مناكبها (الحياة) وتعثر في مسالكها (الحياة) أقدر في هذا المضمار على إعطاء صديقه درساً موثقاً وموثوقاً!! وليس من العجيب أن يكون أستاذاً لحامد في أمر قد يبدو لصيقاً بعالم الفكر السامي، لكنه بالعالم السفلي ألصق:

يا صديقي الطيب القلب... حذارِ، العصبة التي ذكرتها لي، ليست من أنواع التجمعات اللطيفة، ولا هي بالمجموعة ولا بالجماعة أو ما شاء لك تسميتها، إنها ما استبعدته تماماً؛ عصابة محترفة ومنظمة تضرب بكل بشدة وبلا رحمة. لا أريد أن أخيفك، وإنما تنبيهك لتحترس منها.. فلا تندهش.

(فاندهش حامد ورفع حاجبيه مستنكراً انتهاز صديقه الفرصة للوثوب على العاملين في الثقافة، والحط من شأنهم، ووصفه لجماعة تنشد تنقية الأدب من الشوائب، بالعصابة المحترفة!! الوصف وحده يحيل مهنة الأدب الرفيعة إلى احتيال ولصوصية، ولو كان للتهويل فحسب).

أين تعيش؟! وما الذي تعرفه عن التجمعات والأخويات الداعية إلى التعاون والتضامن والتآخي؟! هؤلاء خارج هذه المجموعات والجماعات البريئة؛ وتستطيع أن تطلق عليهم وصفاً، أقرب إلى الدقة: مافيا... لا تستغرب، هذا ما يشاع عنهم. نعم مافيا أعضاؤها أدباء كبار وشعراء مشهورون ومفكرون معروفون، وسرُّهم ذائع، يظنون أنفسهم يعملون خفية. لكن أولئك الأدباء التعساء معاقرو الخمرة الرخيصة يعرفونهم حق المعرفة، ويا لسوء حظهم لا أحد يصغي إليهم ولا يصدقهم.

(حامد لم يقاطعه، مع أن الأمر يستحق المقاطعة، لا سيما أن صديقه في تشخيصه يخلط بين أسلوبين نقيضين، البؤس واستدراره للعواطف، والمافيا وما تستدعيه من قسوة باردة).

ويميز العالمون ببواطن الأمور هذه العصبة عن المافيا المعروفة، بالمافيا الثقافية نسبة لنشاطاتهم ومؤهلاتهم. وإذا أردت معرفة لماذا أُطلقت عليهم هذه التسمية، فاسألني.

(حامد لم يسأله، يستحيل أن تجتمع المافيا مع الثقافة، فلماذا يسأله؟! ومع هذا تابع سامي، لأن: فاسألني؛ مجرد كلمة تقال، لا يقصد منها السؤال، وإن أعقبها الجواب).

لأنهم مثلها ينتهجون الأساليب نفسها. يعتمدون مبدأ تقاسم الأسواق، والتقاص في المنافع، متآزرون في السراء، ومتكافلون في الضراء، يجمعهم اتفاق ضمني وتضامني على الترويج بعضهم لبعض، وتبادل التسهيلات الأدبية، تتمظهر علناً في التعاون الراقي على تسويق الأعمال الأدبية لجماعاتهم المتوزعة في العواصم العربية. أما أعمال الخارجين عنهم، فمحقها سراً في المهد.

(حامد لم يأخذ المافيا المثقفة على محمل الحقيقة، إذ أية حقيقة في تمظهرها عربياً بيد واحدة؟ ما دام المثقفون لم يتفقوا في البلد الواحد، فلن يفلحوا في تحقيق ما عجزت عنه الحكومات العربية قاطبة، رغم الأخطار المحدقة ومناشدة شعوبها).

ورغم أنني أحذرك منها، لكنها فعلياً لا يُخشى منها كثيراً، رغم الاشتباه بينها وبين مافيات المخدرات التي تمارس القتل دون شفقة. أما الأدباء، وهذا أمر تحسدون عليه، فمنزوعو السلاح، يستخدمون القلم وهو سلاح لا يميت.

(هنا خرج حامد عن صمته واعترض بقوة: «لكنه يُذيق ما هو أشد من الموت».

ولم يوفر نفسه كمثال غني عن التعبير: «مصداقاً لكلامي، انظر إليَّ».

فنظر سامي إليه، وأراد أن يواسيه، لكنه خشي أن ينسى فكرة كان في سبيله إلى قولها، وهي فكرة تسيء بشدة إلى المثقفين).

ومع أنني أستبعد أن تكون المافيا الثقافية على علاقة بالمافيا الإجرامية، فالتماثل بينهما جلي، كلاهما لا يتورعان عن فعل مهما كان منافياً للأخلاق. بل وتتفوق الثقافية على الإجرامية، ليس بأنها أكثر دهاء فحسب، بل لأنها تستطيع بكل تبجح، توفير المبررات الأدبية والإنسانية لفساد أعضائها وتمويه انحطاطهم بأبعاد فلسفية أو سيكولوجية عميقة الغور، أو شطحات عدمية أو سيريالية وقد تكون رومانسية، وربما داروينية، أي لا تحوجهم المسوغات. لم أخترع شيئاً، سمعت عنهم خلال اليومين الفائتين أموراً شائنة يندى لها الجبين خجلاً. صدقني، ليسوا بالبراءة التي يظهرون بها.

(لم يتوقف حامد عند الأمور الشائنة، لأن سامي لم يلوح بها إلا من قبيل التهويش. لكنه تلقف فكرة التفوق وركز عليها، كانت تعني أنهم اقتبسوا من المافيا إجراميتها واعتنوا بتطويرها من الناحية الفكرية والأخلاقية، مما يزيح اللثام عن بعض الأمور الغامضة).

□ □ □

وهنا قال حامد:

«لو تبنينا فكرتك، مع عدم اطمئناني إليها، فأعتقد، إذا كانت صحيحة، وهذا مستبعد، بأن هناك تنسيقاً وتبادل معلومات وخبرات بين الأدباء، ما ينقص الأول يتعلمه من الثاني، وما لا يتجرأ عليه أحدهما يقوم به الآخر، أشبه بتوزيع مهام، وفي هذا تفسير لمصير الكاتب حمدي، شاركت به أكثر من جهة، إذ لا يمكن إخفاؤه دون لمسات ثقافية حاذقة، مع استخدام أساليب مافيوية محضة، تُعنى بالقضاء على خصومهم بالقوة الناعمة في الظاهر».

فوافقه سامي قائلاً له: أحسنت التعبير.

ولأنه أحسن التعبير، أسقط تحفظاته، واندفع إلى المزيد من التعبير:

«لكنهم قصيرو نظر، يعتقدون بأن ظهور كاتب حقيقي يحجبهم ويقطع مورد رزقهم، فيمارسون أقصى ما لديهم من حقد ويرسلونه إلى النسيان».

وسكت، هذا أقصى ما خطر له في حمأة التعبير، على الرغم من استبعاده صحته.

فتناول سامي الفكرة ووضحها: لكن بأساليب مختلفة، فعدا حطهم

من موهبته بأسوأ النعوت، يسخرون منه ويتجاهلونه. ويصادرون ما قد يُكتب عنه من مديح، ويهددون من يحاول الإشادة به، أو حتى الإشارة إليه.

رفع حامد حاجبيه مدهوشاً: وأنا ما الذي ينبغي لي فعله؟!

فاندهش سامي بدوره، ترى هل يريد صديقه وصفة ينجو بها منهم، أم طريقة يعمل بها معهم؟! خاصة أنه ليس مبدعاً ولا موهوباً، مجرد أنه يستفسر عن زميل له ضاعت آثاره، والوسواس وحده جعله يعتقد بأنه قد يتعرض إلى مثل هذا المصير. فتابع حديثه، وفيه الجواب الشافي:

«لا بد لأي كاتب مهما بلغ من عبقرية من دفشة مافيوية، وفي حال طمح إلى مكانة، فلا مفر من تعاونه معهم، أي أن يكون عميلاً لهم، ريثما يضمونه إلى بطانتهم، وإلا كان مصيره السحق والمحق، وفي أحسن الأحوال البقاء ناشئاً في عالم الأدب، ولو بلغ من العمر عتياً».

فقال حامد: ألا تعلم السلطة بوجودهم؟

قال سامي: طبعاً تعلم، لكنها لا تهتم إلا بما يهددها، ولا تأخذ بمهاترات تافهة كالشجارات والعداوات الأدبية.

قال حامد: لكن التجمعات والتكتلات السرية ممنوعة؟

فقال سامي: ما دامت لا تعمل ضدهم، فسوف تتغاضى عنهم.

قال حامد: لماذا لا تعترف بهم كتنظيم قائم؟

فقال سامي: لأنها لا تقيم لهم وزناً، عدا أن شراءهم فرادى أرخص.

صمت حامد، ثم أخذته الحمية: ماذا لو تصديتُ لهم؟!

أجابه سامي: ذنبك على جنبك، الاغتيال جزاؤك. أقصد اغتيالك أدبياً.

فاستوضحه: أدبياً فقط؟!

فقال سامي: هذا كاف لتمويتك. ضع في ذهنك، إذا ارتكبوا جريمة، فكاملة وتحت غطاء نقدي، فلا يحاسبون عليها، ألم تسمع بأديب انتحر؟ من الذي دفعه للانتحار؟ هل حاسبوا أو حاكموا أحداً؟ ولهذا أقول إنهم لا يقلون عن المجرمين قسوة، ولا عن السياسيين جشعاً. أما من ناحية الخنق والذبح، فيدهم قصيرة. وضحك قائلاً، رغم تنفجهم، أياديهم لا تصل إلى مؤخراتهم. ثم أنّب نفسه قائلاً، ما بالي أضحك، بينما الموقف لا يدعو إلى الابتسام!!

فعبس وانتقل إلى التفاصيل ليغطي الموضوع بشكل أوسع وأعمق:

يقوم تنظيمهم المافيوي على اقتسام الأنواع الأدبية، وتوزيع نشاطاتهم على عدة لجان مختصة: لجنة الشعر، لجنة الرواية، لجنة القصة القصيرة، لجنة المسرح، لجنة النقد. تمثلها في كل عاصمة بؤرة ثقافية تتولى العمل على احتكار صناعة الأدب ورفعه وخفضه، ومن ثم استبعاد أي أديب لا يروق لهم تحت زعم طرد الدخلاء.

تشد كل بؤرة من أزر البؤر الأخرى في العواصم العربية، فمثلاً معتمدها في دمشق الناقد حلوم يتعاون مع بؤر بيروت والقاهرة وعمان وهلمجراً. يتبادلون الدعوات إلى المؤتمرات والمهرجانات والندوات، ويقيمون حفلات التكريم، ويدعون أحياناً بعض الأدباء

من خارج شللهم ذراً للرماد في العيون، ولا يعترفون بأحد غيرهم. هذه النشاطات تدر عليهم شهرة في الصحافة والفضائيات، ومالاً وفيراً يأتيهم من عائدات المهمات والسفريات، والتمتع برفاهية الإقامة في الفنادق الفخمة وتناول الأطعمة والمشروبات بلا حساب.

قاطعه حامد ساخراً: مال وفير؟!! ليس أكثر من مبالغ ضئيلة لا تتجاوز مهما بلغت الألوف، ونادراً ما تبلغ مائة أو مائتي ألف ليرة، من الظلم مقارنتها بمئات الملايين من العملات الصعبة التي تدرها المناصب والنفوذ على سياسيين فاسدين.

فقال سامي: ملاحظتك في محلها، تفسر شراسة الصراعات المافيوية الثقافية وخستها، وما سر ضراوتها إلا من تنازعها على الفتات، وقد تتفاقم أحياناً إلى حرب عاتية بين الأدباء المافيويين أنفسهم. ما يدعو للعجب هو، إذا كان المردود المادي لهذا التقاتل ضعيفاً جداً، فما الداعي لمافيا يصح فيها القول؛ اسم عريض ودخل ضئيل، ألن تكون الحصيلة مافيويين تافهين، وجرائم سخيفة؟!

وهنا جاء دور حامد ليفكك هذه المعضلة التي استعصت على سامي على الرغم من خبراته. فقال، المرود الحقيقي هو الاستئثار بالسلطة الثقافية، والأهم الشهرة.

قال سامي: ما نفع الشهرة مع عائد مالي زهيد؟!

قال حامد: البقاء على قيد الشهرة أقوى من البقاء على قيد الحياة.

هز سامي رأسه متعجباً: شهرة بلا مال؟! حقاً للأدباء نزواتهم. وتابع، ومهما يكن لا تستهن بهم، لو لم تجردهم الأقدار من الأسلحة الجارحة والنارية، لما توانوا عن استعمالها. ولهذا يمارسون ما

هم قادرون عليه: النميمة والغيبة والخديعة والتجريح واختلاق الأكاذيب...

وأكمل حامد: والنقد اللئيم.

رد سامي: لكنه لا يؤخذ على محمل الأهمية ما دام مغرضاً.

قال حامد: لا تستهن به، إنه نقد حقير، وهو سلاح فتاك لديه القدرة بالرغم من غباء صاحبه، على قتل أعظم عبقري، دونما تأنيب ضمير.

استدرك سامي: لنعد إلى حديثنا، كل بؤرة ثقافية تحتوي على مطبخ، يجري فيه إعداد كُتاب وكاتبات من مختلف الأجناس الأدبية من ذوي المواهب العادية والأقل منها، وتحويلها من خلال إنضاج سريع يعتمد على حرق المراحل، إلى فلتات أدبية ثمينة ذات بريق يخطف الأبصار وتصديرها إلى أسواق القراءة، مرفقة بشهادات أدباء مافيويين، تطلقهم نجوماً في سماء الأدب. كذلك الطبخ المعاكس بحرق السمعة الأخلاقية للأدباء منافسيهم ولو كانوا مثلهم، أو الأدباء الطالعين أصحاب المبادئ التي عفَّى عليها زمننا، بإطلاق شائعات، عادة ما تكون جاهزة، القوادة للرجال، والبغاء للنساء، والشذوذ للجنسين، كما يروجون أخباراً عن خيانات زوجية وعشيقات وتهتّك جنسي، يعيبون عليها أنها تتم لقاء أجر، لكي يفقدوها أية صبغة بوهيمية محببة، فلا يغض النظر عنها.

فجأة قطع سامي حديثه، وسأل حامد سؤالاً غريباً: هل أولادك يشبهونك؟

فقال حامد: الصبي يشبهني، والبنت تشبه أمها.

فقال سامي: أليس فيها شيء يشبهك؟

قال حامد: لم تأخذ مني سوى لون عينيَّ.

فقال سامي: هذا من حسن حظك، لن يفلحوا في التشكيك بأبوتك لأولادك، ومع هذا يبقى احتمال اتهامك بالتعريض على زوجتك قائماً.

ثم عاد إلى حديثه: ويشاع بأنهم لا يتورعون عن المتاجرة بالرقيق الأبيض، فيقدمون للمتنفذين ثقافياً وسياسياً، حسب الطلب، شاعرات حالمات أو روائيات واقعيات، من مخزون ما يتوفر لديهم. بعدها اشهد صعودهن المدوي، واقرأ ما هب ودب من مهازل شعرية ومساخر روائية، يُطنب المافيويون في مديحها من المحيط إلى الخليج.

(إذا كان حامد قد صمت أحياناً، وانساق معه أحياناً أخرى، فهذا لا يعني أنه يوافقه، أو هو راض عما يقوله صديقه. كيف يرضى، وهو يراه يمزق الأدباء والأديبات شر تمزيق، ويلقي بشبهات قوية على الثقافة نفسها؟! وكأن الثقافة تنصاع لأهواء آنية ترتكز على مصالح مادية وجنسية. وهي اتهامات مستقاة من رواد المقاهي الحاقدين. لم يجاره، لا سيما أن سامي استمرأ العبث بسمعة فتيات موهوبات في عمر الزهور، قال بأن دخلاء على الصحافة استدرجوهن إلى الرذيلة بعدما ادعوا أنهم سيحققون لهن آمالهن الأدبية، وإيصالهن إلى العالمية بفضيحة واحدة، بفبركة محرمات شرقية شهوية، تستهوي الغرب الفاجر، تعتمد الجنس الحرام والمحرم، وتنال من الدين والمتدينين، وفي طريقها لا توفر المخابرات والدولة القمعية والديكتاتورية، إن لم تصب هذه فهذه).

لكنه سيهب ويعترض بحدة، ويحذر صديقه غاضباً، لا ينبغي نقل شائعات تنال من الأعراض. ولا إلقاء التهم جزافاً، إن سمعة أديباتنا فوق الشبهات، وما يلاك عنهن من أقاويل قذرة يطلقها أناس حقراء وجبناء تتآكل قلوبهم بالحقد والبغضاء. كيف نسوّغ للأديب أن يعشق ويتمعشق، وأن يخون ولا يُخان، بينما نتهم الأديبة بالفجور إذا أحبت أو استلطفت أو تلطفت؟! أما إبداعهن فيفصل فيه الأدب وحده.

فوافقه سامي على مضض، واستعمل تعبيراً سائراً: بكره بيدوب الثلج وبيبان الخرا، أي قريباً تنكشف الأمور على حقيقتها!!

لم يفت حامد أن صديقه لا يوفر فرصة للانتقام ببذاءة من الأدباء. فاستنكر: لقد أكثرنا من الكلمات المقززة، فلنرفع مستوى الحديث.

فقال سامي: يا صديقي، مهما حلق الأدب عالياً في الآفاق، أو غاص عميقاً في الوحول، لا يشفع للدعارة دعارتها، ولا من الشرمطة شرمطتها.

قال حامد، نعم، الأولى دائماً تسمية الأمور بأسمائها، وإذا كنت أصر على ما قلته، فلكي لا تختلط مع غيرها.

غير أن حامد سيرفع مستوى حديثهما، ويركز نقاشه معه حول نقطة حساسة؛ خلاصتها، إن لم يمس الأدب العظيم أرواحنا، ولم يرع في أفئدتنا توقاً إلى الحقيقة والعدالة مع قدر كبير من التسامح!! فبئس الأدب والأدباء.

فقال سامي باستخفاف، طالما أثبتت المبادئ قدرتها على أن تميت أصحابها قهراً، وهي إن لم تقتلهم كمداً وجوعاً، ترميهم في

السجون على الأقل.

ثم اتخذ هيئة الجد وقال: دعني من المبادئ، واسمع مني، حلّ مشكلتك يسير، يكفي ألا تشغل بالك بهم، وتُطيِّز عليهم، وتمضي في طريقك دون أن تهتم بهم.

(حلٌّ يسيرٌ، نعم، لكن في منتهى الصعوبة. حامد حساس كغيره من الأدباء، تشغل باله أصغر الأمور، ويقلق ويأرق، بسبب ومن غير سبب، فكيف يُطيِّزُ عليهم، ويمضي في طريقه، إذا كانت وسائل عيشه رهن رضاهم؟!).

ثم ختم سامي حديثه قائلاً: من جهتي، سأبحث لك عن الكاتب سميح حمدي، لكن لا تنس، هذا الكاتب مغمور جداً أكثر مما تتصور، الأغلبية لم تسمع به، واتفق الجميع على أنهم يجهلون مكانه أو ما حلَّ به. امنحني مهلة ثانية لا تقل عن أسبوع، ولا تزيد على أسبوعين.

□ □ □

المعلومات السابقة أرقته، مع أنها تكهنات غير موثوقة، مهما كانت نسبة الحقيقة فيها، لكنها رغم كل شيء، استدعت منه إعادة النظر في الفصل المعنون بـ«تاريخ أدبي»، لكونه بُني على المدارس الفكرية لا على البؤر الثقافية، فلم يأخذ بالاعتبار العائلية المافيوية وقراباتها المصلحية. بيد أنه وقبل أن ينخرط بكتابته ثانية، لم يعسر عليه اكتشاف أن النسيج المافيوي محبوك جيداً وعصيّ على الخلافات الجوهرية، والتعاون لا ينقطع ولا يتضرر، إذ المنافع تبقى سارية بين دعاة الالتزام والانفلات، وبين الاشتراكيين وغير الاشتراكيين، اليساريين وغير اليساريين، الليبراليين وغير الليبراليين، الحداثيين وغير

الحداثيين. وكما انصرفوا من قبل إلى قراءة ماركس ولينين، انصرفوا فيما بعد إلى قراءة فوكوياما ودريدا. وما يقرأونه لا يفهمونه، بل يستخدمونه للوصول إلى مبتغاهم، ما يجمعهم، كان عابراً للأفكار واختلاف المواقف السياسية.

وكخاتمة لهذا الفصل، مهما جافى تأويل حامد للحقيقة، لن يجزم بوجود مافيا ثقافية!! حامد ليس ساذجاً، ولا يَشترط أن يكون الأديب مستقيماً، حتى لو كان عظيماً، أعماله الفكرية والأدبية تشفع له سقطاته أو بعضاً من حقاراته، لكنها لا تذهب به إلى تشكيل جماعة ظاهرها الأدب، وباطنها قتل الأدب.

وربما كان لتقصيات صديقه سامي، أن تكون صحيحة ومفيدة، لو لم يكن حديثه مغرضاً، وتحكمه تلك العقدة التي تجعله يكره الدراسة والعلم والشهادات. السيرورة التنافسية ما زالت ترسم العلاقة بينهما، وعندما واتت سامي الفرصة أساء تفسير ما حصل عليه من معلومات، لينسف مهنة الثقافة الجادة ويساويها بما يرتكبه غيرها من أخطاء وخطايا لا تغتفر، وبما أنه يعتقد بأن لكل مهنة عصابة، فلا مبرر لاستثناء الأدب.

على كل حال، تغلب الاطمئنان على حامد، ولم تتعد مخاوفه النطاق الوارد والمأمون، عن دخلاء أنذال تسللوا إلى الوسط الثقافي، يعيشون فساداً فيه، وسوف يُطردون منه عاجلاً أم آجلاً. ومهما كانت مآخذه على ما يجري، فلا ينبغي أن تتجاوز الشكوى من تلك المزاجية السيئة والسخيفة لبعض النقاد والأدباء.



25

الروائي:
الكوابيس لا تخطئ

بعد الجلاء الموقف عن هدنة قد تطول، وأخبار قد لا تأتي. حان الوقت لينفض عنه وساوسه، ويكسر حالة الجمود التي يرزح تحتها، ويتدرب على الخروج من الدائرة الضيقة لأزقة شارع العابد، بتوسيع قطرها بحيث يشمل محيط دائرة أكبر. فأخذ يقوم كل يومين أو ثلاثة بمشوار صباحي محدد، يذهب إلى سوق العتيق يتبضع ما يلزمه من خضار وفواكه، ثم يعكف على بسطات الخردة المجاورة، ويشتري أشياء لا تلزمه لمجرد أن الغرض بخمس أو عشر ليرات، يمر في طريقه إلى حارة سوق ساروجة، يبتاع من الفرن كيلو خبز أو ربطة كعك، ومن مطعم مجاور صغير فولاً أو مسبحة، وقد يشتهي تسقية بالزيت أو بالسمنة، فلا يحرم نفسه من تناول زبدية منها مع البصل والفجل والمخلل والنعناع.

ثم أطال جولته النهارية، مستعيداً مشواره القديم الاعتيادي؛ شارع العابد فالصالحية، سينما الزهراء، فندق الشام، شارع الفردوس، بائع الجرائد، يقرأ العناوين، يتأبط جريدة أو مجلة ثم يمضي، لا يكمل طريقه القديم إلى مقهى الهافانا أو الكمال، يعتلي الجسر ويقطع الشارع إلى الجانب المقابل، ويتابع سيره إلى سوق العتيق، وفي طريق العودة يخترق كالمعتاد أزقة حارة سوق ساروجة.

التعديل الطفيف الذي أجراه على جولته، أعاد الروح إليه. عودة الروح لم تدم، أثار التجديد في نفسه ذكريات مرتبطة بطريقه المؤدي إلى تأملاته الصباحية في المقهى، فذهب به الحنين إلى زمن بلا حصر ولا حصار، فتحسر على ذلك الزمن، كأنه لم يكن، مع أن شواهده ما زالت، فها هو مقهى الهافانا لم يبرح مكانه. لكن رغم الخطوات التي تفصله عنه، كان عسير المنال، بعد أن حالت بينهما أحداث جسام، فأفرط في التحسر، واعتقد بأنه مرشح بالرحيل مع زمن مضى إلى غير ما عودة. فعادت الوساوس تنتابه وتهدده. الرحيل القادم لاح وشيك الوقوع.

وجدت وساوسه التي تجددت مصيبة لا معالم لها تتمحور حولها، متى ستحصل، أين تكمن لي، عند أي منعطف أو ناصية، على الرصيف أم وسط الشارع؟ وكأنه كُتب عليه ألا يعرف الهناء، ووصلت به الحال خلال فترة وجيزة، إلى الامتناع عن الخروج. وفي الليل يحسد نفسه على نهار مرَّ بلا طعم. بعدئذ يخشى النوم، ترى أي تخيلات مرعبة في انتظاره؟ ما الذي تغير؟! لا شيء، ثمة ما هو آت على جناح السرعة!! ما هو؟! لا يعرف، لكنه قادم. صار توقع المصيبة، مصيبة بحد ذاته (ماذا تكون؟!) فأخذ حذره (لكن ممّ؟!) وكان على يقين من أن الحذر لن يجنبه القدر.

□ □ □

في ذلك اليوم، اتخذ وجهته صوب طريق الصالحية، مشى في طريقه المرسوم إلى أن توقف أمام الدكان الصغيرة لبائع الجرائد في شارع بورسعيد، قرأ المانشيتات العريضة. إلى جواره رجل يقرأ مثله العناوين نفسها. استلفت انتباهه بمظهره الغريب، نظارات كبيرة سوداء وقبعة كاسكيت وشاربين كبيرين متهدلين على وجه متطاول، يلبس سترة عريضة؛ صادفه ثانية بعد ساعة من الزمن في سوق العتيق عند بائع الخضار إلى جانبه يزاحمه، ينتقي حبات الليمون؛ ويختطف من بين أصابعه حبة ليمون كبيرة وريانة!!

في اليوم التالي، رآه بمظهره الغريب هذا، أمام بائع الجرائد، كأنه في انتظاره، وبعد أقل من ساعة، رآه ثانية أمام فرن الفطاير يشتري منقوشة بالزعتر، يأكلها مثله واقفاً!! أدار حامد ظهره له، وازدرد منقوشته على عجل، ثم انتفض بحركة لافتة معبراً عن انزعاجه من سماجة المصادفة وسخافتها.

في اليوم الثالث، لم تعد وقفتهما أمام الجرائد، مصادفة سخيفة وسمجة فحسب بل مدبرة، وبعدها مزاحمته له أمام بائع الحلويات في سوق ساروجة. سأل حامد البائع عن المدلوقة، فأجابه ستكون جاهزة بعد ساعة. مثله الرجل وكأنه لا يسمع سأله عن المدلوقة، وتلقى الجواب نفسه. ثم مشى وراءه!! توجه حامد صوب شارع الثورة. هل أنا موضوع تحت المراقبة؟! ولكي يتأكد عاد أدراجه إلى ساحة سوق ساروجة، ونزل في نزلة جوزة الحدباء فنزل الرجل خلفه، ثم ارتد صاعداً، فصعد معه.

تذكر محمود، صديقه غير الوسيم (لم يعد يدعوه بصديقي البشع) فقال لنفسه، كان ينبغي أن أكون أكثر حرصاً، استقبلت مشبوهاً في بيتي، لن تصدق الشرطة بأن علاقتي به مجرد صداقة عابرة بريئة،

لا صلة لها بالإجرام، ولن يصدقوا بأنه رغم قبحه غير مجرم، شخص مسكين يقلد المجرمين، تساعده عدم وسامته على أدائها بشكل مؤثر؛ تهديداته فارغة، للتخويف فقط. التفت، ما زال الرجل يتعقبه.

الأحمق إذا كان يتتبعني على المكشوف، فكيف سيمسكني بالجرم المشهود، حسناً، فليقبض عليَّ!! ما جريمتي؟! المشي في الأزقة، قراءة عناوين الجرائد، شراء الخبز والمدلوقة؟! ألا يدرك الذين أرسلوه بأنني لو كنت مجرماً، لما طالوا ظفري. لا، ليسوا بهذه السذاجة، حتى يرسلوا رجلاً يراقبني بشكل مفضوح. تراجع عن تكهناته، ولام نفسه؛ لا يجوز أن يستنتج من مصادفات تافهة، عمليات رصد وتحريات.

دار قليلاً في الساحة الصغيرة، توقف عند قنطرة حارة المفتي، فوخزت أنفه رائحة البول الصادرة من المرحاض العمومي، فتذكر أنه محصور من أكثر من نصف ساعة.

سأقضي حاجتي، إذا كان يلاحقني حقاً، فلن يدعني، سينتظرني ريثما أخرج.

لكنه تبعه.

حتى إلى داخل المرحاض!! يستحيل أن يكون محصوراً مثلي!!

وقف الرجل إلى جواره، ثم وكأنما يقلده، فكّ أزرار سترته، وأنزل سحاب بنطاله. كان الرجل طويلاً، أطل برأسه على حامد الذي أحس به، فتيبس وأخفى عضوه بكفه. التفت إليه، رآه يديم النظر بوقاحة إلى فتحة بنطاله، فنهره حانقاً، العمى ضربك، على ماذا

تتفرج؟ فقال الرجل ضاحكاً، لا تخبئه، الذي معك مثل الذي معي. وبحركة عصبية، دفع حامد عضوه إلى داخل البنطال. فكشر الرجل وانفتل نحوه، لم يكن في المرحاض غيرهما. أمسكه من كتفيه ودفعه إلى الحائط، ثم مال عليه وكبس بجسده على صدره. حاول حامد أن يبعده عنه، لكن الرجل أمسك يديه، ولواهما إلى الخلف، فشلّ مقاومته، فيما انسلت يده الأخرى إلى فتحة البنطال، أدخلها فيه وبجماع كفه أطبق على عضوه المتضائل. صرخ حامد فزعاً من هول الموقف، ما الذي سيفعله به مهووس جنسي بهذه القوة والجسارة؟! أصابعه تضغط وتضغط، حتى أحس أن بيضته اليسرى تكاد أن تفقس. همهم الرجل في أذنه، ما حاجتك به؟! وأخذ يشدُّه، يريد انتزاعه. أحس بألم فظيع لا يحتمل، الرجل على وشك أن يقتلع عضوه من شرشه، نبقت عيناه من محجريهما، وصرخ مرعوباً بكل ما فيه من قوة، لكن صوته احتبس في حلقه وتصاعد فحيحاً من فمه.

□ □ □

لو أن صوته لم يخرج مبحوحاً، لشقت صرخته باب البيت واخترقته، وأيقظت الجيران من نومهم. كان كابوساً من العيار الثقيل، أنقذه منه قرع الجرس المتواصل. فسّره حامد على عجل، وهو في طريقه إلى الباب، بأنه نداء صارم من العقل الباطن، يحذره من تماديه في إهمال احتياجاته الجسدية؛ كانت مهمة الرجل الذي ترصده في عدة أماكن في الحلم، علاجية بحتة؛ تذكيره رغم عنف الوسيلة بحرمانه الجنسي؛ أية وساوس كانت ستركبني لولا ثقافتي الفرويدية؟!

الباب الذي فتحه، ظهر على عتبته الرجل الذي كان قبل لحظات

في الكابوس يحاول انتزاع عضوه من بين فخذيه!! فأحس بالصرخة التي انحبست في حلقه، على شفا أن تتفجر وتزلزل البناية من أساساتها. فغر فمه مذهولاً، فيما كان الرجل يحييه ويدخل، ثم التفت إليه، صافحه بخفة وجلس على الكنبة بكل جسارة.

قبل أن يحصل خلط بين الحقيقة والكابوس، وتأخذه لعبة الواقع والحلم في طياتها، فلا يدري متى ينتهي الحلم ويبدأ الواقع، أو بالعكس. سيتذكر حامد قبل أن يذهب به الوهم نحو أشد التكهنات غرابة ورعباً، أنه رآه ظهراً على مقربة من البناية وأثار مظهره المضحك استغرابه. يا للعقل الباطن والأحلام، كم لها من أفانين وشطحات!! جاء برجل غريب من الشارع، اصطحبه معه إلى قيلولته، وزجه في مشاوير وملاحقات، وورطه بمهاجمته بفظاظة، والأسوأ القيام بحركات معيبة. كان كابوساً نموذجياً. كل هذا لا يبطل تفسيره، بل يحافظ على رموزه الفرويدية ويعززها.

انبرى الرجل ضاحكاً، خلع نظاراته، قائلاً، هل عرفتني؟ ثم الكاسكيت، والآن؟ على التأكيد، رأى هاتين العينين اللئيمتين والرأس المتطاول الصوَّاني من قبل، ترى أين؟! قال الرجل، أمعِنْ النظر. لكن دون جدوى. عندئذ خلع الرجل عن وجهه الشاربين الكثين المتهدلين، لا تقل لي بأنك لم تتذكرني.

«الأديب سمير فاروط!!» هتف حامد.

«الروائي سمير فاروط».

صحح له مؤكداً أن الاسم لا ينفصل عن مهنة يعتز بها. فاروط رغم كونه شاعراً قبل أن يكون روائياً، يفضل تلقيبه بالروائي، وهذا عائد للتقدم الذي أحرزته الرواية، والنكسة التي

أصابت الشعر. مهنة برهن عليها بمزحة تنكرية لا يمكن إنكار روائيتها، وإن بدت سمجة.

«سامحني، لم أنسك، لكن تركيزي مشتت».

«أما أنت، فعالق بذاكرتي».

لم يكن صديقه، مجرد علاقة سطحية يشوبها التكلف، ومجاملات سريعة؛ سلامات وبضع كلمات لا أكثر. كان حامد شاهداً على مرحلة لا بأس بها من مسيرة فاروط الذي اقتحم الوسط الأدبي قبل أكثر من عشر سنوات وحصد نجاحه الأول في الصحافة بتحقيقات عن تزوير العلامات التجارية وفضيحة الأدوية قليلة الفاعلية، نفحوه بقرشين، فسكت. ثم استغل مناكفات المسؤولين وشركائهم التجار في منافساتهم لتشوية سمعة بعضهم بعضاً، فأصبح كل طرف يزوده بمعلومات عن الطرف الآخر، ليشن حملة عليه، فقبض من الطرفين، وكسب لدى الجمهور البريء سمعة صحافي شاب بطل لا يخشى قول الحق. بعد حين اكتشف الطرفان أمر العميل المزدوج، فتوحدوا ضده وكسروا عظمتي أنفه وساقه، بعدها ترك الكتابة الجريئة عن مخربي الاقتصاد الوطني. أعقبه نجاحه الثاني والسريع في نظم شعر بالغ الحداثة، لم يستسغه القراء ولا شلة أصدقاء كانوا يسكرون على حسابه، وإن قرظوه على أنه شاعر يضرب عميقاً في الجنون والعبث، يطرح تصورات شديدة الحساسية والإشكالية. كانوا على شاكلته، فأصبح له جمهور صغير من المعجبين الأكولين، غرروا بشعراء طيبين جدد، استسهلوا الحداثة، فاقتفوا أثره.

اتسع جمهوره وتعدد على أثر كتابته مقالات خبيثة عن الأدب المتحرر من وصاية الدولة، تمرد فيها بدهاء على سلطة كرّسته

منظماتها (الشبيبة ومن قبلها الطلائع وبعدهما اتحاد الطلبة، وطبعاً الحزب والأصدقاء من رقابة اتحاد الكتاب) واحداً من أبنائها الأذكياء، فكان المدلل السري للحزب والأجهزة، جاءهم في وقت كانوا فيه بأمسّ الحاجة إلى أديب غير شيوعي ولا يساري ولا بعثي، يشتغل في الخفاء عميلاً لهم، فجاز له الذي لم يجز لغيره، كرمى لإظهار مدى الحرية التي يتمتع بها الأدب في دولة تشجع على النقد ولا تخشاه. غضت السلطة النظر عن تجاوزاته، بداعي المبالغة في السرية، وإن اضطرها إلى شد أذنه وأحياناً إلى رفسه، وهو مندفع إلى الشهرة، منتقداً الدولة والحكومة، تحت شعار لا سلطة فوق سلطة الشعر.

عندما جرب المسرح، أخفق ولم يصمد، هجره بعد مسرحيتين، بعدما أضاف إلى الركام الغث غثاثة لا تقل عنه، رغم أنهما مُثلتا وشهدتا حضوراً كثيفاً من الطلبة الجامعيين المشدوهين بجسارته الرمزية وبذاءته التعبيرية. إلى أن أصيب بعدوى الرواية (كانت الرواية قد بدأت تشكل حالة حسد وغيرة، فالذي لا يكتب رواية يغار من الذي يكتبها) فكتب ثلاث روايات نجح فيها بتحقيق خلطة تختلف عياراتها من رواية لأخرى، جمع فيها بين الواقعية السحرية مع بهارات إيروتيكية وومضات دنجوانية (مع أنه كان ذا هيئة منفرة، تقتبس ملامح عبقري نحيل غليظ ومنحط) كانت الأولى تدريباً سيئاً على محاكاة مواقف طريفة من روايات لمؤلفين غربيين وتحويرها قليلاً لينفي عنها أصلها المستورد، فأعطت ثقلاً لروايته، فبدت وكأنها من بنات أفكاره، أو أن في اقتباسها شطارة مستحسنة، والثانية تدريباً أقل سوءاً، حقق فيها تقدماً طفيفاً تجلى في التقليل من الاستعانة بأعمال غيره، فكانت تقدماً نحو الوراء، والثالثة استعاد بها بداياته المتعثرة. روجت الصفحات الأدبية العربية

لرواياته، بعد أن حملها، أو طيَّرها بالبريد، أو أرسلها باليد، إلى الدوائر الثقافية، مستعملاً جميع وسائل الإيصال وغالباً الشخصية، متوسلاً أساليب التزلف المتعارف عليها من هدايا كحولية تنعش البدن، وأدبية تنعش الروح لما يكيله لهم من مديح بلا حدود، واضعاً موهبته المدَّاحة لتسويق كتابات المتنفذين في الجرائد الثقافية العربية، فأصابت رواياته سمعة لا بأس بها وعلى نطاق واسع. لم يكن في سورية من هو معروف في الخارج أكثر منه، وبمجرد أن يقال سورية، يخطر لهم فاروط، والعكس صحيح. وهكذا أصبح الشاعر والمسرحي والناقد الأدبي والمعارض السياسي سمير فاروط محسوباً على الروائيين.

كان أنموذج صعوده خارقاً، من الممكن احتذاؤه، وقد يتكرر ما دام الطريق معروفاً، لكنه لم يكن معروفاً إلا للنابهين القلة الذين يعرفون كواليس الثقافة المخابراتية. فتخيل الكثيرون سليمو الطوية أن الساحة الأدبية لم تعد منيعة، بل هي مجال مفتوح يُخترق بقليل من الموهبة والكثير من الهوبرة. فأعجب به الأدباء الشبان لأنه قدم لهم أحلاماً في الشهرة بوسعهم تحقيقها. لكن أحداً منهم لم يتمكن من السير على خطاه مع أنهم قلدوه وتفوقوا عليه في الشعر والنثر، لم يعرفوا ما هي التعويذة التي رافقته وسددت خطاه، وإن بدت بمتناول اليد. لم تكن عصية، بل معقدة، كانت مزيجاً دقيقاً من علاقة رخوة مع السلطة، ودولة بحاجة إلى مثقفين تقدميين غير محسوبين عليها، يكونون واجهتها في الملمات، وفي الوقت نفسه يتسللون إلى المعارضات بأنواعها، فيزاودون عليها، ويميعون القضايا، جميع القضايا. كان الولد الشقي (من الشقاوة لا من الشقاء) لسلطة أثبتت أن تماديها في القسوة، لا يقل شأناً عن تماديها في تقدير أدبائها باحتوائهم تحت جناحيها، وعندما ينسون أو يتناسون،

تذكرهم بأن النعمة التي يرفلون بها من صنيعها لا من كدِّ جبينهم وفكرهم.

كان فاروط على مستوى هذه التعويذة، ينتخب الموضوعات الدارجة، لا يكتب على منوالها بل شيئاً شبيهاً بها، مع إجراء بعض التغييرات للتتويه، يضيف إليها مسحة تهتك غربية سقيمة، يظنها جريئة، ولمسة من نزقه الشعري القديم، وحفنة من حقارته الواقعية؛ يتجرأ بها على الذين لا حول لهم ولا قوة، فيأتي بما لم يسبقه إليه أحد، فكان سباقاً، حسب زعم شلته، مثلما كانوا سباقين حسب زعمه.

ما الذي يجمع بين حامد وفاروط؟! لا شيء. إذاً، ما الذي جاء به؟! وكاد أن يسأله، لكن فاروط كان سباقاً كالمعتاد:

«حامد، اعذرني، لم أسمع عن مشكلتك إلا منذ أيام، كنت خارج البلد، شاركت في ندوة حول المسكوت عنه في الرواية العربية، لا يمكن الاستغناء عني، تصور لم أعثر على أمثلة مهمة إلا في رواياتي، كانت معبرة جداً، وأكثر من المطلوب. جئت قبل يومين. أنا مقصر، واجبي أن آتي وأعضدك، ها أنا هنا، يا أخي سامحني، كان يجب أن أقف معك في محنتك».

شكره حامد على مؤازرته، ولو أنها كانت متأخرة جداً. وتعجب من جديد، لا صداقة تربطهما ولا مودة، فلم المؤازرة؟! تابع فاروط متحمساً:

«لن نقف مكتوفي الأيدي، سنفعل شيئاً بشأنك».

إذا قال فاروط بأنه لن يقف مكتوف الأيدي وأصر على فعل شيء

بشأنه، فهو يقصد ما يقوله، خاصة وهو يتكلم بصيغة الجمع، أي هو ومن معه ومن خلفه.

«لا شيء بالإمكان فعله، استنفدت الوسائل كلها».

«أنت مخطئ بوسعنا فعل الكثير».

«الأوان فات».

حامد لم يقل الأوان فات، إلا ليستحثه على الإفصاح عما يريد فعله.

«يبدو أنك لا تعرفني».

«بل أعرفك».

قالها حامد بيقين، ويعرف أيضاً بأنه لو وقف معه في وقتها، لكسب مدافعين على المستوى المحلي والعربي وربما الشرق أوسطي، أطالوا المعركة ووسعوها وخربطوها، بل وجقجقوها، ثم أخرجوه منها نظيف الكف والقلم. أما الآن، فلا أمل ولا بصيص. فتلكأ:

«إنني نفسياً غير مهيأ لمعركة جديدة».

«بالعكس تهيأ، واستعد للفوز».

تحفز فاروط كأنه على وشك أن يطلق إشارة البدء في مسابقة للجري؛ الإشارة تأخرت. فتساءل، ما الذي يهم فاروط من شخصه حتى يثير قصته؟! ولماذا يساعده؟! لا سبب.

«صدقني، لا تتعب نفسك».

فرسم فاروط على وجهه ملامح الاستعطاف، وتحولت عيناه

اللئيمتان إلى عينين وديعتين أخذتا تستحثانه على القبول. يا إلهي، فاروط يرجوه!! تأثر حامد من منظره الذليل، كان يستجديه. فاروط يريد مساعدتي، وأنا أظن به الظنون!! أحس بالذنب مضاعفاً، وأدرك خطأه، لا بل جريمته التي ارتكبها من فرط ما احتقره عندما استعاد شريط صعوده بسلبية حاقدة وهجائية مفرطة!! هذا لا يجوز، مظهره يدل على أنه طيب وابن حلال، علينا بالظاهر والله يتولى السرائر. لا يصح أن أحكم بما تراءى لي سابقاً، ولا بما وصلني عنه من مسموعيات سيئة، حساده سودوا سمعته بالشائعات المغرضة، بسبب تعاليه عليهم، ولنفترض أن هذا صحيح، فلا شك أنه أذكى منهم، فلماذا لا يحس بتفوقه عليهم؟ وإذا كانت تصرفاته أحياناً تبعث على النفور، فلا عجب، لقد أصاب نجاحاً سريعاً وعريضاً، ومن الطبيعي أن يصبح روائياً مغروراً. من لا يصيبه الغرور عندما يرسلونه إلى المؤتمرات الأدبية، والندوات المختلفة عن المرأة والرجل والطفل وختان البنات والشعر العمودي والحر والتفعيلة وهلمجراً؟ ما الذي يعنيني من خصوماته وخصومه، وهم قلة بالفعل، يشتمونه في السر ويثنون عليه في العلن، وإذا صادفوه يعانقونه ويبوسونه. لم يتمكنوا من تسجيل مآخذ عليه، لأنهم لم يجدوا شيئاً ضده، كان أذكى من أن يترك وراءه أثراً على تخبيصاته. بالنسبة إليَّ، لم يضايقني فاروط البتة، وها هو يتبرع بمقاتلة أعدائي، وبعضهم من معارفه، بل ومن أصحابه المقربين. يكفي، أخطأت معه مرتين، الأولى عندما تجنبته في الندوات والمقاهي، والثانية في الكابوس، أقحمته معي في المرحاض وورطته بمهاجمتي وجعلته يدس يده في فتحة بنطالي.

«أعترف بأنني قصرت بعدم إرسال برقية إلى الصحافة استنكاراً لموقفها المتجني منك».

قال فاروط معتذراً، أشعل سيجاره الثخين، ومدد قدميه على طولهما، وأخذ ينفث الدخان بتلذذ واسترخاء، بعد أن ارتاح إلى ملامح المترجم التي اتخذت تعبيراً يحمل قدراً من السكينة ينبئ أنه بات في حالة ذهول من كرمه الإنساني.

قدر حامد موقفه الإيجابي، ولم يأبه ببرقية الاستنكار التي لم ترسل، لكنه سيجد شيئاً أولى بالاستنكار؛ مجيئه متنكراً بهيئة لا تليق به، ولو على سبيل المزاح، لم يحذق رسم الشخصية التي تقمصها، ولم يولها عنايته؛ كان بوسعه أن يجعل منها شخصية مثيرة، أما هذه فأقل ما يمكن أن يقال عنها أنها منتزعة من مسلسل بوليسي رديء!! وأقل شأناً من لعبة روائية مستهلكة، مجرد سخافة شعرية ركيكة!! ورمق باستخفاف النظارات والكاسكيت والشوارب. لم تفت فاروط نظراته، فعلق على أدوات التنكر المبعثرة على الكنبة ضاحكاً:

«لم يكن هناك مفر من تنكري، لو علموا بمجيئي إليك لنشروا عرضي على بيرق».

فانصدم، كاتب جريء مثل فاروط يخشى المجيء إليه!!

«نعم، لا تستغرب، ينظرون إليك كأنك مصاب بمرض الجرب، لا تؤاخذني، لا أريد أن أفسد جهودي. سأحل مشكلتك، بعدها لا جرب ولا عدوى».

هل بلغت قضيته هذا المبلغ من الخطورة، لا يكتفون بنبذه، بل ويُشهّرون بكل من يحاول الاقتراب منه؟!

«على كل حال، لا تبتئس».

«أنا غير مبتئس، أنا محبط».

«الأمور ستتغير، الضامن الوحيد لما أنوي فعله، هو العمل في الخفاء».

«هل لديك خطة؟!»

«لا تسألني عنها، بوسعك من الآن فصاعداً الاعتماد عليَّ، سأجد طريقة. بصراحة وجدتها. اطمئن، سأعيد إليك اعتبارك الأدبي».

«كيف؟!».

تساءل حامد غير مصدق، فنهره فاروط:

«لا تسألني، هذه شغلتي».

فانقبضت ملامح حامد، فطيب فاروط خاطره:

«سأستعمل أسلوباً روائياً، أطوي فيها قصتك على أحسن وجه، كأنها لم تكن».

«دعني من الأساليب الروائية، إنها سبب بلائي».

«في رأسي خطة ما زالت غامضة، سأدرسها جيداً، وأطلقها على الأرض قريباً».

حامد لم يرد. كان كلما انجلى دخان السيجار قليلاً، لا يأنس لعينيه الوديعتين وابتسامته المتعاطفة. لأنه كلما نظر إليه، ازدادت عيناه وداعة وابتسامته تعاطفاً، فداخله الشك، الزايد أخو الناقص!! ترى هل أخطأت بمحاولتي تبييض سمعته؟!

«ما لك شارداً، ألا تثق بي؟».

«طبعاً أنا واثق منك».

«سنتفق، هه؟!».

«على ماذا؟!».

«ما أريده منك خدمة صغيرة تقع في مجال عملك في الترجمة».

تنبه حامد. لقد وصلنا إلى لب المسألة، إذا كان هناك ما يريده مني، فقد زالت التساؤلات.

«على الرحب والسعة».

استعمل حامد هذه العبارة التقليدية المنفتحة ليفي أريحية فاروط بأريحية مقابلة، وإن كانت متواضعة على قدِّ الحال.

ولقد كان طلب فاروط متواضعاً:

«لا بد أنك تقرأ بعض الروايات بالإنكليزية، ضئيلة الأهمية، لا تلفت النظر في بلدانها، هل هي كثيرة؟».

«طبعاً، يومياً تظهر الكثير من الكتب، لتموت غداً، إن لم يكن في اليوم نفسه».

«أريد منك تزويدي بموضوعات وحبكات لروايات طواها النسيان، غير معروفة لدينا».

فكرر حامد العبارة التقليدية المنفتحة على الرحب والسعة، وزاد عليها بأخذها على عينه ورأسه أيضاً. فقال فاروط:

«لا شيء بلا مقابل، سأدفع لك مبلغاً من المال ثمن كل فكرة تروق لي».

«لن آخذ ثمناً، سأقدمها لك مجاناً».

«ما أطلبه لا يتعلق بفكرة أو اثنتين، وإنما رزمة لا تقل عن عشرين، بشرط أن تحوز على إعجابي وقبولي».

«اطمئن سأنتقي لك الموضوعات العظيمة».

«لا تهمني العظيمة، بل الغريبة، وكما قلت غير المعروفة، وأنا سأجعل منها عظيمة».

«ولماذا لا تريد عظمتها جاهزة؟».

«لأنني سأضع عليها اسمي».

«لو أنك..».

«لا تكمل، أحياناً لا يعاودني الإلهام فأستعين بها».

«لو أنك..».

«لا تكمل، سأجري عليها تغييرات وتعديلات جوهرية فلا تعود هي؛ أقرب ما تكون إلى عملية مخبرية كيميائية يضيع فيها الحابل بالنابل».

«لو أنك..».

«لا تكمل، ما سوف أضيفه إليها أكثر مما سآخذه منها، عملياً سأصلحها، وإلا لماذا أخفقت على أرضها».

وكاد الحديث أن يمضي على هذا المنوال من البراءة، بين: لو أنك/ ولا تكمل؛ ودونما نتيجة. فاضطر فاروط إلى أن يوغل عميقاً في الشرح:

«بدقيق العبارة، إنها عملية إبداعية من طراز فريد. تُعنى بإعادة توليد الفكرة والموضوع من جديد، ولادة خلاقة. وهي بالمناسبة، عملية تقارب عملك الترجمي وتتجاوزه، أنت تلوي عنق الترجمة لكي تحقق ما تريده، ألم تكتب خاتمة مختلفة؟! أنا لن ألوي الفكرة، سأقلبها رأساً على عقب، ثم أعيد صوغها كلية، ما أفعله يطابق

شروط العملية الإبداعية».

رغم أنه وافقه، لم يجد لها أية علاقة بالعملية الإبداعية فسأله:

«لماذا لا تؤلف فكرة جديدة، بدلاً من أخذ فكرة جاهزة؟».

«لم لا، ما دمت سأسحقها؟».

«وما الذي ستفعله بفكرة مسحوقة؟ لن تستفيد منها».

«أنا لن أستعملها، سحقُها يحرضني، وينشط ذهني، أي أنني أقوم بعملية تدريب ملكاتي الإبداعية على الهدم، مما يحفزني على البناء. بعدئذ، ما الذي أريده منها؟! لا شيء. أرميها جانباً، وأنساها تماماً».

«إذا كان هذا ما ستفعله، فلك كل الحق في أن تنسبها لنفسك».

انبسط فاروط من حامد، أبدى تميزاً في تفهمه لعمليته الإبداعية، فترحرح أكثر، وكانت فرصة ليشكو له متاعبه الأدبية، عليه أن يروي نهم قراء شرهين ومهنة تتطلب الجديد والتجديد، من أين يأتي بالمادة؟! المطلوب منه عمل يفوق قدرة ما لا يقل عن عشرة أدباء محترفين: زاوية صحافية أسبوعية، ردود على القراء وتعليقات على مقالات الأصدقاء بمعدل مرتين أو ثلاث أسبوعياً، ولأنه ما زال محسوباً على الشعراء، يُدعى شهرياً إلى ندوات داخل البلد، ويُطلب من إلقاء شيء ما من على المنبر، ماذا يكون غير قصائد يستغل فيها قديمه وما تجود به قريحته من منظومات نثرية على السريع، وإن كانت ستلقى على البطيء. ومحاضرات للمؤتمرات في الخارج بمناسبة وغير مناسبة (كل شهرين، أو شهر، وربما أسبوع حسب ضغط الأحداث، وما يموت من الأدباء)، لقاءات تلفزيونية وإذاعية (أحياناً يومية) اجتماعات على مدار الساعة في اتحاد الكتاب واتحاد الصحافيين (لست كاتباً فقط، بل وصحافي سابق أيضاً، وما

زلت) وجمعيات القصة والرواية والشعر والمقالة، يضاف إليهم رواية سنوياً، لا مقطوعة ولا ممنوعة، ينبغي أن تكون قنبلة الموسم وحديث المنتديات، (كان يجب أن يكون اسمي صاروخ لا فاروط. لماذا؟ لأنه الأكثر تعبيراً عن تحركي الصاروخي. كما ترى أنا لا أتوقف، ألست بحاجة إلى وقود؟) مما يلقي عليه بمسؤوليات جسيمة تجاه جمهوره من القراء والمستمعين والمشاهدين، ويملي عليه المحافظة على نجاح ينبغي أن يبقى صاعداً على الدوام، بتأمين كميات من الكتابات المتنوعة، مع المواظبة على الحضور الدائم على ساحة، لو قصر في وجوده على رقعتها، لاختطف غيره المنابر والجرائد وقاعات الندوات والميكروفونات وعدسات التلفزة، وبالتالي الشهرة. حرب بقاء لا ترحم.

ما جعل حامد يتشوش، اختفاء نظرات فاروط الوديعة من عينيه، وتحولهما أو عودتهما إلى أصلهما، أي إلى ما كانا عليه: فولاذيتان مبطنتان بلؤم طبيعي وفج، تطلقان نظرات نارية، تضيء ابتسامة كانت مروعة. فتذكر أن فاروط عرَّج على منافسة طاحنة، مجرد ذكرها يطحن البدن ويخض الملامح، فماذا لو خاضها فعلاً؟

«سنتحاسب، كل فكرة وثمنها على ظهرها».

«لا داعي. أنت أيضاً ستقدم لي خدمة لا تقدر بثمن».

«اعتبرها مساعدة، أعلم أنك بلا عمل، ثم إنك ستبذل مجهوداً كبيراً».

«وأنت أيضاً ستبذل جهودك من أجلي».

«يكفي مقال واحد، مقال مثل السم. طبعاً ضمن الخطة التي في ذهني، وسترى ما سوف يحدث بعدها، لكن الوقت ما زال مبكراً

على هذه الخطوة».

«مبكر؟!!».

«مبكر جداً. وكلما عجلت بتزويدي بالأفكار، عجلت في إنهاء قضيتك».

«حسناً سأعجل».

«لا تقل لأحد عن اتفاقنا، سيبقى سراً بيننا».

«لن أطلع عليه أحداً».

«اتصل بي، كلما جدت لديك فكرة».

أخرج فاروط من جيبه دفتراً صغيراً، وتبادلا أرقام هواتفهما، سجل اسم حامد، ثم شطبه.

«انتبه لا تقل اسمك على الهاتف، اذكر اسماً آخر، فقط قل أنا فلان... فآتيك على الفور».

«فهمت، ينبغي أن تكون السرية كاملة وتامة».

«لا بد من العثور على اسم مستعار، لنتفق على واحد، ما رأيك بـ...».

غير أن حامد سيعثر عليه:

«حسن حفلاوي».

التقطه فاروط، سجله في دفتره وترنم به بإعجاب:

«حفلاوي!! اسم غريب فعلاً. يقيناً، لا يوجد مثيل له في العالم».

فكر، ثم سأله:

«متى تتوقع أن توافيني بفكرة؟».

«بعد شهر».

«لا هذا كثير، لا بد أنه قد خطر لك شيء من قراءاتك السابقة، حاول خلال الأيام القادمة، أن تُحَضّر لي، ولو عينة صغيرة».

وعده حامد أن يبذل جهده ويقدم إليه بعد أيام فكرة جهنمية، هكذا وصفها. وحدق إلى فاروط وهو يلبس الكاسكيت والنظارات السوداء ويلصق الشاربين، واستعاد الكابوس الذي جمعهما معاً، وقرر ألا يتعاون معه تحت أية صيغة من الصيغ، أدبية كانت أم غير أدبية. ولو كان كالمعتاد سيضيع فرصة ذهبية، لكنه يعرف من تجربته، إذا كان حلمه الواعد مع الناقد جميل حلوم، أفرز خيبة كبرى، فما حال كابوسه الخانق؟! لن يفرز سوى خيبة أكبر.

الكوابيس، ليست مراوغة كالأحلام. الكوابيس لا تخطئ.

26

من دروس الحياة:
تصوراتنا مهما كانت واقعية، تبقى مجرد تخيلات من بنات أفكارنا

في المساء نفسه، ولم يكن ظل فاروط الثقيل قد انسحب من الغرفة، ولا أعصاب حامد راقت، عندما تلقى اتصالاً من الأستاذ عبد الرحيم، رئيس التحرير في المجلة. ابتدأ الأستاذ اتصاله، بـ«الله يعطيك العافية». أعقبه عتاب لطيف، منذ زمن لم أسمع صوتك. ثم خبر أدبي ظريف؛ الشاعرة لميس عباس أصدرت منذ ثلاثة أشهر مجموعتها الشعرية الثانية «نداء الجسد». وأكمل بلطف أكبر، صحافة البلدان المجاورة كتبت عنه، وصحفنا المحلية التي نادراً ما تهتم بالشعر الجيد، خرقت تقاليدها وكتبت عنه مرتين، إلا مجلتنا، لم تنشر خبر صدور الكتاب ولا مراجعات نقدية عنه!!

كاد أن يحتج، ومن تكون ميس عباس هذه حتى تهتم بها الصحافة؟! لم نسمع بها إلا منذ يومين فقط؛ طبعاً المقصود باليومين سنتان، وهي في عرف الأدب العظيم مدة زهيدة بالمقارنة مع الأدب الباقي على مر العصور. غمغم قائلاً للأستاذ، بأنه لم يعلم بصدوره. وتابع قاصداً أن ينهي الاحتفاء بالديوان على الهاتف، لا بد أنه كتاب رائع، لكن الشعر لم يعد يستهوي سوى الذين ينظمونه. لم يُتم عبارته، دهمه إحساس بمصيبة قادمة، للشعر علاقة بالمصائب، يؤكدها إسراف الشعراء في السوداوية، خاصة الطليعيين منهم؛ متشائمون لا يرون في الحياة سوى الخرائب والقحط واليباب والأطلال؛ وعالم على استوائه وكرويته، وثلوجه وأمطاره واخضراره، قفر شاسع، مشلول وآسن، يتحلل إلى عفن تأتي عليه الطحالب وديدان الأرض.

ميس عباس غير مختلفة عنهم، قرأ مجموعتها الشعرية الأولى «تباريح الهوى» التي حركت شهية الصحافة الأدبية العام قبل الماضي على المديح المكثف. المجموعة لم تفتقر رغم الهوى وتباريحه إلى البيوت المهجورة والموت والضياع والحطام والانهيارات؛ كانت في منافسة مع الشعراء على البشاعة والوحل؛ وتركت لديه انطباعاً بتكلف حالة من الغرام المستحيل أطبق عليه إيقاع قاتم. شعر ما أبعده عن الأمل.

لا، لن يكتب عنها ولا عن ديوانها، برر وجهة نظره بأن تقصيره كان حيال الشعراء عامة من غير تخصيص، لأن الشعر بالذات يشكل حالة غامضة... أنا على عداء سافر معها، كذلك قراء الشعر ليسوا أفضل حالاً مني، عددهم يشهد تراجعاً دؤوباً، رغم أن الشعراء في ازدياد مستمر. العلة، كما عبرت في مقالتي الأخيرة عن

الغموض التي لا إخالك نسيتها، استغلالهم الإيحاء إلى حد التعتيم الشامل، فلا يوحي بشيء مما يقصدونه، إن كان ثمة ما يريدون التعبير عنه... لم يكمل، غمره الإحساس الذي يخشاه، ربما من اللطافة التي ما زال الأستاذ عبد الرحيم يبديها، وهو يقول له مهدئاً، طوّل بالك. فلاحت بوادر المصيبة، كأنه حلَّ ميعادها، وجاء أوان سقوطها على أم رأسه؛ إذا كان تنبيه رئيس التحرير تنبيهاً فقط، فلا موجب للطف واللطافة، يكفي أن يجلب نظره إلى الشاعرة حتى يدرك أن أمرها يهمه.

سأله الأستاذ عن سبب تجاهله لكتابها، وعما إذا كان بينه وبين الشاعرة خلاف. نفى بحزم، وقال بأنه لا يعرفها ولا يحمل لها أية موجدة. ولم يقل له إن ديوانها الأول لم يعجبه. وقرر المقاومة، لا يجوز عند ثاني اختبار، أن يستسلم ويدع المجلة مطية لما يخالف آراءه، ألن يعطي من وصمهم بالغموض المفتعل، ذريعة للارتداد عليه بحملة تفضح كذبه؟! مشكلته كما يبدو، محصورة مع رئيسه، فليحاول إقناعه. قال له، في القطر العشرات من أمثال لميس عباس، شاعرات موهوبات وواعدات، ما زلن في أول الطريق، ولا شيء يميزهن بعد، ولا يمكن الحكم عليهن قبل سنوات، ما الداعي لاستثنائها بالمديح؟! علل الأستاذ اهتمامه بها بأن وزير الإعلام المغرم بالشعر، أبدى إعجابه بمجموعتها الأخيرة، وارتأى عليه تشجيعها.

«قل هذا من البداية، لكن أليس من المفترض أن يكتشف وزير الثقافة موهبتها لا وزير الإعلام».

«الموضوع كله شكلي، إذا كان يعتقد أنها ملهمة وعبقرية، فلماذا إغضابه؟ كل ما سوف تكتبه عنها زاوية صغيرة ترحب بها كشاعرة؛ كلام عام لا يضر ولا ينفع».

لم يفهم حامد ما هي علاقة الوزراء بالشعر، وإن كان يتفهم علاقة الوزراء بالنساء. ومع هذا إرضاءً لرئيس التحرير فقط، اضطر أن يكتب عنها شيئاً، بضع كلمات ذراً للرماد في العيون. فكتب عن الحركة الشعرية الجديدة، وجيل جديد من الشعراء يبتكر لغته الخاصة، تحتل فيه المرأة مكاناً مرموقاً، شعر لم يأخذ نصيبه العادل من النقد والتقييم، وختم مقاله بوعد: وسوف تُفرد صفحات الراصد في القريب العاجل دراسات موسعة عن دور الشاعرات الشابات في الحركة، تبدأ بالشاعرة لميس عباس.

طبعاً لن تفرد صفحات الراصد لهن دراسات ولا إشارات، مجرد وعد لن ينفذ، ودائماً سيطوله التأجيل إلى أجل غير مسمى. وقد يطوى الأمر إلى حين بعيد أو قريب، لكن لم يتوقع ألا يستمر الحين أكثر من أسبوع.

□ □ □

رن جرس الهاتف، سمع صوتاً نسائياً يسأله، الأستاذ أحمد حلفاني؟ فقال، نعم. قالت، أنا لميس عباس. فقال، أهلاً وسهلاً. أدرك فوراً أن رئيس التحرير، أعطاها رقم هاتفه ليوفر على نفسه دلال الشاعرة الذي سيكون صارخاً وسماجة النقاقين المروجين لموهبتها. توقع أن ما سوف تقوله الشاعرة، لن يخرج عن الكليشيه إياها، الموزونة بالغنج الأنثوي والمقفاة بالتهديد المبطن: خذ بالحسبان، ليس لدي الاستعداد للانتظار أكثر من العدد القادم، ما الذي ستكتبه عني؟ هل قرأتني جيداً؟ هل فهمت شعري؟ رجاءً لا تُقيِّمني مع الشاعرات المبتدئات، أنا لست واحدة منهن، أنا أنموذج متفرد. هذه الأسئلة والتحذيرات، كان جاهزاً لاستقبالها، وعلى استعداد لتقبلها برحابة صدر، سواء كررتها الشاعرة بهذا الترتيب أم

ذاك، ما الفارق ما دام حسب ظنها ستؤدي الغرض المطلوب؟

العجيب أنها لم تهرف بشيء مما توقعه. والأعجب أنه بمجرد أن سمع صوتها تلهف لمعرفة ما ستقوله، وإن لم يصغ ملياً إلى كلماتها، صوتها استلفت سمعه، انصبّ اهتمامه على لهجتها الدمشقية، شنف أذنيه، هذا الصوت يعرف صاحبته، سمعه من قبل، مع أنه متأكد من أنه لم يلتق بالشاعرة، لكنه صوت يعرفه. ترى صوت من؟! فصفن، الصمت ساد بينهما، وأعطاه فسحة لمزيد من الصفن، لكنه لم يتصور أن الشاعرة بالمقابل كانت تصفن أيضاً، وهي تقول لنفسها، هذا الصوت أعرف صاحبه، سمعته من قبل، يشبه صوت رجل أعرفه. من هو؟! لم تلتق بشخص يدعى حلفاني، وإلا كانت تذكّرته من اسمه الغريب.

افتقر الحوار الدائر بينهما إلى التركيز، وتخللته الصفنات، وكان صفنة بصفنة. كأن الصفن هو الموضوع والكلام يقاطعه أو يقطعه. تتكلم فيصفن، يتكلم فتصفن. وهكذا تتابع الأخذ والرد متقطعاً وغريباً، وشردا في مجاملات مهذبة.

بعد أن أغلق الهاتف، بقي مشغول البال بصوتها، مصراً على أنه سمعه مراراً، كان مألوفاً وإن مضى عليه الوقت، كأنه قادم من زمن بعيد. استنتج، ربما من فكرة البعد والزمن، أن الشاعرة لا بد مرت حياتها بمراحل، كانت فيها صحافية، ثم أصبحت كاتبة خواطر، فشاعرة أو قصاصة؛ وربما التقاها في تلك الفترات في ندوة أدبية، قرأت فيها شعراً، أو قصة قصيرة، أو انتقدت شيئاً. بعد هذا التفسير، كاد أن يوقف انشغاله بها، لكنه تذكر أنه لم يكن حذراً في الحديث معها، وتورط في ما لا ينبغي التورط فيه، واسترسل في الكلام دون حيطة، وإلا كيف ارتبط معها بموعد لا لزوم له؟! كان

الفضول الذي حركه صوتها، قد رتب له موعداً، لم يعد من الممكن إلغاؤه. كيف يعتذر عنه، ووقته يحلّ بعد ثلاث ساعات، ثم إنه لا يعرف عنوانها ولا رقم هاتفها؟

بل، وعندما تذكر أطرافاً من حديثهما، بدا موعداً لا داعي له وبلا معنى، والسبب أنها، وهنا العجب، طلبت منه بإصرار عدم الكتابة عنها، قائلة إن الأمر لا يستحق. فرد عليها، وهنا العجب أيضاً، لا يصح حرمان القراء من الاطلاع على مسيرتك الشعرية. واستمرا على هذا الموّال، هي تصر قائلة بأن الشعر لم يعد يهمها، وهو يلح على إدراج تجربتها الشعرية في تاريخ الشعر السوري المعاصر. تتمنع بأنها هجرت الأدب فعلاً، فيلح، لا ينبغي أن يخسركِ الأدب. أما الحديث الحقيقي، فكان صفناً تأملياً متبادلاً، كلٌّ منهما يصفن في صوت الآخر، مما أطال حديثهما الكاذب ومن غير مبرر، ومن دون أن يعرف أحدهما الآخر، رغم تساؤلاتهما غير المتبادلة.

لا سبيل للتراجع، خاصة أنه لا يدري، هل هو الذي طلب الموعد أم هي؟! الصفن استهلك قواه التركيزية. كذلك برز محذور آخر، بعد أن فات الأوان، وأصبح على بعد أقل من ساعة من الموعد، تذكر أن ظهوره للعلن بين حين وآخر بأسمائه المنتحلة على أنه حلفاوي أو حلفاني، محكوم ضمن نطاق ضيق جداً، على أغلفة الروايات المترجمة، وصفحة «الراصد»، اسم بلا صورة، ظهور مقتضب لا يسمح له بالتجول بهاتين الشخصيتين وضرب مواعيد وحضور لقاءات، لسبب وجيه، قد يكتشف أحد أن الجسم لا يطابق الاسم؛ حتى هو حامد سليم، منعاً للإشكالات، لم يخول نفسه استخدام هيئته إلا لتمرير شخصه عند اللزوم، لدى قبض ثمن ترجماته فقط.

بعد تفكير استغرق نصف ساعة، حلَّ الإشكال ببساطة، سيظهر

حامد بصفته الراصد حلفاني، إذ من المستحيل أن تظهر هيئته وحدها، وحلفاني وحده، كل على حدة. ما دفعه إلى هذا التبسيط اللماح، أن المقابلة مأمونة تماماً، سيلتقيان في كافيتيريا الفراشة، وهي كافيتريا تقع في منطقة راقية بعيدة عن أنظار المتطفلين، هناك لا أحد يعرفه، ويبدو أنه هو الذي اختار المكان. ثم إن المقابلة مضمونة النتائج، الشاعرة تريد الاستقالة من عالم الأدب، أي ستفرقهما الحياة ولن يراها ثانية، لقاء لن يتكرر، وإذا حدث وصادفها يوماً، فلن تكون سوى ربة بيت محافظة ترغب في نسيان ماضيها كشاعرة متحررة.

ذهب مرتاح البال إلى موعده، عارفاً ما سيقوله لها، لن ينصحها بالبقاء على قيد الشعر، أو يجاملها مشيداً بموهبتها، سيجلس كالصنم يسمع ويهز رأسه، يوافقها على ما تقوله، ثم يختم جلسته معها، بجملة نابعة من القلب، أحسنتِ الاختيار؛ ويثمن عالياً صوابية رأيها بطلاق الأدب طلاقاً بائناً بالثلاثة إلى غير ما رجعة. هذا ما تصوره. واعتقد أن تصوراته ستتحقق بحذافيرها دونما نقصان، وربما مع بعض الزيادات.

□ □ □

لا شيء من هذا سيحصل، لن يلحق أن يصمت، أو يثمّن آراءها، لن تفيده توقعاته المطمئنة، والمجاملات الأدبية المرتقبة، ولن يختتم حديثه بتلك الجملة النابعة من القلب، سيطاح بها كلها قبل أن يفتح فمه، عدا أن أول ما سينكشف الغطاء عنه هو شخصيته بالذات!! وهو درس من دروس الحياة، يعلمنا ألا نكون على ثقة كاملة في مخططاتنا المبنية على تصورات، مهما كانت واقعية تبقى مجرد تخيلات من بنات أفكارنا، اليقين أمر لا تعترف به الحياة.

مصادفات الحياة وتقلباتها لا تمنح أسرارها لأحد، غالباً ما يدهمنا طارئ أبعد ما يكون عن توقعاتنا الغافلة عما تحوكه لنا الحياة في اللحظة نفسها، على بعد أمتار في غرفة مجاورة، أو على مسافة بضعة آلاف من الكيلومترات في قارة قصيّة.

مقدمات التعارف التي اتفقا على علاماتها لكي يميز بها الشاعرة عن غيرها، كانت لا تخطئ. هذه العلامات لئلا نبالغ، كانت علامة واحدة، تساعده على التعرف إليها من بين السيدات الموجودات في الكافيتيريا، فقد طلب منها أن تحمل بيدها وبشكل ظاهر ديوانها الأخير «نداء الجسد»، كي يعرفها فوراً. ما حصل، وسوف نصف ما حدث معه ومعها بالتناوب، ونعتمد عندما ننتقل منه إليها، كلمة «بالمقابل» ليس لأنه سيجلس مقابلها، بل لأنهما وجدا نفسيهما في موقف واحد، كلٌّ إلى طرف، ويجب علينا رغم تقارب وضعيهما وتشابه ردود أفعالهما، الفصل بينهما، مراعاة لعدم الخلط بينه وبينها.

بعد أن جال حامد بنظراته على أيدي النساء في الكافيتيريا، رفع نظره عن الكتاب الممسكة به اليد المفترض أنها يد الشاعرة، ورأى وجه حاملته، تزعزعت تصوراته من أساسها، وأرتج الموقف في رأسه. بالمقابل، تخلخلت تصورات الشاعرة، وكانت تصوراتها محدودة بالقياس إليه.

أخذ حامد ينقّل نظره بين وجهها وعنوان الكتاب وهو «نداء الجسد»، لم ير كما كان يعتقد الشاعرة لميس عباس. كان متأكداً، مع الإمعان في التحديق، مما يراه، بل ومصراً على أن امرأة أخرى حلت محلها. لماذا كان متأكداً؟! بكل بساطة، كانت التي تحمل الكتاب بيدها، حبيبته القديمة ليلى شكران، التي أصبحت مجرد

صديقة لا أكثر، لا يراها إلا نادراً وعلى عجل كل عدة أشهر!!

بالمقابل، لم تر الشاعرة المفترض أنها لميس عباس الراصد المدعو حلفاني، بل رأت حامد سليم الولد الذي أحبها قبل أن تقع في غرام حبيبها الفلسطيني، ثم أصبح من منسياتها، لا تتذكره إلا عندما تراه مصادفة. فظنت وجوده ورؤيتها له مصادفة أخرى. أما وهو ينظر إلى الكتاب تارة وإلى وجهها تارة أخرى، فقد شاب ظنها تساؤل، لماذا يتصرف كما لو أنه المدعو حلفاني، ولا يتصرف مثلما يجب أن يتصرف، كعاشق قديم أو صديق؟! فجأة دخل على خط تساؤلها الحالي، تساؤلاتها المنصرمة التي دارت على الهاتف قبل ثلاث ساعات، فتذكرت صفنتها وحيرتها، يا للعجب! كان الصوت الذي حيرها يشبه صوت حامد الواقف مواجهتها. لكن بدل أن تتوضح الأمور التبست.

بالمقابل، هبط الوحي على حامد، وتذكر ما حيره هو أيضاً، فاستعاد صوت الشاعرة لميس، ووجده يشبه صوت ليلى الجالسة على مقربة منه، فأدرك ما دفعه للصفن على الهاتف، وقال في سره مستغرباً الموقف الحالي، حتى لو كان صوت الشاعرة لميس يشبه صوت صديقتها ليلى، لماذا ترسلها إلى الموعد بدلاً منها؟!

بالمقابل، تشوشت ليلى، ولم ينكشف لها لغز الصوت الرجالي بكامله، إلا على أنه حادثة غريبة جداً، أن تتكلم قبل ساعات مع شخص صوته يشبه صوت شخص أخفقت في تذكره، ثم وبالمصادفة البحتة، ها هي تراه أمامها، فتتذكره فوراً!!

عندما اندفع حامد نحو ليلى، كان قد أنهى تخميناته، على أساس أن الشاعرة لميس ربما طلبت من صديقتها ليلى التكلم بالنيابة عنها

قبل أن ترسلها بديلاً لها، وعلى هذا لا مفر من الكشف عن شخصيته المستعارة. أما هي فاستعدت لتشير ضاحكة إلى تلك المصادفة الصوتية، التي ستعززها كما توقعت بتعريفه بعد قليل إلى شخص يشبهه صوتاً وربما شكلاً، فيما لو اتجهت المصادفة نحو التقارب لتصبح مدهشة تماماً!!

سلّم عليها حامد بحرارة، وقدم لها شخصيته الأخرى بخجل ومرح:

«لا تستغربي، أنا أحمد حلفاني».

بالمقابل، أحست بالخجل، وارتفعت حرارتها، وإن بفتور مخيّب، إذن ذاك الصوت لم يكن يشبه صوته، بل صوته بالفعل. بدا الأمر طريفاً، فقدمت له نفسها وهي تخفي ابتسامتها:

«وأنا لميس عباس».

بالمقابل، للوهلة الأولى بدت كأنها وجهت له صفعة رداً على صفعته. ولهذا قال لها:

«هل أنت جادة؟».

بالمقابل، استغربت، لم تدر أنها قدمت له مفاجأة لم يحسب لها حساباً. فقالت:

«ولماذا أمزح؟».

فسألها ليقطع الشك باليقين:

«الشاعرة؟!».

«نعم، الشاعرة».

«الشاعرة بأم عينها؟!».

فضحكت، أما هو فابتسم محرجاً، وقال وكأنه ينكت، مع أنه لم يكن ينكت:

«وأين ذهبت ليلى شكران؟».

«إلى المكان الذي ذهب إليه حامد سليم».

وفهم أنهما في الهوا سوا، ولدى كل منهما مشكلة تمنعه من التصريح باسمه الحقيقي. قال لها بأنه كان على وشك التعرف إلى صوتها في الهاتف، لكن اسمها المستعار كان يبعدها عنه. بالمقابل، قالت له بأنها كانت على وشك التعرف إلى صوته لكن اسمه المستعار كان يبعده عنها. وبالرغم من هذا الاستعراض لذاكرة كل منهما في التعرف إلى الأصوات، قعد متسائلاً في دخيلته، الشعر ليس جريمة، لماذا تنشره تحت اسم آخر؟! وبالمقابل، تساءلت، لماذا يعمل حامد في الأدب متستراً، كأنه يمارس عملاً معيباً، ويختار زيادة في التمويه اسماً سخيفاً؟!

هذا الموقف وإن زايله اللبس، احتاج إلى جلاء لإثارته إشارات استفهام قوية لكليهما. بالنسبة لحامد، المفروغ منه، ألا يخطر له أن حبيبته القديمة أصبحت شاعرة، فلا يكفي أن تولع ليلى بشعر نزار قباني وتتفتح في سن البلوغ على مغامرة غرامية، حتى تكتب شعر الحب في سن اليأس من الحب، وشعر الجسد في سن ترهل الجسد.

بالمقابل، بالنسبة إلى ليلى، المسلّم به، أن تستغرب الشاعرة الحالية لجوء ابن حارتها، وعاشقها وفيما بعد صديقها، إلى الاستعانة باسم مستعار ليمارس عملاً أدبياً محترماً!!

صفن كل منهما ثانية في الأمر نفسه، لا بد أن أمراً اقتضاهما التستر وراء اسم وهمي. وعلى هذا لم يكن هناك مفر أمام حامد من سرد قصته مع الترجمة وما آلت إليه أحواله من تردٍّ اضطره ليحافظ على لقمة عيشه وإعالة أسرته إلى امتهان الترجمة والأدب متنكراً.

بالمقابل، لم تأت لمجرد أن تراه وتحثه على مديحها، بل لتنهاه عن الكتابة عنها، وسوف تسرد عليه قصة لا يعرفها، تكون تتمة لقصتها الأولى، التي انتهت بمقتل زوجها برصاصة مرتدة في تونس، ثم عودتها إلى دمشق دون أن تكسب من ورائه إلا الذكريات والآلام القاسية، ومبلغاً متواضعاً من المال، ولقب زوجة شهيد.

27

حياة الشعر:
عالم بديل ورائع

تعافت ليلى على مهل، كان المناخ السياسي في دمشق مواتياً، فالحقد على الإمبريالية وإدانة الممارسات الإسرائيلية في الأراضي المحتلة الفلسطينية والدعوات إلى رفع الحصار عن العراق، لازمة يومية. التحقت بالتجمعات النسائية وانخرطت في النشاطات الأهلية الداعية إلى مقاطعة البضائع الأميركية، ودحض ذرائع الحصار الأميركي على العراق. صارت من المشاركات الدائمات في الاعتصامات والتظاهرات السلمية؛ وكما كانت تقول، تقوم بواجبها نحو قضايا تمتلك من الحق أكثر من الحق نفسه، مع أنها قضايا مهزومة، عانت منها، لكن حياتها ارتبطت بها؛ ينبغي ألا نستسلم، ولا نتخلى عن حقوقنا، أو نساوم عليها. وسوف تعترف بأنها لم تستعد صوابها، بعد عودتها إلى دمشق، إلا بفعل هذه القضايا وبفضلها.

استردت حياتها بأكملها، في وقت لم يكن بوسعها تخيل، مجرد تخيل، أن حياة جديدة تلوح في الأفق. حياة ستنهض من ركام أيام تبعثرت في ماض تنقلت بين أطلاله ثانية: بيتهم القديم، منازل الغربة، فنادق المنافي الموحشة؛ أمكنة وجدت فيها دائماً مخبأ تتوارى فيه لتسطر محاولاتها الكتابية الأولى والثانية والثالثة. محاولات ردت إليها الروح وفتحت لها أبواباً كانت مغلقة، ماذا كانت؟! نظم الشعر.

في الصف الثامن الإعدادي، قرأت الشعر خفية وحفظت عن ظهر قلب منتخبات غزلية، واحمر وجهها خجلاً من شعراء أثمرت وقاحتهم الفضّاحة لمفاتن المرأة في مخاطبة مشاعر أنوثتها المتفتحة، وجسد أخذ يتبرعم، وتبرز تقاطيعه نافرة ومكورة من تحت القميص والبنطال المدرسي، كأن الشعر خطَّ بقوافيه قامتها، ولم يُغفل الرحيق المسكر لشفتيها، واللحاظ الجارحة لعينيها الشهلاوين، والملمس الناعم لنهديها المشرئبين. وكأن الشعر أيضاً، أطلق النسيم المداعب لوجنتيها في أحلام يقظتها، ورسم طيف الحبيب يلثم خديها، ويغمرها بالقبلات نزولاً إلى عنقها فمفرق ثدييها.

لن يطول الوقت، سيظهر الحبيب الحقيقي عباس ويجسد ثورة الافتتان بجمالها. أما ما كانت تقرأه من شعر الغزل، فقد نبذته بعد زواجها وذهبت إلى الثورة، مثلما نبذت الجرائد والمنابر شعر عبادة المرأة إلى عبادة الوطن.

في الغربة، بعد فاصل النار والعذاب ووهن الحب وتوهان الحبيب، تاقت النفس إلى الشعر، لم تعد إلى قراءته ليؤنس وحدتها فحسب، بل وأخذت تنظمه سراً. ولقد باركها وأنقذها من الظلام الحالك والتدمير البطيء. تقرأ الشعر تحت الأرض في الملاجئ والخنادق على

ضوء قناديل الكاز ولهب الشموع المرتعش. كانت الغارات الليلية والنهارية وهدير الطائرات واختراق الصوت ودوي القنابل، تحرض روحها المتأججة إلى شعر يبقيها شاهدة على الموت اليومي، ويجدد حلمها بحب يعود بها إلى الماضي أكثر مما يعنى بحاضر معتوه ومستقبل مجهول. ويا للروعة، حمل آلامها وأتراحها، وعبَّرت من خلاله عن محنتها ومحنة شعب ووطن وعالم وزواج وبعاد وحنين إلى الأهل!! صار لها محاولات شعرية، سخر عباس منها، لكنها استمرت تكتب، ثمة صوت وحيد تطلقه وتستمع إليه، وكان غناؤه شجياً ومؤنساً.

الشعر رفيق الشقاء، وعزاء القلب، أنشودة المحرومين، وسعادة المعذبين؛ وانطلاق الأحاسيس في خمائل الأشواك ورياض الأسقام. هذا ما مثله الشعر لها في تلك الأيام: نعمة الألم ورومانسية الحزن. غير أن هذه القفزة الشعرية، لم تأخذها عالياً ولا بعيداً، ولم تتصور الشعراء مخلوقات خارقة ولا معذبة، كانت علاقات زوجها التنظيمية قد أتاحت لها لقاء الكثيرين منهم، وغالبيتهم من المثقفين الراديكاليين ذوي الأفكار الجذرية، ووطنيين أقحاح لا يتنازلون عن ذرة تراب من أرض فلسطين. وبعضهم، الأكثر جذرية ووطنية، كانوا من المتعيشين على الثورة الفلسطينية، لا تفوتهم مناسبة أو مهرجان إلا يشاركون بهما. تتعرف إليهم بعد إحيائهم أمسية أدبية، أو احتفالاً شعرياً في مدينة من تلك المدن التي أقاما بها، سرعان ما يعقد عباس معهم أواصر الصداقة، يصطحبهم إلى مقهى أو حانة، وربما استضافهم في بيته وأحيوا سهرة أخرى. فعرفت أدباء وشعراء عرب مشهورين، وفنانين كان منهم ملحنون ومغنون ورسامون ونحاتون ومخرجون مسرحيون.

أعجبت بأجواء الثقافة والمثقفين، أذهلتها حماستهم، واندفاعهم العفوي في مناقشات صريحة، وجرأتهم في طرح مقولاتهم القاطعة. لم تخل لهجاتهم العربية ولا سيما الفلسطينية، عالية النبرة، من عبارات فصيحة، ولا ثوريتهم من عبارات فاحشة. كم كانوا جسورين!!

تنشطت ذائقتها الشعرية، وأوغلت في الشعر، وكان قلقاً محضاً، أطلق هلاوسها المحتبسة في خيالاتها على الورق، ويا لهول ما عكس من اختلاطات الخيانة بالنضال والقهر، وافتقاد الأمل بالبعاد والتشرد، والوطن بالأكاذيب. لم تتجرأ على تنقيح شعرها، فاحتفظ بطزاجته المرعبة وركاكة المبتدئين في النظم.

بفعل الفراغ والأرق والراحة المنهكة، ارتدت في دمشق إلى الشعر؛ لم تتشرنق داخله، بل التجأت إليه. أخذت طريقها إلى المركز الثقافي القريب، قضت نهاراتها فيه تقرأ بنهم، حضرت ندوات أدبية، وشاركت في النقاش على وجل. أخرجها الشعر من عزلتها، وزاد من توهانها. كانت نظراتها التي باتت أكثر حدة، تهيم داخل ذاتها المتعبة، وماض يزداد أفولاً، وعالم يأخذها معه إلى قلق دامس العتمة. تتجول مساء في الحدائق والأسواق، تسير في الشوارع بلا هدف، تقودها قدماها إلى مكان ما، فتشاهد فيلماً سينمائياً، عرضاً مسرحياً، معرضاً تشكيلياً.

خصصت الليل لمحاورة النجوم وتلقّي الإلهام؛ والفجر للكتابة. ثمة ما يضطرم في داخلها، وكانت مرغمة على التخلص منه، قبل أن يخنقها. قراءة الشعر بعد طول غياب، أسعدتها وخففت عنها لكنها لم ترضها، بدا الشعر ألغازاً ورموزاً، فلم تتواصل معه كما توقعت. الشعر لم يعد مفهوماً، لكنه حرضها. فخربشت تمنيات ورؤى

نهضت من الخراب، وتفتحت أمام عينيها آمالاً مخفقة. كان الشعر بوحاً أضاء أعماقها المذعورة.

ولم تتخلّ عنها مصادفات صغيرة، جمعتها بأدباء وفنانين تعرفت إليهم من قبل، فاستعادوا ذكرياتهم مع الشهيد؛ وأثنوا عليه، كان بطلاً مجهولاً، إنساناً رائعاً. شاطروها حزنها، وواسوها بدعوات إلى الندوات والمقاهي، عرفت كيف توقف مجاملاتهم السخية عند حدود التعزية والاحترام، ولا تتعداها من طرفها إلى أشجان وهموم ودموع، قد يبادلونها إياها مواساة بالاحتضان والعناق والقبلات. كانت زوجة شهيد ولا يجوز أن تكون عشيقة أحد، حتى ولو كان أديباً مشهوراً.

عزاؤها الأكبر، تقريظهم لمحاولاتها الشعرية وتشجيعهم لها على مواصلة الكتابة، لم يبخلوا عليها بالنصائح والإرشادات والتصويبات، نشروا لها قصائد في المجلات والجرائد، وامتدحوها بتعليقات صغيرة. اختارت نشر بداياتها المتواضعة باسم مستعار، فمهرت كتاباتها تحت اسم لميس عباس، ظهور اسمها الحقيقي مصدر إحراج لها، كانت أرملة تعيش مع أخيها وأسرته. اعتقدت أنها مجرد هواية لا أفق لها، واعتقد الأدباء الذين شجعوها، أنها نزوة عارضة قد تنجدها بقصيدة بين آونة وأخرى، تروّح بها عن نفسها وتفرج عن مكنوناتها المأساوية، وسيأتي يوم تنضب فيه المحرضات الحزينة، بعد دفن أتراح الماضي في باطن قصائد لا تعدو سوى شعائر منمقة، تهيل فوقها التراب فتتخلص منها إلى الأبد، أو تتزوج فيتوقف الشعر، ويتحول إلى مسارب أخرى، يظهر في لمسات منزلية على جدران غرف الأطفال والنوم والمعيشة والمطبخ.

□ □ □

الرجل الذي سيكتشفها، ويحثّها على مواظبة الكتابة، لم يكن شاعراً، أو أديباً، كان فناناً تربطه بالمطرقة والإزميل والصخر والحجر علاقات حفر ونحت وجلخ. اهتم بها، مع أن اهتمامه كما بدا، مقتصر على تهشيم الكتل الصلبة وتحويرها إلى أشكال تملأ الفراغ. كان النحات العراقي حسين صبري، رجلاً حساساً، مرهف الشعور، ذا ماض مؤلم، عانى من بطش النظام في بلده، فهرب ولجأ إلى سورية. كان رغم رهافته منيعاً على القمع، أما خشونة أصابعه ومهارته في تحطيم الجمادات، فتوحي بشدة المراس.

التقت ليلى بحسين صبري من قبل مرتين، في ليماسول وصنعاء، وفي المرتين تكلم على الفن والحرية، وعبّر عنهما بشذرات متوفزة غير واضحة. في ليماسول كان مشاركاً في معرض عن النحت في بلدان الشرق الأوسط، وكان النحت الطليعي في تلك الأيام غير قابل للشرح. كان النحات في منتهى الدماثة والكياسة، عندما اعتذر عن صعوبة إفهامها ما يقصده، ولام نفسه على عجزه؛ الفن العميق مضاد للتعبير. وفي صنعاء، في معرض جماعي عراقي للنحت، حاول أن يُقرِّب إليها، جاهداً ودون جدوى، ما ابتدعه من حلول تشكيلية؛ فعلِقَ هو بذاكرتها، ونسيت ما ابتدعه.

عندما قابلته في دمشق كان قد مضى على استقراره فيها عدة سنوات. أدهشها بذاكرته القوية، وبتقصّيه لمسيرة حياتها. قال لها، إنه لم ينسها، تابع أخبارها وتنقلاتها، وخلافاتها مع زوجها، وسمع عن مقتله، وأيضاً كتاباتها؛ أخيراً قرأ قصيدة في الملحق الثقافي، أثارت إعجابه، وقد سأل صديقه في الملحق عن لميس عباس، من تكون؟! فقال له، إنها ليلى شكران. لم تصدق أن كتاباتها باتت محور اهتمام المثقفين. بعد أن أسمعها تقديره لكتاباتها، عقب

بكلمات قوية، انطبعت في ذهنها:

«لستِ موهوبة فقط، الموهبة تأتي وتذهب، ومثلما تولد وتنمو، تضمر وتموت. تميزتُ في قصائدك دافعاً أقوى من الموهبة، طاغياً وأبقى، دافعاً هو فعل حياة».

ما أراد قوله وشرحه لها، أن دافع الكتابة لديها عبارة عن فعل يستحوذ فيه الشعر على جوهر الحياة. تساءلت، كيف تستحوذ كلماتٌ على جوهر ما لا جوهر له؟! كانت الحياة قد فقدت معانيها الكبرى.

لكنه ترك لها شيئاً تفكر فيه. وسوف تسأله بعد أيام عن بيت القصيد في مديحه الصاعق، فيشرح لها ما يعنيه، وكان قد أصبح أكثر حماسة وطلاقة:

«شعر يسعى إلى أن يُعاش، يعادل الحياة ويشكل نسغها الحي، يتمرد عليها وينقضها، يأخذ منها، ويستغني عنها، متجاوزاً إياها إلى إبداع زمن لا يكف عن التخلق من توقد فعل شعري خالص، يستعيض عن المادي والعادي والرتيب والممل، بالتأمل والصفاء والتجلي، على هذا الجسر تعبرين إلى الحياة ثانية.

العالم فقير، يا صديقتي، بحاجة إلى رؤية غنية موازية، تتفوق بالروح وتمتاز بالصدق، مشغولة على نحو إبداعي وبانتقائية شديدة تتوسل خيارات غير مادية. العالم، ولا أبالغ، يحتاج إلى اختراقات تغير نظامه السكوني الجامد إلى كيان شعري يتميز بالاضطراب، ويبنى توازنه على كلمات وإيقاع وموسيقى».

لم تلتفت لهذه الترتيلة الغامضة، أرهق نفسه في الشرح، وعقَّد ما

كانت تكتبه ببساطة، وحمّلها مشقة وضع العالم على سكة الروح الحقيقة. ما أثار انتباهها، عندما تكلم على شعرها، يداه اللتان أخذتا ترسمان أشكالاً وتحتويان أحجاماً، بحيث بدت أشعارها مادة كتابية تساير ما حققه في النحت؛ ما كانت تكتبه بالقلم، أنجزه بالإزميل، مؤكداً على صلة لا تنفصم بين الفنون، فيما وجدت العلاقة مفتقدة بين سكون الحجر واضطرام الشعر.

«لكنك تعمل على جمادات!».

«نعم، أسعى إلى أن أمارس عليها تشويهاً، يحيلها إلى كيان متحرك، يتلجلج بإيقاعات شتى، لغته الانكسارات والانحناءات، ويوحي بالانطلاق».

تابع الغوص في تعليلاته، وكانت مشبعة بالسحر والفتنة والرحابة، تكشف عن عالم غريب وسري، هائل ومختلف؛ كان شعرها، ويا للعجب، وسائل إيضاح له. أحست أنها تخطو في ميدان متسع بلا أسوار، تعبر خضمّه المتلاطم بخوف واجف، ترتعد أمام معالمه الكبرى، وتتميز تفاصيله الصغيرة. حقيقته كانت خافية عليها، وأخذت تظهر شيئاً فشيئاً. ميدان تتلمس مدى اتساعه، فارغ إلا من الخلود، على ساحته تمارس شطحات الإبداع تخليق حياة ثرية، الألم مادتها، والشعر مكافأتها. حياة استطاعت تصورها بثوان خاطفة؛ موّارة كثيفة مكتنزة وعنيفة، تستحق أن تعيشها ولو بضع ثوان، بعدها لا بأس، لقد عاشت الخلق والحقيقة، ستموت راضية.

عجبها كان، أن النحات الشاب، امتلك القدرة على تذوق كتاباتها، والتعبير حتى عما استتر عليها، وفهم شخصيتها وآلامها أكثر منها. منحها ترحيبه الوجداني في الاستماع إلى مصائبها،

دعماً عاطفياً، رغم أنه كان مطلعاً على طرف منها، وبلغ به الدعم أنه ذرف الدموع معها. لم تعد وحيدة، هناك رجل يقف إلى جانبها، يقاسمها أعتى همومها. بعد أشهر من الشقاء البليغ، أخذت تتعافى من عته الأحزان المدمر والمزمن. نصيحته الأخيرة:

«عزيزتي، النضال إفك وبهتان، الثورة تبدأ في داخلنا، كل ما ترينه من ثورات تعتمل على السطح، لن تبلغ أعماقنا ولو دامت سبعين عاماً».

مع أنها رفضت نصائحه، لكنها ستحفر في ذاتها أخاديد، تنعكس انعطافة كبرى في شعرها، وأشبه بانقلاب، ولكي تتمكن من تمثلها، سيتحقق بعض منها على المدى القصير، وتبلغ اكتمالها على المدى الطويل.

جاء التغير بالتدريج، مع تقلبات المشاعر وتواطئها وبطلان أوهام وتجددها بأخرى، فتراجعت من شعرها الجداول والأنهار، الزهر والطير، الفدائي والبندقية. وتقلصت الأشواق والأحلام، ومعها الأطلال والظلال، والغروب وضوء القمر. وتضاءل نصيب الحنين للأزقة والطفولة والمراهقة، حتى التلاشي؛ كأنه لم يعد ثمة ما يكتب.

بيد أن الانعطاف في شعرها، لم يحصل إلا بعد كمٍّ عظيم من الترددات والمخاوف وعصيان النوازع. غليان في الروح والأحاسيس، لا يمكن أن يستوعبه سوى الشعر، لكن أي شعر؟! ليس الشعر كبؤرة لإدمان التحدي والقتال بالكلمة، كان الكفاح قد ولى زمنه والمناضلون الشرفاء لم يعودوا شرفاء؛ ولا في تلك النظرة المأساوية إلى الشعر، كمرتع خصب لآلام الوحشة والهجران، مشاعر طالما

أحستها مواتية للشعر. أما الآن فلم تجد فيها بارقة لافتة، بل ميوعة خطرة؛ حتى العشق للرجل الغريب الرائع ذي العينين الغائرتين، رغم كل سحره بات مختلقاً وسخيفاً، وذهب مع مراهقة الكلمات.

من هذا الخليط القلق، ولد كتابها الأول «تباريح الهوى» وستمزج فيه بمهارة بين البقايا المحتضرة للنزعة الوطنية، والنزوع نحو ضروب من الأهواء العابثة ولا جدوى العواطف. كان حسين صبري قد نبهها إلى السباق الجاري بين الشعراء نحو تشويه الذات وتجسيد البشاعة، فلم تهمل أياً منها، غلفتها بالحب الممسوس بالغواية والخذلان وترهات الهوى والانفصال المحتوم. ولن تستطيع تجاوز مشاعرها النضالية، تلك التي انتشلتها مراراً من بحار اليأس والاحتضار المزمن والإخفاقات الكبرى، ستقمعها ولن تظهر، وإن تلامحت مخنوقة بين الأسطر، لكنها ستكمن لها.

ترك شعرها لدى النقاد، انطباعاً بالجدة، عن حب ملتاث محاصر بعالم قبيح وجشع. عمل النحات صبري على تسويقه بين أصدقائه اللاجئين العراقيين والكتاب السوريين الذين وصلهم معنى الشعر، على طبق من الشروح الحداثية، وملتبساً بامتياز، فأشادوا به، وروجوا له في الصحافة العربية. التقريظ الحقيقي نالته من النحات الفنان، لقد نجحتِ، ألم أقل لكِ؟ كانت توجيهاته الغائمة مع التركيبة المعقدة لهذياناتها قد أثبتتا استيعابهما لروح العصر المغيبة. واحتفاءً بصدور ديوانها والنجاح الذي لاقاه، دعاها إلى مشغله.

□ □ □

في القبو الواسع، وكانا قد وصلا إليه قبل غروب الشمس بقليل، أغلق النوافذ الكبيرة المطلة على الحديقة، فلم يعد المنزل سوى غرف

معتمة متصلة بعضها ببعض، خلا كوة صغيرة تسمح لنزر يسير من النور الباهت بالمرور منها إلى قاعة المشغل. كبس الزر الكهربائي، فأسبغ الضياء الساطع على المرئيات ألقاً لامعاً، فيما رفرفت الظلال الرجراجة لأنوار الحبابات على السقف والجدران أشبه بهالات عنكبوتية، تؤطر منظراً توهجت من خلاله التماثيل الحجرية وقد اصطفت بالتتالي، أشبه بحراس معبد مقدس، تشتق من الأساطير غبشها وغبارها. تماثيل كانت في استقبالها، ترحب بها وتتلعثم، تركع تسجد تستغفر تناشد وتقاتل: الرجل ذو الحربة، امرأة تبتهل إلى السماء، فارس على حصان، النبّال، سيدة تتكئ على قبر، حتى الرأس المقطوع بدا متململاً وعلى وشك التدحرج. أما التماثيل الأكثر تعبيراً: النهضة، اليقين، الصمت، الزمن، الثورة؛ فغارقة في سبات طويل.

مع بدء الأضواء بالتناقص، تماثلت الزائرة الجميلة بشعرها الكستنائي الطويل المنفلت والمنساب حتى وركيها، يتنازعها الجص والطين، وتتمايل بين حجرين أصفر وأسود، تأخذ منهما بصلف، وتخترقهما بكبرياء، وتجد لها مكاناً بينهما، تمثالاً يضج بالروح، ولد من روعة صخر لا يفنى، واكتنز بلدونة جمادات قابلة للاسترخاء، هكذا وصفها وأكمل مستشفاً شخصيتها، عنيدة كالرخام، صافية، صفاء البلور، وحائرة.

كانت حركاتها بطيئة، أو أنها كانت مشدوهة. كل حركة ترسم تصلباً قاسياً يتحكم بانسياب خطوط قامتها الفارعة، وذلك الشحوب على ملامحها، سطح أجرد، لا يخفي نتوءاته، ذو زوايا حادة، تحتاج إلى حفّ وتنعيم، ثمة خيوط لينة ومائلة، وشيء ما يخطف عينيها إلى مشاهد دامية بلون البرونز. كان انطلاق تعبير

الجسد لا يتطلب التشذيب والصقل، لكن أولاً، وكما حدد وجهة ضربات أزميله، تحريره من قيود الذكريات.

مع مرور الأيام وتسلل الظلام، سيرمم النحات حسين صبري عواطفها وينحت عقلها، يعيد تكوينها من الصفر، كانت في دخيلتها مهشمة أو أشلاء امرأة، وما يبدو منها خيال أنثى، قد يتداعى إلى هلام لا قوام له. لم تكن أكثر من حجر جميل التصميم، وواهن في الصميم؛ ينقصه الإشعاع الداخلي. يدور من حولها، يقترب منها، يمس ساعدها برؤوس أنامله، فترتعد أطرافها. يهمس في أذنها، فترتجف شفتاها، يضع يده على كتفها، فيخفق ثدياها. ترمقه بنظراتها، فيلمع بريق في عينيه. وعندما أحرقت حرارة وجنتيه خديها، أحست بأنها انسلخت عن الماضي. لم يستولِ عليها، بل خضعت له.

سيشقّ أمامها دروباً مثيرة في الحياة والشعر معاً، ويعيد استيلاد كل ما أسقطته من أحلام، وما استبعدته من آمال، ويعلمها ثانية، الضجر وأحلام اليقظة والتسكع واللغو، وكل ما كانت تظنه سفاهات وحماقات معيبة وتفاهات بلا قيمة. لن يغفل التفاصيل الصغيرة ولا الأفكار الكبيرة. ويدلها كيف تجرب المشاعر العنيفة والإحساسات الخطرة، بكل أمان، بواسطة مكابدات ذهنية، فعاشت التعاسة من غير تعاسة، والسعادة بلا سعادة، والحرمان بلا حرمان، والشبق بلا شبق. عالم بديل ورائع، كل شيء فيه متاح ومباح ومستباح؛ بمتناول اليد والإدراك والفهم... والانتهاك. وستظن أنها وصلت إلى نهايات عالم أدركت أعماقه وتبيّنت أغراضه. ولن يطول الوقت على الدرس الذي سوف تتعلمه وحدها، لتدرك أن أي تماس أو تجاذب مهما كان عميقاً لا يعني شيئاً، إلا بما يثيره من شحنات

انفعالية حقيقية. انفعالاتها لم تكن أكثر من تهيؤات واختلاقات، أو... عدوى.

وسوف يتوّج علاقتهما بتمثال من الحجم الطبيعي، ينتزع لها البقاء من الأبدية، في وضع شهواني، عارية وشنانة، مضطجعة إلى جانبها الأيسر مستندة إلى ساعدها المطوي تحت رأسها، شعرها إلى الخلف، صدرها بارز، ثدي يتكئ على ثدي، وساقاها منفرجتان قليلاً، قدمها اليسرى مثنية تحت فخذها اليمنى، العينان مغمضتان على رعشة تضج في الصدغين، والشفتان ملتهبتان... ما انفكتا تحت تأثير قبلة من جمر؛ سويعات نشوة عارمة مسترقة من جسد في رحلة وصال، ما زال في اتصال، يتصادى في أنحائه اشتهاء لا يُشبع، ودعوة مفتوحة إلى ذروة دانية، لا نهاية لها؛ دعوة يفصح عنها تصلب البطن وتقلص الفخذين، والانسجام الداعر بين الكتل الناعمة والسطوح المتوترة والخطوط النافرة.

قال لها، هذه أنتِ. تأملت التمثال بتوجس، وأنكرت، لست أنا؛ وزاغت بعينيها بعيداً عنه، لا ليس لفنان، مهما بلغ ادعاؤه، أن يصطاد لحظة، مهما كانت هذه اللحظة، وأن يحشرها فيها إلى الأبد؟ قال، هذا شأن الفن. قالت، متى كان الفن صادقاً؟!

تلك هي المرة الأولى التي تشكك فيها بدعاوى الإبداع. أليس الفن صنيعة الإنسان؟

قال، يدع البشر تماثيلهم ويمضون، وهي التي تمنحهم الخلود، وتعصمهم من الموت، ولا تعوقهم عن الحياة.

تخيلت التمثال، يأخذ زاوية من معرض يتحلق حوله الطلبة المراهقون؛ تقديره الوحيد ابتساماتهم الخجولة. تكهنت أمراً، كان

إحساسها به مخيفاً. لم ترغب في الخلود على هذه الشاكلة. قالت له، حطّمه، لست أنا.

اعتقد أنها تحاول الهرب من حقيقتها. لم تكن تهرب، كان يراها هكذا، أو أراد أن يراها هكذا، بكليتها له. لم تخطئ إحساسها ولا مخاوفها؛ فيما بعد، ستعي أنه كان ينتزع لها البقاء لنفسه، أسيرة في تمثال، أسيرة أهوائه، حبيسة كتلة من الصخر، مضطجعة، ينالها متى شاء وأنى يشاء. وسوف تقول له، أنا امرأة لا حجر. بيد أنه لم يفكر في امرأة، كان يفكر بأنه يطوع الحجر لإزميله.

قال، ليس ثمة امرأة عصية على الخنوع.

هذا ما سوف تتذكره، وتؤرخ بكلماته هذه بداية رحلة عزم فيها على تطويعها لأهوائه ووساوسه. وإن كانت أحياناً تحدد بدايتها، مذ دار حديثه لأول مرة عن موهبتها، ومصيدة الشعر، ثم غرامهما الذي صوره بريئاً وجميلاً، بعدها، أخذ ينتقد تصرفاتها الكبيرة والصغيرة والتافهة التي لا تروق له، يسارع ويجلب نظرها بحدة إلى عدم انسجامها مع ما يريده لها من مكانة، مدعياً بأنها تؤذي قصة غرامهما. كانت علاقتهما حسب رأيه، علاقة خارقة ليس ثمة أروع منها، لا ينبغي العبث بها. تمادى بتدخلاته، وكانت كلها تحت ضغوط غرامه الجارف. عندما طفح الكيل به، أشهر عذاباته المكتومة، كان ذلك إيذاناً باتهامها بالعبث به، ومن ثم بالخيانة... وخيانات لن تنتهي!! اصطدمت معه، كيف تتجرأ؟! تتركه وتمضي، يلحق بها ويعتذر منها. لكن سرعان ما يتهمها ثانية، فتتركه ثم تعود إليه. بعد عدة مرات، نجح في استجرارها إلى لعبة الدفاع المضني والمتواصل عن براءتها.

تتأمل عاشقها المعذب، لا، لم تكن تتخيل، ولم تعسر عليها رؤية الدفاعات الحيية للنحات العصبي الملتبسة بالفن والصدق وهي تنهار بفعل أكاذيبه. لم يعد بوسعه الاختباء خلف شخصية لم تكن له، بعدما أفرج عن شخصيته الموسوسة. كان في قلقه وشراسته وجزمه بخيانتها، حقيقة لا تمثيل فيها، تتجلى بعنف وشراسة، لا يد له فيهما. وإذ يعذبها بشكوكه، يضرب حولها طوقاً من الاتهامات، يكبلها بها، ولا يفرغ من استعراض حججه، إلا وتتصدع صورته في داخلها، لتنهض صورة ثانية متماسكة بلوثات الشقاء والجنون. وعندما ينطوي داخل الشخصية الوديعة التي كانها، تلك التي استعارها، أو حلم أن يكونها، ولم يفلح؛ تحس بأنها مجرد استراحة، ريثما تحل الجولة التالية. حجته كانت ضعفه وبؤسه ووحدته. يرجوها، ذنبي أنني بحاجة إليك، قولي لي دائماً أنك تحبيني بمقدار ما أحبك.

ليست إلا ظنون عاشق، تقول أحياناً، لتداري ظنونها، بل ويروق لها الاتهام والحب الكامن فيه، غيرة محبين لا أكثر، ستزول في يوم قريب، ويهجر المحب شكوكه، ويندرج الحب في العادة والألفة، ولن يعمر تأججه وحماقاته طويلاً. لكن الاتهام سيتكرر ويتكرر والأدلة ستتكاثر وتتكاثر حتى اعتقدت أنها تخونه فعلاً، أو أنها تتصرف بطريقة تجعله يظن بها الظنون. كان بأسلوبه المتوتر قد نجح في إخضاعها لغرام مرهق ينهل من تضاعيف وساوسه عن عهر النساء قاطبة دون استثناء.

حيَّرتها ملحمة الغرام التي سطرها لها وأقنعها بها، كانت أسيرة روعتها الماضية، إذا كانت بهذه العظمة، فكيف يقضي عليها مرض سخيف وتافه، كهذه الغيرة الحمقاء، إن لم تكن الملحمة مجرد

سطور منتحلة من قصة ما؟!

وسوف تواتيها الفطنة وتتكهن، لا، لم ينقلب إلى إنسان شرس فجأة، كانت أشهر غرامهما الأولى التي مرت كالخيال، بسلام وجمال، مشواراً قطعه بحذر، أخفى خلاله توقه إلى امتلاك جسدها وعقلها وروحها، ونجح في لجم محاولاته للسيطرة عليها، وقاوم ظنونه العاتية خيفة أن تكشفه. ثم بعد أن جعلها تؤمن بمآثر الغرام الكبرى، الاستسلام والخنوع والعمى والتفاني، أخذ يجرب الوسائل القادرة على سحقها، وسيلة بعد وسيلة. إلى أي حد باستطاعتها الصمود، ترى هل كان يفكر بهذا المنطق؟! كان إطلاق العنان لغيرته المعتوهة، يعني الاستحواذ عليها وإعادة تشكيلها كلية.

28

امرأة خاطئة:
للحياة وجه آخر

وهي سائرة إلى أن تفقد روحها، كانت تتقولب على نحو تجهله وبدأت تألفه. لا تدري كيف تُهدئ الأعراض الصاخبة لوساوس عاشقها، تجهد في مراقبة تصرفاتها حتى التافهة منها كيلا تؤذي مشاعره، تحسب حساب كل أمر تقوم به، لئلا تؤجج ظنونه، تسبغ عليه حبها بسخاء، وتصعد به إلى أقصى درجات الشهوة، لكنها لا ترضيه، ربما من رياء شغفها به، تنبعث شكوكه قوية، وتغلي الظنون في رأسه. وعلى الرغم من حرصها على ألا يوحي تصرف لها بما يثير توجسه، كانت تلك الأمور الصغيرة التي لا تسترعي الانتباه، والتصرفات التي لا يمكن أن تقدم عليها، تجعله يهلوس بخيانتها لمجرد أنها خطرت في رأسه؛ دليله الوحيد حدسه بحدوثها. بعد فترة، وعت مذهولة أنها باتت تحاذر النظر إلى رجل بحضوره، وتتوخى العبوس وعدم الضحك، أو حتى مجرد الابتسام، وتتجنب

تبادل الحديث مع أحد من الموجودين. ومع هذا، كان واثقاً من أنها تخدعه وتخاتله. كان الرعب في دخيلتها يتفاقم، باتت مهددة على الدوام بأنها تخونه، وعليها أن تحتاط من اتهاماته، بجمع الأدلة على أماكن وجودها، وأين وكيف قضت ساعات غيابها.

تُوغل روحها في هجرانها وترحل في نفق مظلم، مشغولة على الدوام بإعداد البراهين على حبها ووفائها وبراءتها، وتنتقي الأوقات المناسبة، لتدلي بدفوعها الغرامية المعتادة؛ وكانت مجرد عبارات عادية لا تحمل ذلك الألق الشعري المتعالي على التفاهات البشرية: تعلم أنني أحبك، أفكر فيك دائماً، صدقني، لا أستطيع الاستغناء عنك. روحها غريبة عنها، مرعوبة، كئيبة، وتستحق الشفقة، يلازمها القلق والأرق وحصارات الأسئلة المتوقعة.

تجرأت وانفصلت عنه وعن نفسها، أرادت أن تراهما معاً، تفحصهما وتتفحصهما، كأنما في مرآة. تراءى لها أنها مجنونة وهي تراقب نفسها تمشي معه متلاصقين في زقاق ضيق. يقول وهو يميل عليها:

«أحب زواريب دمشق المضمخة بعبير الياسمين. انظري حجارتها القديمة، رسم الزمن عليها تاريخاً من المآسي والأمجاد».

فيما لم يكن هناك عبير ولا ياسمين، بل بعض العرائش اليابسة، وقمامة وطين ودكاكين قبيحة ودرب مخنوق بالروائح الكريهة. ما التاريخ المكتوب على حجارتها؟ لم تر تاريخاً ولا حجارة أو كتابة، مجرد كلمات متداولة مثل سابقتها!! التاريخ ليس بضعة أحجار وادعاءات. كان عشق دمشق شائعاً على ألسنة أنصاف الكتاب والشعراء، يتغزلون بماضيها ويلعنون حاضرها، مثلما كانت كراهية دمشق مستشرية بين صغار المثقفين الوافدين الجدد، يحتقرون مدينة

يتسابق الجميع لاحتلال مكان فيها. هو اختار عشقها وزاود على الآخرين. هتف بصلافة:

«سأجعل لدمشق، أقدم مدينة في العالم مكاناً سامقاً في تشكيلة منحوتاتي».

هل كان ينازعها على دمشقيتها؟! نعم، ويقدم لمدينتها خلوداً آخر أعطية خالصة منه، يزعم أنه كرمى لها. فيما لم تكن الأعطية سوى كذبة، كان يكره دمشق، كانت ترمز لكل ما كان يفتقده، المدينة والحارة والأهل والأسرة والرفقة، ويخشاها كبديل، لئلا يفقد ما يتميز به، الغربة والمنفى والحرمان من الوطن.

تبينت بمرارة، أنه هو نفسه لا يدري هل يحبها أم يكرهها. كان رغم لغوه بدمشق، يحسدها، امرأة وجدت أمانها في مدينة، بعد تشردها سنوات، وهي مهما ساحت وغابت، مدينتها في انتظارها. كان يرغب في الانتماء إلى دمشق من خلالها، لكن مخاوفه كانت تحجز بينهما، لن تكون مدينته، ستبقى مدينتها وحدها، فيها تستطيع الاختباء والاختفاء والعشق والخيانة والموت. أما هو الذي اختار أن يكون غريباً فلا مكان له، سوى الضياع فيها. لم يكن ما خطر له من احتجاز مدينتها في حجر سوى محاصرتها، بتشكيل دمشق تخصه، يحوزهما معاً ويضمها وإن بالحيلة إلى عالم أليف إليها، إلى عالم صُنِّعَ خصيصاً لها، تصبح فيه رهينة أمره. المدينة لم تنجز، مثلما المرأة التي حاول أن ينجزها، بل أنجز الأخرى، أخرى تتكون وتتحلل في آن واحد. وحتى لو شكلهما كما أراد، واحدة ضمن واحدة، أو واحدة ملتصقة بالأخرى، فلن يرتبط بهما. لم تستطع حبيبة ولا زوجة ولا أولاد، ربطه بالمدن التي حل بها.



مأساته قرية صغيرة نائية في الجنوب على تخومها ينحدر دجلة جامحاً، يهددها بالفيضان، المراكب البخارية والزوارق الصغيرة تشق الماء ذاهبة آيبة تنفث دخانها وأصواتها على صفحة غروب يتضاءل إلى رماد، الشِباك منشورة في وجه المجرى والقفف ممتلئة بالأسماك، والريح تميل بالأشجار نحو أفق تتقاطع فيه أكوام القش الضخمة مع أشجار النخيل. في الليل المقمر تتهادى الخيالات بين حقول الرز الأخضر، بينما قارب جنح إلى الضفة. في الليالي المظلمة يرتعش ضوء شحيح لسراج النفط، ويتفتت بين أكياس القمح وأعواد القصب والبردي. وتحت قيظ الظهيرة، يتلون المدى بالأخضر والأحمر، أبقار تخور وكلاب تنبح، حدأة تحوم ونعيق غراب.

ذكريات تأبى أن تبارحه... زياراته مع أبيه إلى النجف الأشرف، وقوفه خاشعاً في الروضة الحيدرية الطاهرة في الأجواء المباركة العابقة بالأريج الشذي لأعواد البخور الندية المتقدة، الثريات تتلألأ بالأضواء الساطعة والمراوح تدور، الأيدي ضارعة إلى الضريح الذهبي، وابتهالات وتمنيات هامسة إلى الإمام الشهيد. وفي الشوارع تتماثل ذكرى عاشوراء فاجعة دامية، البيارق الحمراء والسوداء والخضراء تخفق في العالي، السيوف والرماح تلمع تحت الشمس، الأصوات ترتفع ملتاعة على الإمام المظلوم. بشر يتزاحمون على الأرصفة والشرفات يتفرجون على مواكب الفرسان الطالعة من الحسينية، والشبان المنذورين المكتسين بالسواد يقرعون ظهورهم بالجنازير الحديدية، فتنبجس الدماء، وتنصبغ المشاهد كلها بالأحمر القاني؛ لون الشهادة والشهداء.

... والمشاهد البغدادية، قبل أن يسافر بأيام، فندقه الرث في دخلة من دخلات شارع الرشيد، دور السينما في شارع السعدون، وتجرع

الشاي والبيرة والتهام السمك المسقوف في مقاهي أبي نواس الصيفية ومطاعمها المنتشرة على الشاطئ، ثم المنظر الأخير لبغداد تجرح القلب من سماء المطار الذي أقلع منه.

لم تعد الصور المختزنة من قريته ومدن اليفاعة والشباب، سوى ذكريات ملونة ومناظر في بطاقات سياحية، يعيد روايتها بشغف، يبرز منها بطلها الثوري المطارد الملثم بالكوفية، ويُسقط منها الطفل القروي النحيل المصاب بالتراخوما، والتلميذ اللاهي والحرون، والشاب الفار من الخدمة العسكرية.

□ □ □

مأساتها، أنها كانت فريسة لغرام اللاجئين وآمالهم، شيء ما فيها يغري المنفيين من أوطانهم، المهاجرين من أراضيهم، الهاربين من بلدانهم، الباحثين عن مكان يؤويهم، والتواقين إلى أم تحتضنهم وتعطف عليهم، ينشجون على صدرها، وينعسون على ثدييها. عندما يحصلون على بغيتهم، يمزقونها من فرط حنينهم إلى الماضي.

الانقلاب المهم في حياتها تأخر، ولم يأت مفعوله إلا بعدما أيقنت أن حبه سحق عواطفها وأخذ يقتلها رويداً رويداً، دونما شفقة، يفتت عظامها ويهرس لحمها تحت وطأة تهاويل هيام بات يحصي عليها أنفاسها ونظراتها ولفتاتها؛ أية حركة أية كلمة أية همسة، تستتبع عشرات الظنون، حتى أحلامهما الليلية باتت معرضة لحساب يدوم بقية الليل وأياماً بعده، في حمى الظنون ذاتها ودائرة الأسئلة ذاتها، لماذا قلتِ؟ لماذا لم تقولي؟ رأيتك تغمزينه. أمسكتِ يده، تكذبين. ما الذي كنت تقصدينه؟ بل تأخرتِ، كنتِ مع

فلان، وانبسطتِ معه، وما زلت تفكرين فيه، أين ترينه؟ كم مرة نام معك؟ على نمط هذا الإسفاف الغث والجنون الملحاح السخيف. فيما كان يخونها كلما سنحت له الفرصة، لا يوفر امرأة أو فتاة.

لم تخل جعبته يوماً من رجل يدعي بأنها تلتقيه خفية، تنام معه وتمنحه جسدها. يتهمها بأنها شهوانية؛ تشتهي الرجال، قحبة؛ لا تشبع منهم، ساقطة؛ تصطادهم بأساليبها الرخيصة، فاجرة؛ تبدلهم من آن لآخر. بعد السباب والصراخ وصفعتين على الخدين وضربتين على الرأس، وربما حاول خنقها. لا تملك سوى البكاء، وحلف الأيمان على براءتها، تلطم وجهها، وتهدد بقتل نفسها، وقد تبالغ وتقدم على الانتحار، فتبلع ما يتيسر لها لحظتها من أدوية، ينقلها إلى المستشفى، يغسلون معدتها. أو لا تلحق أن تنتحر، تصرخ حتى يغمى عليها، لتصحو عليه وهو يقبل قدميها ويديها ويستغفرها ويطلب منها مسامحته. أخيراً بعد النحيب والنباح يأتي دور الأنين والنكاح. فيعود ذلك الإنسان الطيب القلب والوديع البائس، تواقاً إلى لمسة حنان، جائعاً إلى الأمان، وتراه بين ذراعيها مسكيناً مغلوباً لا حيلة له في شراسته وجنونه.

قد تنتهي قصة خيانتها المختلقة مع فلان عند هذا الحد، وقد تعاود الظهور بعد أيام، أو بعد أشهر، خلالها يمر رجل أو رجلان على هذا المنوال، وعلى الرغم من تبرئته لها واعتذاره، يعود بها إلى الافتتاحية نفسها، ليسترجع فجأة وبلحظة واحدة ثقته بظنونه ويستعيد معها أدلّته القديمة، فتصبح جديدة وقوية ودامغة. جعبته لا تنضب من الشواهد، وتمتلئ بالكثير من الحقيرين الذين تخونه معهم. بعد المصالحة، يردد حجته الوحيدة، إنه يحبها حباً يتمنى فيه الموت كي يريحها من تعذيبها بشكوك لا قدرة له عليها؛ وكانت تصدقه. مرة

إثر مرة، والقصة نفسها تتكرر بحذافيرها، على مدار أشهر دونما تراجع أو تخاذل، ودائماً ترتد ظنونه وتتمادى في عنفوانها، كأنه ضبطها بالجرم المشهود، وكالمعتاد تحتدم إلى أقصاها وتقارب الجنون، أو ما قبله بقليل: الإغماء. باتت تتمنى قتله، باتت تتمنى موته.

وريثما يحدث شيء ما، سيطرت على يأسها، بالتحايل على كربها المقيم، وأخذت تعامله كطفل صغير مائع ومريض، وحتى عندما كانت تضبطه مع إحداهن في المشغل، تترفع عن محاسبته، وتنتفض مشاعر الرثاء في داخلها نحو فتاة أو امرأة يفترض أن تكون غريمتها، لا تظهر غيرتها نحوها بل تشفق عليها، ترى نفسها فيها، امرأة غُرر بها. لم يكن صعباً عليها تخيل كيف يحتال عليهن، ولا تجهل كيف استجبن له، كان قادراً على ادعاء العطف واللطف، وتصرفات أنيقة مع رهافة فنية عالية، والتظاهر بحساسية إنسانية مفرطة، ومشاركة الآخرين آلامهم، وإيجاد عبارات مناسبة تساعده على جعلهن يخلعن ملابسهن دون عناء، كأنهن يؤدين طقساً متفانياً من الحب والفن. بالإضافة إلى لعبته الأثيرة في استدراجهن إلى تنظيف مشغله وجلب ما يطبخنه له، ومساعدته بالمال أيضاً، وعندما يقصرن يدفعهن إلى الإحساس بالذنب نحوه، نحو اللاجئ المنفي من بلاده، وفي أثره جلاوزة الطاغية، وأذناب النظام الغاشم، والمخابرات المجرمة.

وجدت في مغامراته النسائية فرصة سانحة انتهزتها لفصم علاقتها به، لكن الأمر لم يكن عائداً إليها، لم تكن ألعابه مع الأخريات سوى حرتقات صغيرة بالقياس إلى لعبة كبرى حشرها في أتونها، لعبة كان داخلها وطرفاً فيها، حتى هو لا يستطيع الخروج منها، وارتباطه بها أقوى من أن تفصمه. ومع هذا كانت تستغل خياناته

وتجد المبرر للإفلات منه. يوماً يومين أسبوعاً. ويسارع إلى الكتابة إليها والاتصال بها، وملاحقتها من مكان إلى آخر، يهدر كرامته، فتمل من توسلاته وتخشى من غضبه وتعود إليه. وقر في ذهنها أنها لن تستطيع التخلص منه، وأنه عالق بها إلى الأبد. تهجره وهي عارفة أنها تأخذ إجازة قصيرة من غيرته المجنونة وفحش تخيلاته. إجازة ليست أكثر من فاصل يريحها من رعونته وتهجماته عليها. تنطوي في بيتها، تكتب وتكتب، علَّ الكتابة تشفيها منه. كتابة كانت استعراضاً لهشاشتها ولعالم يسخر منها، ويسلط عليها المسعورين المجانين. المُعَذبون القساة، ينقلون أمراضهم لمن يحتضنهم. كانت الكتابة تعزز وحدتها وتزيد من مخاوفها، فتحس بأنها ضعيفة وقد يدهمها في أية لحظة ويبطش بها؛ تؤلمها الكتابة، تُشعِرها كم هي خائرة القوى. عندما تقابله بعد حرَد وغياب تتوقع أن يهجم عليها ويضربها، لكنه يناشدها الصفح عنه ويرجوها مسامحته، يقسم ويحلف بأن ما جرى كان علاقة عابرة، وأنه تغير، تدرك بأنه كان يخونها، وخوفه من فقدانها دفعه للعودة والاعتراف. تكذب على نفسها وتصدقه، ربما تغير. لا يهمها أن تجاريه وتحاسبه على هفواته، كان تسامحها معه يشعرها بالفارق بينهما، لم يجعلها مثله، ثمة مسافة تفصل بينهما، قد تساعدها يوماً ما على النجاة بنفسها منه.

كان إحساسها بالظلم طاغياً على ما عداه، ظُلمت في حياتين عاشتهما وذاقت الجحيم مع رجلين، ثانيهما ما زال يسوطها بترهات عبقرية اكتشافاته الأكيدة والمتلاحقة لشهواتها الجهنمية في ادعائه القدرة على الرؤية، رؤية ما يجري دائماً في الخفاء، ومزاعم المناعة من الخديعة. ومع هذا عندما تعود بذاكرتها إلى الرجلين معاً، كانت تعذرهما، كان في وساوسهما دفاع وحيد عن النفس وإن أخطآ

طريقهما، الظروف لم تترك لهما فرصة لدفاع آخر. وكان فيه أيضاً رد اعتبار لعالم يتآكل ويفقد مبرر وجوده من غير أشرار، فيرمم بالتخيلات والأكاذيب. كان في تحميلها عبء إخفاقاتهما، ولم تكن شخصيةً أو صغيرةً، غرمٌ كبير، تدفعه وحدها، ليخرجا سالمين، أو مصابين بجروح خفيفة بدلاً من معاناة انهيارات مميتة، جراء مخلفات بحجم القضاء على ثورة بمؤامرات حاكها عملاء خونة ولصوص انتهازيون ومساومون دهاة؛ وبطش نظام، القائمون عليه، متسلطون أنذال وطغاة سفلة. وكأنما عليها أن تدفع ثمن الصفقات المشبوهة والاغتيالات المتبادلة والتنكيل الإجرامي والسجون والإعدامات.

كان ثقل ما تتحمله لا يطاق، كل منهما نفَّث عن قلقه، وأحال إليها شعوره بعدم الأمان. أحقادهما المكبوتة كانت من نصيبها، وتوقهما للثأر والانتقام وجد طريقه إليها، والأمل بالتحرير انقلب عليها عبودية، لمجرد أنها تورطت في الحب والثورة والأدب والأمل المشرق بغد أفضل. كانا أدوات عذاب وتعذيب بأيدي أقدار لا تميز بين ظالم ومظلوم، بل وحولت مظلومين عميان إلى ظالمين حمقى.

لم تقرر أن تخونه في لحظة ضعف، أو اعتباطاً، كان قرارها قوياً وحازماً. ترى، ما طعم الخيانة؟! مجرد طعم رجل غير الذي أعرفه!! وقد لا يزيد عن الاستسلام لأحمق آخر ليس مختلفاً عنه، لن يكون أفضل أو أسوأ ممن سبقاه، هذا حظها من الغرام والرجال. السبب لم يكن وجيهاً، والقدر لم يكن كافياً ليقنعها.

السبب المقنع، سيأتي وحده، وتلوذ به: إذا كنت قد رضيتُ بكوني متهمة على الدوام، فلن أرضى بأن أكون مظلومة أبدية. هكذا باختصار، وعاهدت نفسها على خيانته. لم يكن تصميمها طمعاً في

أن تثأر لنفسها منه فقط، أرادت ألا تكون متهمة بريئة، البراءة أثبتت عجزها المطلق عن جعله يكف عن شكوكه. لن تكون ضحيته، ولم تكن عاجزة، بل قادرة على أن ترتكب ذنوباً حقيقية، وتصبح مذنبة حقيقية، مذنبة فعلاً، امرأة خاطئة، تجرب العار القبيح؛ فلتُصبْ شكوكه هدفها، ولن تسمح له بدفعها إلى الجنون، اتهاماته الحقيرة ستصيب امرأة حقيرة، هي المرأة الحقيرة، لكن ليست المظلومة. لن تشعر بالحيف، خائنة، نعم خائنة، لن تبكي وتتوسله لينصفها. بعد اليوم، لن يحاسبها على الذي لم تفعله، بل على الذي تفعله عن قصد، ودون أن يدري.

في أعماقها، ستشكل الخيانة خروجاً عن طريق تمشي فيه عمياء وصاغرة إلى الموت. مجرد قدرتها على الخيانة إحساس بأنها تستطيع التفكير بجسدها دونما خوف، والتصرف فيه رغماً عنه. وإذا استطاعت أن تخونه فعلاً، فسوف تحوز القدرة والقوة على التحرر منه والانفصال عنه، أو حتى التصور بأن للحياة وجهاً آخر، أو أن الحياة على الأقل، تعاش بأكثر من طريقة، وربما الاسترداد الكامل لحياة مفتقدة.

...وسرعان ما عثرت على الشاب الذي قررت أن تخونه معه.

قطعت ليلى حديثها، ووقفت تبغي الذهاب، لقد تأخرت عن البيت. بينما بلغ الفضول بحامد أقصاه، خاصة أنها وصلت في قصتها إلى مفصل خطير. ترى هل ستخون حبيبها؟! حاول أن يثنيها عن الذهاب، لا عن الخيانة.

كان الوقت قد تجاوز العاشرة ليلاً، وليلى تريد مواصلة الحديث. كانت رغبتها في التنفيس عن أحزانها جلية، فهي لم تتجرأ سابقاً

على البوح بها لأحد، وإذا كانت قد وجدت في حامد إنساناً تأمن إليه، فلأنها جربته من قبل، وكان حبيباً فاشلاً، لم يرم عليها بغلاظاته، بل أخفى حبه، ولم يضايقها به. لكنها لا تستطيع التأخر أكثر، فضربت له موعداً في الأسبوع القادم، المكان نفسه.

□ □ □

كان من المستحسن ألا نتقيد بهذا الفاصل الواقعي العابر، ونتابع قصتنا كأن الأسبوع مرَّ فعلاً. لكن للاعتبارات الاجتماعية حدوداً لا يمكن تجاوزها، ولا بأس من الإشارة إليها، أحدها أنه لا يجوز خصوصاً للأرملة أو المطلقة العودة متأخرة إلى بيتها، حرصاً على سمعتها.

ومن جانب آخر، إذا كان للتقيد بالواقعية سيئاته، فلا ينبغي إغفال حسناته، عندما يلزمنا بملاحقة أحداث أخرى جرت خلال الأسبوع. أحداث لا يمكن تجاهلها، ولا مفر من إيرادها في توقيتها الصحيح، كي لا تفاجئنا فيما بعد دفعة واحدة، دونما تمهيد.



29

لص الروايات:
لمسة خاصة وفرص مضيّعة

الوقت منتصف الليل تماماً، في اللحظة التي ينتهي معها يوم، ويبدأ يوم جديد. انتفض حامد من فراشه، لم يكن قد استغرق في النوم بعد عندما أتاه صوت فاروط يلعلع في الهاتف:

«الأستاذ حسن حفلاوي؟».

فأحس بالخطر، خبرته أورثته الرهاب من الأسماء المستعارة، كان بمجرد أن يُخاطب بحلفاوي أو حلفاني، والآن حفلاوي... تتداعى في داخله شخصية، تقتطع لنفسها جزءاً منه، وتحتل مكاناً فيه. عزم على أن ينهي المكالمة بينهما سريعاً، يبلغه بتراجعه عن اتفاقهما، بكلمتين لا أكثر، يتبعهما بكلمتين أخريين يقترح أن ينسى كل منهما الآخر. لكن فاروط لم يدعه ينفّذ ما عزم عليه، كان ودوداً

جداً، قال بأنه اختار هذا التوقيت الليلي الهادئ، ليتكلما على راحتهما؛ بالمناسبة، منذ أيام استمزج آراء نخبة من الأدباء الكفوئين من أصحاب القرار الثقافي حول تأليف لجنة من المختصين تبحث في الترجمة والقضايا المتولدة عنها، على أن يؤخذ المترجم حامد سليم نموذجاً. وأكد أنه إذا نجحت مساعيه، فقرار اللجنة مضمون لمصلحته.

«سأشرف على تأليفها، ولن أخفق في تأمين أغلبية تكون إلى جانبك، وتلقيمها القرار النهائي بعدم إدانتك، على أنه لا مفر من تذييل القرار بفقرة صغيرة تنحو عليك باللائمة، تأنيب خفيف، لا يعني شيئاً».

وأطلق ضحكة صاخبة فرقعت في سماعة الهاتف.

استبشر حامد خيراً، واحتاج إلى كلمات كثيرة، ليشكره على بادرته العملية المحسوبة خطواتها. وطمأنه في الختام بإبلاغه أنه رتب أوضاعه وألغى ارتباطاته كلها لكي يبدأ غداً العمل لصالحه.

«أليس اليوم أفضل؟!».

عقّب فاروط ممتعضاً، وانتظر الجواب، كان متنبهاً إلى أن اليوم ما زال في أوله ولم يمض منه سوى دقائق.

«حسناً اليوم مساء».

قال حامد، وفي سره قرر ألا يكون لشخصية حفلاوي وجود على الأرض ولا في السماء، لا مبرر لشخصية تعلق به، لا داعي إليها، ولا لزوم لها، ما دام تعامله مع فاروط لن يطول أكثر من بضعة

أسابيع، يسد خلالها حاجته إلى القصص، بالتواقت مع إنهاء قضيته. ثم يطوي الموضوع كأنه لم يكن.

مع قدوم المساء اتصل فاروط ثانية، هل بدأت؟ فأجاب، بدأت. بعدها وعلى مدار الأسبوع، لم يتوقف رنين جرس الهاتف، يوقظه صباحاً، ويدفعه إلى العمل باكراً، ويحثه إذا تلكأ. مما اضطره إلى إيقاف عمل المترجم حلفاوي، وتدبير بعض الوقت لحلفاني لينجز تحرير صفحات الراصد الأدبي على وجه السرعة. وفاروط لا يكف عن ملاحقته باتصالاته؛ وكانت تتوالى متسارعة، لا يدعه يأخذ نفساً. أحياناً تتباعد قليلاً، فتسمح له بتناول طعامه على عجل، والنوم هلوسة. بالمقابل، كانت اللجنة المختصة بقضيته يطولها التعثر تارة، وتارة على قيد التشكل، وأخرى تم اختيار الأعضاء «وهم من جماعتي»، تبعاً لتقدمه بالبحث والتنقيب في الروايات. في اليوم الأخير من الأسبوع، عندما كانت اللجنة على وشك أن تعقد، أصاب التأجيل أولى جلساتها لمرض ألمَّ بأحد أعضائها.

□ □ □

لم يعدم على مدار الأسبوع، رؤية حلفاوي وحلفاني، يتراءيان له حينما تهل ساعات بدء عملهما، يرمقانه شزراً آسفين على جهد يبذله دونما مردود، لكنه لم يكن بلا فائدة، كان مجدياً ومسلياً ورائعاً، وإن كان شاقاً ومرهقاً. في الحقيقة، لم يثمر كما كان متوقعاً؛ من هذه الناحية، كانا على صواب.

أما وجه الروعة، فولوجه عالم الرواية، لا كقارئ أو مترجم، بل كلص يبحث عما هو جدير بالسرقة من فكرة أو حبكة أو شخصية وربما أسلوب، وهذا ما جعله يتلمس باستغراب وعجب معالم

الروايات من الداخل، ويتعرف على المواد التي تصنع منها، اللغة والحدث، تآلف الواقع مع تضاعيف الخيال في مشهد ينمو من فصل إلى فصل ليبلغ نهاياته. ثمة الكثير مما جذبه، كيف يرسم الكاتب شخصياته، ويفبرك لها ملامح وطباعاً وأصواتاً وأقوالاً، يدس من خلالها ما يشاء من أفكار! ثم بأية حلة يقدمها، فيتعاطف القارئ معها، أو ينفر منها. ما يمارسه من أساليب تمكنه من التدخل في الأحداث، وليَّها بافتعال المفاجآت وابتكار المصادفات، وما يبتدعه من مواقف مشوقة. بل وأخذ يختبر براعة الكاتب في رمي الألغاز واختلاق الغموض، مدى تفننه بالسرد وتنويعه فيه. يتفحص تسلسل التداعيات وفوضاها، انسياب المونولوجات وتعثرها، هل لها جدوى؟ ثم الولوج في المكان ووصفه، هل تمكن من إضاءته أو التعتيم عليه، ولماذا؟ التنقل عبر الأزمنة؛ اختراقها، المرور بها، أو القفز فوقها. مقدار الصمت والكلام، السكون والحركة، والتفاعل بينهما... رومانسية كانت الرواية أم كوميدية، تاريخية أو واقعية عادية أو سحرية، خيالية علمية... إلخ.

لم تكن هناك مشكلة في هذا الكم الكبير من الروايات المجهولة، لا سيما بعد أن ذهب زمانها، وأصابها الإهمال، وبطل مفعول جاذبيتها، إن كان لها مفعول أو جاذبية. كانت موضوعاتها متشابهة، مهما بلغت تصنيفاتها وتعددت أنواعها، سواء جرت أحداثها في الريف الإنكليزي أو الغرب الأميركي؛ لا تختلف رواية عن أخرى، إلا بتلك اللمسة الخاصة: بصمة المؤلف؛ سواء كانت عظيمة أو تافهة، عالية الجودة أو متوسطة. لمسة تمنحها تميزها وربما فرادتها، وتضفي عليها سحراً خارقاً أو كاذباً، عداها؛ فالجميع يكتبون الرواية نفسها.

فاروط لم تهمه تلك اللمسة، مع أن حامد نبهه إليها وامتدحها بأنها الجهد الخاص بالمؤلف، وجوهرة إبداعه.

لم يخل البحث من متعة عميقة وغامرة، أحبطتها مراراً فرص مضيعة؛ روايات كان من الممكن أن تكون رائعة، لو توفرت لها الدراية والفن. لكن فاروط لم يهتم إلا بالفكرة والحبكة، والشخصيات والأحداث، هؤلاء ما سوف يفرمهم ويطحنهم ثم يعيد صياغتهم. وكان لا يفتأ يحذره:

«... على أن يكون قد مضى وقت طويل على نشر الرواية، لم تُحدث أي صدى، لم تعلق بالأذهان، لم يشر إليها أحد من قريب أو بعيد، سلباً أو إيجاباً، وقبل كل شيء، لم تترجم إلى اللغة العربية».

لم يكن حامد يحس بما حوله، إلا في تلك السويعات التي يخرج من رواية ليدخل إلى رواية، حاملاً في داخله ما اصطفاه منها، لمعة مبتكرة، وربما بارقة لم تكتمل، استطاع كاتبها أن يبثها فيها، ولم يواته الحظ، ليكسب من ورائها شهرة أو مالاً. رواية قد تكون هبة من السماء، لكن ليس كل ما يأتي من السماء يفلح على الأرض. الكثيرون أخفقوا، ومحاولاتهم هي الأخرى، طواها النسيان، بعضهم اعتزل الكتابة يائساً، أو أدمن الخمرة والمخدرات، وآخرون استماتوا ليحققوا شيئاً، لكنهم ماتوا، أو نُحروا أو انتحروا.

□ □ □

في مساء اليوم الأخير من الأسبوع، أدركه التعب والملل. أسند رأسه إلى الحائط وأغمض عينيه، لا بأس بغفوة صغيرة. كم دامت هذه الغفوة؟ على التأكيد بضع ساعات. فالليل كان قد رحل وبدأت

خيوط الفجر تتسلل إلى الغرفة. فتح عينيه على منظر عجيب، لاح متورماً بالظلال، تداخلت فيه الأشياء بالأشخاص، كأنه يراه من وراء زجاج مضبب، لم يميز فيه الهواء من الغبار.

والمنظر يتوضح، بدا كأن شيئاً ما عاث في الغرفة فساداً وقلب عاليها سافلها؛ الممرات الضيقة الآمنة، مردومة بالكتب والجرائد، إشارات التوقف والعبور تبعثرت على الأرض؛ فوضى عارمة ضربت المكان بمنتهى الكتمان، أما الضجيج فكان في رأسه. تفحص المعالم المتهاوية ببصره المهشم؛ مخلفات أزمة مرورية خانقة وقعت أثناء غفوته، وما زالت الفوضى آخذة بالتفاقم.

كان حلفاني وحلفاوي قد استغلاّ نومه، وأفلتا حبل النظام على غاربه، مقتنصين بعض المرح البريء، فوقعا في إسار لعبة لهو سقيمة. أولهما يصطدم بثانيهما، في درب الذهاب، فيتعثران معاً. وفي الإياب، يدوران حول بعضهما بعضاً، الواحد يصطدم بالآخر، والآخر يعيد الاصطدام. هكذا، المرة تلو المرة، دون كلل أو ملل!! ما المسلي في هذه المطارقات الغليظة؟! المفاجأة، عندما خرجا من دائرة الدوران المحكمة، تجاوزا الكتب، وانتحيا جانباً؛ كانا أكثر من اثنين، تميز معهما ثالثاً!! تبادلا معه بضع كلمات بأصوات منخفضة، ثم عادا ومعهما الثالث إلى وسط الغرفة. اندفعا إلى الأمام، وانساحا كالهلام على الأرضية، يذرعان الدرب ببطء ومشقة، كأنما يخوضان في مياه عميقة، يأخذان شهيقاً طويلاً، يحبسان أنفاسهما، ويشقان طريقهما بين الأسماك والأشنيات وفقاعات الهواء، فيما كان الثالث يجهد في اللحاق بهما، برخاوة مادة قابلة للتمدد والسيلان والفوران. الثالث يماثلهما في الطول والعرض، ملامحه غير واضحة، يجوس وراءهما في الماء مطأطئاً رأسه، يبحث عن شيء

سقط منه. يسيرون على غير هدى، رتلاً واحداً، الواحد إثر الآخر، الرتل ينعطف، يتعرج ويتلوى، ثم يدور ويداور، مجدداً لهوه بعنفوان بطيء وراقص، لا يعوقهم ضيق الفسحة عن تبادل أمكنتهم. سحناتهم قاتمة، لا تنبئ بمرح ولا سرور، يبدو عليهم التفكير العميق، كأنهم نسوا وجوههم على هذه الحالة.

أرجع حامد دورانهم الدؤوب، إلى شرخ في ذهنه ولَّدَ تكراراً في الرؤية، لا حلفاوي يبدو حلفاوي، ولا حلفاني كما عهده، والثالث على شاكلتهم يتبعهم ككلبهم. حلفاوي يحمل «قاموس عربي - إنكليزي»، لا، هذا حلفاني!! لكن ما بال حلفاوي يقرأ في مجلة، يقرأ ولا يفهم فيسقطها من يده أرضاً؟!

هل حصل ما يخشاه؟! كان في تبادل أمتعتهما الفكرية، وتوهانهما الدوار، مزج غير مأمون بين شخصين أضاعا أدواتهما قبل طريقهما. كل منهما لا يدري أين هو عالق، وما الذي استحوذ عليه؟ حلفاني الراصد يجهل لماذا يحمل قاموساً، فتحه عبثاً وأغلقه مستغرباً. وحلفاوي المترجم لم يجد في المجلة العربية النص الإنكليزي من الرواية التي يترجمها!! وبدلاً من أن يتبادلا ما يتأبطانه، توقفا، وأعادا الكرة مع القاموس والمجلة. ثم راوحا في مكانيهما، ينظران إلى بعضهما، لا يتذكران من هما!! يأتي الثالث يحجز بينهما، يسألانه: من أنت؟ فلا يجيب، ما زال يبحث عن شيء أضاعه.

قد يكون الثالث انعكاساً لأحدهما، فكر حامد. وألقى نظرة إلى مكانه الذي اعتاد ممارسة عمله فيه، فتخيل المترجم ومعه الراصد، وعلى مقربة منهما، عتادهما من كتب وأفكار، لو أن واحداً منهما يجلس في مكانه، ويقوم بحركة صغيرة لا أكثر، لاسترد شخصيته

التي تخصه. عندئذ، لن يجد الثاني مفراً من استعادة ما يخصه أيضاً.

على خلاف ما تمنى، استمرأا دورانهما في حلقة امطّت طولانياً واتسعت عرضانياً، حلفاني يرمي القاموس، وحلفاوي يسقط المجلة من يده. دورة تلتها دورة، بعدها استرد حلفاني القاموس وحلفاوي المجلة، وارتكبا الخطأ ذاته. الثالث يعاود الوقوف بينهما، يسألانه: من أنت؟ فيخرج صوته مثل الصدى: من أنا؟ فيتحيران.

أفسد الثالث، الدخيل والغريب، برنامج عملهما، ولخبط شخصيتيهما، فطاحت بهما الحيرة إلى سؤاله عمن هو؟ والأولى أن يتساءلا عمن هما؟ ففي كل مرة يتصادمون فيها، كان الصدام يتلوه كلام، عبارة عن تساؤل يذهب بهما إلى شيء، يجهدان في تذكره دون جدوى!!

هذا المنوال لن يستمر، في هذه المرة امتد الاصطدام إلى لقاء، رؤوسهم تقاربت، وانعقد جدل حامي الوطيس ومضى هامساً، محاذرين ألا يسمعهم أحد، واستحكم بهم خلافٌ لم يستقروا فيه على رأي. فكر حامد، طالما كانوا في مجال نظري، سيبقى الجدل قائماً في انتظار تدخلي، ولن يفضه سواي. قبل أن يفتح فمه بكلمة، توجهوا إليه، لا يعنيهم النزاع الحاصل بينهم، ووجه إليه كل بدوره السؤال الذي كان ينبغي أن يسأله منذ البداية:

«هل أنا، حلفاوي أم حلفاني؟».

عبّر حلفاوي عن تساؤله بملل بليغ، وحلفاني كرره بالملل عينه، فيما كان الثالث مستسلماً للملل نفسه، كأنه أحدهم، ومأساتهم مأساته.

أحس بالجزع، تأكدت مخاوفه، الصرح الذي بناه خلال الأشهر

السابقة على وشك الانهيار، وفيما لو تصدع، لن يبقى سواه في هذا المكان المكتظ بالكتب والمشاريع، وأعمال كانت ستنجز على أحسن وجه، ها هي ستدمر على أسوأ وجه!! ماذا يكون حالها وحاله، إن لم يتمكن من إصلاح أعطال تشابكهما، الواحد بالآخر، وإعادة كل منهما إلى ما كان عليه، مع أنه يا إلهي، لم يعد يميز هذا من ذاك؟!

تهادى المنظر متيناً، كل واحد منهما إلى طرف، ويميل نحو الآخر، أشبه بمثلث متساوي الساقين، فيما تَوَضَّع الثالث أشبه بعقدة جامعاً بينهما بزاوية مشتركة تعكس قوة تأثيره. أسهم الحضور الزاوي للغريب في تثبيت مثلث لا يمكن خلخلته إلا بتفكيك العقدة الجامعة بين ساقيه، بإرسال الثالث إلى الفضاء الذي جاء منه، ليرتدا مستقيمين متوازيين لا يلتقيان أبداً، إذ لا شيء يربط بينهما!! أما من هو (الثالث) ولماذا اتخذ هذا الوضع (الزاوي) وما المناسبة؟! فلا أهمية له. إذا كان قد جاء ليسألهما من هو؟ فكلاهما لا يدريان من هما؟! وإذا كان يرغب في توجيه السؤال إليه، فلا يعنيه من يكون، ربما رآه من قبل، لكنه لا يتذكر، أين وكيف ومتى؟ هناك ما هو أجدى من التعرف إليه.

المأزق أن المثلث تماسكت أواصره وأخذ يتلاحم بحنو ويأخذ طابعاً أخوياً، دون أن يتأثر بملاحظاته، وإن حاول متأخراً أن ينسق بين محتوياته، ساعياً إلى ترتيبه على نحو أكثر تباعداً وإقناعاً، بدلاً من هذا التآخي الخطر الذي بدأ يشكل خط دفاع مريب. كان حلفاوي وحلفاني، قد انبريا كل بدوره إلى تطييب خاطر الثالث، مؤكدين هذا المعنى الغريب!! فيما أخذت ملامح الثالث تتوضح، شاب مرتبك، طيع ومطواع. أدرك حامد أن ارتباك الشاب مبعثه أنه ما

زال يبحث عن شيء لم يجده؛ وإذا كان لا يقول شيئاً، فلأنه لا يفكر بقول شيء.

لم يعرفه، وإن تذكر وبشكل غامض شريطاً طويلاً، سقيماً ومؤذياً، احتل فيه فاروط المناظر كلها، هل له علاقة بما يجري؟! ودونما تفكير قرر ألا يضم الثالث إلى مجموعته، لا مكان له في غرفة ضيقة لا تزيد على جحر بالكاد يتسع لاثنين من الشغيلة، ولئلا يأمل الثالث بشيء قال له:

«بصراحة، لن أستطيع ضمك إلينا، لا متسع لك، وليس لدي عمل أسنده إليك».

«أنا لدي عمل، عمل كثير».

بلمحة، كان النظام قد انتظم، حلفاوي وراء الطاولة يترجم، وحلفاني واقف على رأس عمله، والثالث يقبع بين أكداس الروايات، المنظر يوحي بالتفاهم والوئام، وحياة خفية وسعيدة. لقد وجد الثالث مكاناً هنا في داخله.

كان حسن حفلاوي قد تمكن منه.

30

الخيانة:
هل تحبين برامز؟

لم تشغله الروايات عن موعده مع ليلى شكران، كانت قد تركت وراءها سؤالاً معلقاً في ذهنه. هل ستخون حبيبها؟ وكان تواقاً لمعرفة جوابها، وما الذي ستقدم عليه. ما رجح احتمال الخيانة، اختيارها الشاب الذي سيشاركها فعلتها، وهو كما وصفته، شاعر وسيم مرهف ودمث، يكتب شعراً برع فيه: الغزل؛ مع خصوصية فريدة.

لم تكن ليلى شكران أحجية ولا امرأة غامضة، لكن انتقالها من النقيض إلى النقيض، أي من الوفاء للحبيب إلى قرارها الخياني دفعة واحدة، قفزة لا يمكن وصفها إلا بأنها لغز، ولو كانت مسوغاتها قوية؛ الإخلاص في الحب أمر لا يمكن التنازل عنه. ولقد أشبعها

حامد لوماً في سره؛ مهما كانت مبرراتها، فلن يقنعه انحرافها عن الطريق القويم، لقد تسرعت، واتخذت قرارها على نحو أهوج، قد يسوغه الغبن الذي أصابها، بيد أنه ليس كافياً، لا سيما أن الخيانة لم تخطر لها بسبب غرام جديد ظهر في الأفق.

لم يكن اختيار ليلى شكران للشخص الذي سترتكب معه فعل الخيانة عشوائياً، وسواء اختارته عن عمد، أو على عجل، أو كان في البال، أو في مؤخرة رأسها، فبدافع قوي لم تتجنب الإعلان عنه، أرادت أن تصبح خائنة، لتكون اتهامات حبيبها في محلها. ومع هذا لا بد من التعجب، خصوصاً أنها كانت في ظرف يملي عليها التأني، وفي حالة سيئة تفرض عليها الحرص الشديد. وعلى الرغم من رجاحة عقلها ورصانة عواطفها، بنت حساباتها على المظاهر الخارجية لشخص الشاعر؛ وكأنها لا تعرف أن الانخداع بالمظاهر، أسباب مصائب كثير من الفتيات الغشيمات والسيدات اليائسات.

لهذا لم يستبعد حامد قيام ليلى من طابوسة لتقع في طابوسة. فإذا اعتمدت على لطافته، فاللطافة ومثلها الدماثة، تديران رؤوس النسوة الساذجات ولا تنجو منهما المحنكات، لدى الرجال القدرة على إتقانها بالقليل من المجاملة وخفة الظل. عدا أن الجمال الذكوري مثل الأنثوي لا يقاوم، وبما أنه وسيم، فالوسامة تسحر المرأة، ولو كانت محصنة ضد الرجال. وإذا بنت حساباتها على سمعته كشاعر، فقد أخطأت، هذه السمعة تُفبرك بالتقليد والاختلاسات الشعرية والدعاية، ثم من منا لم يكتب الشعر يوماً، وربما ما زال يكتبه حتى الآن؟! كما أن الشعراء ليسوا أفضل من غيرهم، في النهاية هم بشر مثلنا وأسوأ، وقريحتهم مثلما تنجدهم بالشعر، لا تبخل عليهم بالتنفج والغطرسة، وتزين لهم التفوق على غيرهم، وهو

تفوق لا يستغني عن الدناءة أيضاً. من يضمن ألا ينقلب هذا الشاعر الجميل، بعد أيام فقط، لا بعد أسابيع أو أشهر، عقب قضائه مأربه منها، إلى إنسان شرير يعيد سيرة من سبقه، فيتحكم بسلوكها ويجبرها على تصرفات تستهجنها، ويُشَهّر بها إذا عصت له أمراً، ويبتزها إذا امتنعت عنه، آنئذ لن تراه جميلاً، بل وحشاً بشعاً، لأن سلوك الإنسان السيئ وتصرفاته البغيضة تنطبع على ملامح وجهه، كما يقول العوام.

والسؤال البديهي الذي يطرح نفسه، كيف لم يخطر لها احتمال عدم الانسجام معه فكرياً أو عاطفياً؟! وقد تحول بينهما عوائق مزاجية، حتى لو أغفلت العوائق الاجتماعية والخلافات السياسية رغم أهميتها. كل ما سبق لم تدخله في حساباتها، هذا ما قالته رداً على تلميحات حامد التي لم يخفها عنها. عندما قالت إنها قررت أن تخون حبيبها، كانت واثقة بأن الشخص الذي سيشاركها فعلتها، إنسان راقٍ ومهذب، موزون ومتوازن، منظوم كما الشعر وعلى سويته!!

«ممّ جاءكِ هذا اليقين؟!».

«ما الذي تقوله عن رجل عازب، يعيش وحده، متفرغ كلية للقراءة العميقة والكتابة الإبداعية، لا يعمل، ولم تؤرقه لقمة العيش، وفر له ما ورثه عن أبيه دخلاً مادياً ثابتاً، ومكتبة عامرة بالكتب التراثية، أغناها بمكتبة حديثة؟».

«دعينا من الثقافة، المهم علاقاته مع النساء؟».

«لا لم يكن زير نساء، علاقاته مع النساء محدودة، رغم سمعته الشعرية الطائرة في الغزل الرقيق جداً».

تتذكر أنها سألته مرة عن الزواج، فأجابها الشاعر مرتبكاً، بأنه حريص على عزوبته، المرأة بالنسبة إليه موضوع تأمل جمالي، غرامه الوحيد الموسيقى السمفونية. لم تصدقه، واستشفت افتقاد علاقاته النسائية للحميمية؛ فهي لم تره بصحبة إحداهن بشكل لصيق، لا عشيقة دبقت فيه ولا معجبة اندلق عليها. مع أن الكثيرات كنَّ يحوِّمن حوله، ويخاطبنه بلا كلفة، ويرينه، حسبما تخيلت بحكم معرفتها ببنات جنسها، محطة استجمام، يأتين إليه ليرحن أعصابهن من ضغوط الحياة والأولاد والزوج وربما العشيق، فيشنفن آذانهن بسماع الموسيقى الكلاسيكية، إلى أن ينعسن ويرتخين، فيحل أوان استمتاعهن بالشعر أولاً وبالشاعر ثانياً، وربما معاً. وكلما هيجت الأحزان أجسادهن، عنَّت الموسيقى على بالهنَّ، يرجعن إلى عش الغرام، فالشيء يستدعي الشيء، حسب قانون المتعة والانبساط.

وبما أن النسوة أفردن لشاعرهن المحبوب مكاناً خاصاً في برنامج حياتهن؛ عزمت ليلى على إدراجه في برنامجها، كلما طفح الكيل بها ونفد صبر ضميرها المثقل بالوفاء، يسعفها الشاعر بالتخفف من إخلاصها المقيت، بجرعة خيانية توفر عليها مشاعر براءة مظلومة ومضطهدة، هي بغنى عنها. وفي الوقت نفسه، لا تخلف حسن ظن اتهامات حبيبها الغيور. إضافة إلى ميزة هامة، سيوفر الشاعر لها وضعاً آمناً، كان واحداً من معارف حسين صبري الكثيرين الذين لا تربطه بهم علاقة صداقة قوية، بل علاقة سطحية. وهذا الوضع يعدّ آمناً بسبب مفهوم الصداقة، لأن الأصدقاء هم أول من يسطون على زوجات أصدقائهم، والأولى عشيقاتهم. الميزة المقصودة، هي أن حسين صبري لم يضع الشاعر في قائمة غرمائه، فتوقعت أن تطول علاقتها به قبل أن تنفضح، إذا انكشفت.

□ □ □

استقبلها الشاعر بوجه مشرق بسّام وعانقها، خده لامس خدها، وشمّ كل منهما رائحة عطر الآخر. احتضن كفيها بكفيه الناعمتين، راحتاه أنعم من راحتيها. لم تتعجب، تعرف أنه لم يحمل في حياته مجرفة ولا رفشاً، ولم يغسل جواربه بيديه، أو صحناً بسوائل الجلي. لم يتحمس إلا لحمل القلم والكتابة لا غير. كان من أولئك البرجوازيين الذين كانوا مكروهين، ثم رُدَّ الاعتبار لهم وأعيدوا إلى حظيرة المجتمع الأدبي، بعد أن أصبحت البرجوازية علامة على الواقعية وبعد النظر التاريخي والسياسي.

غمرها بنظرات ودودة ورحب بها. تصرفه كان طبيعياً، هذه عادته في استقبال ضيوفه، لم يخصها بمودة زائدة، فهو يجهل الغرض من زيارتها له. كان يستقبل رفيقته الشاعرة في مشوار الشعر، متوقعاً أن يكون نصيب النثر في لقائهما ضئيلاً.

شبك أصابع يده اليمنى بأصابع يدها اليسرى، وقادها إلى الصالون الواسع. الصالون كهف هائل الحجم، جدرانه صخور ضخمة وناتئة، لا تعدو أكثر من ديكورات من الجص والطين. أجلسها على كنبة عريضة ومريحة، من حولها وسائد ملونة بألوان فاقعة، ومتكآت معرّقة بالأزهار والورود. اللمسات الشاعرية مبذولة بحرفية وسخاء على السقف والجدران والمرايا والفراغ. الإضاءة الباهتة مبعثرة بإتقان، توحي بليل حسي ودافئ. أواني الكريستال متوزعة بأشكال غريبة، سمكة، قارب، طبق، شجرة، غصن، وحش خرافي... تتخايل على صفحاتها الملساء واللامعة، مياه جارية ورقراقة، وأصداف ملونة، وخيوط نازلة وطالعة تلمع وتبرق، دورق زجاجي مفلطح تتصاعد منه أبخرة بيضاء، شمعدانات فضية، نباتات استوائية، أشجار نخيل قصيرة؛ ربما كانت حقيقية، لوحات

لأجساد عارية بلا وجوه، جذوع أكتاف سواعد أفخاذ... قالت لنفسها، مصيدة لذيذة ومتقنة!!

وضع أسطوانة الفصول الأربعة لفيفالدي، وجلس على مقربة منها. جرَّ نحوهما طاولة بعجلات فوقها عدة أنواع من المشروبات، ويسكي جن كونياك... وعصير، سألها أن تختار ما تشربه. اختارت الويسكي، لماذا إضاعة الوقت؟ الويسكي يعطل الإِحجام ويُسَرّع الاستسلام، وربما دفعها إلى الإقدام. بكل لطف صب لها قليلاً من الويسكي، قالت له كمان. فأعاد الكرة وسألها عن مقدار الثلج، كم قطعة؟ ثلاث قطع. كانت ابتسامته رقيقة، وتهذيبه ملحوظاً، وحديثه موسيقياً، ومن غير مصادفة كان عن كلاسيكيات القرن التاسع عشر، حديثه الأثير. دخل فيه مباشرة، وبلغة راقية، صوَّرَ الطاقة التعبيرية الكامنة في روائع السمفونيات العظيمة والمتعة الجمالية التي تبثها في النفس، ثم وبلغة دقيقة، شرح تآلفاتها المجردة وشكلانيتها الصرفة؛ نغمٌ يعبر عما هو إلهي ويستولي على الروح والوجدان.

لم تكن مطلعة على الموسيقى الكنسية، وإلا لتابع حديثه عن باخ الذي تطرق إليه، لكنه لم يكمل، طلبت منه تأجيله إلى مناسبة أخرى، ريثما تسمع بعض مقطوعاته، فوعدها أن يعيرها تسجيلات له. كان من الأسلم الابتعاد عن كل ما هو ديني في هذا الجو المهيأ للدنيوي. تابع الحديث وكان أكثر حماسة، أعجبه إصغاؤها، فيما كانت تراقب أصابعه الطويلة، تنساب وتنعقف، تنبسط وتتصلب، كأنه يعزف على الكمنجة تارة، وعلى البيانو تارة أخرى، وأحياناً الفيلونسيل، متى سيقرع الطبل؟

وهو بهذا القرب، بدا الشاعر الوسيم ساحراً، خطف بصرها تناسقه

الجسماني، جذعه منتصب، بطنه الممتلئ قليلاً يهتز على إيقاع نوطة تُعزف خفية، يعضدها انسياب حركات يديه إلى الأعلى والأسفل، ذات اليمين واليسار، مثل مايسترو بارع. الزر العلوي لقميصه الحريري مفتوح على صدره الأملس، تسريحة شعره إلى الخلف تكشف عن جبين عريض يعلو حاجبيه المخططين وعينيه المبطنتين، مع أنف دقيق وشفتين رقيقتين. ملامحه الدافئة ونظراته السارحة، تضفيان عليه هدوءاً مريحاً، بالإضافة إلى حديث بات فائق الروحانية متخماً بمصطلحات موسيقية النوعية، وإن كان متحذلقاً. يا إلهي... أُشبعتُ موسيقى!! إذا كان ينوي إغواءها، ففي هذا الكفاية، كان أداؤه رشيقاً وممتازاً.

الويسكي بدأ يؤتي مفعوله، لم تشعر بالخجل، التجربة ستكون رائعة، لا تقل إثارة عن بدايات غرامياتها الكبرى. الشاعر، يتميز بلا ريب عن رجليها السابقين، كان بكل وضوح مختلفاً عنهما، عباس وصبري كانا مقارنة به، من النوع الجلف ذي العضلات المفتولة والوجوه الطفحة الملوحة بالشمس، أما هذا فوجهه لم ير الشمس، من النوع الراقي المرفّه، خشونته لا تزيد على شعيرات قليلة ترسم على ظاهر كفيه سواداً فاتحاً، أشبه برقش على بياض. الأجواء تحلق بها بعيداً عن كل ما هو أرضي، وتساعدها على التجاوب والتخلي عن أية ممانعة، بالعكس شعرت بضرورة المشاركة، وهي تقتفي أثر الموسيقى، وتنتقل إلى فصل جديد. كان فيفالدي يودع الخريف ذاهباً إلى الشتاء.

انتقل بدوره إلى الشعر، شاركته في النقاش، وكان طويلاً ومملاً، مع أنهما لم يختلفا، واتفقا على إعلاء شأن المغامرة الشعرية والتجربة الحياتية. وكان الفصل الأخير من رباعية فيفالدي قد انتهى، سألها:

«هل تحبين برامز؟!».

لم يُخفِ الطلب تحرشه بها على نحو أدبي مصقول بموسيقا رفيعة التأثير. كان السؤال عنوان رواية للفرنسية فرانسواز ساغان، مهد به بفطنة أدبية، من غير مقدمات طويلة، للحب السريع والجنس الخفيف، حب خاطف، وجنس لا يثقله ذنب، يخلو من جنون الاستئثار. ما أرق هذه الإشارة ودلالاتها الوفيرة، كم تحمل من ذوق وثقافة!

أدار أسطوانة برامز، انتظرت عقب عودته، مبادرة رومانسية على مستوى برامز، يخالطها جنس صريح حسب ساغان. لكنه جلس وتابع حديثه كأنها لم تعطه إذناً بالمضي قدماً إليها. لم تكن بعيدة عنه، مجرد أن يمد يده نحوها حتى تصبح بين ذراعيه. لم تعد تستمع له، ولم يكن مستعجلاً، بل متباطئاً، الكسل باد عليه، ومقبلاً على الكلام فقط. رخاوة كلماته تجلب النعاس، بعد قليل، لاحظته يتكلم بعصبية، علا صوته فطرقت سمعها كلمة، اغتصاب!! هل يفضل اغتصاب النساء بدل أن يستسلمن له؟ ويسمي سيدة تدعى أوترب! والاغتصاب جماعياً! هتفت مذعورة:

«أوترب!! من تكون؟!».

«ربة الموسيقى».

«لم أسمعك جيداً، اعذرني، ما الذي كنت تقوله؟».

«لم يكن قولي، بل لسترافنسكي. يقول، لا يكفي أن نغتصب أوترب، يجب أن نتمكن من إنجاب ولد منها».

يا إلهي عدنا إلى الموسيقى!!

من تجاربها، وكانت صاحبة تجربتين ونظر، هذا الرجل ليس صاحب مبادرة، وربما احتاج إلى عدة جلسات ليتخطى ولعه بالموسيقى، ويقدم على خطوة تلامسية جدية باتجاهها على وقع موسيقى ما، ترى ماذا تكون سمفونية كونشرتو سوناته؟! هو بوسعه الانتظار، أما هي فلا. اليوم ينبغي أن تسقط في الخيانة، لن تؤجل سقوطها إلى وقت آخر، ربما خافت، الشجاعة الخيانية قد لا تتوافر لديها فيما بعد، فرصة عليها انتهازها، الرجل بمتناول اليد، وهي أكثر من مستسلمة، كما أن الجو مشحون والمشروب موفور، والموسيقى شغَّالة، صحيح أنها ليست مثيرة لكنها حالمة. كان الموقف مواتياً وبجاهزية قصوى، أقرب إلى المثالية.

قاطعت حديثه، طلبت منه كأساً من الويسكي، ثم تبرعت من طرفها، بتحويل الحديث إلى العواطف عامة، فإلى عواطفها تحديداً، فإلى ما تشعر به نحوه، وما تخصه به، شيء لا تستطيع مغالبته، إنها قلقة وخجلة جداً، لكنها لا تستطيع إخفاءه، أخيراً... إنها، ومنذ زمن، وبصراحة... تعشقه.

انتظرت لقاء اعترافها معاملة بالمثل، فيتجاوب معها ويعترف، ولو مجاملة، بأنه يبادلها عواطفها. بعدئذ، على الأغلب، لن تمضي الأمور على الناشف، باعترافات متبادلة، سيعانقها وينهال عليها بالقبلات، لن يتوقف عند حد، حتى ينتهي، أو ينتهيا معاً، كان المشهد مضموناً على هذا النحو الغريزي. كانت واثقة بعدما أكدت على عواطفها المتقدة، أنه لن يتجاهل ما تعنيه كلمة اتقاد من حرارة عالية؛ الجنس لا غير. هل يُخفى اعتراف كهذا مكشوف على شاعر غزلي وحداثي؟

لكنه تأخر، نظرت إليه، لم ينبس بكلمة، كان مفاجأً تماماً.

«ألا تبادلني المشاعر؟».

كأنها صفعته على وجهه، عيناه ثبتتا على الفراغ. بدا متردداً، فترددت أيضاً، تراءت لها ملامحه تنقط حياء، أو سمّاً. بعد حين طويل جداً، وهو على هذه الحالة، قالت لنفسها، إذا كان لون السم أحمر ضارباً إلى الصفرة، فوجهه ينقط سماً.

أول ما خطر لها، أن الشاعر يعيش حالة صراع مؤلمة، كيف يخدع صديقه اللاجئ القادم من قطر عربي شقيق، عانى مرارة الاضطهاد في بلده، هل يضطهده هو الآخر، وهو ضيف في دمشق، ويسرق منه حبيبته... رغم أنهما ليسا أصدقاء؟! احتمال قوي ووارد، لكن هذا يستدعي سؤالاً: ماذا عن السرقات الشعرية، هل لها اسم آخر غير السرقة؟! ألا يفعلونها دون أن يثقل ضمائرهم ذنب أو حساب؟ ما الفرق بين الشعر والمرأة؟ الأفضلية للمرأة، لولاها لما كان الشعر.

أو أن السبب حساسيته الفائقة، الخيانة غير واردة لدى النفوس المرهفة. بيد أن الشعراء يعتبرون تحسسهم لآلام النساء وعذاباتهن، فضيلة شعرية من قبيل مواساة الآخرين والتعاطف معهم، ولا يستنكرون الخيانة، مجرد تجربة حسية مثيرة، تحرض على الإلهام، كأنهم يقومون بواجب شعري.

أو... كيف غابت عن ذهنها غزلياته المشهورة، ما يجرى بينهما يفتقر لهذه الصنعة الجميلة؟! شخص مثله منسجم مع شعره، لا بد أنه يلتذ بممارسة مهاراته الغزلية، ومن المفترض أن يستهلها بمطلع سخي، ويمضي وقتاً يتغزل بها قبل أن يطارحها الغرام. ربما كان الآن، يشحذ قريحته استعداداً لاقتحامها بمعلّقة غزلية، وبما أن شيطان الشعر يعانده في لحظات هو أحوج ما يكون إليه، فقد اصفر وجهه.

أصابت في حزرها، لاح مأخوذاً، غارقاً في حالة بلا كلام، وقد استعصت عليه الكلمات المناسبة، قلقاً في حالة مخاض شعري، أشبه بمن يتلقى الوحي لا من الشيطان، بل من الواقع مستنهضاً الأطلال والذكريات... وغزواته الغرامية.

□ □ □

طالما نظرت إلى الحالات الغزلية الشعرية على أنها تمثيليات سطحية مخفقة، صفصفة كلمات، أو كلمات تستجر كلمات، لا تحتاج إلا إلى بعض المحرضات المتعارف عليها، عينين جميلتين، شفتين مكتنزتين وحلمتين وساقين... وهكذا.

من قبل، عندما قرأت شعره، لم يحرك لديها سوى الاستغراب من شعر يوغل في التمسح بالمرأة، يدنو منها، يلامسها، يداعبها ولا يصيبها في العمق. كان برانياً ولم يفتقد الجوانية، غير أن جوانيته تفتقر لشيء حيرها. المثير في شعره ضربات الشبق الملتهبة، من خلال تلميحات جنسية صارخة حافلة بالاشتهاء والدنس، وإشارات إلى ظروف صعبة، وجنوح نحو المخاطرة، مضاجعة عابرة تحت الدرج، فوق السطوح، ملامسات في باص، حوار الأرجل تحت الطاولة، وفي عتمة ما، ثمة ظلال ترتعش، جوّ حار، لهاث وفحيح، خوف وترقب... والعرق الغزير يتصبب منهما. أتقن لعبة الشهوة والتلميح الجريء أكثر من الغزل، لم تعجب بشعره، بل أعجبت به فقط. لكنها لم تتصوره الآن لن يأخذ لعبة الأجساد على محمل الشبق، هل لأنها تفتقد الأخطار والظروف المقبضة؟!

ربما لهذا ارتعد وتغيرت ألوانه، وتجهمت ملامحه، يفكر في اختلاق موقف متوتر. هبَّ حانقاً وأخذ يذرع الكهف جيئة وذهاباً. بين

الآونة والأخرى، يتلفت حواليه خائفاً، كأن هناك من سينقضّ عليه، ثم يلتفت نحوها، تندلع في عينيه نظرة غاضبة، ثم يرتد عنها واجماً، لا يذهب بعيداً، يفتح فمه، يُبرز نابيه، ويهم بالوثوب عليها لينهش أعضاءها، لكن يتراجع، لا، ليس قبل ابتكار خطر ما!! الخدر سرى إلى أطرافها، الويسكي أحسن صنعاً، جعلها لا مبالية، بلادتها ستتيح لها مشاهدة فيلم، ستشارك فيه، لم يعد يعنيها منه سوى أن تعرف لماذا هذا الرجل صاحب النزوات، يبدو عليه الاضطراب الشديد، ويحاول أن يبدو مذعوراً ومطارداً ومتوحشاً، ثم يجفل، لا يدري ما ينبغي فعله، ولا يفصح عن سبب خوفه وغضبه!! أما آن له أن يفعل أو يقول شيئاً، أي شيء؟! الفيلم يدور حول نفسه ولا يبدأ، والرجل يدور في مكانه ولا يقدم. على أن الفيلم والرجل سيتوقفان عن الدوران، وتسمعه يصرخ:

«هل تسخرين مني؟!».

ينتفض غيظاً، صوته مخنوق وعضلات وجهه ترتجف، كان مجروحاً. ما الذي اختلقه؟! لا، لم يختلق شيئاً، وإنما الفيلم بدأ يصبح حقيقياً، لاح منهاراً، يمنع نفسه من البكاء. هل أساءت إليه، بعد أن كان معها رقيقاً؟

«لماذا أسخر منك؟ لقد عرضت عليك عواطفي!!».

«ليس عواطفك، بل جسدك».

«ما الفرق؟!».

«عواطفك، نعم. أما جسدك، فلا. أنت تعرفين!!».

«ما الذي أعرفه؟!».

«لستِ أكثر من عاهرة رخيصة».

وكأنها البذاءة نفسها، قبل أن تتلوها الصفعات. لكنها استردت وعيها، قبل أن تأخذها أوهام القسوة، وانفجر غضبها عاتياً وصاعقاً، كانت في فيلم حقير، إزاء بطل معتوه سخيف غير مفهوم على الإطلاق، فيلم أشد ما يغيظها فيه أنها متهمة، النغمة القديمة نفسها، وهذا الأحمق يكررها على نحو مختلف، يتهمها بالسخرية منه، ويرفض جسدها، ويصمها بالعهر!! لم تعِ ما تفوهت به، الويسكي أنجدها بالشتائم، الوقح يهينها ويهين جسدها، جسدها لا يقل قيمة عن عواطفها ولا تبذله بأي ثمن؛ من قال لك إنني أمنح جسدي بلا عاطفة، لست العاهرة التي تظنها، لجسدي كرامته. هل أقول لك أيها الحمار، ما معنى أنني اشتهيتك؟! لم أشته جسدك، بل أن تضمني إليك، وأنسى نفسي بين يديك، وأنسى شبيهك الرجل المجنون الذي أعرفه، أن أطمئن إليك وأرتاح، من أجل هذا الإحساس، جئت إليك، وتحملت لغوك وموسيقاك، هل هذا عهر؟!

لم تتوقف إلا عندما رفعت حقيبة يدها وضربته بها على وجهه. تلقى الضربة وبقي واقفاً كالأهبل، يسمع صراخها ممسوساً بصريف أسنانها ونشيجها المخنوق. هرع نحوها، ركع، أمسك بيديها، وأخذ يقبلهما:

«اعذريني، ظننتك تعرفين».

رأت دموعه تسيل على وجنتيه، وهو يتهته:

«ظلمتكِ، لم أكن أدري».

أمسكت ببطنها وبيدها الأخرى سدت فمها، قادها إلى الحمام، وأخذت تتقيأ، أحست بالموت يضرب رأسها ويعيدها إلى الحياة. في

المرآة، رأت ملامحها وقد خطَّ الكحل عليها آثار الدموع والعهر والذل، أية حماقة جاءت بها؟! غسلت وجهها، نفضت رأسها، ما زالت تراوح بين الصحو والخبل، وعت ما جرى، ووعت سخافة موقفها، تمنت أن تغط في النوم، النوم العميق، وعندما تستيقظ لا يبقى مما حدث سوى حلم سقيم. لكنها لم تنم، كانت قد استيقظت.

عاد بها إلى الكهف، نظرت إليه، معشوق تافه لا يستحق الآمال التي بنتها عليه، ولا العناء الذي بذلته. وقعت في المحظور، وأفلحت بتشويه سمعتها لقاء لا شيء، أخطأت واقتحمت مكاناً لا مكان لها فيه، وهذا الذي أمامها رجل وفيٌّ، يعشق فتاة تافهة مثله، أعطاها وعداً شاعرياً، أقسم ألا يخونها مدى الحياة. وفي النهاية، عليها أن تواجه كونها امرأة مرفوضة منبوذة ومهانة.

أحست بساعديه تحيطان بها، يضمها إليه ويهمس في أذنها، سامحيني يا صديقتي، صوته يرتعش، وينبض بالحنان. أغمضت عينيها وتوسدت كتفه وانفجرت بالبكاء. بينما كان صوته يتردد في أذنها، أنا مثلكِ أعاني، أفهمكِ، لا ألومكِ، ارتكبتُ خطأ شنيعاً.

ما الذي يقوله؟! تضيع ثانية، تؤلف قصة، تخرج منها، لتدخل أخرى، ما الذي يقوله أو تتخيله؟! يقول، لن أسامح نفسي، أقدر موقفكِ، أحس بمشاعركِ، كنتُ متوحشاً.

تلمحت في كلماته معاناة من حادثة شبيهة. وإلا فلماذا يواسيها هكذا؟ هل بذل عواطفه لإحداهن ورفضته؟! صوته ناعم ومعذب، نبرته حانية وعذبة، تبلغ أقصى الألم، يستجديها أم يستنجدها؟! يا أختي، ويشد بكفيه على كفيها. مرَّت فكرة في رأسها، تركت

وراءها خاطراً، استنكره عقلها، خاطر ممجوج لم تستسغه. ترى هل هو ...؟! واحتدمت التساؤلات في داخلها، لكن كيف تتجرأ على قولها؟!

ابتعدت عنه، فيما ارتد برأسه إلى مسند الكنبة، وشخصت عيناه إلى السقف، بدا مسكيناً ووديعاً، كان يبكي!! تلمحت في دموعه اعتذاراً غير رجولي، بالضبط أنثوياً، كهذا الكهف الممتلئ بلمسات رشيقة لا يمكن أن يوزعها بهذا الترتيب الرشيق ذكر فظ، حتى لو كان شاعراً؟! ألم يكن هذا بالذات خطأها، عزَت رقته ونعومته إلى كونه شاعراً، لا إلى كونه ربما... قالت تنهي المناقشة في رأسها قبل أن تتجدد:

«هل أنت...؟!! ساعدني، لا أعرف كيف أقولها».

«نعم، هل أوضح لك؟».

«تكره النساء؟!».

«لا، بل أستلطف الرجال».

«ألا تحب النساء؟!».

«أنا مثلكِ، لماذا أكرهكِ؟!».

«أريد أن أفهم إلى أي حد أسأتُ إليك».

«أنا أيضاً أسأت إليكِ».

«صدقني، لم أكن أعرف».

«الجميع يعرفون».

«ظنوا بأنني أعرف».

«لا بأس، أنتِ أوفر حظاً مني».

«هل لأنني امرأة؟».

«نعم، انظري إلى هذا الأمر بهذا المنظار».

الأرجح، حظ الشاعر سيئ، بل سيئ جداً، قالت لنفسها مبتسمة، امرأة حُشرت أنوثتها في جسد ذكر، هذه أفضل مقاربة لتفهم حقيقة الشاعر الذي احتضنها ودعاها بالأخت، لم يخدعها، مظاهر الحياة خدعتها، والحياة نفسها دبرت مكيدة للشاعر، أعطته مظهر رجل ورغبات امرأة.

لم تدر لماذا أحست نحوه بالاشمئزاز، مع أنها ارتاحت إليه، هل لأنه بمظهره الذكوري يعتدي على جنسها، أم لاعتيادها على النفور من كل ما له صلة بالشواذ؟ ربما لأنها اشتهته قبل قليل، لقد خُدعت وليس ذنبه، خدعها دون أن يدري. كيف تشتهي رجلاً، وتضمن رجولته على وجه اليقين، كيف تتأكد من ذكورته، هل تسأله؟! سرعان ما أحست نحوه بالشفقة والمرارة، وأرادت أن تهوّن عليه، وتخفف عنه مصيبة ما زالا يتشاركان بها، وتنهي مأساة، بل كوميديا، نعم كوميديا مضحكة، ملابساتها مؤلمة، ورغم كل الدموع، كانت مسلية:

«أنا أيضاً حظي سيئ، كنت راغبة في النوم معك».

31

الجسد:
الأيقونة الأكثر تداولاً

في وحدتها، ستطالعها الملامح الأكثر توقاً إلى الخيانة، وفوقها آثار الخيبة، تذكّرها بوعدها. ألم تعاهد نفسها على أن تخدعه؟! شفتاها مزمومتان وعيناها الحاقدتان ترمقان جسدها العاري، لم يتخايل من قبل بهذه الفتنة الشيطانية، كانت تهرب منه، كان للآخرين، يمتلكونه، يعبثون به، ويقضون مأربهم منه. يستثيرها صدرها العارم، تأتيه بكفيها، ينفرج الكفان على الرقبة، تنزل بأصابعها، تنسدل على الثديين، تضغط عليهما بباطن راحتيها، تمسدهما، تعتصر الحلمتين، تفركهما. تهبط بيدها إلى بطنها، الأخرى تتلوى على صدرها وأضلاعها دون توقف، تذرعان جسدها، من الخدين والشفتين إلى الإبطين والساقين، الربلتين وأخمص القدمين، نازلتين طالعتين، وإذ تتعثران بمفارق الإليتين والفخذين، تدوران، تتمليان التجاويف والتكويرات والتقببات، تتباعدان وتلتقيان، وعند شعر العانة

تشتبكان؛ أصابعها تتشابك، أصابعها ترتجف ثم تتصلب. سحقاً لك، أيها الرجل البغيض.

رمت بأقدارها ثانية إلى القصائد، ارتقبت منها خلاصها؛ ولكي تكون على مستوى الشعر في سوق الأدب، لا بد من الغوص في المشهد الشعري، ما الأكثر تداولاً اليوم؟! كانت أناشيد الحب والغرام قد استهلكت، وأتت عليها موضوعات أخرى، رغم أنها القديمة نفسها؛ الغربة والمنفى والاغتراب والتمرد على المجتمع، لا سيما تمرد المرأة، عادت تجدد حلتها من خلال نكران الحب وبطلان الزمن وعسف الرجل، وأصبحت المادة المطلوبة والدارجة في المقالات النقدية والأطروحات المغمورة.

ويا للمصادفة، كل هذه الموضوعات بوسعها استلهامها من تجارب كانت في عداد مغامراتها الكبرى. لكن عاندتها الكتابة؛ تجربة التمرد التي لاقت هوى في نفسها مرات وفي أزمنة متباعدة، كانت مهزومة شر هزيمة على الورق، حتى أنها لم تقاوم، عندما كانت المقاومة تجدي، وحصدت ثمارها في الحياة شللاً مبكراً. لو كان لديها القدرة على التمرد، لما تكبدت عناء الذل والقهر من رجل مأفون بالغيرة. لا، لم ترغب في استعادة غربة سئمتها، واغتراب كابدت منه، وتمرد كان خاسراً على الدوام.

رغم انشغاله بسفاسف الغيرة، سيوفر عليها حسين صبري تكاليف معاناة القديم، ويشجعها على الجديد المجدي، والأجد الأكثر جدوى: الابتكار الأخير؛ حسب آخر نمط تسلل إلى ساحة الأدب، ليس الغرام بأنواعه كلها، بل الجسد؛ رغباته الجانحة وشهواته المكبوتة ونزواته الملعونة المسكوت عنها؛ تستمد مفرداتها من الشبق المأفون وذاكرة المحرمات، وينابيع المتعة الخالدة؛ طبقاً لموجات الحداثة

الواردة من أميركا وأوروبا؛ ترسم حاضر الكتابة: الجسد أيقونة الشعر والرواية.

كانت الدعوة إلى اكتشاف خريطة الجسد وتضاريسه الشهوية خليطاً من الأفق المفتوح على اللذة، وتفاؤل الحياة، والتعرف إلى الذات، والفرح الوجودي. امتشق الدعوة الوافدون الموهوبون من الكتاب والشعراء الجدد، ومعهم أنصاف كتاب وزعران، كتبوا عن تجاربهم الجنسية المتعثرة والخارقة والقميئة والقذرة، وما تعسر عليهم اخترعوه أو تخيلوه، وقطعوا أشواطاً فيه، فوصلوا إلى الحيوانات الأليفة، الكبيرة الحجم عديمة الفهم، والصغيرة الذكية الوفية والمدللة. اعتقدوا أنهم وصلوا إلى آخر الشوط وبزّوا الغرب في هذا المضمار. وفي طريقهم أعلنوا عن الرعشة الجنسية التي خاف منها الآباء والأمهات وضنوا بها على أنفسهم، وأخفوها عن أولادهم النجباء. وأصبح كل طالب شهرة وقح، يفلسف الجسد، على أنه الجنس، والجنس على أنه الأوضاع الجنسية، والأوضاع الجنسية على أنها الإيلاج، الإيلاج البحت، فاشتبهت الرواية والشعر بالأفلام الإباحية. وشنوا الهجوم على التقاليد والعفة والنقاء ومرغوها بالتراب. وشتموا في جلساتهم الأفكار المتوارثة والقديمة، استخفّوا بها واحتقروها، رموها بالخراء، وساووها بالضراط. طمح الأدب الطالع إلى تمجيد الحياة بالموبقات الدنيئة وتجميلها بالشرور الوسخة، وفضح سفالات السذاجة ورجعية البراءة، وامتداح ديدان الأرض، ونشدان الفناء الأسمى، وإعلاء راية الجنس الأحمر والأزرق، وصولاً إلى تلك اللحظات الباهرة والمبهرة: النشوة. ما سر بقاء البشرية؟ امرأة تفتح ساقيها لرجل. أما ذروة الإنسانية؛ فهنيهات الرعشة البهيمية.

إذا شئنا تفسيرها بلغة نقدية، حسب حسين صبري، فهي رد فعل

على التزمت الكاذب والحياء الزائف؛ باقتحام الذات الإنسانية واكتشافها من خلال نقاوة الرغبة وشفافيتها. دحض أوهام الدين وقوانين المجتمع، تحطيم قيود الجسد، وتحريره من الزيف وخرافات التسامي. أوروبا لم تتقدم إلا بعد أن أزاحت أحابيل الفضيلة والشرف، ولفظت مهازل الرهبنة والورع. بلاغة الجسد، بدعة السنوات المقبلة.

قال لها، ينبغي استغلال ما يجري على الطرف المقابل، التدين يستفحل، المساجد تغص بالمصلين، الدروس الدينية تعقد في البيوت، ومظاهر العبادات تعم البلد، لا سيما في المناسبات الدينية، رمضان شهر الصوم، عيد المولد النبوي الشريف، رأس السنة الهجرية، عودة الحجاج من المدينة المنورة. في الفضائيات كان الدعاة الملتحون والمعممون، والدعاة الشبان حليقو الذقون من لابسي البدلات والكرافتات ينهون عن الفحشاء والمنكر، ويهددون المشاهدين بعذاب القبر والآخرة، ويدعون المرأة رأس الفتنة إلى إخفاء مفاتنها. في الشوارع بات الحجاب يحجب نسوة وفتيات يرتدين الجلابيب السابغة، أشبه بلباس موحد، يظهرن محتشمات غير مغريات، ولم يعدن بمتناول النظرات الفاسقة.

المعركة قادمة، وحسب رأيه، يتعين عليها كشاعرة عدم التخلف عنها. الجماعات الدينية والمشايخ لهم بالمرصاد سيهاجمونهم في التلفزيون وخطب الجمعة ويُشَهرون بهم، وبهذا يرسلونهم إلى الشهرة، وتنفتح لهم أبواب الغرب. لن تتجرأ الدولة على الدفاع عنهم، ستقف على الحياد، بشرط ألا ترجح كفة المثقفين، وإذا حدث، فسوف تقف في صف المشايخ، قطعاً للفوضى، لدى الدولة ما تهتم به، مؤامرات داخلية وخارجية وأميركا وإسرائيل، وتضغط

على المثقفين بحجة الحفاظ على أواصر اللحمة الوطنية.

المعركة رجالية، لكن ماذا لو كتبته امرأة؟! سيكون الضجيج مضموناً وساحقاً.

كتبت ليلى بدافع التقليد، ولعبت على أقانيم الذات والحرية والجسد. واقتفت آثار شعراء معروفين. فتكدست في شعرها الآلهة والغبار، العصيان وهلوسات الجحيم، الرضوخ وشياطين الرغبة. أما ما أضافته، فعواصف الشهوات، والشراهة إلى الجسد، جسد فقط بلا رياء المشاعر ونفاق العواطف. وسوف تختبر دقائق المناطق المكشوفة السرية والدفينة في جسدها، تكتبها بتفاصيلها، لا كما خبرتها، جافة يابسة وميتة، بل كما يشاء الشعر الكاذب، حارة حسية ونهمة، كما تخيلتها في أزمنة مضت، بدأت في النور وانتهت إلى ظلام، استمدت شعرها من جسدها الذي تعرفت إليه من جديد وأحبته.

وإذا كان ديوانها «نداء الجسد» قد أُنجز بقلب بارد، فلأن الجسد في علاقتها مع صبري، لم يعد يعني لها سوى مضاجعات حاقدة تضطر إليها، وأحياناً تحرمه من لمسها. كان شريكها راعي تطوراتها الأدبية والقَيّم على شعرها، قد انحرفت أحاسيسه الجنسية وتفاقمت على نحو مشبوب، وغالباً لم تجاره، تشعر بالغثيان من تهتكه، وتشمئز من جسدها المتواطئ مع جسده. الشعر أصابها بالرؤى المخيفة، صارت ترى في البشر أناساً معتوهين يائسين يستوقفون لحظات صغيرة من المتعة، دونما مبالاة بما يرتعون فيه من تعاسة، وحياة تمضي دون تمييز، دون توان، دون حب، دون عاطفة، إلى خواء.

كان شعرها عن كل شيء، والأهم ذلك الشيء الذي كتبته عن نفسها، وربما لن ينكشف لأحد. كان في بعض جوانبه تافهاً، بل ومقرفاً، هكذا قرظته في دخيلتها. كان انتقاماً دنيئاً لم تتحرز منه، مارست خياناتها على الورق، وذهبت بجسدها بعيداً، وارتكبت كل ما عنَّ لها، أباحت جسدها لأشد تخيلاتها جسارة وحطة ثأراً من عاشقها الغيور، ولم تخف عنه مغامراتها. كان يعرف بأنها لا تزيد على تخيلات شعرية، دون أن يدري أنها كانت أكثر من حقيقية، كانت تخونه هنا، بمرمى بصره، وعلى مقربة منه.

حاز «نداء الجسد» على تقريظ ممتاز، لم يسعدها ما كتب عنه من مقالات ودراسات. أما السمعة التي كسبتها، فلأن كاتبته امرأة تخرق المحظورات والمسلّمات والمحرمات، لا تخفي شهوتها ولا نشوتها؛ تصفهما شعراً على وزن مستحدث كهزات الجماع. كان حسين صبري وراء شهرتها، روج لكتابها في أوساط اللاجئين العرب والمغضوب عليهم الفارين من أنظمة حكوماتهم المستبدة، ودفع أصدقاءه للكتابة عنه، وتلقفته صحافة بيروت باستحسان، رافقته مانشيتات ملتهبة تشدو بحرية الفكر والتعبير، لمجرد أن كاتبته سورية، كي لا يفوّت المثقفون اللبنانيون المهووسون بالحرية الإسهامَ بفضيحة ضد النظام السوري والتشفي بسورية مناضلة في العلن، لا يستر رداؤها العروبي المحتشم تمرد مثقفيها الجنسي بشعر يناهض عفتها، ويسقط عنها ريادتها العذراء للقومية العربية الصاخبة التي لم تعترف بهزيمتها المنكرة؛ انتقاماً من وجود الجيش السوري على أراضي الأشقاء اللبنانيين، المنعوت بالجيش الغازي ومساواته مع الجيش الإسرائيلي، فكسبت الشاعرة شهرة إضافية مبعثها خلافات بعض الأفرقاء اللبنانيين مع النظام في سورية الذي أضاع أكثر من فرصة للخروج من لبنان، وألحقوا بكراهيتهم وعداوتهم الشعب

الخنوع وعلى رأسه العمال السوريون. هذا البعض ربما كانوا الأغلبية أو الأقلية، ما الفرق؟! المهم، انتصر الشعر، رديئاً كان أم غير رديء.

الرقابة السورية المحنكة صحت متأخرة على الكتاب، لم تحاول أن تتورط أو تتهور وتجعل من منع ديوان شعر، أزمة حرية تعبير ورأي وحقوق إنسان، خصوصاً أن الأزمة جنسية وليست عقائدية ولا سياسية، فأوعزت إلى الجرائد تجاهله وعدم الكتابة عنه، لكن بعد فوات الأوان، كانت كل جريدة قد كتبت عنه مرة، أو مرتين، بفضل الشلل الثقافية، ومدحته كما تمدح كتاباً شعرياً لأدونيس أو محمود درويش، أو شاعر لم يسمع به سوى رئيس القسم الثقافي الذي يتعشى ويسهر ويسكر على حساب شعراء مبتدئين، فيدبج لصالحهم مقالات نقدية إيجابية، بدعوى تشجيع الشعراء الناشئين.

في تلك الفترة، شاع عن الشاعرة أنها متمردة على تقاليد أهلها المحافظين، ونبشوا تاريخ حياتها، هربها مع زوجها الأول، تبرّؤ أهلها منها، علاقاتها المشبوهة خارج الوطن، مقتل زوجها، طردها من بلد عربي، ارتباطها حالياً بعلاقة سرية مع لاجئ من بلد مجاور، تعيش معه بلا عقد زواج؛ وفي هذه اللحظات، يترصدها أخوتها وأبناء عمومتها وخؤولتها للذبح في وقت الذروة من النهار، وللتشفي سوف يراعون في نحرها إسالة دمائها على الزفت غسلاً للعار.

لم تعلم بما كان يشاع عنها من أقاويل، إلا عندما سارعت سفارات اسكندنافية وهولندية وأميركية وفرنسية، وتقدمت إليها بعروض للجوء لديها خوفاً على حياتها. شجعها حسين صبري على استغلال الفضيحة والسفر، على أن يلحق بها بعد شهرين، لكنها لم ترغب في مغادرة دمشق، سواء كانت الحجة صادقة أو كاذبة، أو حتى لحضور مؤتمر في إحدى العواصم الأوروبية، تحت العناوين السرية

النسوية نفسها المناهضة لهيمنة الرجل والمعارضة للتمييز الجنسي والاضطهاد الذكوري. وأخذت جمعيات مجهولة لحقوق الإنسان تثير قضيتها دون علمها، وتدرج قضيتها في ملفاتها ومطالباتها، حتى وصل أمرها إلى مؤتمر دولي مغمور. كانت قضيتها لا تبرد في محل حتى تثار في آخر. لن تصغي لحسين صبري، وقالت لمن أراد استغلال قصتها إنها لا تستحق هذه العناية، هناك من هم أجدر منها بالحماية والرعاية والإنقاذ؛ مساجين مهملون في السجون منذ أعوام، وأبرياء اغتصبت حقوقهم وما زالت.

لم يكن مبعث تسارع المنظمات الدولية لحمايتها تكديس القضايا ضد سورية فقط، بل احتجاج على شوفينية العروبة، وتعميم فكرة الإرهاب الإسلامي؛ تناقلتها المراكز الثقافية الغربية، والجمعيات النسائية المدافعة عن حقوق المرأة العربية المقموعة والمضطهدة المحبوسة في بيتها، فاحتفوا بها نكاية بالمرأة العربية المحجبة والمناضلة والشهيدة التي تلف جسدها بزنار من المتفجرات وتقدم حياتها فداء للوطن. احتفوا بها على طريقتهم، فوجدوا في ليلى شكران شاهداً على قهر حرية التعبير لدى المرأة الشرقية، وكانت للأسف شاهداً غير متعاون. وعندما اضطر وزير الإعلام إلى سؤالها عما تشكو منه، هل هي مضطهدة؟ هل كمم أحد فمها؟ قالت له، أنا لا أشكو من شيء، نساء غيري يشكون. قال لها، ألا تريدين شيئاً؟ قالت، لا. فكافأها بالإيعاز للجرائد والمجلات المحلية بمديح ديوانها ثانية، تمهيداً لشن هجوم معاكس على المنظمات المأجورة.

كان هذا لا غيره، السبب في طلب رئيس التحرير من حامد سليم الكتابة عن ديوانها!! ولقد صحح حامد تخميناته، بعد أن ظلم صديقته الشاعرة واعتقد أنها كانت على علاقة ببعض الوزراء،

وهكذا نفى عن الوزراء أية علاقة بريئة أو غير بريئة بالشعر.

الأمر الذي لم تتنبه له أن صانع شهرتها الغيور عليها، أخذ يغار منها، كانت شهرتها المبكرة والسريعة قد أطاحت صوابه، الصحافة تلاحقها من غير وساطات، والنقاد الوصوليون يكتبون عنها بلا طلب، والمتزلفون يتسابقون إلى الثناء عليها، السائد أصبح امتداحها، وبما أنهم عرفوا أنها امرأة جميلة، أكدوا في مقالاتهم أنها شاعرة جريئة فاقت غيرها، وفي الوقت نفسه نظروا إليها كفاجرة، هكذا بلا زيادة أو نقصان، تزدري الارتباط الحلال، ولا توفر رجلاً بالحرام، وأخذوا يسعون إليها؛ أولاً، وعاجلاً، لرؤيتها بدعوى تبادل الخبرات الشعرية؛ وثانياً، وهو الهدف الفعلي، وإن كان آجلاً، النوم معها وتبادل الخبرات الحسية، لا أكثر ولا أقل، لا مقال بلا ثمن، ولا مديح بلا مقابل.

وعندما قيّم الناقد المعروف جميل حلوم مجموعتها الشعرية الأخيرة، كرسها شاعرة كبيرة، ففرحت. أما حسين صبري فجن جنونه. الناقد الفذ لم يُخف إعجابه الشديد بها، وحدد مأثرتها الشعرية بتسجيلها فتحاً شعرياً خارقاً، بفضح المخفي الأعظم، وسبقِها الرجال إلى الاستفادة من آخر صيحة شعرية، ورشحها لحضور مؤتمر عن الرواية. وعندما قيل له، المؤتمر لا يشمل الشعراء، ابتكر شيئاً يجمع بين الشعر والرواية.

إطنابه أدار لها رأسها، كانت حديثة عهد بالأحكام النقدية الخارقة والحاسمة التي برع ناقد مثقف مثل جميل حلوم في تلفيقها، مع بعض الديباجات المحكمة التي تسبغ على العمل الأدبي، مهما كان متواضعاً، عمقاً جمالياً فريداً لا يضاهى. قد يقرأها بعض الأشخاص غير المهتمين فيصدقونها وينسونها. أما العارفون فيتجاهلونها، ويرونها

مثل غيرها كتبت لغاية في نفسه، أو إرضاء لجهة ما.

بهذا النقد الأكاديمي، سيرسلها إلى المجد، كما قال لها، وهذا ما نفَّرها منه، كان المجد الذي ابتدعه الناقد أشبه بالخلود الذي ابتدعه من قبله النحات. ولن تخفى على ليلى المعايير الحقيقية لابتكاراتهما النقدية. بعد تجاربها، لن تخطئ التعرف إلى التميمة التي تخشع أمامها أرباع الأديبات، ويفلح التلويح بها في اصطيادهن وإرسالهن إلى الفراش. لكنه، وبلا مبالغة، أطلقها شاعرة عربية، غطت شهرتها مساحة امتدت من المحيط إلى الخليج، بمساعدة شبكة من الأدباء تزيد مساحة نشاطاتها على هذه الرقعة!!

(في هذه اللحظة، لم يفهم حامد ما الذي تعنيه الشبكة فحسب، لكن كان بوسعه عن قناعة تقدير مدى اتساعها وقوتها وعمق تشابكاتها. كانت العصابة نفسها التي تتبادل التسهيلات الأدبية من خلال التعاون الراقي على تسويق الأعمال الأدبية أو قتلها، والتي أطلق عليها بعض المغمورين في المقاهي من باب التهويل «المافيا الثقافية». وإذا سولت لأحد كائناً من كان تحدي الشبكة، فذنبه على جنبه، وقد يصل الأمر إلى سحله على أديم الصفحات الثقافية، سحلاً لا قيامة له من بعده).

عندما لاحظ حسين صبري تكالب المعجبين عليها، طالبها بالزواج. لم تصدق أن الرافض الأبدي لمؤسسة الزواج الغبية، يطلبها زوجة له، طالما احتقر صورة العائلة السعيدة، والعهر الاجتماعي الرسمي المبارك بعقد النكاح. لم يعرف أنها لن تقبل به، كان أمانها الوحيد معه أن تراوح علاقتهما في مكانها، وتتوقف عند هذا الحد، عشيقة لا أكثر، أما أن يوثقها بالزواج، ويربط مصيرها بمصيره، وحياتها بحياته، أكثر مما هما مرتبطان بالخوف والغيرة، ترى ما الأكثر؟!

كانت أجبن من أن تقول له ابتعد عني، لسبب سخيف، لئلا ينفجر في وجهها ويقول لها، ألم أقل لكِ، كذبت عليّ، كنت تخونينني، وجدتِ غيري، كانت شكوكي في محلها. فقط، كي لا تبدو له شكوكه وكأنها في محلها، بينما هي كالمعتاد، في غير محلها!!

لا نجاة منه، كانت موقنة، سيلاحقها بالزواج بينما هي تؤجل وتتهرب، إلى متى؟! لا مفر منه سوى بالموت. الموت أرحم، غير أن الموت بدا بعيداً، هل يأتي؟ متى؟ بعد أشهر، سنوات، من يعلم؟! كذلك الحياة بدت جميلة.

□ □ □

لكن القدر، أو التداعي التاريخي، أو الظروف الموضوعية، تتربص بالأفراد مثلما تتربص بالدول. ففي ٢٠ آذار من عام ٢٠٠٣، شنت قوات التحالف الأميركية البريطانية حرباً كاسحة على العراق.

وللذكرى، هذا الغزو، رغم أن القراء اليوم لا يجهلون تفاصيله ولا يختلفون سوى في تعيين أهدافه، سوف نحاول أن نستعيده، لأن موضوع قصتنا يسمح بهذا التسلل الحربي إلى موضوعنا، لما ترتب عليه من أمور مهمة بالنسبة لأبطال قصتنا، فالحرب سمرت أبطالنا أمام شاشات التلفزيون يتابعون مجرياتها، وما زال الذين على قيد الحياة منهم، غير متأكدين من أهدافها البعيدة، مثل غيرهم من المحللين والباحثين ورؤساء الدول والسياسيين، يعانون من غموض مراميها رغم ادعائهم معرفتها، مع أن الغاية منها، كما ادّعى الرئيس الأميركي بوش ورئيس الوزراء الإنكليزي بلير، إسقاط حكم الطاغية صدام حسين والقضاء على الإرهاب، مع وعود للشعب العراقي بإحلال الحرية وجعل بلدهم أنموذجاً للديموقراطية في الشرق

الأوسط، وقبل هذا وذاك نزع أسلحة التدمير الشامل. من ناحيتنا، لن نجادل، لم يتحقق شيء منها حتى الآن سوى الأول، أما أسلحة التدمير الشامل والإرهاب والحرية والديموقراطية، فما حدث بشأنها كان عكس المأمول. ولا نبالغ عندما نجاري الذين دعوها بـ: حرب الأكاذيب.

حالياً، ولاعتبارات زمنية، سنذهب إلى يوم التاسع من نيسان عام ٢٠٠٣. في هذا اليوم المشهود، وبعد ثلاثة أسابيع من القصف الجوي والبري المتواصل والتقدم في الصحراء وبين المدن، اختفى الرئيس صدام حسين وولداه، والجيش العراقي مع كبار قادته وضباطه، وجيش القدس والحرس الجمهوري والحرس الخاص وفدائيو صدام، والمسؤولون السياسيون والعسكريون، وأجهزة الأمن التي تربو على العشرين، وحزب الملايين، وتلاشت معهم الدولة العراقية.

في هذا اليوم، سقطت بغداد وبدأت خاتمة فصل آخر من حياة ليلى شكران.

32

الأميركان:
بغداد تحت الاحتلال

بعد ليل ساكن نسبياً، بدت فيه بغداد مدينة مهجورة، أكثر منها مدينة أشباح، أعقبه صباح شاحب وهدوء مريب، شيء ما قد حصل، سرعان ماتواردت الشائعات؛ الدفاعات العراقية انهارت، ومع تقدم النهار تلاشت القوات المدافعة عن مشارف بغداد والشوارع.

بعد الظهر، تقدمت القوات الأميركية دون مقاومة، ودخلت إلى العاصمة من عدة جهات؛ المحال التجارية مغلقة، وسيارات قليلة تجوب الشوارع. وأصبحت بغداد تحت سيطرة قوات الاحتلال، على مرأى من ملايين المشاهدين في العالم، يتابعون على الهواء مباشرة، الخاتمة الظافرة للغزو الأميركي.

في ساحة الفردوس، تمركزت عدة دبابات أميركية أمام «فندق فلسطين». وسط الساحة انتصب تمثال للرئيس صدام حسين أقيم قبل عام بمناسبة عيد ميلاده الخامس والستين. تمثال ضخم من البرونز على قاعدة من الرخام، صدام حسين رافعاً يده إلى الأعلى يحيّي الشعب. حاول بعض المتجمهرين المدنيين القلائل تحطيم القاعدة بالفؤوس، فلم يحدثوا سوى أثر ضئيل من التشويه. إلى الخلف قليلاً، تبدى جزء عراقي صميمي، امرأة تلبس ملاءة سوداء لم يظهر منها سوى عينيها وكفيها، تحمل طفلاً على يدها، وإلى جوارها طفلها الثاني الذي لم يتجاوز الثالثة من عمره، الطفلان وحدهما لم يهتما بمراقبة المشهد، كانا ينظران بعيداً، فيما كانت المرأة عالقة بين تمثال صدام والجنود الأميركيين.

اقتربت من التمثال عربة أميركية تُستخدم لسحب الدبابات، اعتلى جندي أميركي برتبة كابورال من مشاة البحرية، الذراع الطويلة المثبتة بالعربة، أحاط عنق التمثال بحبل غليظ، ولفَّ وجهه المعدني بالعلم الأميركي الملون. ثم ربط التمثال بالحبال والسلسلة المعدنية الغليظة للرافعة. تحركت العربة المدرعة وانتزعته من فوق القاعدة وجرته معها، فهوى مكسور الساقين على الأرض، بينما يده المرفوعة تحاول اتقاء الصدمة. هجم على التمثال المحطم بضعة شبان أشداء، قفزوا وأخذوا يضربونه ويرفسونه ويفككونه ويسحبونه في الشوارع. خلال دقائق بات العراق، عراقاً بلا صدام.

□□□

لم يكتم حسين صبري صرخة الفرح المجنونة؛ تخلصنا من كابوس الطاغية!! للوهلة الأولى لم يستوعب ما كان يراه، أبهذه البساطة؟! كأنه لم يسبق سقوط التمثال حرب مدمرة تابعها على مدار الساعة

طوال الأسابيع السابقة. انتابه إحساس مؤلم غامض، أشبه بسكين خرطت أحشاءه، الألم لازمه، وأخذ يكبر وهو يسترجع المشهد: تجمع الشبان العراقيين، محاولتهم تكسير التمثال، إخفاقهم، الأميركان لا يخفون سخريتهم، مبادرتهم للقيام بالمهمة التي عجز عنها العراقيون. المشهد يتتابع بسلاسة مخيفة: ظهور عربة سحب الدبابات والحبال والسلاسل الحديدية، العلم الأميركي يغطي الوجه المعدني، تحطم التمثال.. الشبان يضربونه بالأحذية، لماذا تبدو عليهم الزعرنة والهبل والجنون؟! ولماذا تبرع الأميركان بالمهمة؟ عجزنا عن إزاحة صدام، وأوكلنا أمرنا للأميركيين، هل سيحلون محل صدام؟ ما الثمن الذي سندفعه؟ كان المشهد قد أعدّ جيداً!!

قضى ليلته موزعاً بين الأرق والقلق وكوابيس مظلمة ومبتورة، كان صدام خلالها صامداً وجباراً بملامحه المتحجرة، لم ينل تهاويه من هيبته، البشر يسارعون إليه، يهتفون له، يصفقون، يتلمسونه، يقبلون يديه؛ هذا هو الواقع، أما منظر السقوط فلا يزيد على حلم رائع. في الصباح، كان صدام مطارداً، صدام انتهى.

قال لها، لن أذهب إلى العراق، ما دام محتلاً. كان العراق على شاشة التلفزيون بمرمى النظر، أخبار لا تني تتسارع كل ساعة، كل دقيقة، كل لحظة. لكن مَن بوسعه إعدام وطن والاستعاضة عنه بأخبار وصور متحركة؟!

تيبست تساؤلاته، وتفجر الشوق في داخله كالبركان. تنبثق المناظر وتتدافع، ساقية الماء وإلى جوارها خميلة الورد. لم يودع أمه كي لا يرى دموعها. الأثواب السوداء الرثة الممزقة. زيارته لقبر أبيه صباح مغادرته القرية. أعشاش العصافير وأسراب السنونو. ضم أخته إلى صدره قبل أن تذهب إلى المدرسة، دون أن تدري أنها لن تراه، ربما

أبداً. ترى هل تزوجت؟ السماء صيفية مغبرة، والشمس صفراء. طبع قبلتين على وجنتي أخيه الصغير ورحل.

تداعت الذكريات مصحوبة بطراوة البقل البري وخفة الطلع الأبيض الطالع من أكمام النخيل. أخته المتزوجة، هل أفرجوا عن زوجها؟ الحطب المدخن، مياه النهر الضحلة والمعكرة. جارهم الكهل المقوس الظهر، لا بد أنه مات. أبقار وجواميس وكلاب. رفيق الصيد علقت قدمه بشرك أدماه. الخبز الأسمر الساخن والرز المجروش، التمر والفجل والرشاد. صديق المدرسة حلم بأن يكون طبيباً. ربما هو الآن في مستشفى يعالج جرحى الحرب. جذوع النخيل وأكوام القش، وانحسار الضباب عن الحقول. حصادون ومهربون، غجري بربابة ونساء حاملات قدورهن. عمه الأستاذ جاسم الذي اكتشف موهبته بالنحت. على طرف الجرف، أزهار بيضاء وصفراء. الصبية، حبه الأول وحبيبته الأولى، ماذا كان اسمها؟! ليلى أيضاً، ياللذاكرة المرعبة، بعد أكثر من عشرين عاماً، تحضر أيضاً أقراص الروث اليابسة، وتهاجمه الصور بألوانها النضرة وروائحها الفاغمة.

لم يستطع صبراً أكثر من بضعة أشهر، اتخذ وجهته صوب العراق، عن طريق عمان، اجتاز الحدود ومنها إلى بادية قاحلة دون عرق أخضر ولا يابس، جفاف وصخور بركانية، السيارة تنهب به الأرض وأشواق عاتية تتناهبه. وكان حظه جيداً، لم يعترض السلّيبة سيارتهم.

سنوات بلا أخبار، ما الذي جرى لهم، ومن بقي منهم على قيد الحياة؟! اخترق سهوباً شاسعة دار على أطرافها الاقتتال بين الأميركيين وقوات الجيش، معارك خلّفت على الأرض هياكل سيارات وشاحنات ودبابات عراقية روسية الصنع. أشار السائق، هنا

جرت معركة أسفرت عن مائة قتيل عراقي، واحتجز الأميركان مثلهم من الأسرى الجياع والخائفين. على طول الطريق، من الحدود إلى القرى، من مدينة لأخرى، رافقته شعارات النصر الملطخة بالوحل، والصور الممزقة لصدام مع تماثيله منخورة بالرصاص.

على مشارف القرية، توقف طويلاً، لم تتغير معالمها الرئيسة، رغم تكاثر البيوت. الساحة باتت أكبر، درب ضيق ومتعرج قاده إلى البيت. استقبله نباح كلب، فتحوا الباب، أحس بقلبه يغور بين جنبيه، والكلمات تتلعثم في فمه، والدموع تطفر من عينيه. أطلت امرأة، قال لها أنا حسين. صرخت، حسين جاء. بعدئذ، لم يعرف من أخذ يشده ويعانقه ومن يقبله وينشج على كتفه. الأشخاص الذين تاق إلى رؤيتهم وتمنى أن يكونوا أول من يحتضنهم، تفرقوا بين القبور، أو اختفوا. أمه ماتت عمياء من مرض السكر والبكاء، عمه الأستاذ جاسم لم يمهله الموت بعد تقاعده. أخوه الصغير محمد، التحق بالجيش واختفى، لم يعد حتى الآن، ربما كان أسيراً لدى قوات التحالف، أو قتل. الذين تركهم صغاراً أصبحوا رجالاً، الكثيرون ولدوا في غيابه وأصبحوا شباناً في المدارس والحقول. حوله الأخوال والخالات والعمات والجيران، أخته الكبيرة خرج زوجها من السجن بعد رحيله، وقبل سنوات قتل في تدهور باص. الصغيرة تزوجت، وعاد زوجها من الحرب سالماً، ترك سلاحه في الخندق وهرب.

بعد أيام، سأل عن أخيه، زوج أخته حذّره، لا تتعب نفسك، جاء محمد بعد الحرب، بات ليلة واحدة، وأخبرنا بأنه انضم إلى جماعة من المقاومين، فأشعنا عنه بأنه أسر، أو قتل، قد يكون واحداً من الملثمين، لكنه سيراه بعد يومين على شاشة التلفزيون متحفزاً برشاشه

إلى جوار زعيم شيعي شاب يتوعد الأميركيين باستشهاديين لا يهابون الموت.

هل يحلم بعراق جديد، أم فات الأوان؟! العراق الجديد بات في علم أميركا. وأميركا تُراها، أي عراق تريد؟! صدام ما زال ظله مخيماً على العراقيين، ماثلاً في أحاديثهم وصمتهم. لكنه لم يفقد الأمل، العراق استعاد حريته، ولم يستعد كرامته.

في ذلك المساء، تبخر الأمل، سمع هدير محركات الديزل وصليل سلاسل المدرعات، أطل برأسه من النافذة، رأى في الظلام عربات برادلي الأميركية، تطوق سور البيت الخارجي، المدرعة الأمامية تفتح بابها الخلفي، ينزل منها الجنود، يندفعون نحو البوابة. يدفعونها بأرجلهم. ينبح الكلب، يطلق الجندي عليه رصاصة فيقتله. يعتلي ثلاثة جنود السور المنخفض، يقفزون، يفتشون حول البيت. المدرعة تدفع البوابةَ وتعبر. الجنود يفشلون في فتح باب البيت الفولاذي بالرفس، يصرخون طالبين فتح الباب المنيوك. يفتح لهم حسين الباب، يدفعونه للخلف فيقع، يأمرونه أن يبقي وجهه المنتاك ملتصقاً بالأرض، يظهر زوج أخته في الممر، يشدونه من شعره ويجبرون الرجل المنتاك الآخر على الانبطاح. الجنود يتقافزون بين النساء... القحبات، والأطفال... أولاد الزنى، يدفعونهم بخشونة، يفتشون البيت، ويطلقون الشتائم أينما واجهوا بابا منيوكاً مقفلاً. بعد الكثير من الركلات للأبواب المنيوكة، لم يجد الجنود سوى غرف منيوكة فارغة. يبعثرون الأثاث وينبشون الأسرة ويحطمون أواني المطبخ. حاول زوج أخته النهوض فضربوه وداسوه بأرجلهم وأجبروه على الركوع. الأطفال يحدقون هلعين إلى الجنود المسلحين وأبيهم المنبطح على الأرض وأمهم المذعورة، الخوف في عيونهم. الجنود في

الخارج استوقفوا أحد المارة، سمعوا صوت الرجل المنتاك يقسم لهم مؤكداً براءته، الجنود يقولون إنه قواد منيوك من الفدائيين. بعد الكثير من الشتائم، دخل جندي وأخبر رفاقه بأنهم أخطأوا ودهموا بيتاً غير الذي يريدونه. البيت المقصود هو البيت المنيوك المقابل على بعد عشرين متراً. فخرجوا دونما اعتذار، وبدأت الغارة على البيت المقابل. راقبوا المداهمة من خلف السور. كانت الحصيلة، خمسة رجال منايك منبطحين على الأرض، أيديهم موثقة وراء ظهورهم. اثنان رأساهما داخل أكياس سوداء. ربما كانا مجرمين، مرتزقة، أبطال تحرير، بعثيين، إرهابيين، تجار سلاح، مجاهدين من منظمة القاعدة، أو متدينين متحمسين، عصابة لصوص، أو سليبة، أو أي شيء. وقد يكونون أبرياء يعيلون عائلاتهم. اقتاد الجنود الرجلين بعد أن أخذوا ما صادفهم من مصاغ ومدخرات نقدية. بعد ساعات أعادوا أحدهما جثة هامدة، لم يكن الرجل المنيوك المطلوب. في اليوم التالي سأل حسين جيرانه عن الرجلين فقالوا له بأنهما أقرباء لهم حلاَّ لديهم ضيوفاً. الرجل الثاني أعادوه بعد أسبوع، بعد أن اكتشف المحققون خطأً في اللائحة المنيوكة التي أعدها المتعاونون المنايك.

لن يقعد هكذا محبوساً في القرية، ينتظر عودة أخيه، أو مداهمة ما، الانتظار لا يطاق وليس حلاً. سيذهب إلى بغداد، ويُطلع الصحافة على ما يجري في تلك الربوع الهادئة. في بغداد، تردد على المقاهي، وتعرف إلى الصحافيين والمثقفين، لم يستغربوا شيئاً، هذه أمور عادية، لا تستغرب، يجري مثلها على بعد بناية أو بنايتين، كل هذا متوقع، هذه حرب، ماذا تسمي ما يجري، تحرير، مقاومة، حرب عصابات، غوار، أهلية، طائفية، دينية، إرهابية، ضد الإمبريالية؟! كل هذه التسميات وغيرها تنطبق على حربنا الحافلة التي لا ينقصها شيء.

يتلذذون بالشائعات، ويتعيشون على التسريبات الحقيقية والكاذبة، يبتكرون نظريات ضبابية ويجترونها، لا يرون في مجلس الحكم أكثر من شبه حكومة راهنة، ومؤسسة في الواجهة تخضع لإرادة السلطة الأميركية، ما الذي تغير؟! يدار الحكم على غرار ما كان الوزراء عليه في عهد صدام. نحن في قلب مؤامرة، العرب يشاركون فيها، فليتركونا في حالنا، لم يجرّوا علينا سوى المصائب. الديموقراطية الموعودة التي بشر بها الرئيس الأميركي بوش، في علم غيب الخزعبلات. الحرب، إعلام ودجل. افهم، السلطة التقريرية الرئيسية محصورة بين يدي رجل واحد هو السيد بول بريمر الحاكم الأميركي، من مكمنه يقود البلد بواسطة جهاز أمني خاص تحيط به دائرة من المستشارين الأميركيين والعراقيين، يذكّرونك بالوشاة والوسطاء والعملاء والأذناب المحيطين بصدام، يعيشون جميعهم ويعملون داخل معاقلهم المحروسة، يتنقلون بواسطة مواكب عسكرية يثير مرورها الفزع في نفوس المارة. ومهما يكن فطعم الحرية لذيذ، ولو كان ملوثاً بالدماء والفساد. قل لنا، أنت مع من؟ من جماعتك؟ من أي حزب؟ هل جئت مع الأميركيين أم الإنكليز؟ إن كان لديك ارتباطات وممولون، فاطمئن، لك مكان هنا. إذا كنت وحدك، فعد من حيث أتيت.

مشاهد الدمار تتوالى أمام عينيه مكبرة عشرات المرات، بغداد ساحة للقتل والفوضى، التفجيرات والسيارات المفخخة تنال المدنيين الأبرياء أكثر من جنود الاحتلال. المدينة بلا ماء وكهرباء أغلب ساعات الليل والنهار. الجيش الأميركي أسبغ حمايته على وزارة النفط، ولم يحافظ على المتاحف، لصوص الآثار نهبوا مقتنيات لا تقدر بثمن. وجرى حرق المكتبات، التهمت النيران المكتبة الوطنية ومكتبة الأوقاف وغيرهما. الدخان تصاعد على مرأى من القوات

الأميركية، وصبغ الفضاء بالسواد، مثلما صبغ لون الحبر مياه دجلة على يد المغول. أبنية اللجنة الأولمبية وهيئة الشباب الرياضية حلّ بها الانتقام على ما تحتويانه تحتهما من سجون وأقبية ومقابر. طال السطو المؤسسات والمستشفيات والمدارس ومراكز الشرطة، وأتى التخريب على مستودعات الدولة والجيش. هاجم الغوغاء الجامعات واستولوا على الطاولات والكراسي وأجهزة الكمبيوتر، حتى أنهم أخذوا أوراق الامتحانات.

لم يمر يوم واحد دون أن يُسَجل فيه سقوط قتلى مدنيين عراقيين بنيران الأميركيين، أعيد استغلال السجون القديمة المعروفة، وحلَّ نزلاء جدد فيها، لم تتغير الممارسات الوحشية، وإن تغيرت هوية السجانين. مئات من الأشخاص قتلوا في ظروف غامضة، بعضها انتقامات شخصية. ومنهم من مات تحت التعذيب خلال التحقيق معهم.

□ □ □

في اليوم الأول، أوحى له صباح بغداد بحياة طبيعية؛ تلاميذ ذاهبون إلى مدارسهم، أبواق سيارات، رجال شرطة السير ودوريات الطوارئ بسياراتهم الزرق والبِيض، ازدحام عند تقاطعات الشوارع. الوجود الكثيف لرجال الشرطة يبعث الطمأنينة في النفوس. بعد ساعات، حدثت عدة تفجيرات وقتلى وجرحى.

في الليل، لن تطالعه بغداد بمنظرها المترف بالنور، بل بظلامها الباهت، المنازل تنبعث منها أضواء خافتة، قد تكون مضاءة بقناديل ضعيفة أو بشموع، وهل ثمة حياة في الداخل تشبه تلك الحياة التي يتخيلها لأسرة، أولاد يدرسون، أمّ ترعاهم، وأب يحميهم؟ لا، كأنما

ليس هناك أطفال تعلو أصواتهم ويستلفت ضجيجهم السمع. الحياة مختلفة تماماً، صمت وترقب، لا ليست الحياة العادية التي كانوا يعيشونها.

عشية اليوم الأخير، سجل في دفتره؛ في هذا المساء انطلقت أصوات المدافع، هزت منطقة الجادرية بالقرب من الجامعة، حيث مكان إقامتي، أسمع انفجار القنابل وأنا أكتب، وهدير طائرتين مروحيتين أميركيتين. وفي النهار، انطلقت على الأقل ١٠ صواريخ وقعت بالقرب من مقر سلطة التحالف المؤقتة في بغداد، المركبة التي أطلقت منها الصواريخ تم تفجيرها، وأطلقت صواريخ الكاتيوشا باتجاه مركز المؤتمرات وفندق الرشيد. لم نسمع أخباراً عن الخسائر.

صباحاً، قبل أن يغادر إلى سورية، كتب: هبت رياح عاتية، بغداد يلفها اللونان الأصفر والرمادي. من شرفة الفندق، ألقي النظرات الأخيرة على مدينة أعلم بأنني لن أراها ثانية، وأودعها بقلب ينفطر حزناً. بغداد اليوم رهينة الأميركيين والعملاء، بغداد عاصمة للدماء والفجائع. بغداد مدينة مختطفة، تقاد إلى المستقبل معصوبة العينين. لا، ليس بالوسع النظر إلى ما هو آت، إلا من خلال هذا السواد القاتم والأحمر القاني.

33

الفراغ:
الوطن الأخير

في دمشق قال لها، لن أعود ثانية.

حسبتْه اكتفى من العراق بزيارة الأهل والأقارب ورؤية أصدقاء الطفولة والشباب، والتقاط بعض الصور التذكارية إلى جوار تماثيل صدام المطروحة أرضاً. لم تخطر لها قصة رحيله ورجوعه إلا على أنها مناسبة استغلها لاستعادة ذكرياته العراقية وتنشيطها، لولاها لما ذهب. تبدت خيبته بعد أيام، عندما تلوّى مصاباً بتشنج في معدته مع إقياء، ووجع لا يحتمل في الرأس وفقدان للشهية.

كانت أعراض صدمة ما بعد العودة؛ على وقع أخبار لم تتوقف، عمليات المقاومة تصاعدت بقوة ضد الاحتلال، كأنما أصحابها الملثمون يعوضون عن تسليم بغداد دون مقاومة. بدايات الإعمار

تتلكأ في الفوضى الضاربة على هدير القصف وقذائف الآر بي جي والسيارات المفخخة وانفجار العبوات الناسفة. روائح العمولات الهائلة جاءت بالمقاولين المرتزقة الأجانب ومعهم عمال من جميع الجنسيات لقاء رواتب سخية ومخاطر أكيدة.

الفراغ، كما حاول أن يشخص حالته، كان هائلاً، لم تملأه حرب انتهت وارتدت تحصد الضحايا دون تمييز. الأحوال تزداد تدهوراً، وسوف تكون محور نقاشاته وخلافاته مع أصدقائه العراقيين، تودي بهم آخر الليل إلى تنبؤات ومخاوف ومشاجرات وتخوينات، ثم يشدون بموال عراقي حزين، يرتشفون على وقعه مزيداً من الكؤوس قبل الانصراف.

كان أشدهم تشاؤماً، لن تقوم قائمة للعراق بعد اليوم. الخلافات بين العمائم السوداء والعمائم البيضاء تتفاقم. الحرب الأهلية على الأبواب. إذا كانت هذه مقاومة فلن تفلح، من هم؟! فلول النظام البعثي، وإسلاميون ناقمون على أميركا، ومجرمون وقطاع طرق وعصابات قتل وخطف. المواجهات الطائفية بين السنة والشيعة آتية لا ريب فيها. الشيعة ستتفرق إلى شيع، والسنة ستنفرط أضلاع مثلثها. الأكراد سيتعاونون مع أميركا وإسرائيل ويفوزون بدولتهم. لن تخرج أميركا من العراق، ستبسط سيطرتها على النفط. الدولة ستصبح دويلات، تاريخ العراق الفاجع يكمل مسيرته الدامية.

لم يستقر على رأي، وجد في هزيمة الأميركان خسارة الوعد بديموقراطية، ولو كانت شكلية، لكنها بداية مبشرة؛ وفي انتصارهم هزيمة للعراقيين وتمزيقاً للعراق، علينا المبادرة إلى صنع مصيرنا بأيدينا، ينبغي التصدي للاحتلال بكل الوسائل. وفي الوقت نفسه لا يرغب في خروج قوات التحالف خيفة من عودة الطغيان ورجالاته. أي

بديل عدا الأميركان وصدام، والأسوأ الجماعات الأصولية المسلحة، إيمانهم، الإيمان الوحيد والصحيح، يكفّرون أتباع الأديان السماوية الأخرى والمسلمين القاعدين عن الجهاد من المذاهب كلها. شراذم المسلحين، ليست هي المقاومة المرجوة. يقتلون الآحاد من جنود الاحتلال، والعشرات والمئات من الشرطة العراقية والمدنيين من الرجال والنساء والأطفال، يفجرون المناطق السكنية، ومركز الأمم المتحدة والصليب الأحمر والمساعدات الإنسانية، ويغتالون الشخصيات الشيعية، ويدمرون المؤسسات، وأنابيب النفط!!

لا مكان لي في العراق، قال لها، ملقياً عن كاهله أعباء لم يحملها، ومصائب تحرر منها، لا يعنيه المصير التعس للوطن؛ الحريق المشتعل قادم وسوف ينتشر إلى بلدان الجوار والمنطقة كلها. لم يعد يأمن وجوده في دمشق، توقف عن العمل، كان النحت عذاباً، كمن يحفر في عظمه وشرايينه. اقترح أن يذهبا ويستقرا في أي بلد في أوروبا. حتى غيرته عليها تراجعت لحساب وطن منكود يتفتت. غيرته المجنونة لم تستوعب شطح وساوسه، باتت وساوسه أكبر من امرأة، وتضخمت وأصبحت بحجم فاق المنطقة، وعادل حجمها العالم. بعد أيام تنكّر لاقتراحه، أوروبا ليست آمنة، ماذا لو انفجرت قنبلة ونحن في مطعم أو مقهى، أو مترو الأنفاق.

لم تنتبه إلى ما أخذ يعاوده من آن لآخر، أدركته متأخرة. بعد أن فقد بلده، أصبح رجلاً بلا وطن احتياطي أيضاً، افتقد سراً قريته الصغيرة الرابضة بصلابة في أعماقه، لا شيء يعوضه عنها، ولا غنى عن عبير طهارة الروضة الحيدرية، ومدينة أحلامه بغداد، ومع هذا تخلّى عنهم، واختار المنفى الأبدي وطناً هلامياً، مستنداً إلى كليشيهات الحرية والإنسانية والعالمية. لكنه في حمأة دفاعه عن

تطلعاته الأممية، سيكتشف أن كل ما يتشدق به مجرد مخاوف يدرأها بمخاتلات ثقافية. ثمة ما ينبعث، أشبه بشيء بدائي، لم تشذّبه عجلة الحضارة، ولا حقوق الإنسان والثقافة المعولمة، تُسقط دفاعاته وتقاضيه الحساب: الوطن ليس الأرض التي تمنحك الحرية، ولا البلد الذي يحترم حقوقك، ولا القانون الذي يحميك، ولا اللغة التي ترطن بها مع الأجانب. الوطن، هو الأرض التي حبوت فوقها. الأرض التي تعثرت عليها، وعفرت وجهك بالسخام. الأرض التي أطعمتك. الأرض التي احتضنتك وقست عليك، الأرض التي طبعت على روحك البصمات الأولى للحب والبغضاء، الأرض التي تحبها ولا ترحمك. الأرض التي علمتك المعاني الراسخة للذل والإهانة والكرامة. الأرض التي هي بحاجة إليك. الأرض التي يجب أن تقاتل للحفاظ عليها. الأرض التي تعشقها بالفطرة والحماقة. أرض الذكريات والدموع، أرض الجوع والشبع، وقبر بانتظارك. الوطن إرغام، تولد من رحمه، يمنحك الحياة كي تمنحه الحياة، ويطالبك بالعيش فيه والدفاع عنه حتى الرمق الأخير، الوطن ليس خياراً، إنه إكراه؛ إنه مصير، إنه مصيرك، إنه الحياة مثلما هو الموت.

قال لها، فراغ، ليس ثمة سواه.

هل لأنه تردد إزاء العراق ولم يقبل بأوطان بديلة؟ فراغ ما بعد العودة ارتدّ به إلى الفراغ الذي يخاف منه، وذهب به إلى فراغ أكبر، ليصبح مأواه الأخير، بعد أن أمضى حياته وبذل موهبته للتغلب عليه، لماذا كان سعيه إلى الصخر والحجر؟ هل كان رداً على الحياة والضجر وجبروت الحكام؟ لا ليس هذا فحسب، وإنما لمعاندة الفناء والعدم واللاشيء؛ ألم يقتطع من الفراغ حيزاً بعد حيّز، ليجبره على الامتلاء والتراجع والتضاؤل. بعد هذا العمر،

كللت معركته بالخسران. التماثيل والأزاميل لم تفلح، الفراغ أصلب، نال منه، أتى على حياته وذهب بها. وربما من اليأس، استعاد الفكرة التي قد تنقذه، وينجو بها من اللامعنى، فكرة القشة الأخيرة، سأعود إلى العراق، هو ملجئي. لكن وعده الذي أطلقه من قبل، هو الذي سيسبقه ويتحقق، لن يطأ العراق أبداً، ولن يرى بغداد ثانية.

□ □ □

بعد جدال طال كالعادة إلى آخر الليل في منزل صديقه في ضاحية قدسيا، خرجوا ثملين يترنحون، تفرقوا في الساحة، تمشّى مع صديق له. كانت نشوته العارمة قد أطلقته وحطت به في بغداد، وأوصلته إلى شارع أبي نواس، أشاح ببصره عن المجمع الرئاسي، يسير ويسير في ذلك الزمن الذي كان فيه الشارع يضم بساتين ومتنزهات ومطاعم ومقاهي. ليجد نفسه يقطع جسر السنك الواصل بين الكرخ والرصافة. هلل بوطنية وفخر، ما أجملك وما أعظمك يا بلدي الحبيب!!

ركبا سيارة أجرة، قال صديقه للسائق، شارع بغداد. وترددت في أذنه بغداد، فارتدّ عائداً إليها. انطلقت السيارة بهما، أطل على كورنيش الأعظمية، قال للسائق، على مهلك. بعد قليل، قال له، أسرع. كان الطريق خالياً، هتف والسيارة تقترب من الربوة، وصلنا. قال صديقه، لم نصل. قال، أنا وصلتُ. حسبهما السائق يتمازحان. فلم يلتفت إليهما إلا عندما سمع صوت دوران أكرة الباب الخلفي للسيارة، التفت، رأى الجالس إلى اليمين يحاول فتح الباب والريح تقاومه. قال السائق للجالس إلى اليسار، أمسك صاحبك إنه سكران. رد عليه، وأنا سكران.

بصعوبة، فتح الباب، لم يقفز من السيارة، ترك جسده يسقط على الأرض، اصطدم رأسه بالرصيف، داسته سيارة مسرعة، تلتها أخرى، لم تتمكنا من تجنبه. حمله صديقه والسائق إلى مستشفى المواساة، جثة هامدة تفوح منها رائحة فواحة بالدم والكحول. فيما بعد، قال صديقه وهو يروي لها موته، عندما لمست وجهه تبللت يداي بسائل لا رائحة له ولا لون، فأدركت بأنه كان طوال الطريق يئن بالبكاء. بعد تحقيقات دامت من الصباح حتى الظهر، أبلغوها بموته، أبقته في براد المستشفى، ريثما اشترت له قبراً في مقبرة خارج دمشق. شيعه أصدقاؤه الذين سهر معهم ليلة مقتله، لبست ثوبها الأسود ثانية، ورافقتهم عن بعد.

□ □ □

في المشغل، لم يكن الصمت وحده في انتظارها، كان الفراغ فاتحاً شدقيه، مغارة بحجم الكون، يبتلع التماثيل المجللة برداء سميك من الغبار، والظلال الكئيبة البائتة منذ أسابيع في الزوايا القصية، والأسلحة المقاومة للفراغ: المطارق والأزاميل والمبارد والسنبادج والمجالخ، عاجزة ومبعثرة في أرجاء المكان. فيما كانت النوافذ المفتوحة على الحديقة، تلغو بمنظر خريفي بليد لا تعبث به نأمة هواء؛ والنوافذ الخلفية، تطلق وهجاً من النور يتبدد في سديم فراغ وحشي؛ فيه، رأت حياتها تتكرر على نحو مقيت وعاصف، مع رجلين أحبتهما وكرهتهما بكل ما تملك من قوة، حباً وكرهاً لا توسط بينهما، سوى الشفقة، لم يستحقا أكثر. منحتهما جسدها وعواطفها وأحلامها، وأفرغا حنينهما فيها عصاباً وعنفاً وقهراً، اختزناها من كرب الغربة وضيم الحنين، ولم يبخلا عليها بالشقاء والتعرف الدؤوب إلى المهانة.

وقد تكون هي التي قولبت كل واحد منهما، إلى رجل نزق

وأرعن، غيور وأحمق، ثم هيأت له حتفه بمصادفة سخيفة، لا ترقى إلى بطولات وهمية طالما تشدقا بها، الأول برصاصة مرتدّة تخطئ طريقها وتصيبه في مقتل، والثاني بحادث سيارة، وكأنما لا يكفي لتمويته اصطدامه بالرصيف، فتدوسه سيارة مسرعة، وتجهز عليه أخرى. هل تمنت موتهما هكذا؟! بل وأسوأ.

تقاسماها الواحد تلو الآخر، كل منهما دمر جزءاً من حياتها، الأول صباها، والثاني شبابها، سخّروها لتقاسمهما مآسيهما، فكانت محلاً لوساوسهما، أليس جزاء وفاقاً، أن تشفي غليلها منهما بميتتين تافهتين متشابهتين لا تختلفان إلا في تفاصيلهما الصغيرة؟! لم يفلتاها حتى بعد رحيلهما، أودعاها ذكرياتهما القبيحة غير الأنيسة لرفقتهما الجامحة، نامت معهما وتشاجرت، ضرباها وضربتهما، وساماها العذاب، عاشت معهما حياة كاملة خالطها جنون الغيرة بتنويعاتها المريرة كلها. وزرعا في يقينها بعد اختفائهما، أنها لو صادفت رجلاً ثالثاً، فلن يتغير هذا المنوال السقيم والعنيف، غرام مخادع رائع ومزلزل، وكابوس مروع، لا خلاص من صاحبه إلا بالموت.

أمام تمثالها، مضطجعة وعارية، انسلّت يده إلى جسدها، في الآن نفسه، انسلت يد الأول الذي سبقه، ارتجفت أصابعهما وهي تزحف فوق أضلاعها، إلى أن استكانت فوق صدرها. الأول إلى يمينها والثاني إلى يسارها، تراهما لأول مرة على هذه المسافة القريبة إليها والمتباعدة عنها، رجلين مسكينين لا حول لهما ولا قوة. يلتصقان بها، يحشران كتفيهما تحت إبطيها، ينشدان الأمان، ثم ينكبّ كل منهما على الثدي المجاور له يرضع منه. طفلان شقيان، حانقان وخائفان، يعودان من الزقاق، ملطخين بالوحل، عطشانين وبردانين. تعرف، عندما سيحسان بالأمان سوف يخرمشانها

بأظافرهما. ما الذي كانته بالنسبة إليهما؟! وصفة مضادة للهزيمة وسعار الوطن ولهذا اللاشيء.

كأنما عدوى؛ هي أيضاً، أصابتها أعراض الفراغ. كان الطريق الموصل إليه يودي من بعده إلى الموت. بينهما، هتفت في سرها مستدركة: اذهبي إلى الشعر؛ قد يردّها الشعر إلى الحياة. آمنت بفعله الخارق، على الأقل يقدم لها بعض العزاء. لكنه خذلها.

□ □ □

«الشعر لم ينقذني».

توقف حامد عند هذه الجملة التي أنهت بها ليلى شكران قصتها، أدارها في رأسه، ماذا يمكن أن تدعى نكبة واحدة فقط من هذه النكبات المتتالية سوى بالمأساة؟! هذه الخاتمة اليائسة لا تصلح لامرأة ما زالت شابة وشاعرة، الشعر في المنعطفات الحادة ينقذ صاحبه. ليتها تكتب قصائد رثاء، تناسب حالتها الحاضرة، قصائد لا تنعى الأحبة فقط، بل تنفّث بها عن مشاعر الحزن والغل أيضاً. ألم يكن الشعر في حياتها مراحل، فمن الهوى إلى الجسد، الآن جاء دور الموت، فلترث غيرها بدلاً من أن ترثي نفسها. أليس في هذه المسيرة اختصار لمعركة خاضتها في الحياة على مرحلتين، والآن هذه هي المرحلة الثالثة، فليكن عنوانها الانتصار، وإلا فماذا يمكن أن يدعى هذا البقاء على قيد الحياة؟

«جربي ثانية، الشعر حلٌّ جيد».

«الشعر لن يفلح، يعمّق الفراغ».

«لدى الشعر متسع لكل شيء».

وشرح لها بإطناب، قدرة الشعر على التغلب على الموت:

«لا تستهيني به، بوسعه رغم رقّته، طحن الفراغ الذي لا يُطحن، وتحويله إلى مادة طيعة للكتابة».

بيد أن ليلى شكران كانت في واد آخر. بالنسبة إليها، لم يعد الشعر أحبولة جميلة، أو كذباً رائعاً، أصبحت الكتابة معاناة جارحة وعصية. قالت له، كأنني لم أمسك القلم من قبل، ولم أجرب الكتابة بتاتاً!! فهوّن حامد عليها، بأنها حالة تصيب الكتّاب، أحياناً يصابون بالعقم لسنوات، ثم يعودون إلى الكتابة.

لا، لم يفهم ما الذي قصدته، فشرحت له بأن السبب هو اعتيادها على التقليد ومسايرة سوق الأدب، واتباعها نهج أدباء ونقاد يلاحقون الجديد ليكونوا في الأمام دائماً. لكنها بعد أن واجهت الحياة وفقدت أناساً مقربين، ومسَّها الموت في الصميم، أحست بعبث كل فعل، الفناء نصيب البشرية والعالم والحضارات والكون. شعور هيمن عليها وطاح بها. لن تستطيع احتواءه بالشعر.

«أخطأتُ بداياتي في الشعر، كانت لديّ قضايا حقيقية، لكنني استعرت قضايا الآخرين».

عندما واجهت الموت والزمن، أحست بعجزها. وقد تنتظر طويلاً لتنهض من عثرتها، إن كانت مجرد عثرة، قد تنجح، أو لا تنجح، الشعر ليس كاذباً. نحن الكذابون. وهي لم تطلب مقابلته إلا لتقول له:

«لا تكتب عني، تلك فصول ينبغي لي أنا وحدي، إذا حالفني الحظ وعضدني الأمل، يوماً ما، أن أعيد كتابتها ثانية».

جلّ ما تأمله النسيان، والاختفاء عن الأنظار، الكثيرون حاولوا استغلالها وجعلوا منها قضية، خاصة هذه الأيام، التي تدور فيها الأحاديث حول الإصلاح، ومنهم الوزير الذي يحاول أن يرد على المنظمات المشبوهة والمعادية، فحرك قضيتها ليصدرها إعلامياً إلى الغرب الذي يثير قضية تمكين المرأة، وكانت خير دليل وبرهان على أن المرأة في بلدنا متمكنة، تكتب ما تشاء إلى حد يندى له الجبين خجلاً، وفي الحياة تعيش كما تشاء، وتخبص كما تهوى.

فقال حامد، اسمحي لي أن أكتب عنك كلاماً لا ينفع ولا يضر، لأبرئ ذمتي تجاه رئيس التحرير ـ ليبرئ بالتالي ذمته تجاه الوزير.

ليلى لم تمانع، فانتهت مقابلتهما عند هذا الحد، تمنى لها التوفيق في حياتها. وهي أيضاً تمنت له التوفيق في عمله، وعدم انكشاف أمره. وذهب كل منهما في سبيله، على أن يلتقيا يوماً ما، لم يحدداه، تركاه للظروف والمصادفة والحاجة.



وسوف نقفز سنتين دفعة واحدة، فقد صادفها حامد في تظاهرة اعتصام أمام مبنى الأمم المتحدة. بدت فرحة، والحياة رُدّت إليها.

«ألم تتزوجي؟».

«لماذا؟! لدي قضية».

«هل تمنعك؟».

«لا».

«ألم تحبي أحداً؟».

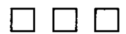
«الحب قضية ميؤوس منها».

34

الكاتب المغمور:
لعبة الزمن القاتلة

في الموعد المحدد، أو قبل الموعد المحدد بقليل، تلقى حامد من صديقه سامي خبر عثوره على الكاتب سميح حمدي، حياً يرزق، يعيش في منزل صغير مع أخته العجوز في حي المهاجرين الجادة السابعة. أما كيف عرف بمكان إقامته، فالأمر سهل، آخذاً في الحساب عمله السابق معقب معاملات، توصل إلى عنوانه، أخذه من أمانة محافظة دمشق، وأكدته دوائر المالية، سميح مواطن متعاون ونموذجي يدفع ما يترتب عليه من ضرائب وعلى رأسها النظافة والعقارية، سنوياً وفي أوقاتها. زاره في بيته وقضى معه ساعة من الزمن.

كان الخبر مثيراً، وتصاعدت إثارته مع سرد سامي تفاصيل لقائه مع الكاتب المغمور:



فتحت أخته لي الباب، سألتها عنه، نادته فجاء الهوينى على مهله، كأنه استيقظ لتوه، مع أن الوقت قارب الظهر. أدخلني دون أن يسألني عن طلبي، ظن أني قارئ عداد الكهرباء، إذ توقف عنده. قلت له، إن شخصاً يهمه أمره، أرسلني لأطمئن إلى أحواله الشخصية والأدبية. سألني، من هو؟ قلت له، شخص معجب برواياتك. همهم رافعاً حاجبيه؛ رواياتي!! وتابع السير مستغرباً نحو غرفته، مشيت وراءه وهو يجر قدمه اليسرى، معتمداً على عكازه.

يبدو الروائي سميح حمدي في السبعين من عمره، بينما لم يتجاوز الخمسين؛ نحيل القوام، ممصوص الوجنتين، تبدو على ملامحه مخايل العبقرية (نسي نفسه عدة مرات وهو يحدق إلى أشياء لا تستلزم الغرق في تأملها) عظام وجهه بارزة (المؤكد أنه لا يأخذ كفايته من الطعام ولا النوم) يتنفس بصعوبة (يعاني من الربو، هذا ما قاله) عطس ودمعت عيناه عدة مرات (ويشكو من التحسس الربيعي). تحتوي غرفته على فراش وطاولة وكتب وأقلام حبر سائل، ومحبرة وأوراق نشاف (كاتب من الطراز القديم!!) ونظارة للقراءة وغبار سميك يراوح بين الكثيف والكثيف جداً، ورائحة شيء ما يتعفن.

جلس على كرسي وراء طاولته محاطاً من الجانبين بأكداس من الدفاتر والمصنفات والمجلدات وجرائد قديمة. تناول القلم، أرخى رأسه، فبدا كاتبك المغمور مغموراً تماماً بالورق. خطَّ على دفتر سميك بضعة أسطر، ثم نهض معتذراً:

«كتبت فكرة لئلا أنساها».

تمدّد على الفراش، وأخذ يسعل. سألته:

«أما زلت تكتب؟!».

«أكتب لأقتل الوقت».

«هل قتلته؟».

«بل قتلني».

ابتسم ابتسامة واهنة، وقال إنه يمزح، فهو لا يهتم بالزمن، ما دام يعيش زمنه الخاص، لا يقيده الماضي لأنه ذهب، ولا الحاضر لأنه لا يتوقف إلا لحظة أو أقل، ثم يذهب، وليس بمقدوره مجاراته، لأنه بطيء، قدمه لا تساعده، ولا يأمل شيئاً من المستقبل، لأنه الآن في المستقبل الذي أمل منه في الماضي الكثير، دون أن يتحقق شيء مع أنه بذل كل شيء من أجل قدومه، وكان سيئاً. زمنه الخاص عبارة عن دوامة، لذا يحس برأسه يفتل، غالباً في الاتجاه المعاكس. قليلاً ما يظفر بفسحة راكدة، منبسطة، مديدة، وعميقة جداً، هذه لا تتوفر إلا في آخر الليل، متى سيأتي المساء؟ (حامد، هل تفهم شيئاً من هذا؟!).

تبادلت معه حديثاً طويلاً، تشتت خلاله تركيزه مرات، وكأنه يتكلم مع نفسه؛ يُمضي الجزء الأكبر من يومه في عزلة، لا يعنيه ما يحدث خارج غرفته، قطع صلته منذ وقت بعيد بالوسط الأدبي، كان راضياً عما أصابه من شهرة سريعة في البداية، امتدحوه ليغيظوا غيره، ثم طردوه من الندوات الثقافية، نعتوه بالروائي الفاشل، وأزالوا اسمه من التصنيف الروائي. لماذا؟ لتشكيكه بأحكامهم النقدية (هل تعتقد بأنه السبب الوحيد لكل هذه الإجراءات الاستئصالية المتلاحقة؟) قرر بعدها ألا يُعرِّض ما يكتبه للتجني والسخرية والمكائد.

قال إنه أخطأ، نظر إلى الأدب كمهنة سامية، واكتشف بعدها، وفيما يشبه الصدمة، أنها مثل غيرها من عشرات المهن، لا تقل أو تزيد عليها، قابلة للكذب والاحتيال والظلم. قال بمرارة، الأدب

خدعني، اعتقدته هذا الذي كنت أقرأه، وتمنيت أن أكتب على منواله، وحلمت أن أخطّ فيه طريقاً متميزاً؛ طالما نظرت إلى الذين يكتبون على أنهم أناس يبحثون عن الحقيقة ويضحّون من أجلها!! كنت جاهلاً، ضحكت على نفسي، أم غُرر بي؟! الأدب ليس مهنة، إذا كان حقيقياً فهو تضحية متواصلة.

يكتب يومياً بحمية ودأب (تصور بلا انقطاع، منذ ما يزيد على عشر سنوات!!) ودون أن يفكر بالنشر. بينما كاتب مثله، ميت أدبياً كما قال؛ أصابه غبن كبير قد ييأس، (المعقول بعد هذه السنوات أن يقرف من الأدب وكل ما يمت إليه بصلة). فكرة التوقف عن الكتابة راودته، وصمم على تنفيذها، لكنه لم يستطع أن ينفطم عن القلم والحبر والورق والقلق، (لا بد أنها عادة اعتادها) بالرغم من أن الكتابة لا تسعده ولا تداوي آلامه، بل تدمره وتدمر نظرته إلى الحياة من حوله، لكن لا مفر منها (واجب عليه إنجازه قبل النوم). يتناولها كمسكن للأرق، بعدها يضع رأسه على المخدة خالي البال من الأفكار.

ما زال يكتب الرواية نفسها، (رواية واحدة فقط طوال هذه السنوات!!) يكتب يومياً ثلاث أو أربع صفحات من رواية طويلة جداً، لم تنته بعد. في الأسبوع الماضي تجاوزت عشرة آلاف صفحة من القطع الكبير، وإذا امتد به العمر فسوف يضيف إليها عشرة آلاف صفحة أخرى، ولا يظنها ستنتهي!! (ألا تعادل بحجمها الحالي حجم مائة رواية؟!).

قال إنه يشعر بالكثير من الشقاء وهو يكتب، دونما أي تعويض خارجي. (إذاً، لماذا الكتابة؟!) ولم يتراجع عن إصراره على ألا يكون له أي وجود في العلن، لو علموا به، فسينقضون عليه ثانية،

هذه المرة لن يكتفوا بالتشهير به، بل سيسحلونه. قلت له، أنت تبالغ. قال، أنا خائف، أعيش وحدي، لا أعرف ما يدور في الخارج، لا يفارقني ما أحس به من حصر وضيق، يراودني شعور بالاختناق، أحس بأنهم يريدون إعدامي، تصور أي عذاب وأنا أتوقع قدومهم (ما الذي جعله يثق بي ويبوح إلي بمكنوناته؟!) قال لي، إنه لم يتحدث مع أحد عن همومه منذ زمن طويل، ورمقني بشك: إذا كنتَ واحداً منهم، فقد ضعتُ.

سألته، ألا ترغب في معرفة قيمة ما تبذله من جهد، وماذا تعنيه كتاباتك للآخرين؟ ما الذي تمثله في دنيا الرواية؟ قال، ما أكتبه يعنيني وحدي، قيمته لا تهم أحداً غيري. أحيا في عالم أقمته فوق أشلائي، وأرغب في بعثرته لا في لململته، أطل على الحياة من ثقب، أتلصص، وأتعرف، أكتشفت أشياء كثيرة، ربما كانت مكتشفة سابقاً، اتصلت بكثيرين ولم يحسوا بي، ربما كنت أتوهمهم. ما الذي يهمهم مني؟ أمكث على الحافة ولا أتخطاها، حيث الزمن (بدا ما شرحه قبل قليل، لم يكن كافياً) يربض كتلة واحدة، لا الحاضر يثبت ولا الماضي يستعاد ولا المستقبل يأتي؛ ثمة مشهد يتكرر، أنا أعيد كتابته كل مرة على النحو الذي يظهر فيه؛ روايتي عن السفالات البشرية والموت البطيء والجنون... إنه يفتك بي. لولا الكتابة لما بقيت على قيد الحياة، أنقذتني من الموت وساعدتني على الاستسلام. تبدأ روايتي معي وتنتهي من دوني. لن أتركها ورائي، لا أريد لمخلوق أن يقرأها. أوصيت بحرقها بعد موتي.

«هل تعتقده جاداً؟! يبدّد جهد سنوات طويلة، ويختار الغياب الكامل في حياته وبعد موته».

«لقد اختار اليأس!».

«يبدو أن لأصدقائك الأدباء قلوباً لا تعرف الرحمة».

أراد سامي لكي يرفع معنوياته، أن يُشعره بأنه ليس الوحيد الذي يواجه مثل هذا الظرف، هناك غيره. فقال له، إن الكاتب الذي أرسله إليه، يعاني مثله من وضع مشابه، ولم يرضخ لهذا الحصار، ويريد أن يستعلم منه عن بعض الأمور، ليكون على بيّنة مما ينتظره. ويطلب منه موعداً عاجلاً للتباحث معه.

«فوافق على استقبالك غداً صباحاً».

نبّه سامي صديقه حامد مازحاً، لا تتأخر، عسى أن تدركه قبل أن يلفظ أنفاسه.

□ □ □

ولقد أدركه.

في الوقت الذي وصل فيه حامد إلى الطلعة التي يقع على كتفها بيت سميح حمدي، رآه يخرج من البناية. عرفه من النظرة الأولى. كان مطابقاً للمواصفات التي ذكرها سامي. مشى بتؤدة متوكئاً على عكازه، ثم وقف وأخذ يحملق زائغ العينين، هزيلاً ممصوص الوجنتين، بارز عظمتي الوجه.

تلاقت نظراتهما من بعيد، فسارع حامد نحوه قائلاً، لدي موعد معك. قال حمدي، أنا في انتظارك. تأمله، ثم قال، لقد فكرت طوال الليل في لقائنا هذا، فقررت ألا أدعوك إلى الدخول، كي لا يظنوا أننا نتآمر عليهم، أنت أيضاً، ربما كنتَ مثلي مراقباً. قال حامد، من يراقبنا، المافيا؟! قال حمدي، لا أدري ماذا يطلقون على

أنفسهم، لا أهتم بهم كي لا يهتمون بي. أنت لا تعرفهم. قال حامد، بل أعرفهم. قال حمدي، إذاً، احترس.

أخذ يتلفت حواليه، ويختلس نظرات سريعة إلى المارة. شاركه حامد التلفت، ولم ير أحداً يستلفت النظر. اكفهرت سحنة حمدي، بدا خائفاً من شيء على وشك أن يظهر، لكنه لم يظهر. رأسه يهتز، شفتاه ترتعشان، وعيناه جاحظتان. حالته اليوم ازدادت سوءاً بالمقارنة مع البارحة. خشي أن يكون سامي قد نقل إليه معلومات عن الأدباء الذين لا رحمة في قلوبهم، فاختلق حمدي ما يشبههم من فرط ما واجهه من عنت في حياته لمجرد أنه آمن بالأدب. بعد هذا الزمن، لا أحد يريد إيذاءه. لقد قضوا عليه تماماً.

اقترب حمدي من حامد وأخذ يتكلم بسرعة: لا تعكر عليَّ حياتي، لقد نجحت في التحايل عليهم حتى الآن، أخشى أن يظنوا بي الظنون، فيغدرون بي. قال حامد، لقد نسوك. قال حمدي، لا ينسون أحداً، أنا خائف ألا يتركوني في حالي. قال حامد، لا تخف، ما دمت لن تنشر الرواية!! قال حمدي، هل يصدقوني؟! أحتاج إلى الوقت، وهو لا يسعفني، لدي ما أريد كتابته، وما يجب أن أعرفه، ولهذا أكتب. صدقني، أنا في سبيلي إلى الكشف عن أمور مروعة، تخص البشرية جمعاء. قال حامد، ينبغي أن تنتهي من هذا العمل. قال حمدي، ما زال هناك بضعة آلاف صفحة أخرى. قال حامد، إنها عدة سنوات، اعتبرها منتهية وابدأ بغيرها. قال حمدي، الأمر ليس بالسهل.

فكر حامد، لقد فقد عقله، الأمر أسوأ مما تصورت. قال له، جئت لأقول لك إنهم حققوا مأربهم، وجعلوا منك عبرة، ولم يعودوا يأبهون بك، لكنك في خطر، لقد وقعتَ في مطب رواية واحدة،

ضع حداً لها. قاطعه حمدي، لماذا؟ قال حامد، ماذا تكون غير شكوى طويلة جداً، واجترار لفكرة واحدة؟ أجاب حمدي، إنها روايتي الكبرى، لا مجال لأية رواية غيرها. قال حامد، اخرج إلى الحياة، لتفسح المجال للحياة، كي تفكّ أسرك وتمنحك روايات أخرى.

أفلت حمدي يده، وصرَّ بأسنانه، دعني. قال حامد، هل زعلت؟ أجابه، لا، إنني أحس بهم، لقد بدأوا يتوافدون. وسارع يجرجر قدميه مستعيناً بعكازه، لم يتقدم أكثر من بضع خطوات عندما تعثر، حاول جاهداً أن يستند إلى عكازه، كانت قد سقطت من يده. حاول أن يمسك بشيء بارز، لم يكن بمتناول يده سوى الهواء، فتزحلق، انزلقت قدماه واحدة إثر الأخرى، انسطح على قفاه، وارتطمت مؤخرة رأسه بالأرض.

اندفع حامد نحوه، قرفص إلى جواره. كان حمدي جثة لم تهمد بعد. ما الذي أوقع في ذهنه أنه سيموت الآن أمام عينيه؟! هذا ما حدث، كأن هذا الموت ادخر له ليكون شاهداً عليه؛ أنفاس حمدي العميقة تتباطأ وأصبحت معدودات، على وشك أن تُلفظ نفساً إثر نفسٍ، قواه لا تساعده على قول بضع كلمات قبل الموت بقليل، يودعه سراً أو حكمة أو عبرة أو خلاصة تجربته. قرَّب أذنه من فم حمدي علَّه يسمع شيئاً، لكن حمدي اعتصم بلهاثه الخافت. كان على الرغم من تمهله مسرعاً إلى حتفه. حدق حامد إليه والتقط نظرته الأخيرة المذهولة، كانت شاردة تتلمس طريقها إلى السماء، يودع بها الأرض إلى الأبد، مع دمعة واحدة، نزّت من عينه اليمنى وكانت أشبه بالنوع المعروف بدموع الفرح. ثم لفظ النفس الأخير برقّة ودعة وهدوء، بعدها انفردت تجاعيد وجهه، وملامحه

انبسطت، وبات بأحسن حال؛ نظيفاً من الحياة. الموت خلصه من الرواية.

تحلق حولهما المارة والجيران وأصحاب المحلات، يتهامسون بشفقة:

«يا حرام، مات».

نهض حامد ووقف على مقربة منه، يفسر موقفاً مميتاً مريباً، تهيأ على عجل، من جراء زلة قدم تافهة، أودت به إلى نهاية سخيفة لم تكن متوقعة. وحاول أن يستعيد لحظة وقع عليه بصره، وقد تلاقت عيونهما من بعيد، بنظرة مشتركة كانت الأولى والأخيرة والوحيدة!! بعدها أخذا يتكلمان دون أن ينظر الواحد منهما إلى الآخر!! إلى أن فاجأه حمدي وهو يغادره بغتة، في فاصل بدا وكأنه غير مسموح له تجاوزه، ولا شيء يمكن أن يضيفه، فيما كان هناك الكثير مما يقال.

ما الذي حدث بالفعل؟ تذكر، أم أنه يتخيل ثانية، عندما طلب منه حمدي الابتعاد عنه؛ لمح شخصاً مرَّ إلى جوارهما. تفرس فيه حمدي فظن أنه مراقب. وإذ استدار الشخص إلى الخلف، رمقه بنظرة خلخلت توازنه. لم يتعثر حمدي فوراً، كان الشخص قد أخلف وراءه ارتجاجاً في الزمن، أحدث لديه اختلاطاً مفاجئاً، غيَّبه عن الحاضر، وأرسله إلى الماضي، ثم قذف به إلى المستقبل، وماذا يكون المستقبل غير الموت؟! لم يستوعب حمدي، أزمنة تبعثرت من حوله، كان قد اعتادها ساكنة في داخله، أصابه سريانها الخاطف بتشوش عاصف، ففي نصف لحظة انوجد في زمن لا مكان له فيه، وفي النصف الثاني أعيد إلى زمن لاقى فيه مأساته حية من جديد. لم يحتمل ما طاله من تقديم وتأخير. في اللحظة التالية، أدرك نفسه

معلقاً وسط هوة مفتوحة على زمن صلب، سقط فوقه، فدق عنقه. الزمن غدر به، فمات.

توقف حامد عند لعبة الزمن الخاطفة، رغم اعتقاده أنه تخيلها، يحاول فهم مغزى ذلك اللقاء السريع والموت الأسرع، ويلتقط شيئاً محسوساً يفسره. هل استطاعت المافيا ابتكار أساليب جهنمية للتخلص من خصومها، أليست لعبة الزمن هذه، وسيلة خفية وخارقة للقتل، لا يطالها قانون، ويعسر أن يدرك رجال الشرطة قوة بطشها؟! لقد تركوه للزمن كي يميته موتاً بطيئاً. ما الذي يفعله الكاتب للتغلب على الزمن سوى أن يكتب؟ حمدي قاوم طويلاً، فلم تكن هناك وسيلة سوى هذا التلاعب كي يأتي الموت على جناح السرعة.

لكن بوق سيارة الإسعاف رده إلى الطلعة التي مازال واقفاً فيها، والجثة الهامدة، والناس المتجمهرين. وردّ إليه صوابه أيضاً، ما باله يختلق أحاجي والغاز؟ قبل هذا هل للمافيا وجود؟! من بوسعه أن يكون متأكداً؟

سيارة الإسعاف تصطف إلى جوار الرصيف. ينزل منها ممرضان يحملان نقالة، يدحرجانه عليها، ويدفعانه في مؤخرة السيارة التي انطلقت زاعقة. لاحظ امرأة عجوزاً تنسلّ من الجمع المتفرق، وتسارع بخطواتها في الطلعة. تذكر شيئاً، تردد قليلاً، ثم ركض خلفها عسى أن يلحق بها. كانت قد أغلقت باب البيت وراءها. وتركته يقرع الجرس بإلحاح. لم يتابع، رائحة دخان كثيف تتصاعد من الداخل وتنتشر إلى الخارج.

رائحة رواية تحترق.

35

الاتفاق:
رجل في المرآة يعاني حيفاً عظيماً

قضى حامد وقته يذرع الطرقات على غير هدى، متأثراً بوفاة الكاتب حمدي. أثناء غيابه، اتصل به فاروط عدة مرات؛ طبعاً، لم يردّ عليه أحد. عقب دخوله إلى البيت، رن جرس الهاتف. فاجأه صوت فاروط في السماعة عالياً، أين كنت؟ قال له إنه كان يروِّحُ عن نفسه. فما كان من فاروط إلا أن اتهمه بأنه خرق اتفاقهما. فرد عليه بسخرية، نحن لم نتفق على ألا أروّح عن نفسي. فثار قائلاً، كلفتُك بعمل لا يحتمل المماطلة. أجابه حامد ببرود، أنا لا أشتغل عندك. فأصر فاروط، بل تشتغل عندي، بيننا عقد شفهي سأدفع لك أجراً لقاء تنفيذه. وأضاف بلؤم، وتعلم بأنني سأبخشش قرار براءتك.

«لم أطلب منك، أنت تبرعت».

«هل هذا جزاء الإحسان؟».

وكاد أن يتطور النقاش بينهما إلى مشادة، لولا أن قطعه فاروط بضحكة صاخبة رطبت الجو، قائلاً بأنه كان يمزح معه، وإذا كان ثمة مشكلة، فسوف تحل بينهما بالرواق:

«يا أخي حامد، بالنسبة للعمل، كل شيء محسوب بالقلم والورقة، إذا كان لك حق، فلن أبخل عليك به، وإذا كان لي حق، فيجب أن تعطيني إياه كاملاً دون نقصان. بالنسبة لتبرئتك، لا تظنها إحساناً، بل واجبي تجاهك أقوم به عن طيب خاطر، رغم أنه سيكلفني باهظاً، أنت تعرف، وساطات وخدمات وجهداً، لا أطلب منك مقابلاً. واطمئن لن أخذلك».

حامد لم يرد، تكلم مع نفسه: معه حق. ما وعدني به سيكلفه الكثير، حتى لو كانت هناك مافيا وهو واحد منها. لن يضمن تعاونهم معه، إلا إذا قدم لهم شيئاً.

تابع فاروط الكلام:

«أريد التعامل بيننا واضحاً، وأن تعلمني بأي حركة تقوم بها كبرتْ أم صغرتْ».

تكلم حامد مع نفسه، تحركاتي محدودة، ما الذي سيصيبني لو أطلعته عليها؟! فوافقه عن طيب خاطر، لكن اعترض على إعلامه عن تحركاته الصغيرة. لماذا؟ إنها تافهة!! وهنا اتخذ الحديث منحىً آخر؛ أشبه باستجواب:

«يا أخي هل تحركاتك الصغيرة سرّية؟!».

«لا. مجرد أنه لا معنى لها».

«هل في إطلاعي عليها ما يؤذيك؟».

«لا».

«إذاً، ليكن في علمك، لا خروج من البيت إلا بإذن، إلى أن ينتهي الشغل بيننا. أعود وأسألك، هل استئذانك لي في أمر صغير كهذا، يجرح كرامتك؟!».

«لا».

«أنجز عملك، واذهب إلى حيث تشاء، في الوقت الذي يعجبك».

لم يجد حامد أي مأخذ على هذا الاتفاق، وأراد أن يباشر العمل بهذا الترتيب على الفور، مع تعديل بسيط، وقال له:

«أريد أن أطيل جولتي».

«أية جولة؟!».

«الصباحية».

«ولماذا تتجول؟».

«أشتري ما يلزمني من حاجيات».

«حسناً، لا تتأخر».

أغلق الهاتف، وقبل أن يتنفس الصعداء، رن ثانية، وجاءه صوت فاروط مجدداً:

«ما رأيك ببعض الحوافز، لكي تزيد إنتاجيتك».

وهو أسلوب مجرب كان سارياً مع ازدهار العهد الاشتراكي، وكان مردوده على العمال أبطال الإنتاج، تعليق صورهم في الساحات، ونفحهم ببضع ليرات مكافأة، مع علبة حلويات أو ساعة يد هدية، مع أن مردوده الأفضل والجيد والأجود، أصاب الذين رفعوا معدلات نهب الإنتاج لحساب جيوبهم.

«هذا عمل أدبي لا يحتاج إلى عضلات ولا تشغيل آلات، فلماذا المحفزات؟!».

«ما الضرر؟! سأقدم لك حافزاً ينعكس عليك بنفع مضمون وملموس، ولو كنت ستنافسني. وأعدك إذا استحليتَ رواية وأردتَ ترجمتها ـ طبعاً إذا لم يكن لي شغل معها ـ أن أضمن لك الرقابة، لن يقف في وجهك رقيب ولا عتيد، مهما كانت المحاذير، وحتى لو قلبت الرواية عاليها سافلها. لكن ليس قبل أن أعيد الاعتبار لك».

لم يُلقِ بتعهده جزافاً. كان فاروط من الذين ينتقدون الرقابة في العلن، ويُشهِّر في مقابلاته الصحافية بكتبة التقارير على الكِتاب والكُتاب. أما في غير العلن، ففي أحد وجوهه المتعددة، كان رقيباً شرساً ذا قلم حادّ. وإن كانت رقابته حسب زعمه مهمات استشارية هدفها تقرير الصلاحية الفنية للنشر، لكنه بموجب صلاحيته المطلقة، يستطيع إفناء الكِتاب لو شاء، فهو يراقبه من الناحية الأدبية والإبداعية والإملائية والقواعدية والسياسية والجنسية والأخلاقية والأمنية والدينية والاجتماعية.. دون أن تفوته فائتة، أو يغفل عن الوتكة. ولا ينفع الكُتَّاب ما يتذرعون به من نقدٍ بنّاء ومثاليات اشتراكية، وأخلاقيات إنسانية. كانت رقابته تعتمد على النوايا فقط. والنوايا كما يعرف ونعرف، لم تكن حسنة ولا طيبة، فلم تجز عليه الرموز المناوئة مهما بلغ تخفيها، ولم تخرط مشطه البراءة التي تتحلى بها فتاة صغيرة بضفائر شقراء، ولا وردة حمراء فواحة الرائحة، ولا فنجان قهوة برد في انتظار من يشربه. ولم يجز عليه ما يدسه الشعراء في الشعر والروائيون في الروايات من كلمات ذات طيوف مشاكسة، تحتمل أكثر من معنى أو دلالة. فمنع قصة قصيرة بطلها الشرير رجل يلبس بزة غامقة اللون، يبدو من تحتها خصره مقبباً (أي يحمل مسدساً)، يأخذ دور غيره أمام الفرن، وينعر

الواقفين أمامه ويدوس على أقدامهم، ويضرب أحدهم كفين ليرعب الباقين، دون أن يتجرأ ابن أنثى على اعتراضه. لماذا أظهره القَصَّاص اللئيم بصورة سلبية؟

□ □ □

الساعة قد تجاوزت منتصف الليل وحان موعد النوم، لم يذهب إلى الفراش، بالعكس، صحا. تذكر لهجة فاروط الاستبدادية، لم ترق له، فتعكر مزاجه، وأكثر ما ضايقه انصياعه الكامل له، وتساءل:

ماذا عن حريتي الشخصية؟ كيف أرتضي الاحتجاز في البيت؟ وإذا أردت مغادرته عليَّ استئذانه، وبلغت بي الحماقة أنني وافقت على كل ما طلبه مني!!

لم يكمل شكواه، لمح حفلاوي ينسلّ من خلفه، ويندس بين الكتب، ويباشر العمل. فتحول نحوه:

ما لي أراك طاحشاً على الروايات، ألم تشبع منها؟ أنا متضايق منك. ألا تحس بالمهانة، أم فقدت الإحساس والكرامة؟ تتصرف بخنوع، وتورطني كل يوم بالقراءة عدة ساعات.

حفلاوي لم يجب، أكمل طحشه على الروايات.

فكر حامد، التاريخ المريض يعيد نفسه، مشكلتي مع حلفاوي وحلفاني تتكرر على نحو أكثر استسلاماً؛ مأزقي مع حفلاوي أشد وطأة عليَّ. كيف أحتمله، وهو يتصرف بوضاعة لا نظير لها؟ لا يفكر بالاعتراض أو الاحتجاج، ويقبل صاغراً بما فرض عليه!!

استمر حفلاوي في عمله ولم يهتم. فتابع حامد بأسى؛ لماذا أزعل

منه، إنه عبد مأمور، ينفذ التعليمات كما ترده. مشكلتي مع فاروط، لا مع هذا المسكين المغرر به. لكنه أصبح يشكّل عليَّ خطراً جسيماً، يتجاوز خطر حلفاوي وحلفاني معاً. حتى لو كان قارئاً حاذقاً، فهذا لا يغفر له عمله المأجور لحساب محتال كبير، يسوغ سرقة الأدب. صحيح أن حفلاوي تمكن مني، لكن ليس بشكل مطلق. لا بد من اقتلاعه من داخلي، قبل أن يستفحل تدخل فاروط في خصوصياتي، وتفلت زمام أموري من يدي.

لم يتوقف حفلاوي عن القراءة، إلا بعد أن تجاوزت الساعة الثالثة صباحاً. أحس حامد بالتعب والنعاس، تثاءب، وجدد شكواه ثانية وكأنه اكتشف جديداً... حفلاوي جزء بسيط من مشكلتي، الأجدى قطع علاقتي بفاروط، إذا تخلصت منه، فسوف يتلاشى حفلاوي من تلقائه. ظل هكذا بين أخذ وردّ، حتى تجاوزت الساعة الرابعة صباحاً. والمعضلة آخذة بالتزايد... فاروط شخص مدعوم وابن حرام، لن يدعني في حالي، سينتقم مني، شخص حقود لا يؤمَن جانبه، خاصة بعد أن اطلعت على سره. وماذا لو كانت هناك مافيا فعلاً؟! لم يفكر كثيراً، رأى نفسه طريحاً على الأرض، في طلعة أو نزلة، السبب الظاهر، تعثر في السير؛ السبب غير الظاهر، تعثر في الزمن. والمسبب، المافيا.

مع الفجر، تضاءل حجم المعضلة، تذكر صديقه الضخم غير الوسيم، محمود. سيطلب مساعدته، يكفي أن يتوعد فاروط بالضرب حتى يختفي، ولو كانت المافيا بقضها وقضيضها معه. وللعلم، عندما عَلِق المفكر حكيم نافع، أنقذه محمود، لا المافيا.

قبل أن يغمض عينيه، عزم على الاتصال بصديقه.

□ □ □

صحا متأخراً. ركب ميكروباص المخيم إلى الحجر الأسود. عثر على بيت محمود؛ قبو صغير تحت الدرج في بناية قيد الإكساء ومهجورة. نقر على الباب الخشبي، لم يردّ عليه أحد. سأل عنه جاره مصلح البسكليتات، فدله على بيت أهل زوجته. تابع طريقه في منطقة المخيم، وعثر على قبو يشبهه. قرع الجرس. فتحت الباب بنت صغيرة، سألها عن محمود، نادت أمها وغابت. بعد قليل، كلمته زوجة محمود من وراء الباب، قالت له، خرج قبل أسبوع ولم يعد!! ففقد الأمل نهائياً وعاد يجرجر خطاه.

في طريق العودة، اشترى ربطة خبز وفاصولياء خضراء وبندورة. عند مدخل البناية، رأى فاروط واقفاً ينتظره بهيئته التنكرية. ما الذي جاء به؟! سلم عليه فاروط بنشافة. صعد فصعد معه، دخل فدخل معه. ومثلما يفعل دائماً، خلع نظاراته السوداء، والكاسكيت وشاربيه المتهدلين. ثم كشر عن أنيابه:

«كيف تفكر باللجوء إلى مجرم؟!».

لو أنه صفعه على وجهه، لكان أهون عليه. لم يحر جواباً. تابع فاروط بهدوء لئيم:

«أنت مترجم وأديب ومثقف، تتجول في أزقة الحجر الأسود بين أوباش، أصحاب سوابق، لصوص ونشالين، ومرتكبي أعمال شائنة، أي واحد منهم، لا على التعيين، بوسعه أن يختلق خناقة معك، نتيجتها كسر يدك أو رجلك، مع خمس قطب في رأسك».

لا بد أنه لاحقه خطوة خطوة، واكتشف خطته.

«صديقك محمود قبض عليه قبل أسبوع، اغسل يديك منه. من

حسن حظك أنك لم تستعن به. لن يخرج من سجن عدرا إلا بعد سنتين على الأقل. فلا تشغل بالك به. ثمة أخبار سيئة أخرى لك. هل تريد سماعها؟ صديقنا حكيم نافع، أخبرني بأنك تعمل لديه مترجماً تحت اسم عفيف حلفاوي، وترجمت له بعض الروايات الجميلة. فتذكرتُ اسمك المستعار حفلاوي. للأسماء الغريبة ميزة، تعقد من تلقائها قرابة فيما بينها. بالمناسبة، حلفاوي وحفلاوي قاداني إلى الراصد حلفاني!! من يخطر له أن مترجماً طيباً مثلك على هذه الدرجة من المكر؟!».

رسم فاروط على وجهه معالم أكثر برودة وقسوة، كان موقفه قوياً جداً، وربما لهذا أصبح متشدداً في تنفيذ اتفاقهما:

«سأكتم سرك على أن تتقيد بجدول أعمال دقيق. هذا يفوق أي ثمن أقدمه لك. وأحذرك، تقيد بالزمن؛ خلال عشرة أيام، تسلمني ما أنجزته من عمل. بالنسبة للأشهر القادمة، تزودني كل شهر بأربع أفكار، أفحصهما وأعيد لك ما لا يعجبني منهما. إذا نكثت باتفاقنا، ستفقد عملك في دار النشر والمجلة معاً، والبقية تأتي».

«لا تدفعني كثيراً، قد أقبل بخسارتهما».

«لا أظنك تتهور بعمل سيكلفك غالياً؛ صاحبك ينتظرك في سجن عدرا».

قالها وضحك. اختطف حامد نظرة إلى وجهه، فأحس بقشعريرة تسري إلى أطرافه، راعه الشرر المتطاير من عينين تحدقان إليه، وتغوران فيه... مثل سكين حادة. نظرة لا تنسى، تبرق فيهما رغبة حارقة تتجلى باحمرار دموي يتجاوز الوعيد والتهديد. بعد قليل ارتدّ فاروط ساهماً، وكأنه يبحث عن شيء في باطن رأسه.

أين صادف مثل هذه النظرة المرعبة؟! لا بد، في موقف ما.

□ □ □

رأى نفسه كما لم يرها من قبل، أسير ما نصبه من فخاخ؛ مستسلماً لثلاثتهم، الأول يُسلمه للثاني، والثاني للثالث، والثالث يعيده للأول؛ لا يفلته أي منهم قبل أن يستنزفه. وعلى مد النظر تلوح بدايات لا تني تتكرر في دورة تستعاد بين أربعة جدران، ودائماً منذ البداية، أما النهاية، فلا تأتي.

على صفحة المرآة، ضاق بصورته، لم تخدعه، يتخايل وجهه، ومن حوله ثلاثة، لا يزيدون عن مسوخ؛ لا يُخفى عليه ما يتعرض إليه من نهب حثيث، وخضوع لأساليب هو ضدها. فلا الترجمة الحرفية لحلفاوي ترضيه، ولا الرصد الأدبي المنساق في النهاية لأوامر رئيس التحرير يسعده، ولا اختلاس الروايات يعد عملاً مجيداً. كل منهم يستعمله على هواه، المترجم التافه يستغل معارفه في الترجمة، والراصد المتطفل لا يتورع عن ممالأة الوسط الثقافي، وحفلاوي يستعير ذائقته الروائية. يتقاسمه النشطاء الثلاثة، بين رواية تُترجم، إلى مقال يُحرر، مروراً بروايات تُفصفص، جادين في عمل دؤوب. لا يستريح من متاعبه معهم إلا خلال النوم. والأغلب، ليغوص في كوابيس اللغة وتراكيب أخطاء تتراكم.

تمنى موتهم، لكنهم لم يعدموا أعذاراً للعيش. ألم يلفق وجودهم بخزعبلات من تدبير تخيلاته؟ أجاد ابتكار حماقاته، ولم يحسن اختيار أوهامه؛ اختلقهم، ليُحمِّلهم وزر زلاته وذنوبه... وبطولات باطلة؛ ليسوا سوى صنعة متقنة لأصول بليدة، صادف أمثالهم ونَفَرَ منهم. لكنهم استولوا عليه، ولم يتوقفوا عن تجزئته. يحس كل يوم بأنهم يقتلون قدراً منه. يحس كل ساعة بفقدان شيء من روحه.

هذا الرجل الذي في المرآة يعاني حيفاً عظيماً. هذا الرجل حطام رجل يقدم خدماته لمن يطلب، مقابل رواتب ضئيلة تعينه على العيش وتساعده على الوفاء بالتزاماته تجاه زوجته وأولاده. باع روحه بالتقسيط، ثلاث مرات، وما زال في الروح بقايا لتباع، ليظهر كما يصبو، بوجه نظيف وقناع لماع.

تحل فترات الراحة مرهقة، مشبعة بالغم والتعاسة؛ عينا فاروط، تقتحمان عليه قيلولته وسهواته؛ تستحوذان عليه وتحيرانه، عندما تبرقان ثم تسهوان. ترى أين صادف مثل تلك النظرة الجهنمية؟! لا بد، في موقف ما.

□ □ □

لم يعد فاروط يكتفي بالاتصال به، صار يزوره دون موعد، أحياناً يومياً، يتفقد سير العمل، يراقب ما أنجزه.

«هل تسير الأمور على ما يرام؟».

يثني عليه ويذهب. عندما كان حامد يختلس النظر إليه، يضبطه وهو يرمقه بتلك النظرة التي تحيره بقدر ما ترهبه. يُجهد ذاكرته، أين رأى مثلها، ما الذي تعنيه؟! ويركبه إحساس يهيب به أن يدرك كنهها، وإلا فات الأوان. لكن أي أوان؟!

36

وداعاً:
هواجس روائية

تأخذه الروايات، ينغمس فيها، يتوه في سردياتها، تقيده حبكاتها، ويتخبط في عصورها. يمضي في خضمّ عالم تفككت معالمه وتباعدت أطرافه، يحتوي على سهول وجبال وفيافي ووهاد وقفار، اختلطت فيه المدن بالقرى، الشوارع بالأزقة، الأنهار بالجبال، الرجال بالنساء، الفرسان بالرعاع، العشاق بالخونة.

غير أنها أحبطته، روايات اتسعت لعظائم الأمور، مثلما اتسعت لصغائرها، ودونما حدود بينها؛ ووعدته بالكثير، حفزته على القيام بما هو عاجز عنه، غير أنها خدعة لم تدم. انكشف الغطاء عنها. لم يجد فيها ما يبحث عنه، كان يسعى إلى عالم ملامحه في ذهنه، ولم يعد هدفه. تصور أنه سيجد بين ثناياه شيئاً أضاعه، لا يعرف ما هو، وبأمسّ الحاجة إليه، يعوضه عن كل ما فقده. روايات مجرد

أحابيل شَيَّدَتْ من الوهم بناءً من العقل، صلباً بمنطقه، مراوغاً بإفكه، مغروراً بقدراته، وكل هذا سراب.

طاب له، تحت تأثير حمى الروايات وإخفاقاتها، أن يتميز حياته في داخلها، أشبه برواية، تكمن فرادتها في كونها أكثر الروايات إيلاماً وصلابة... وتجري الآن، (ولقد تساءل: ماذا لو كنت في رواية؟! مع أنه خطرت له عدة خواطر، لكن فكرة الرواية هي التي استأثرت به، فتداعت تساؤلاته في هذا المنحى) هل هي الرواية التي حلم بها، والآن يتمنى لو يرممها، وما قراءاته هذه سوى استراحات ومحطات تُهيئه لأحداث قادمة، وهؤلاء الثلاثة مجرد شخصيات، يقرأهم ريثما يجسدهم؟! آه... أيها الخيال المتلاف إلى أين تأخذني، إلى أين تستدرجني؟! رواية لا ينقصها شيء، ثمة مدخل يسترعي الانتباه، وأحداث تتسلسل ومخاوف غامضة وحبكة معقدة وهدف خفي ومعنى جائر وخطر حقيقي... ولا تخلو من أشباح وأنذال، وشيء ما يتهددني، وخاتمة قد تكون مأساة.

لا، ليس سراً، قصته الشخصية اشتبكت مع قصص عابرة، أبطالها كتّاب مرموقون، ومناضلون شرفاء وغير شرفاء مغلوبون على أمرهم وعواطفهم، وربما مافيا أيضاً؛ يشاركونه رغماً عنه، بل وقبوله بهم، مشروط بدعمهم له داخل رواية باتت أكبر من قصته؛ تشكل الإطار الأوسع لتنويعات قصصية تتبادل التأثر والتأثير، وتحقق باجتماعها معاً، المعنى الأشمل لمغامرته في معمعة الحياة والبشر.

لم يخف عليه، الغبن الكبير الذي أصابه في رواية ينبغي أن يكون الجميع فيها سواسية، تمنح لكل واحد منهم فرصته. كان وحده الحاضر الغائب في سرد لا يتقدم فصلاً، إلا ويندس بين صفحاته أديب لا تنقصه الأضواء، أو مثقف محترف لا يعوزه الإذن ليعبر

متى شاء، ينتزع فصلاً من الرواية، يتصدره ويصبح بطلاً فيه. فيُهمش دوره، حتى غدا بلا منازع، بطلاً بلا رواية، تجري دون مرشد أو دليل، تُطيلُ حين ينبغي التقصير، وتُقَصِّرُ حين ينبغي التطويل. وأغفلت الكثير من الأحداث اللصيقة به!! فقد زار أولاده ثلاث مرات في الفترة السالفة. جاءهم كالمعتاد، محملاً باللعب البلاستيكية وأكياس المأكولات اللذيذة، كان يعانقهم إذا صادفهم صاحين، ويقبل خدودهم إذا رآهم نائمين، وعندما يخرج يذرف دمعتين في الظلام. كذلك سأل زوجته ثانية العودة إلى البيت فرفضت، لم يلمها، لا أحد أقدر من الزوجة على معرفة طبائع زوجها المتقلبة وإرادته الخرعة. وهو للحق، لم يتحمس في الطلب، وهي لم تتحمس للعودة؛ حسب فراستها، سيعيدان أسطوانتهما القديمة ذاتها، شجارات ونقارات وخلافات. إذا لم يتغير، فما الفائدة من عودة المياه شكلياً إلى مجاريها؟!

متوالية تمضي به نحو مزيد من المتاعب المجهولة!! وهو أمر لو أخذه على محمل التبسيط والهزل، يبدو ذا طبيعة روائية بحتة، يكفيه إجراء روائي مضاد على مستوى السرد، أو الحبكة حتى تنصلح أموره. لكنها حياة حددت مسارها، ولا يمكن التحكم بها، أو أخذها نحو طريق آمن. ومهما يكن، إذا كانت ثمة من رواية، فقد بدأت به وسوف تنتهي به. وسواء غمطته الحياة حقه أم لا، فنصيبه من الرواية مكفول، ليس كما يرغب تماماً، لن يكون متطلباً، مجرد ضمانة بسيطة. وإذا كان قد استاء من اللاإنصاف، فلن يشك بأن الرواية قادرة على إنصافه.

قُرع الجرس، فارتدّ عائداً إلى سياق الرواية.

□ □ □

دخل فاروط، خلع أدوات تنكره. شرب فنجان قهوة، ودخن سيجارة؛ ما حال العمل؟ أشعل سيجارة ثانية، وأخذ يرسل تلك النظرة الغريبة والمبهمة، إلى أن نسي نفسه شارداً على هذه الوضعية، وفاته أن يخلعها عن وجهه. فاغتنم حامد الفرصة وأدام النظر إليه طويلاً، قَلَّبَها على أكثر من وجه، وأخضعها إلى أكثر من احتمال. لم يعثر على صلة بينها وبين النظر العادي أو الرؤية الاستشرافية، أو مما يلازم العيون عادة في لحظات التأمل أو الحنق أو انشغال البال. ترى لِمَ استلفتت انتباهه؟!

نفض فاروط عنه سهوته، وتلفت مستغرباً شروده، ثم لملم أدوات تنكره، لبس الكاسكيت والنظارات السوداء وألصق الشاربين. فأصبح ذلك الغليظ الطريف الذي لا يشبه السمج المختبئ تحته. قال له حامد:

«من المستحيل أن يعرف أحد أنك سمير فاروط».

سرَّ فاروط من إعجاب حامد بتنكره المتقن. حامد لم يُسرّ، كان يفكر، لو أن فاروط ارتكب جريمة فلن يترك وراءه أثراً، سوى رجل غريب الهيئة، من هو؟ لا أحد سيعرف.

بعد خروجه، لم يتنفس الصعداء. أحس بعارض خفيف، ما الذي توهمه؟! ربما كان مخطئاً بإحالة حياته إلى رواية، لن تخفف من مصائبه، بل سترفع من وتيرتها، وحتى إذا كان ما يجري شبيهاً بها، فأي نجاة، إذا كان فاروط أحد أبطالها، وماذا لو اصطدم به، يستسلم، أم يهرب؟

يا للانهزامية!! هتف بخجل، كيف نسي أن الروايات، ميدانه، قراءة وترجمة؟! ويا للجبن، ما باله، يدع حياته نهباً لجشع روائي مغرور،

مهما بلغ شأنه، ليس إلا متطفلاً على عالمه. كيف يتخاذل إزاء روايته، وهو القادر على سبر روايات الآخرين وكشفها ودحضها؟! أليس من جراء هذا الهوس، يعمل متخفياً، لا عمل مستقراً ولا سمعة حسنة؟! لكن السؤال هو، هل يصلح أن يكون البطل المؤهل لمنازلة روائي سافل؟!

ربما لم يكن بطلاً حسب المقاييس العالمية، وهذا لا يضيره، الروايات لا تأبه بهذه المعايير الشائعة للبطولة. يعرف الكثيرين ممن هم على قياسه، أو أفضل منه أو أسوأ قليلاً، ضاعوا في غمرات الدنيا غير مأسوف عليهم، ولم تغفلهم القصص. ها هي بمرمى بصره أكوام الروايات الميؤوس منها، صحيح أنها أحبطته، لكنها علمته ألا ييأس، وأن المصائر لعبة أمكنة، ما يخفق هنا ينجح هناك، والزمن يضيف إلى الأوهام المزيد من الإبهام، كذلك الأقدار رغم أنها مرسومة، تُكتب أكثر من مرة.

ويعلم بأن الرواية تتفوق على الحياة بأشواط؛ مغزاها قريب إلى الأفهام، قدرتها البالغة على إجراء تعديلات نوعية على الأخطاء النهائية، قبولها شطب أحداث، وإلغاء أقوال، وتبديلها بأخرى. عدا إمكانية السيطرة على شخصياتها، وإجراء تحولات غير منتظرة على مجرياتها. وإذا لم يفتقر إلى الكفاءة، يمكنه إدارة خيوطها بطريقة مشوقة والأهم منضبطة؛ والمغنم الأكبر أنها تمنحه فرصة الاطلاع على عمل الحقيقة بشكل مكشوف، بينما على الأرض عمل الحقيقة سري، قد لا تظهر نتائجه أبداً.

قبل أن يكتب شيئاً حقيقياً، حان الوقت ليقدم أنموذجاً لإقدامه، ويسجل بهذه المناسبة، عودته هو ذاته إلى نفسه، واضحاً دونما التباس، بلا بدائل أو أقنعة. سيدع حلفاوي وحلفاني وحفلاوي

يرحلون دونما تأخير، وبأقصى سرعة. حان الوقت، سيطلق سراحهم، ليذهبوا إلى الخفاء الذي جاءوا منه.

ها هم يحيطون به. ودون أدنى تردد، وجد نفسه يعترف لهم، بأنه أساء إليهم، أكثر مما أساءوا إليه، وأوكل إليهم مهمات كانوا بغنى عنها، كان من الممكن أن يستخدمهم بشكل أفضل وأرقى وأنفع. لكن فات الأوان على التمني، ولا فائدة من التحسر، لقد تعادلوا، منحهم فرصة ليلجوا الواقع، ووفروا له فرصاً ليهرب من الواقع، لم يستغلّها على نحو مشرّف؛ لم تكن لديه المناعة الكافية.

يعرف أنهم لن يتأخروا عن تقديم خدمة أخيرة، بمجرد أن يقول لهم وداعاً... سيختفون.

شكراً لكم، لن نلتقي بعد اليوم. وداعاً... فتلاشوا.

37

فكرة رائعة:
على الطريق نحو النهاية

لم تكن خطته معقدة، كانت بسيطة، سيقطع علاقته مع فاروط ويقنعه بالابتعاد عنه، وهذا ليس بالأمر السهل. بداية سيسأله إنهاء التعاون بينهما بالحسنى. إذا لم يقبل، فسيتوعده بإشاعة أخبار سرقاته الأدبية، فضيحة ستهز الوسط الأدبي، من لا يكره فاروط ويتمناه على الخازوق؟! ولكي يرضخ لطلبه سيتصلب في موقفه، وإذا رفض فسيشهر سكيناً كبيرة، يلوّح بها في وجهه، ويهدده مهولاً مما سيفعله، ويجرحه إن عانده. وإذا حاول فاروط التهجم عليه، يترك علامة فارقة على خده. الاصطدام. لكن قبل هذا وذاك، لا بد من استدراجه إلى مكان لن يكون البيت، فهو ليس آمناً، قد يتطور الأمر بينهما إلى صدام يتعدى بعض الجروح والكدمات. أما في الخارج فسوف لا يتجاوزان حدودهما، على أن يكون المكان خالياً من الناس. حسناً في دمشق بعد منتصف الليل، كثير من الأمكنة مقفرة

في هذا الوقت.

اتصل به، وتقصد أن يتكلم معه بمرح:

«جاءتني فكرة رائعة من النوع الذي يروق لك».

لم يدعه يستفهم، تابع كأنه يردّ على استفساراته:

«حبكتها مثيرة جداً. طبعاً، محلية، لا تقل لا. عندما ستسمعها، سوف توافقني».

لم يتعجب فاروط من ورود فكرة على رأس حامد، لكن أن تكون محلية ورائعة، وحبكتها مثيرة، فأمر مستبعد تماماً!! خصوصاً أن حامد حسب اعتقاده، مترجم فاشل يفتقر للحس الروائي المبدع:

«من أين جاءتك؟».

«سمّه إلهاماً».

«على ألا تكون خيالية»، اشترط فاروط.

«بل واقعية مائة بالمائة».

«وأن تكون جديدة»، اشترط ثانية.

«جديدة جداً وغريبة».

أخفى فاروط فضوله وعقب بلا اهتمام، كي لا يطلب حامد منه أجراً أكبر:

«سآخذها مع المجموعة الأولى في نهاية الشهر».

فواصل حامد إغراءه:

«فكرة جديرة بأن تعمل عليها فوراً، فكرة تخلب الألباب، سأطلعك عليها اليوم».

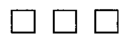
أردف فاروط بتردد، بعد أن تظاهر بالتلكؤ:

«حسناً أنا قادم».

«سأراك بعد ساعتين في موقف فكتوريا».

«يكون الوقت قد تجاوز منتصف الليل. لماذا لا أراك بعد قليل في البيت؟!».

«لا، الفكرة تلائمها أجواء ليلية وشوارع خاوية، لابأس ببعض المارة، مع نزر يسير من الضجيج، لكن مع الكثير من الهواء الطلق».



جاء فاروط ، دونما تنكر، بلا طاقية ونظارات سوداء وشاربين متهدلين. خمن أنه لن يرى أحداً يعرفه على قارعة طريق في وقت متأخر ليلاً. تلاقيا عند موقف فكتوريا، جانب سينما دمشق، وانتقلا إلى الرصيف المقابل.

الشارع خال من البشر، عدا بعض النائمين والمستلقين على الأعشاب في حديقة التجهيز، ومارة قلائل على ضفة نهر بردى يسارعون خطاهم نحو الموقف الرئيسي للباصات والميكروات تحت جسر الرئيس.

تمشيا على الرصيف، حدد حامد وجهة سيرهما صوب ساحة الأمويين. تبادلا حديثاً سخيفاً عن صدى الندوة المعقودة الأسبوع الماضي حول أهمية أدب فاروط في الرواية السورية الحديثة. تقدما على مهل في شارع بيروت محاذاة طلعة قصر الضيافة القديم في أبي رمانة، لا أصوات سوى الصادرة عن السيارات المسرعة، وموسيقا تتصاعد من حدائق المريديان، وجلبة خفيفة من نادي الضباط.

كانت أعصابه متوترة، وكي لا يخالج فاروط الشك، رسم ابتسامة على وجهه، وأشاد بليل دمشق الرائع، وكان المنظر مناسباً، تكشف أمامهما جبل قاسيون المتلألئ بالأضواء المبعثرة وعلى الطرف المقابل، نهر بردى غارقاً في الصمت. جلب حامد نظر فاروط إلى الأشجار المتمايلة في العتمة، والتماثيل الحجرية الرابضة على الرصيف المقابل من الشارع. أخذ نفساً عميقاً، الهدوء مخيم رغم بعض السيارات المسرعة. فعاوده الحنين، دون تعمد إلى منظر قديم لم يعاصره لكنه سمع عنه، واسترجعه معلقاً بعبارات مفعمة بالأسى على المنظر الحالي بأنه ينقصه بعض اللمسات الطبيعية والشعبية كصوت خرير مياه بردى، وبسطات السيرنجية، وكانت تمتلئ بها ضفة النهر صيفاً طوال شهر معرض دمشق الدولي؛ رجال ونساء وأولاد ونراجيل ومتكآت، وشاي وكاسات وفواكه.

لم يكن فاروط على استعداد لسماع نجوى تتباكى على أيام زمان، أبدى تململه، وطالبه بالفكرة. فانقطعت شكوى حامد وقال له، لا بد من تمهيد، الفكرة على علاقة شديدة بي، عبارة عن فصل منتزع من صميم حياتي.

انزعج فاروط، لم يتكبد عناء القدوم بعد منتصف الليل، ليسمع قصة واقعية لإنسان نكرة.

قال بامتعاض، لا تقل لي بأنها ذلك الشيء المبتذل... شريحة مقتطعة من الحياة!! هل تعتقد بأن فصلاً من حياتك يصلح لرواية؟!

قال حامد، الروايات تأخذ موضوعاتها من الحياة لا من الكتب.

حاول فاروط أن يجد ثغرة أكبر، فسأله، أين تقع أحداثها؟

قال، هنا في دمشق.

فقال فاروط، ألا تستطيع أن تضيف إليها أمكنة أخرى، باريس لندن كوبنهاغن... ما يمنحها طابعاً أكثر تشويقاً، وبالإمكان استغلال جماليات المكان الغربي.

قال حامد، ما ذنبي إذا كانت القصة محصورة في بقعة صغيرة بين البيت وحي سوق ساروجة ومقهى الهافانا!

علق فاروط باستنكار، المكان ضيق جداً، ما اللافت فيه؟!

قال حامد، حارات وأزقة، دهاليز وأنفاق، صعود أدراج و...

قال فاروط، لماذا الأدراج، استعمل المصاعد.

قال حامد، ثمة أسلحة أيضاً.

قال فاروط، يكفي، لا داعي للمطمطة، عجّل، ما هذه الفكرة العظيمة؟!

قال حامد، تعلم بأنني ارتكبت أخطاء في الترجمة، وكنت أعدها اجتهادات أو تنويعات، كانت نتائجها وبالاً عليَّ. لم يكن ما ارتكبته خطأ محضاً، بل مقصوداً. وكنت على استعداد للاعتراف به وإصلاح إساءتي. لكنهم...

(وهو حديث سيطول نحن نعرفه، يتعرض فيه حامد لمشكلته والأشخاص الذين ناصبوه العداء. كما أن فاروط مطّلع عليه، لكن ليس من وجهة نظر حامد، استمع إليه دون أن يخفي ملله).

خلال الحديث، بعد أن قطعا مبنى نادي الضباط ووصلا إلى بناء الأركان، يقترح حامد أن يعودا أدراجهما، فرجعا يتمشيان الهوينى، وتجاوزا الطريق الصاعد إلى قصر الضيافة والمؤدي إلى جسر الرئيس.

لم يكن حامد قد انتهى بعد، عندما أعاد النظر في ذهنه بالخطة، بدت ضعيفة، فاروط لن ينصاع لتهديداته. يحتاج إلى مؤثر أكثر فاعلية، خاصة أنه بدا عليه السأم، وأخذ يتأفف، مع أنه لم يعطه إذناً صاغية، مما جعل حامد يجزم بأن محاولته لن تؤتي مفعولها. فقال بضيق إن سمعته السيئة سمحت للآخرين باستغلاله في الترجمة والكتابة. وختم كلامه بخلاصة أراد منها أن ينقل إليه نتيجة ما وقع عليه من مصائب:

«مؤهلاتي استبيحت، لقد عانيت كثيراً».

فاروط لم يهتم، ربما لأنه كان أحد عناصر مأساته، وعقب باستهانة:

«وحدك تتحمل ما آلت إليه حالتك».

توقف حامد، وقال بحزم:

«من اليوم فصاعداً، لن أسمح لأحد باستغلالي، وإذا حاول أحد إجباري على عمل، فلن أستجيب مطلقاً، بل وسوف أضع حداً له».

فانتتر فاروط وجعر مثل حيوان جريح مصدراً صوتاً أشبه بجرش مخنوق غير مفهوم، أوقع الرعب في قلب حامد. ولاحت عيناه مثل جمرتين تطلقان شرراً، أعادتا إلى ذاكرته، ولم تكونا من قبل بهذا الاحمرار الشديد، مخاوفه منه. وسرعان ما استردّت عيناه نظراتهما الجاحظة والساهمة التي يبدو فيها كأنه يبحث عن شيء في رأسه.

بلمحة أدهشته، تراءى له أنه عرف ما الذي تعنيه جملة الملامح المتبدلة على وجه فاروط، مع أنه كان متأكداً أنه لم ير لها مثيلاً!! لم يكن في استنتاجه على خطأ، بل بالضبط كما أخذ يتذكر، لقد

قرأ عنها!! نعم قرأ عنها، موصوفة هكذا، كما حدثت أمامه قبل لحظات؛ الشرر والاحمرار، ثم الجحوظ والسهوم؛ مسطورة على صفحات، أخذ يحث ذاكرته إليها؛ لتتخايل مكتوبة بحروف سوداء على صفحة بيضاء في رواية بوليسية، غلافها يفيض بالجثث والدماء، يصف فيها المؤلف النظرتين متعاقبتين، الأولى ممتقعة بالأحمر والثانية مموهة بالسهوم.

صفحات ارتدّ يقرأها لاهثاً، يسبق الكلمات لمعرفة ما يكمن وراء عينين ترسلان نظرتين، الأولى محتقنة مرعبة، والثانية رائقة غير مرعبة وهي الأدهى، تخفي ما يرمي إليه مرسلها. يا إلهي!! كانت العينان في الرواية، عيني سفاح يصطاد نساء الليل، يذبحهم ويمثل بأجسادهن؛ عيناه تحتقنان بداية بالغضب والتهيج مع رغبة شديدة بالقتل، ثم تنقلبان صافنتين تبحثان عن ظرف مناسب لتحقيق مأربه الإجرامي!!

كانت نظرة فاروط الساهي، طبق الأصل عن نظرة سفاح النساء، تختزن في أعماقها نوايا رهيبة، لا بد لتحقيقها من جناية عاجلة!! وها هو يرمقه بعينين لم تعودا تخفيان أبداً ما دار مراراً في داخله، القتل لا محالة، ليدفن معه سر الروايات المختلسة؛ وما يدور الآن في بؤبؤيهما: جريمة كاملة، تقشعر لها الأبدان، طعنة في الظهر، رصاصة في الصدغ، أو خنقاً بقبضتين قويتين، أو سيقطع رقبته حسب الرواية.

ما يدبر له قريب، أقرب مما يتصور. ومن السخرية أنها كانت خطته، أعد المكان المناسب لتنفيذها، اهتبل الفرصة، ثم قدمها إليه جاهزة. فاروط يتأهب. أما هو فأصبح رهين موقف مميت لا فكاك منه إلا بهدر دمه. لم يعد الخيار بيده، ينقصه العزم والحماسة. كان

مغفلاً، هيأ له ظرفاً ملائماً، ومنحه سبباً قوياً لقتله بإصراره على عدم التعاون معه.

نظر حواليه، كانت الأجواء بعدما تكاملت بالظلام والخواء والغضب مواتية لجريمة بنت لحظتها مع أساليب متنوعة لتنفيذها، ليس على فاروط سوى اختيار واحدة منها. التفت حامد نحوه، كانت العينان النفاذتان اللتان حددتا الهدف والوسيلة، قد اندلع منهما شواظ اخترقه بمساس ناري. فاستسلم لموت أصبح قاب قوسين أو أدنى منه، يد فاروط تمتد نحو ياقته وتشده نحوه، فيما كانت يده الأخرى تنسحب إلى جيبه الداخلي ليخرج منها شيئاً، قد يكون خنجراً، أو مسدساً كاتماً للصوت.

38

امرأة جميلة:
الملاك المنقذ

حسبما يحدث في الروايات تماماً، برزت فجأة امرأة جميلة من غيهب الظلام، تتهادى كالفراشة، يحفّ بها شابان وسيمان، وخلفها الأضواء البعيدة ترسم لها جناحين يضجان بالألوان. دفعه فاروط نحو الظلال، قائلاً له بصوت أجش وخافت، انتظرني لا تذهب. فتراجع حامد بخفّة واختفى تحت الجسر.

التفت فاروط صوبهم ضاحكاً، واعترضهم فاتحاً ذراعيه، محتضناً المرأة بكلتا يديه، قبّل وجنتيها، ثم أمطرها بعبارات من الإعجاب الشديد بجمالها الخارق (مع أنه جمال عادي لا يخلو من الشوائب، فالأنف لم يكن مستقيماً، والشفة السفلى غير ممتلئة، وثدياها صغيران، لكنها بالمقارنة مع غيرها من بنات جنسها، مقبولة. وبما أن حامد كان ينظر إليها من مسافة غير قريبة، فقد أضفت

عليها العتمة ومسحة الماكياج الثقيلة بألوانها الغامقة فتنة ساحرة، فتراءت له جميلة جداً، أو كما وصفها فاروط، امرأة خارقة الجمال).

أطلقت المرأة الجميلة ضحكة موسيقية، وتغزلت برشاقة ظهوره من قلب الظلام، بأسلوب شبيه بألاعيبه الروائية المشوقة. استدار فاروط نحو الشابين، صافحهما واندفعوا جميعاً في حديث صاخب ومرح. كان هذا أنموذجاً عن لقاء المشاهير (كانت المرأة على الرغم من صغر سنها، مشهورة) تبادلا خلاله المزاح الخفيف مختلطاً بالهذر الحميمي، واستعرض فيه كل طرف براعته بالإشادة المبالغ بها بالآخر، وبالإمكان النظر إليه بتقدير، كمجاملة لطيفة مستساغة، وأخذها على محمل الجد، وقد يرويها كل منهما على أنها تقريظ أدبي وفني لا مجاملة فيه. مع ملاحظة أن سوسن (وهو اسم المرأة) كانت إلى ما قبل لحظات تتلقى مديحاً سخياً من هذا القبيل، فالشابان اللذان رافقاها من مبنى التلفزيون بناء على رغبتها في الاستمتاع بالنسيم العليل (كان هناك نسيم، ولم يكن عليلاً) أخذا يطارحانها الغرام بتفنن يليق بمهنة كل واحد منهما، فالشاب التشكيلي وهو مهندس ديكور، كان يرشقها بلمسات حارة من الغزل البارع، فيما كان الشاب التلفزيوني وهو مخرج برامج منوعات، يدير عدة لقطات في آن واحد ويُودِع في كل واحدة منها قدراً من العاطفة المتأججة، يصيب بها قلب الفاتنة الشقراء بتعبيراته الساخنة.

عندما باغتها فاروط، أو باغتته، كانت متخمة بالغزل بصنفيه الحارّين، الساخن والساخن جداً، حتى أن مديحه الصارخ بدا بلا تجديد بالقياس إلى ما سبقه، غير أنها استطابته، كأي امرأة لا تشبع

من تزكية جمالها، فما بالنا وسوسن فضلاً عن جمالها، كانت متعددة المواهب وطائرة الصيت؟! فهي معدّة برامج بيئية وتربوية، مع أنها كانت تطمح إلى برنامج تلفزيوني، تستضيف فيه على الهواء مباشرة شخصيات من النخبة المفكرة، لكنهم أمهلوها دون أمل بالاستجابة لطلبها، خشوا أن تأخذها الحمية وتطلق هي وضيوفها آراء متطرفة غير مسؤولة. خاصة أنها كانت موهوبة في التحليل السياسي على الطراز الديالكتيكي، وإلى حد ما فيلسوفة ذات نظرات نافذة في نقاشاتها الجادة، وتقدم نفسها على أنها تلميذة نيتشه. أجمع أصدقاؤها على أنها الأولى دائماً في أي مجال تختاره، وهذا نوع من أنواع الغزل الثقافي، فتطلعت إلى اقتحام حصون الأدب في أوقات فراغها عندما لا تكون منشغلة بالهمّ السياسي، لا سيما أن الصحافة الثقافية كانت متوثبة لاعتبار أي عمل من أعمالها فريداً في نوعه. ولم يكن عبثاً يقينها أن بمتناولها أن تصبح شاعرة مجيدة من قصيدة واحدة، أو روائية بارعة، لو كتبت فصلاً واحداً من سيرتها الذاتية. هل الزهد منعها عن النثر والشعر؟ لا، إنما هو الوقت كما أسلفنا. كانت تقول أعطني وقتاً، وسوف أكون ما أريد وأكثر. ولم تكن تدعّي، غيرها أُعطين بعض الوقت، صرفنه على علاقاتهن المتعددة، ونشاطاتهن في مقارعة الرجال والتشهير بالتحكم الذكوري بأقدار النساء، واستطعن تقلد ألقاب أشبه بأوسمة، وكلها على علاقة بالحريات وتشمل الأدبية والسياسية والدينية والجنسية. ومن غرائب الأمور أن الرجال الأوغاد كانوا وراء هذا التقدير.

لم تكن موهبتها محل شك، لقد تعرضت في بدايات دخولها معترك الثقافة لامتحان أدبي لا يخضع للأصناف السابقة المعروفة، بل لصنف متقدم، فكتبت «شيئاً ما»؛ وأثبتت أنها أهل لتلقف شيء

قادم من الضفة المقابلة الأوروبية عن طريق القناة البيروتية، ومحاكاته على السوية نفسها، مثَّلَ الأدب في أحدث أشكاله وأرفع مستوياته، دعي بـ«النص المفتوح» ونال شهرة عريضة في أوساط الأدباء الشبان، وإن نظر إليه الأدباء الكبار باستخفاف ممزوج بالاحتقار. في ذلك الوقت، أرادت تجريب حظها في الصحافة، لكن صديقاً نصوحاً، وكان من جماعة النص المفتوح، شجعها على ريادة هذا الطريق نسائياً، وكان حصراً على الخاصة من الموهوبين الذكور، وتبرع بمساعدتها، وحوَّل ما كتبته من نص مغلق إلى مفتوح، وهو ما جعلها تطلق بعده نصّين حذت فيهما حذوه، وكانا مفتوحين أكثر، أنكرت فيما بعد مديونيتها للصديق النصوح، فثارت أقاويل وانتشرت شائعات مشينة طالتها، وطالت النص المفتوح، فالتبس هذا بتلك. واعتقد الكثيرون بأن الخلاف حوله، بينما كان الخلاف حولها، فانقسمت الجماعة على نفسها، تزعمت الشق الذي انقسم وطردت الأخرى. ثم أعلنت وبكل جرأة، أن النص المفتوح كتابة لا مستقبل لها.

لكن ما هو النص المفتوح؟! لن ندخل في التفاصيل، ليس بسبب الشيطان، وإن كان حاضراً في هيئة امرأة، بل كي لا ننساق إلى نقاش غير جدي ومشوش يسوغ المفتوح ويستنكر المغلق. سنأخذ مؤقتاً بوجهة نظرها، أي كما فهمته وشرحته فيما بعد: كتابة لا يقيدها شكل أدبي، بوسع صاحبها استبعاد المعنى، والاستغناء عن العقل، وإهمال الموضوع تماماً. إنه إبداع نص دون أن يقصد حتى كاتبه إلى فهم معناه، تسوقه إليه خيارات ذاتية اعتباطية، يلجأ إلى المجاز التافه والوصف السطحي والموسيقى النشاز والاستعارات الفظة والصور الوقحة والفذلكات السخيفة؛ مع حرية مطلقة في التعامل مع المحرمات، يدس فيه ما يشاء من الأفخاذ والأرداف... خصوصاً شعر العانة (مع أن بعضهم، وكانوا من صغار السن، لم يروا في

حياتهم سوى شعر عانتهم، مع أن المقصود شعر عانتهن)، مروراً بالموت والجيف ورميم العظام، إلى السكون الشفاف ومنظر ساحر يغيب مع شمس الأصيل.

ومهما يكن لا ينبغي الانجراف وراء تقييمها المريب، فمثلما لا يخلو من الصحة، لا يبرأ من التجني. والسبب تحيزها ضدهم لأسباب شخصية، فهم أول من اكتشف قدراتها المقدامة المعسولة والخطرة، ولا ننسى أنها تركت الأدب، ولم يعد يمثّل لها سوى مادة للحديث الثقافي، وغالباً للتندر اللئيم. وبالعودة إلى النص المفتوح، حسب واحد من سدنته المطرودين، كتابة مفتوحة على الإنسان، تعنى بجماليات العالم مع التركيز على قبحه الفتّان. يسعى الكاتب لالتقاط شيفرة الوجود وتفكيك ألغازه بواسطة اللغة، ويعتمد أسلوباً يتميز بكثافة قصوى، يمتثل لمحفزات لا شعورية. أما من الناحية العملية، فالأقرب القول بأن عمل الجماعة مخبري، يقوم على إضرام النار تحت قدر هائلة الحجم، واستخلاص ماء نقي بلا عكر ولا شوائب، من هذا الماء يُكتب نص بلا فائدة ولا جدوى، وإن كان أساسياً وعميقاً ومؤسياً، يعبر عن دهشة الإنسان ورعبه إزاء كون لا يعبأ به، ويمضي ببرود نحو الفناء.

اليوم، الصفة المرموقة العالقة بسوسن، واللصيقة بفعالياتها هي جهودها في جمعيات الدفاع عن حقوق الإنسان وتحرير المرأة، والدعوة إلى رفع الظلم التاريخي والقهر الاجتماعي والتمييز الأسري والديني الواقع على النساء، والأهم الجنسي، بتحريض المرأة على قضاء وطرها بعدة أساليب، أغلبها لا يعتمد على الرجل.

إجمالاً، ثمّن مريدوها مشاركاتها بالمظاهرات وإسهاماتها بتدبيج العرائض والبيانات، ووصفوا نشاطاتها بالمضادة للسلطة، كانت

مكسباً للمعارضة، مع ما يبعثه وصفها بالمعارِضة من استهجان وتساؤلات، كيف تُفتح لها الأبواب في التلفزيون والصحافة، فيما هي مغلقة تماماً بوجوه المناوئين، ومواربة حتى بالنسبة إلى الموالين؟! دافع المعارضون عنها بأنها نجحت في التسلل إلى تلفزيون الدولة، في وقت حاولت فيه السلطة أن تعطي لمظهرها طابعاً ديموقراطياً. واعتبروا أنها رجلهم (رغم أنوثتها الكاسحة) المدسوس في الطرف المعادي. ولم يخطر لهم ذاك الخاطر التجاري المتواضع؛ أن لكل شيء ثمناً (ولم يكن باهظاً بالنسبة إليها)، كما لا يجهلون أن القائمين على الأجهزة الأمنية يرون أن قطع أرزاق المعارضين في مقدمة مهامهم الوطنية والقومية، وكان يُعد من الضغوط البسيطة المتعارف عليها من السلسلة اللامتناهية الموكولة إليهم. بينما اعتقد البعض بأن السلطة تغض النظر عنها لاستخفافها أصلاً بالنشاطات التي يقوم بها الجنس الموصوف بالنعومة على الرغم من زعيقه وبعيقه. وآخرون قالوا، بل تسترضيها، لأنها تخشاها، فتحاذر الاصطدام بها!! أصاب كلاهما وإن لم يكن بالكامل، كانت السلطة تستخف بالنشاطات الأنثوية، لخبرتها بفعاليات الاتحاد النسائي الاستعراضية. وفي الوقت نفسه، تسترضي النساء لأنهن نساء فحسب. ثم لماذا تخشاهن، ما دام الاصطدام معهن سيكون بمنتهى الرقة؟!

هذه الصفة، أي المعارضة، كانت مدينة بها لزوجها السجين السياسي، مع أنه بات سجيناً سابقاً وزوجاً أسبق، ومدينة له أيضاً بتمردها وثقافتها اليسارية، رغم أنه تقاعد سياسياً؛ كانت بالنسبة إليه حبه العظيم، حباً كان عرضاً من أعراض مراهقة مكبوتة وجدَّ مرهقة، خلَّفت بثوراً في وجهه، نكأها في سن الأربعين. كانت طالبته في البكالوريا، عمره أكثر من ضعف عمرها. استغل الأستاذ

دروس الكيمياء والفيزياء الخصوصية، وكانت بلا مقابل، في بث دعاياته الأيديولوجية المهيبة عن عالم بلا فقراء ولا أغنياء. وساعدته شخصيته القلقة المصابة بنقطة ضعف مثالية حالمة، مضادة للماديات بأنواعها الفلسفية والحياتية (وتشمل الأثاث المنزلي الكمالي والملابس الأنيقة وارتياد المطاعم الفاخرة وركوب التاكسي). أمدته نقطة ضعفه بهامش تبشيري عريض، أطلق بواسطته دعواته الأممية العمالية الثورية، فبدا لها رسولياً: سينقذ سوريا والمنطقة العربية من الرجعية، والعالم كله من السقوط في المستنقع الإمبريالي. طبعاً فشل، وإن كان قد حاول، لكن دون إحراز أي تقدم. أما هي فتمردت على أهلها ومجتمعها وطائفتها، وتزوجت بالأستاذ الملعون.

بعد سنة واحدة من الزواج، اقتيد إلى التحقيق واختفى خلف القضبان، فغاب عن أنظار الفتاة التي أحبته قبل الزواج ونفرت منه بعده. في السجن، ساعده الظلام من حوله، والنور في داخله على مواجهة سؤال مفجع: لماذا تكرهه زوجته الفتية؟! فاكتشف بكل واقعية بعد حفلة من النقد الذاتي الهدام، ارتباط الحب بالجنس، وبما أنه لم يفلح في الجنس فلا معنى للحب، كانت قصص الغرام بكل جلاء الغطاء الرومانسي لآفة الجنس الخليع. أما هي، وكانت على مستوى السؤال المفجع، فقد قرفت منه قبل أن يُقبض عليه متلبساً بثورياته. وحتى عندما امتنع عن رؤيتها عندما كان سجيناً كدليل على صلابته، لم تكن صلبة بالمقابل، ولم تمارس رومانسيات البقاء العذري على عهد تآكل بفعل عدم التفعيل، ثم بالتقادم.

بعد إطلاق سراحه، حاول إقناعها بعلاقة رفاقية تسمو على شخصيهما وخلافاتهما، لكنها لم تستطع السمو بجسدها، لا سيما أن بعض العلاقات الرفاقية التي عقدتها خلال اعتقاله، كانت وثيقة

جداً، دفعتها إلى اعتناق الأفكار الأكثر مادية، وكانت سبب نضجها الحثيث، وتخلصها من الأوهام جميعها، وعلى رأسها وهم الجماع الذي لا يجمع بقدر ما يفرق، لم تُقبل عليه إلا من باب الإخفاق الذريع والفضول العارم، لم يكن الوصال دافئاً حالماً وانسيابياً كما تخيلت، إنما اتصال فيه من الشخير والنخير ما يفوق الحيواني. كان الحب بجمالياته الرومانسية السينمائية قد استحوذ عليها بظلاله وطيوفه، فأحست بالغدر والتفاهة من بهلوانية الأوضاع الحميمية العارية، كانت مقززة بالقياس إلى النظرات الناعسة والعيون الدامعة، وسوف يمر وقت ليس بالكثير، عندما سوف تستغل كل ما نفرت منه والشبيه بالحيواني، بدراية تسقط كل ما هو إنساني.

كان زوجها قد أفقدها بجهوده الجبارة العشوائية والخشنة بهجة المداعبات التمهيدية الناعمة كالقبلة والملامسات وأشباههما، وحتى عندما أفلح في تهييجها، تطلب الأمر المتابعة، فتخبط بلا طائل. بعد عدة جولات يومية غير مشجعة، تبلدت أحاسيسها، ومن بعده لم تجدِ جهود الرفاق. غير أن الجانب الإيجابي كان مثمراً، تمتعها بالاستقلالية، لم تعد شهوتها عبئاً عليها، وهكذا لم تسقط صريعة رجل، ولو كان فلتة في الوسامة والفطنة. كانت أكثر تعلقاً بالرفيقات الأكبر سناً، وفيما بعد الأصغر سناً.

لم تأسف حتى على ما يمكن أن يمنحها وجود رجل إلى جانبها من حماية وحكمة. لم يعد هناك ما تخشاه منه؛ ثم أية حكمة، إذا كانت الأفكار العظيمة لا يصنعها الرجال العظماء، لسبب بسيط، لعدم وجود رجال عظماء، يوزع الرجال على بعضهم بعضاً ألقاب التقدير والإجلال والرفعة، ويغفلون المرأة لأن مكانها وراء الرجل. مع أن، وهذا من خبرتها ومشاهداتها، بوسع امرأة تافهة أن تدير

رأس ناشط ثوري حتى العظم، أو رجل محترم ذي منصب رفيع وذكي جداً... وتذلّهما أيضاً.

تقاعد زوجها بعد توقيعه على إقرار تعهد فيه بعدم مزاولة النشاط السياسي، وإن بقي يمارسه ضمن نطاق ضيّق، معها فقط، لترويضها جنسياً وحلحلة تشنجاتها العصبية وتفكيك نزواتها الغامضة إلى أعراض شائعة سببها الصداع والإمساك وسوء الهضم والدورة الشهرية، وذلك بتصعيد النوازع الدنيا إلى مهام عليا، تتلخص بمهمة نبيلة سامية: الكفاح من أجل عالم أفضل. فركز جهوده على رفع مستواها الأيديولوجي بدروس ارتدّت عليه سلباً. لم يكتف المناضل المتثل لشيوعية أصيلة غير محرفة بتحفيظها غيباً عدداً من الكراسات تحتوي على ملخصات مبسطة للفلسفة الماركسية وإضافاتها اللينينية والستالينية، بل وألزمها بقراءة «رأس المال». بعد أشهر، أدركت أنها إذا أرادت فهمه، فعليها أن تطلب مساعدته، وتبقى بذلك تابعاً له إلى آخر العمر. فاختارت عدم الفهم، ومعه التحرر من الأستاذ الزوج.

رضي بطلاقها من دون تردد، وتخلص من وجودها كاتهام يومي بالعجز. بعد سنوات، عزى انفصاله عنها لأسباب لا يمكن التهاون فيها؛ كان غباؤها بالنسبة إليه هائلاً، كما زعم، حتى أنه أنكر زواجه منها، لئلا ترمى بصيرته الأيديولوجية بالقصور. أما رفاقه فكانوا يعرفون رأيه بالقحبة الصغيرة، ليس لخياناتها، وإنما لسرقتها مقولات راسخة عن الحرية والمرأة والأممية والمساواة، علقت بذهنها من دروسه، استغلتها عندما اقتحمت شلل الثقافة والسياسة وخاضت مناقشات صاخبة لم تتطلب منها سوى تلاوة الكليشيهات نفسها الصالحة لكل زمان ومكان، مع بعض

التعديلات الجزئية، عن كل ما يخطر على بال من يريد الانقضاض على مجتمع جاهل وسلطة تكذب.

بعد الطلاق انزوى في بلدته، واجترّ بصمت وعمق المقولات الأساسية لنظريات كانت دواءه الشافي. أما أخبار الرفاق المتوالية، فكانت ارتداداً جباناً وبلا حياء عن نضالات أخذت شبابهم وكهولتهم. بعد أشهر، من العاصمة، أخذت تصله أصداء التصريحات النارية التي تطلقها زوجته السابقة وهي تطالب بهدم المعتقلات وإطلاق المعتقلين مشفوعة بانتقادات قاسية للسلطات بأنواعها، لو كان هو قائلها لاعتقلوه ثانية.

تنبأ الكثيرون بأنه سيكون لها شأن كبير، ونظروا بإعجاب إلى قيادتها المظاهرات السلمية وهي تخترق الشوارع تواكبها الصحافة ومراسلو القنوات الفضائية، دون أن تحفل برجال الأمن والمخابرات والعصي والمسدسات. وكان منظراً رأت فيه نشرات المعارضة وأدبياتها الأمل ترفع رايته امرأة فتية تمتلك من العقل مثلما تمتلك من الفتنة.

ليس في الحديث عن سوسن إغراء كبير، ربما لأنه يخلو من الجنس المبتذل، ثمة جنس لكنه مترفع، ثمنه الزواج الشكلي، أو شيء يعادله؛ زواج راقٍ خالٍ من الإجبار الجسدي، أي حسب مزاجها، وكان من الصعب توافره. لم تكن عدوة للزواج كمؤسسة نفعية، اشترطت فقط أن يكون شريك حياتها ذا مكانة معتبرة، وعصرياً على النمط الأوروبي، حسب مستوى فهمها للسوق الأوروبية المشتركة، (مع أنه غير مطابق للواقع ولا للخيال) أي يدفع دون أن يأخذ، لا تهمه المنفعة العاجلة ولا الآجلة، وأن يكرس حياته لجعلها أكثر شهرة، وأن يمنحها حرية مطلقة لا يكبلها عقد ولا اتفاق؛ ما

عانته من زواجها يستحيل نسيانه. كانت تتهم زوجها المناضل بأنه كان يفتش ملابسها الداخلية بحثاً عن أثر لرجل لم يترك وراءه دليلاً على مروره، لكنه كان يشم رائحته. لم تثق برجل مهما كان تقدمياً، تجاربها القديمة والجديدة علمتها أن الرجال التقدميين مثل الرجعيين متسلطون وحمقى.

كانت ظامئة إلى الشهرة بشتى الوسائل الظاهرة والخفية. لم يحتلّ الجنس مكانة لديها. فاعتقد الكثيرون أنها عفيفة، ورغم لغوها بالجنس بتنويعاته الغريبة ودقائقه العجيبة، كانت مترفعة عليه. تدافع عن الشهوة كتابة فقط، بلا ممارسة فعلية، فهي لا تشتهي، كانت تُشتهى. لم يعرفوا أنه لم يأخذ حيزاً في تفكيرها إلا لقضاء مصالحها، وبقي عابراً في حياتها آنياً وسريعاً، لم تدم أية علاقة لها أكثر من أيام ما دام الطرف الآخر يقدم لها خدمات لا تقدر بثمن. اعتادت أن تحيل أصدقاءها إلى عشاق، ثم تحتفظ بعشاقها كأصدقاء، ريثما يتحولون إلى أعداء غير مؤذين، أو مآسٍ غبية متحركة، يشيعون عنها الأقاويل. أما الذين بقوا على علاقة وثيقة بها، فلأن صحبتها مثيرة، لم تلذّ لهم مضاجعتها، كانت مكلفة مادياً وغير ممتعة، بالتحديد نكدة جنسياً.

□ □ □

لن نكمل مع سوسن، لا سيما أن الرواية تمر في موقف دقيق وخطر. كان الخروج عن السياق شططاً وسقطة روائية قد لا يغفرها البعض. والسبب مهما كان، ليس على مستوى موقف كان متوتراً جداً، وانقلب بخفة إلى استعراض حياة شخصية نسائية، ربما كانت شاذة، أو باردة جنسياً، أو كارهة للجنس، أو حاقدة على الرجال، أو تعيش مأساة عاطفية، أو ... هذا ليس وقته.

ما حدث بغتة مثّل منعطفاً حاسماً، بفعل مصادفة لا تخضع للمنطق السليم، إلا إذا كان للطقس الربيعي الدمشقي منطق أعمى أو أعمق، يتعدى النسيم المنعش أو الحار، وكان له تأثير، قلب الموقف إلى عكسه. ففاروط الذي كان يريد إزهاق أنفاس حامد أجَّل الفكرة نهائياً، لأسباب وجيهة، إن اكتشاف جثة في هذا المكان أو على مقربة منه، سوف يوجه الأنظار إليه، بعد أن أصبحت سوسن وعاشقاها شهود عيان على وجوده في مكان الجريمة. من يضمن سكوتهم؟! وحتى إذا لم يقرأوا صفحة الحوادث، فالخيط الجرمي سيقود الشرطة مهما بلغ غباؤهم من قتيل إلى قاتل يتشاركان في مجال واحد هو الرواية، وإن كان الأول مترجماً والثاني مؤلفاً.

هذه وغيرها من التفاصيل الصغيرة لا تفوت المحققين، فهم عندما يشكّون بمخلوق، لا يفرقون بين النقل والإبداع، ولا تعوقهم صفة المشبوه الأدبية عن انتزاع اعترافاته بقسوة، ولو كان أستاذاً في الأدب، بل سيعتبر دليلاً ضده، كأنه أستاذ في فن الإجرام لا الرواية.

وهكذا لعبت سوسن دور الملاك المنقذ، وأنقذت حامد دون قصد ، فهي لا تعرفه أصلاً، لكن القدر أعدّها لفعل خيري، دون أن تدري.

39

القتل:
خطط إجرامية

اعتذر فاروط من سوسن وصديقيها عن مرافقتهم، قال بأنه سيكمل جولته الليلية ليستلهم من النجوم بعض الأفكار والرؤى، فتركوا الروائي ينعم بليل كان بلا نجوم، وعاد أدراجه إلى تحت الجسر، ليرى فيما إذا كان حامد ما زال هناك، فوجده بانتظاره يقدح زناد فكره، وكان قد توصل بعدما قدحه عدة مرات إلى البقاء في مكانه، لأن الموقف انقلب لمصلحته تماماً، وتأكد من صواب رأيه، عندما قال له فاروط ضاحكاً:

«كدت أن أرتكب حماقة».

لم تمر عليه ضحكة فاروط المخاتلة، ولا تقزيمه لجريمة بشعة إلى حماقة فكهة. أيقن أنه تسلّم زمام الموقف بعد أن فقده. تابعا نحو

الجسر التالي الصغير الواصل بين طرفي الشارع. أحس بالانتعاش، واستعاد خطته السابقة بحذافيرها، لقد جاء دوره.

تلمس بأصابعه السكين المخبأة حول خصره، وجهزها ليلوح بها في وجه فاروط في اللحظة المناسبة. وتحمس لتعديل بسيط بعد انزياح الخطر عنه؛ عزم عقب تلويحه بالسكين على نغزه بها في بطنه، مهدداً ببعج كرشه. كان التعديل بحاجة إلى مجال، يتيح له إبداء بعض الحركات الاستعراضية التهديدية، تتعدى صعوبة إخراج السكين إلى تأمين مكان يتسع للتلويح بها على نحو مريح بعيداً عن الأنظار. لكن ماذا لو واتت فاروط الشجاعة وهجم عليه، عندئذ لا مفر من الاستغناء عن البعج، وذبحه بأقصى سرعة من الوريد إلى الوريد، قبل أن يصرخ مرعوباً ويطلب النجدة.

أدركته الدهشة، لماذا كل شيء قابل للحدوث ببساطة دون تعقيدات أو شعور بالتردد والوجل؟! تداعى السؤال في ذهنه. وتبعه آخر، كيف واتته الجرأة على التفكير بعمل كان بكل وضوح جريمة نكراء، بل وعلى استعداد لارتكابها باستهانة مفرطة وهمة عالية كأنه يجترح مأثرة عظيمة؟! أحس برهبة، هذه الأمور لا تُستسهل، أو تحدث بهذه البساطة المستحبة إلا في الروايات، وكأن ما تصوره رواية شكى فيها همومه، وأعلن فيها احتجاجه على ما أصابه من غبن كبير، قد عادت للعمل!!

اختل توازنه، الرواية عادت للعمل!! وزاد الطين بلة، إحساسه بحجمه يتضاءل إلى كلمة أو كلمتين، وأنه يمشي فوق السطور في مشهد من كلمات تتزاحم من حوله، يحاول إيجاد مخرج منها، الكلمات محسوبة بدقة، وقد تزلّ قدمه في فراغ بين كلمتين أو سطرين، فيهوي من حالق الرواية إلى درك الواقع ويدق عنقه. تمهل،

كان التأثير الروائي بالغ الحدة، حتى اعتقد أنه لا يزيد عن اسم في رواية؛ ولكي ينجو مما دهمه، أراد امتحان ما راوده بإشراك فاروط معه في بعض ما انطوت عليه تخيلاته من شطط. سيسأله طالما موقف واحد يجمعهما، فيما إذا كان مثله يحس بأنه في رواية. لكن السؤال سيكون خيالياً جداً، فتوخى أن يصوغه بتعبير تفرضه الجريمة التي سيرتكبها، وليس مفاهيم الرواية التي هما في داخلها، فسأله:

«هل تتقاطع الرواية مع الحياة؟».

استغرب فاروط السؤال وابتسم شزراً، فاضطر حامد إلى التوضيح:

«هل تتصور مثلاً أن ما يجري بيننا الآن، يجري في رواية؟».

«ما الذي تقوله؟ أضحكتني، قراءة الروايات أثرت فيك».

ربما لو خفض عيار الخيال، وأعطى لسؤاله طابعاً أدبياً، فقد يساعده:

«أنت تعلم أن الحياة لا تبخل على الرواية بالمادة الخام. ألا تقدم الرواية بالمقابل شيئاً للحياة؟».

«الكثير طبعاً، المتعة، الفائدة..».

لم يتابع ما كان فاروط يقوله، كان قد تلمس خطأه، كيف يفكر بأسلوب روائي، بينما هو واقف على الأرض؟! وما سؤاله إلا لأن الرواية تحتوي على واقع لا يمكن تجاوزه، بينما الواقع يحتوي على رواية لا يمكن تفاديها.

كان مأزقه قد اتخذ شكلاً روائياً مبسطاً متحرراً من القواعد والقيود، ولهذا لم يجد عسراً في تخطي عقبات أخلاقية وقانونية، واختلاق خيارات للقتل دون روادع، المطلوب منه فقط اعتماد

واحد منها للتنفيذ: خنقه، رفسه على خصيتيه، طعنه في قلبه... وكلها تروي الغليل!! فرصة لن يضيعها بعدما توافرت كلها، وأجازتها رواية تدفعه نحو نهاية مظفرة.

التفت نحوه مبعداً تدفق ومضات تنوعت بجاذبية وحشية، أراد التركيز على واحدة منها، لعدم جدوى تنفيذها على مراحل أو دفعة واحدة. فطلب منه أن يصعدا الجسر ليطلا من فوقه على شارع بيروت. لم يكن إصراره على رؤية المنظر من العالي، لجماله الأخاذ، بل لأنه كان مكاناً مناسباً للعمل، ويوفر طريقة ملائمة للتنفيذ؛ وما دامت السكين بمتناول يده، فسوف يجز عنقه بها؛ طريقة بشعة، لا بد أنها موجعة أكثر من غيرها.

توقف عند الدرج ولم يصعد، تراءى له أنه حتى لو كان المكان مثالياً، سيفتقد إلى الشجاعة، ولن يستطيع ذبحه!! مجرد ذكر الذبح أثار اشمئزازه، ماذا عندما سيلامس نصل السكين عنقه، وينبثق الدم مثل نافورة، ألن يفقد من جراء هذا المنظر البربري، القدرة على دفعها في العمق، ومن ثم المتابعة إلى الوريد الثاني؟ كانت العملية مقززة برمتها.

نبهه فاروط:

«أنا قادم لأسمع منك فكرة رائعة، لكنني لم أسمع شيئاً رائعاً حتى الآن».

«الفكرة التي قلتها لك مثيرة».

«بل مستهلكة، أن تصور نفسك بأنك مستهدف من أناس بلا أخلاق».

«الجدة فيها أنهم مثقفون».

«لكنه الموضوع نفسه، الخير والشر».

«لا تنس أنه صراع خالد، وموضوع متجدد على الدوام».

«بل فكرة سخيفة، طواها الأدب منذ زمن بعيد».

وافقه حامد على أنها فكرة مستهلكة نوعاً ما لكنها غير سخيفة، وجديرة بأن يجري التأكيد عليها بين الحين والحين، لأن الأشرار الأنذال في تزايد، بينما الأخيار الشرفاء إلى تناقص. وأراد أن يستفزه:

«ألا تعتقد بأن الروايات لديها أساليبها للاقتصاص والجزاء؟!».

خطر له هذا السؤال ليسهّل على نفسه الانتقام. وكان فاروط عند سوء ظنه وأجابه ساخراً:

«إذا كنت تعتقد بهذا، فلنر ما ستفعله. أما إذا كنت تسألني رأيي، فلا تعول عليها؟».

«في الحقيقة، ليست فكرة الخير والشر تلك التي أقصدها، ما زلت في التمهيد».

فقال فاروط بنفاد صبر:

«قل فكرتك، ما الذي تنتظره؟!».

لم يصرّ حامد على التمهيد، إلا ليثير مأساته ويهيج أحزانه، ربما حركت كوامن كراهيته وأججت أحقاده، وبعثت في نفسه العزم على القتل. لكنه غيّر رأيه، لم يعد التمهيد ضرورياً، وإن كان يعزز هدفه، ليصبح أكثر قدرة على اقتراف جريمة تحتاج إلى كراهية أكبر وأحقاد أكثر. وأخذ يفكر بتعديل جذري على الأسلوب الذي سيتبعه في قتل فاروط لينسجم مع المكان الذي سيصلان إليه.

بدأا بصعود الدرج، فاستعادت أعصاب حامد توترها، ولما تكن قد هدأت بعد. قال بصوت ممطوط، وكأن هناك من يسحب منه الكلام سحباً:

«الفكرة هي معرفة بطل الرواية، بأنه مقبل على الموت بيد أحدهم، سواء استمر في التعاون معه، أو أوقفه. واعتقاده جازماً بأنه بات على مسافة قريبة جداً من حتفه، وأنه مهما داور وناور، ليطيل حياته، فلا فائدة».

كانا قد اعتليا الجسر. نظر حواليه، أمامهما امتد شارع بيروت حتى ساحة الأمويين، وفي الجهة المعاكسة لاح الطريق إلى ساحة المرجة مظلماً.

قال فاروط، وماذا سوف يفعل؟

قال حامد، يقرر قتل خصمه.

كما توقع، المكان نفسه سيهديه إلى طريقة مختلفة، تتم بأقل قدر من العنف، ودون استعمال آلة حادة، حتى أن ملابسه لن تتطرش بدماء فاروط.

قال فاروط، لا تكمل، لماذا القتل دفعة واحدة؟ فكر بشيء آخر.

قال حامد، البطل لا يرغب في القتل، لكنه مضطر.

كان المنظر أمامهما هادئاً ولطيفاً.

قال فاروط، دعه يتأكد من نوايا الطرف الآخر.

قال حامد، المطلوب منه واضح، التعاون معه.

وكان المنظر يشجع على القتل.

قال فاروط، فليتعاون، عليه أن يحسن التصرف.

فقال حامد بصوت عميق، سيحسن التصرف ويقتله.

قال فاروط، ماذا قلت؟!

قرر، سيرميه من فوق الجسر.

قال حامد بعناد، سيسبقه ويقتله.

فقال فاروط مستغرباً عناده، لا تركب رأسك.

استدار نحوه وأصبحا وجهاً لوجه، فوجده مصرّاً على ركوب رأسه، وقبل أن يستغرب ثانية. كان حامد وبلمح البصر، قد انحنى وقبض على ساقي فاروط بقوة ورفعه، أسنده إلى الحاجز ودلّاه بسرعة البرق من فوق الجسر. بهت فاروط، لم يلحق أن يأتي بحركة، عندما وجد نفسه قد أصبح خلال أقل من لحظة معلقاً بين الأرض والسماء، فتخبط مذعوراً في الفضاء، لا يسقط ولا ينهض. ركبتاه تحت إبطي حامد، وجسده يلعبط، يجهد ليأخذ شهيقاً، أو يطلق زفيراً، على شفير الموت.

هل كانت لعبة؟! يزحطه حامد إلى الأمام، فيخيل إليه أنه سقط؛ ثم يشده إلى الخلف، فيرتفع بجذعه، ووجهه يتفزر هلعاً، يستنجده، يرجوه بصوت مجروح. يصدمه التصميم على ملامح حامد الذي يعيد الكرة. أخيراً وليس آخراً، دفعه بقوة ظن معها بأنه هوى إلى الأرض، فصرخ صرخة هائلة بحجم الفراغ، خرجت من حلقه تجرش مبحوحة. ثم سحبه حامد نحوه بشدة، فارتفع بجذعه، يصارع الهواء ويتسلقه لاهثاً. خمن أنها المرة الأخيرة، أراد أن يتوسله، فلم يلحق، انعقد لسانه من الرعب. أمارات القتل تجلت على وجه حامد، تظهر لامبالاته، ولا تخفي متعته الرهيبة بتسلية

راقت له، العبث به بإبقائه أقرب إلى الموت منه إلى الحياة. وهو على وشك أن يدليه ويشده ثانية، تريث، لماذا؟! اللعبة طالت، عليه أن يحزم أمره، هل يرميه أم لا يرميه؟ خطرت له الرواية؛ فحضرت ومعها النهاية. وفوجئ بقدرته على أن يختتمها على أحسن وجه، وباختصار بليغ... وقبل أن يغمى عليه من فرط الرعب، دفعه ليسقط من شاهق ليقع على أم رأسه، ويفطس لتوه.

في تلك اللحظة، سمع حركة صادرة من الدرج اليميني للجسر، التفت رأى رجلاً يتقدم نحوه!! كانت الرواية والنهاية قد تأجلتا، فيما الرجل الذي وصل ووقف على مقربة منه، بدأ يتكلم بوضوح وهدوء:

«هذا قرار رهيب، تمهّل في اتخاذه».

هل هذه مصادفة؟! قد تكون أو لا تكون، لم يستطع توصيفها بدقة. ربما أمدته الرواية التي ما زالت في ذهنه برجل ما، يظهر عادة في الروايات ذات الأجواء الغريبة، كأحد أبطالها الغامضين، ويحاول أن يغير مجرى الأحداث. أو قد يطلب منه بعد قليل طلباً آخر، فينكشف أمره، مجرد عابر سبيل هيأت له الأقدار أن يكون فاعل خير، جاء في وقت لم تعد هناك فائدة ترجى من قدومه.

40

المكان:
إنك في الواقع أيضاً

صدع حامد بما سأله إياه، لن يبت سريعاً مصيره. أنزل فاروط عن حاجز الجسر، وبقي ممسكاً به من ياقته. لم يصدق فاروط المذعور التحول الحاصل، بحيث عندما أفلته وأمره بأن يقرفص، استسلم تماماً، وقد اطمئن لوجود الرجل.

«دعه يذهب».

كاد حامد أن يسخر من الرجل الواثق من نفسه. لكنه أدرك، وهذا ما جعله لا ينصاع حتى لما خامره، أن هذا الرجل ليس عابر سبيل ولا مجهولاً، بل مألوف جداً بالنسبة إليه، وصلته به وثيقة، وإن كانت غير مكشوفة له الآن. وهذا ما عزز الشخصية الروائية لرجل يأتي من صلب مجريات رواية باتت تتقدم على الأرض، مؤكداً

بظهوره المفاجئ وتدخله المباشر، كما هو مفترض في مثل هذه الأحوال الملتبسة، التي قد يحدث فيها أي شيء غير متوقع، إصراره على منعه من ارتكاب جريمة، أو ليشككه بما هو مقدم عليه، حسناً فليكن... سيقنعه بما سيفعله، بعدها يقتل فاروط مرتاح الضمير.

«سأقول لك شيئاً» قال حامد.

«سأسمع منك، لكن أولاً أنبهك، وليس في تنبيهي جديد لك، لقد كنتَ مصيباً في الإحساس الذي راودك. أوافقك، أنت في رواية، ومن غرائب الأمور أنك في الواقع أيضاً. من الآن فصاعداً، عليك أن تتصرف بحذر، ما تفعله هنا ينعكس هناك، وبالعكس».

اعترته دوخة، لم تكن خفيفة بل صاعقة، ما أحس به كان صحيحاً. لكن ما الذي أدرى الرجل بتهيؤاته، وكأنما الحس الروائي ينتقل بالنظر أو بالهواء، إذ لا يمكن لشخص مهما كان خارقاً أن يعرف ما يدور في داخله!! لا ليس وحده من مجانين الروايات، هناك آخر مثله. إلا إذا كان هذا الموقف الذي يُحسد عليه من فرط غرابته، موقفاً اختلقه برمته، لكن الرجل لم يكن مختلقاً، ولا يبدو عليه أنه يمزح، كان جاداً ويعرف عن ماذا يتحدث، وربما وهو الأقرب، أنه يقرأ الأفكار.

«دعني أستوعب ما قلته لي».

لم يكن بالهيّن على الإطلاق أن يفكر في هذا المنحى، فأن يتخيل أنه في روايةٍ شيء، وأن يكون في روايةٍ فعلاً شيء آخر؛ ما هوّن الخبر عليه هو أنه ما زال في الواقع أيضاً. وانتابه سرور خفي لأنه حظي بوجود مزدوج، لم يحاول تفسيره ولا التأكد منه، ما الضير في التحرك على مستويين؟!

«سأساعدك، لقد وقعتَ في شرك رواية قد تظنها مسلية أو محزنة، الأمر سيان، لا تجعلها مقامرة، قاومها، نتائجها ستكون مريعة، وتسيء إلى قضيتك، إذا كنت تعتقد بأن لديك قضية، إلا إذا كنت تريد قتله لمجرد أنه يريد قتلك».

«لا تعقّد الأمر، ببساطة، لقد عشت أحداثاً أشبه برواية، فتمنيت أن أكتبها، ويبدو أنني تورطت في التمني. حتى حصل هذا التداخل. وكما أرى أنت تحاول أن تستثمر حالتي لأمور أخرى، لا أعرف لماذا؟! لن أطيل في الكلام. ولندع كل ما عدا ذلك معلقاً. لقد توصلت إلى حقيقة تملي عليَّ القتل، ولدي من الأسباب الكثير».

«حقيقة؟!».

«حقيقة روائية. أقصد أنه ليس من الضروري التقيد بالواقع... أنا كما اتفقنا في رواية».

«هذا لا يسوغ شيئاً، لا سيما أنك ستخلف وراءك على أرض الواقع لا الخيال، جثة محطمة الرأس والأضلاع».

«أنا في حالة دفاع عن النفس، إن لم أقتله اليوم، فسوف يقتلني غداً».

«لو أنك سألتني من أين أنا قادم، لوفرت على نفسك نقاشاً غير مجدٍ».

تردد حامد، لماذا يسأله؟! لو سأله ربما خسر الحقيقة الروائية التي توصل إليها. كان الرجل يتحداه. فقال له:

«من أين أنت قادم؟!».

«من الواقع».

عاودته الدوخة، ليس لأن الرجل قادم من مكان مفروغ منه، بل لافتراضه أنه يقف في الجانب المعاكس له، فعاجله بانزعاج:

«هل أنا على الطرف المضاد؟».

ابتسم الرجل:

«بوسعك اختيار المكان الذي تريده».

إذاً ما زال واقفاً في المكانين معاً، فسأله قبل أن يختار أحدهما:

«هل يتسع الواقع لوضع حقيقة روائية موضع التنفيذ؟».

«ليس هذا سؤال يُسأل، مهما كانت الحقائق، روائية أم غير روائية، موثوقة أو صادقة، ينبغي أحياناً نكرانها، وعدم الانصياع لها».

استدار الرجل وهمَّ بالسير، ثم التفت وكأنه تذكر شيئاً:

«ألا ترغب في معرفة من أنا؟».

أحس برغبة جارفة في معرفته، لكنه أدرك بأن الرجل لا يشجعه على هذا السؤال، بل يلمح إليه، مهدداً به، لو أنه عرف فقد ينتهي هذا الموقف بمهزلة مرعبة. فرد عليه بحزم:

«لا».

«أحسنت».

أنجز الرجل مهمته، وبخطى بطيئة عاد الهوينى نحو الدرج.

لم يصحُ إلا عندما سمع وقع أقدام تتسارع، التفت فرأى فاروط ينطلق هارباً. لم يفكر لحظة واحدة باللحاق به. فكر، لقد تخلصت منه. وتنهد بارتياح، الواقع عاد إلى العمل.



لم يصدم من أنه كان قبل لحظات، هنا فوق هذا الجسر على عتبة جريمة، ونهاية شائقة أو شقية، كانت هاوية على بعد أمتار. لا يمكن الوثوق بالرواية، مهما كانت متفائلة، ولا بالخيال، ربما كان مخادعاً؛ كلاهما مخيب ومشجع. صحيح أنه لم يعدم الجرأة، لكن سرعان ما تتداعى الإثارة إلى واقع بشع، وتتهتك الطيوف الخلابة إلى دبق مقرف. ومع هذا أحس بأنه فعل شيئاً لا بأس به في لحظة اختيار لم تمهله طويلاً، ولم تمنحه الوقت الكافي. لم تكن نجاته مصادفة ولا اعتباطاً، كانت حقيقية وحاسمة، وربما كانت نهاية سعيدة في وقت كادت أن تكون خاتمة فصل من رواية عقيمة، تشده إلى حيث لا يريد ولا يرغب؛ رواية كانت في منتهى السوء، وأصبحت في منتهى التبصر.

لا، لم يخسر، ولا يريد شيئاً لنفسه، فقط القليل من الراحة لا المهادنة. ما دام قد اختار الرواية، فقد اتخذ مكاناً له على جبهة الواقع، ويعرف طالما الخيال رائده أن ثمة فسحة للذهاب بعيداً، وللتحليق عالياً في فضاء يحفل بالمزيد من القصص الهائمة على وجهها، والمغلوبة على أمرها، وتنتظر من يكتبها، كما ينبغي أن تكتب، بحرص وقوة ونبل وجمال. أما لماذا الرواية؟ فلأن الضمير لا زمان له، وأن كل رواية، كالحياة فرصة لا تتكرر. وبالوسع دائماً كتابة رواية رائعة، قد تكون عظيمة، دون تنازلات أو مساومات. والإيمان بأن للكاتب كرامة، ينبغي ألا يستهين بها الكاتب نفسه، إنها السند الوحيد إزاء حياة بلا معنى ولا هدف، ومن الحقارة السكوت على عالم يبيح كل هذا الظلم لهذا السبب.

توجه بنظره إلى الأفق، الأضواء تغطي جبل قاسيون، تشعّ بأنوار تنطلق كسهام متعرجة، ملونة وساطعة، تشق الفضاء، وتفجر صفحة

الظلام الساحر بآلاف الروايات. فكر بأن هناك في المناطق الأخرى والبلاد الأخرى، تلك التي لا يراها ولا يعرفها، ملايين الأضواء وملايين البشر وملايين الروايات.

يجيل النظر من حوله، هنا على الجسر، وهناك على تلك الطرق الممتدة نحو النور، كان المكان يتسع لآلاف الروائيين قد أشرع كل منهم قلماً بيد ورواية باليد الأخرى. أحس بنفسه سعيداً، واحداً منهم، أعزل مثلهم، يقاوم ويعاني مثلهم، ومعرضاً مثلهم للتنكيل والسخرية. لا، ليس وحيداً. ما دام معهم، واقفاً بينهم، فلن ييأس ولن ييئس، أكثر مما هو بائس ويائس.

أخذ نفَساً حاراً من ليل بات آسراً وفي منتهى الجمال، ومنيراً من دون نجوم. كان نبعاً من الصفاء، وآية في الروعة.

المؤلف

ولد في دمشق.

حصل على إجازة في الحقوق من الجامعة السورية.

تنقل بين عدة أعمال لفترات بدت أنها مؤقتة لكنها امتدت إلى سنوات طويلة.

قبل سنوات تفرغ كلية للعمل الروائي.

صدر له:

موزاييك «دمشق ٣٩»، رواية، دار الأهالي، ط١، ١٩٩١، ط٢، دار التكوين ٢٠٠٧.

تياترو «١٩٤٩»، رواية، إصدار خاص، ط١، ١٩٩٤، ط٢، دار التكوين ٢٠٠٧.

الرسالة الأخيرة، قصص، وزارة الثقافة، ط١، ١٩٩٤، ط٢، دار

التكوين ٢٠٠٧.

صورة الروائي، رواية، دار عطية، ط ١، ١٩٩٨، ط٢، دار التكوين ٢٠٠٧.

الولد الجاهل، رواية، دار الكنوز الأدبية، ط١، ٢٠٠٠، ط٢، دار التكوين ٢٠٠٧.

الضغينة والهوى، رواية، دار كنعان، ٢٠٠١ ـ طبعة ثانية، ٢٠٠٤.

مرسال الغرام، رواية، دار الريّس، ٢٠٠٤.

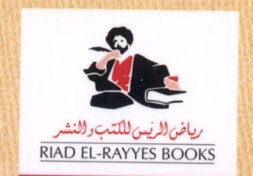
مشهد عابر، رياض الريّس للكتب والنشر، ٢٠٠٧.

المترجم الخائن

فوّاز حدّاد

«سيشق أمامها دروباً مثيرة في الحياة والشعر معاً، ويعيد استيلاد كل ما اسقطته من أحلام، وما استبعدته من آمال، ويعلمها ثانية، الضجر وأحلام اليقظة والتسكع واللهو، وكل ما كانت تظنه سفاهات وحماقات معيبة وتفاهات بلا قيمة. لن يغفل التفاصيل الصغيرة ولا الأفكار الكبيرة، ويدلها كيف تجرب المشاعر العنيفة والإحساسات الخطرة، بكل أمان، بواسطة مكابدات ذهنية، فعاشت التعاسة من غير تعاسة، والسعادة بلا سعادة، والحرمان بلا حرمان، والشبق بلا شبق. عالم بديل ورائع، كل شيء فيه متاح ومباح ومستباح؛ بمتناول اليدين والإدراك والفهم... والانتهاك وستظن أنها وصلت إلى نهايات عالم أدركت أعماقه وتبينت أغراضه. ولم يطل الوقت على الدرس الذي ستتعلمه وحدها، لتدرك أن أي تماس أو تجاذب مهما كان عميقاً لا يعني شيئاً، الا بما يثيره من شحنات انفعالية حقيقية. انفعالاتها لم تكن أكثر من تهيؤات واختلاقات، أو... عدوى».

من الكتاب




ISBN 9953-21-330-5
9 789953 213309